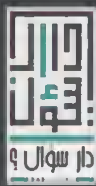
فيودور دوستويفسكي

الرَّسائِل

I

ترجمة: خيري الضامن



رسائل دوستويفسكي

الجزء الأول

ترجمة

خيري الضامن



رسائل دوستويفسكي

رسائل دوستويفسكي

Федор Михайлович Достоевский
Том 15. Письма 1834-1881

تنشر في مجلدين بدعم معهد الترجمة في روسيا الاتحادية



الطبعة الأولى، 2017
عدد الصفحات: 480
القياس: 14.5 × 21.5

دار سؤال للنشر
لبنان - بيروت
الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس
ص.ب: 58-360-11
هاتف: 740437 1 00961

 www.darsoual.com
 @darsouall2014
 dar_souaal@outlook.com
 Dar Soual

ISBN: 978-614-8020-36-0

تصميم الغلاف: محمد النبهان
زيتية الغلاف للرسام الروسي فاسيلي بيروف (1834-1882)

أهم رسائل
الفترة 1834-1881

مترجمة عن الأصل الروسي



أولاً:

ما قبل «الفقراء» (1846)[*]

(*) التبويب التقريبي، وكذلك ترقيم الرسائل، خاص بطبعة دار سؤال.



1. إلى ماريا دوستويفسكايا[1]

موسكو، أواخر أبريل- أوائل مايو 1834

والدتي العزيزة!

عندما سافرتِ من طرفنا، يا والدتي الحبيبة، شعرتُ بملل بالغ، وما إنْ أتذكرك، يا والدتي الحنون، حتى تنهال عليَّ أحزان لا أقوى على الفكاك منها. ليتك تعلمين ما أشد تشوقي لرؤيتك وما أقل صبري على انتظار اللحظة التي سأراك فيها من جديد. كلما أتذكرك أبتهل إلى اللّه أن يمنحك موفور الصحة والعافية. أخبرينا يا والدتي العزيزة هل وصلتِ بسلام؟ قبِّلي أندريه وفيرا نيابة عني.

أقبِّل يديك وسأظل دوماً ابنك البار[2].

ف. دوستويفسكي

---

(1) والدة الكاتب توفيت في سن مبكرة (1800-1837).

(2) كتب دوستويفسكي هذه الرسالة وهو في الثانية عشرة من العمر.

2. إلى ماريا دوستويفسكايا

موسكو، 9 مايو 1835

الوالدة العزيزة!

للمرة الثالثة نبلغكم تحريرياً أننا بخير وبصحة جيدة والحمد للّه. واليوم، الخميس، أخذنا الوالد إلى البيت بمناسبة العيد، وها نحن معاً، من دونك يا أمنا الحنون. وللأسف أننا سنبقى مفترقين عنك أمداً طويلاً، ونأمل أن يمضي الوقت سريعاً إن شاء اللّه. الطقس عندنا سيّئ للغاية، وأظن أنه عندكم أيضاً بنفس السوء وأعتقد أنك لا تتمتعين بالربيع، فما أسوأ أن يكون المرء في الريف عندما تعتكر الأحوال الجوية. كما أعتقد أن فيرا ونيكولاي يشعران بضجر أكبر، وأن نيكولاي لا يمارس لعبة الحصن كما كان يفعل معي أحياناً. نحن نشفق كثيراً على أليونا فرولوفنا المسكينة، فهي تعاني الكثير وستلقى حتفها من السل الذي يلاحقها.(1)

مع السلامة يا ماما. في انتظار فرصة اللقاء القريب. ولداك المطيعان

فيودور وأندريه دوستويفسكي



والدة دوستويفسكي

---

(1) أليونا فرولوفنا كريوكوفا مربية العائلة، وهي امرأة طيبة، بدينة وبصحة جيدة. والكلام عنها هنا جاء على سبيل المزاح.

3. إلى ماريا دوستويفسكايا

موسكو، 26 مايو 1835

الوالدة الحبيبة!

يسرّني جداً أنك في صحة جيدة بمشيئة العلي القدير. نحن نقضي هذين اليومين، يوم الثالوث ويوم الروح القدس، في البيت مع الوالد العزيز. الطقس عندنا كما هو عندكم باعتقادي متقلب كل هذه الأيام. إلا أن هذا السبت رائع رغم تساقط المطر، فقد بات الجو نقياً صافياً بل ورائعاً في الليل. ولا أظن أن هذا المطر قد فاتكم، فهو ليس مقيداً أو محدوداً. امتحاننا سيتم، كما في العام الماضي، أواخر يونيو، ولذا لا أمل في رؤيتك في القريب العاجل. تقولين إن الأطفال يمرحون حتى أن بدن نيكولاي اكتنز، أليس الطقس هو الأفضل الآن؟ وبالتالي يمكنه أن يتمتع به في الهواء الطلق. قبّليهم نيابة عني وقولي لهم أن يتحلوا بالفطنة والرشاد، وبلّغيهم أننا سنعود إليهم في القريب العاجل. وداعاً يا أمنا العزيزة، ليس عندي ما أكتبه أكثر.

نبقى ولديك المخلصَين

فيودور وأندريه دوستويفسكي

4. إلى ميخائيل دوستويفسكي (الأب)[1]

بطرسبورغ، 23 يوليو 1837

الوالد المحترم!

اليوم سبت، ولدينا، والحمد للّه، فرصة تحرير بضعة سطور إليك، وفيما عدا ذلك نحن مشغولان طول الوقت. سبتمبر يقترب وتقترب معه الامتحانات، وليس بوسعنا أن نضيع ولا دقيقة خلال الأسبوع. في السبت والأحد فقط نتفرغ، بمعنى أن كوروناد فيليبوفيتش لم يكلفنا بواجب بيتي في هذين اليومين، وبالتالي تمكنّا أن نجد وقتاً للتحدث إليك تحريرياً.

الرياضيات والعلوم تتلاحق علينا الآن، وكذلك التحصينات والمدفعية. وفي الآحاد وأيام السبت نرسم المخططات البيانية. كل يوم تقريباً يقوم كوروناد فيليبوفيتش بتدريس الجميع، ويدرّسنا نحن الاثنين خصيصاً لأننا الوحيدان من بين جميع تلاميذه الراغبان في دخول الصف الثاني، بينما الباقون يريدون دخول صف أوطأ. المعلم كوروناد يعلق آماله علينا أكثر من باقي التلاميذ الثمانية الذين يشرف على إعدادهم. وقريباً سندرس شؤون الجبهة على يد ضابط صف

استدعاه كوروناد لهذا الغرض وسنظل ندرسها لحين موعد الالتحاق، أي حتى شهر ديسمبر. دروس الجبهة تحظى باهتمام بالغ، وحتى إذا تضلع التلميذ في كل المواد يمكن أن ينسبوه إلى الصفوف الأوطأ بسبب درس الجبهة. علماً بأن ذلك يجعلنا نفوز في أنظار معالي ميخائيل بافلوفيتش، فهو متيَّم بالنظام. وهكذا يمكنك أن تقدر مدى دراستنا لهذه المادة، رغم أن الجميع، بعد امتحان سبتمبر، يجب أن يترددوا على الحصن الهندسي ليتعلموا شؤون الجبهة. فهل نحقق شيئاً؟ حسبنا اللّه ونعم الوكيل. سوف نبذل قصارى جهدنا.

حالياً يجري عندكم في الريف جني محصول القمح، ونحن نعرف أن هذا هو العمل المحبب لديكم. لكننا لا نعرف حجم المحصول في طرفكم، ولا نعرف أحوال الطقس عندكم. وفيما يخص طقس بطرسبورغ فهو في منتهى الروعة، كما في إيطاليا. لم نلتق شيدلوفسكي بعد، ولم نبلغه تحياتك بالطبع.

هل يفعل إخوتنا وأخواتنا شيئاً في القرية؟ لا بد أنهم شبعوا من اللهو والتراكض، وتمتعوا بطعم الثمار، واسمرّت بشرتهم ووجوههم. نعتقد أن ساشا (ألكساندرا) قد ترعرعت كثيراً. والهواء المنعش مفيد لها. فاريا (بربارة) ربما تقوم ببعض الأشغال اليدوية. وأكيد أنها لا تنسى دراسة العلوم ومطالعة مدوّنة كارامزين عن «تاريخ روسيا». لقد وعدتنا بقراءة الكتاب.

أما أندريه فلعله، وسط مباهج القرية، لا ينسى التاريخ الذي كان يتوانى أحياناً في الاطلاع عليه. ونظن أنك ستأخذه في الخريف إلى موسكو ليتعلم على يد تشيرماك. وهكذا ستبقى أمداً طويلاً مهتماً بتربية أولادك، فنحن كثيرون . فاحكم بنفسك على مدى ابتهالنا



والد دوستويفسكي

للخالق كي يصون صحتك الغالية. قبلاتنا إلى جميع الإخوة والأخوات.

مع أسمى آيات الاحترام والإخلاص والمودة من ولديك المحبين

ميخائيل وفيودور دوستويفسكي

---

(1) رسائل دوستويفسكي وأشقائه المشتركة إلى والدهم الطبيب العسكري المتقاعد ميخائيل أندريفيتش دوستويفسكي (1788-1839) ثمان، ثلاث منها بخط الكاتب وخمس بخط أخيه ميخائيل. كانت العلاقة متوترة بين الكاتب ووالده الذي مات مقتولاً على يد فلاحيه الأقنان، حسب رواية غير موثقة.

5. إلى ميخائيل دوستويفسكي (الأب)

بطرسبورغ، 6 سبتمبر 1837

الوالد الكريم!

لم نكتب لك من زمان، ولعل صمتنا الطويل يقلقك كثيراً، وخصوصاً في مثل هذه الملابسات. وجدنا الآن فقط فرصة إبلاغك بمشغوليتنا العالية. فالامتحان قريب. والوظائف الدراسية المتواصلة، كل ذلك يربكنا أشد الإرباك.

في الأول من سبتمبر، كما أعلن في منهاج ثانوية الهندسة، تعيَّن علينا أن نتوجه إلى الحصن. وقد وصلنا جميعاً في الموعد المحدد وقدَّمنا كوروناد فيليبوفيتش إلى المفتش لومنوفسكي والجنرال شارنغورست آمر ثانوية الهندسة. كانت معاملة الجنرال للجميع لطيفة حميمة، وقد أمرنا بالاستعداد، لأنهم سيدعوننا كثيراً إلى ثانوية الهندسة. فما أشد ضجرنا. الآن وصلت قصاصة من الجنرال إلى كوروناد يدعوه فيها لمرافقتنا جميعاً إلى الثانوية. ولا أدري لماذا. ربما لتقييم التأهيل. ذلك لأن الجنرال أمر بأن يجلب التلاميذ شهادات الدراسة في المدارس السابقة. وأخيراً، بعد العناء، حل

موعد الامتحان الرئيسي المقرر في الخامس عشر من الشهر. مجموع المرشحين 45. ونحن مسرورون جداً لقلة العدد. في العام الفائت كان عددهم 120، وفي الأعوام التي قبله كان 150 وأكثر. تلاميذ كوستوماروف في المقدمة دوماً. فما الذي سيحصل الآن والعدد قليل؟ صحيح أن التشكيلة المطلوبة هي 25. ولكننا نظن أنهم سيرفضون الكثيرين من المرشحين، لأن الجميع، على ما يبدو، أدمغة فارغة، وكلهم يريدون الصف الرابع. يبدو أنهم يخشون كثيراً تلاميذ كوستوماروف. وذلك دليل على الاحترام لنا. فما الذي سيحصل على أية حال؟

مرّت فترة ولم نحصل نحن أيضاً على علم وخبر من طرفكم. لكننا لا نجرؤ على تكليفكم أكثر مما تستطيعون نظراً لانشغالكم. ستصلكم هذه الرسالة في الوقت الذي يتقرر فيه مصيرنا، عندما يتعيَّن أداء الامتحان الحقيقي. وفي الرسالة القادمة سنحاول إبلاغكم بكل التفاصيل. أما الآن فقد تزايدت دروسنا ثلاث مرات. الوقت نفسه عاجز عن اللحاق بنا. والكتاب جليسنا دوماً. نحن ننتظر الامتحان على أحر من الجمر. والآن أكتب لكم على ظهر خرائط البريد. ولكن ما أكثر العمل بعد الرسالة. لم أصرف سوى ربع ساعة في كتابتها لكم. وأضيف أننا اضطررنا لشراء قبّعتين جديدتين لمناسبة الامتحان وأنفقنا عليهما 14 روبلاً.[1] لم نتمكن من مقابلة شيدلوفسكي أمداً طويلاً. والتقيناه الآن فقط في كاتدرائية قازان. كنا نطمح إلى لقائه من زمان، وخصوصاً قبيل الامتحان. وهو مع كوروناد يخصّانك بالسلام. إلى اللقاء في الرسالة القادمة.

يشرفنا أن نبقى دوماً ولديك المحبَّين

ميخائيل وفيودور دوستويفسكي

(1) كان سعر صرف الروبل الروسي في ستينات القرن العشرين 63 سنتاً، فيما تجاوز سعر صرف الدولار الأميركي في العام 2016 م 75 روبلاً.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

6. إلى ميخائيل دوستويفسكي (الأب)

بطرسبورغ، 4 فبراير 1838

والدي الفاضل!

أخيراً تم قبولي في ثانوية الهندسة الرئيسية، فارتديت البزة ونسبت بالتمام والكمال إلى الخدمة القيصرية. ووجدت بشهق الأنفس لحظة فراغ من الدروس والتطبيقات والخدمة، وهي لحظة ثمينة أستطيع أن أتحدث إليك فيها ولو تحريرياً يا والدي الكريم. فكم مضى من الوقت دون أن أكتب إليك؟ عندما سمعت في لقائي الأخير مع أخي أنك غاضب عليَّ بسبب ذلك رغبت أشد الرغبة في تصحيح خطأي رغم أنني لا ذنب لي فيه. وفي هذه الأثناء استلمت رسالتك، ويصعب عليَّ أن أجد ما أقارن به حبك لنا، فالكلمات تعجز عن وصفه. لقد بعثت لي، يا والدي العزيز، رسالة دون أن تعرف حتى عنواني، بينما لم أكتب أنا ولا سطراً واحداً طوال أكثر من شهر، وذلك لسبب واحد هو أنني لم أجد لحظة فراغ. تصور أننا منذ الصباح الباكر وحتى المساء في الصف لا نكاد نلحق بالمحاضرات. وبعد ذلك لا وقت لنا، بل ولا دقيقة لنتابع جيداً ونستوعب في أوقات الراحة ما استمعنا إليه في

الصف أثناء محاضرات النهار. يرسلوننا لممارسة التدريبات الجبهوية، ويقومون بتدريسنا المبارزة والرقص والإنشاد، ولا أحد منا يتجرأ على التغيب عنها. وإلى ذلك يكلفوننا بالخفارة والمناوبة التي تشغل كل أوقاتنا. ولكنني عندما استلمت رسالتك تركت كل شيء لأعجل في الجواب عليها يا والدي الكريم. أنا والحمد للّه بدأت أتعوّد على الحياة هنا. وليس بمقدوري أن أمتدح الزملاء. رأي الرؤساء والآمرين بخصوصي جيد جداً على ما أعتقد. ولدينا مفتش جديد للصفوف. فالمفتش السابق لومنوفسكي أخلى موقعه للبارون دالفيتس. ولا بد أن يحدث تغير. فيما كان المفتش السابق راضياً عني. وكنت أستلم 50 روبلاً. وهي الآن عند شقيقي. ما أعظم شكري لك يا والدي. فأنا بحاجة إليها حقاً لأسارع في اقتناء كل ما أحتاج إليه. في الآحاد والعطل الأخرى لا أغادر إلى أي مكان، لأن أحداً من الأهل ينبغي أن يوقّع تعهداً خطياً بأنه يأخذني إلى البيت. وما دمتُ لا أمتلك الوسيلة للاتصال بأخي فلم أتمكن من قراءة رسائلك الأخيرة. مرة واحدة فقط طلبت مقابلة كوستوماروف وعلمت بالخبر السار جداً بشأن قبول أخي في كلية الهندسة العسكرية. لقد تحققت والحمد للّه أمنيتنا القديمة المشتركة، فوجد شقيقنا سبيله القويم في آخر الأمر. ونأمل الآن أن يسير كل شيء بشكل أفضل. في رسالتك إليّ كنتَ على أية حال لا تزال تشكك في ذلك. إلا أن تلك قضية محسومة لم يعد فيها مجال للجدال. وكان بالإمكان دوماً انتظار هذه الخاتمة لولا كوستوماروف الذي مارس التسويف وحاول إرجاء النتيجة ليحتفظ بشقيقي لديه أمداً أطول حتى يمتص منا الـ 300 روبل بكل خسة. ولعلك تعلم من رسائل شقيقي الأخيرة أن كوستوماروف قدم نفسه لجنراليه المرتقبين- هيروا وتروسون. وقد استقبلاه بمنتهى اللطف بوصفه قد باشر الخدمة،

وبالتالي فإن هذا القرار لا ريب فيه ولم يبقَ ما يستحق الشك والارتياب. كما وعد تروسون بأنه سيتشفع لأخي بخصوص التعيين في سلك الضباط ، ونأمل أن يفي بوعده. قبل فترة عرفت أن الجنرال حاول بعد الامتحان أن يوظف أربعة من المنتسبين الجدد على حساب الدولة بالإضافة إلى المرشح الذي تقدم به كوستوماروف، وبذلك سد الشاغر الذي كنت أنا أنتظره. فهل هناك خسة أكثر من هذه؟ لقد صعقني هذا الأمر. فنحن الذين نعيش على آخر روبل ملزمون بأن ندفع، فيما يُقبَل الآخرون من أبناء الأثرياء مجاناً. حسبي اللّه ونعم الوكيل. تسألني يا والدي عما إذا كنت بحاجة إلى شيء. انا الآن لست بحاجة. ملابسي الداخلية وبزتي عند شقيقي، وأنا أنتظر بفارغ الصبر اكتمال تنسيبه. وسنكون، على الأقل، أكثر تقارباً. وداعاً يا والدي العزيز متمنياً لك كل خير من العلي العظيم.

يشرفني أن أبقى ولدك البار المطيع.

فيودور دوستويفسكي

ملحوظة: يقال إن شقيقي سيقيم قرابة أسبوعين في القلعة قبل دخول حصن الهندسة.

بخصوص القرار الجديد الذي كتبت لي عنه لا موجب للقلق. نحن لم نسمع به. وليست له مبررات كافية، إنه شائعة فارغة لا أكثر.

قبّل جميع إخوتي وأخواتي بالنيابة عني. وسنلتقي في وقت ما. أندريه لم يكتب لنا حتى الآن ولا نصف سطر.

طلبتَ مني أن أبعث عنوان شيدلوفسكي، إلا أنه يغادر بطرسبورغ إلى كورسك مؤقتاً لزيارة أهله. ولربما تستطيع مقابلته في موسكو. وهو يمكن أن يجدك بنفسه عن طريق عائلة كومانين.

7. إلى ميخائيل ميخائيلوفيتش دوستويفسكي (شقيق الكاتب)

بطرسبورغ، 9 أغسطس 1838

أخي!

ما أشد دهشتي لرسالتك، يا أخي العزيز. فهل يعقل أنك لم تستلم مني ولا كلمة، فيما بعثت إليك من لحظة سفرك ثلاث رسائل، الأولى بعد رحيلك مباشرة، والثانية لم أتمكن من إرسالها في الحال لعدم توفر قيمة طابع البريد (لم يكن لدي ولا كوبيك واحد، ولم أستلم من عائلة ميركولوف). استمر الحال هكذا إلى العشرين من يوليو حيث استلمت من الوالد 40 روبلاً، وأخيراً الرسالة الثالثة. وبالتالي لا يمكنك أن تتباهى بأنك لم تنسني وبأنك كتبت إليَّ أكثر. والحقيقة أني أنا أيضاً كنت متقيداً دوماً بكلمة الشرف. صحيح أنني كسول، كسول جداً. ولكن ماذا عليّ أن أفعل ولم يبقَ لي في الدنيا سوى شيء واحد هو أن أستمتع بالكيف دوماً؟ ولا أدري هل ستخفت يوماً أفكاري الحزينة؟ الشيء الوحيد الذي هو من نصيب الإنسان أن يتحكم بأحواله. جوه الروحي يقوم على اندماج السماء والأرض. قانون الطبيعة الروحي يتعرض للانتهاك على يد الإنسان، ذلك الطفل



شقيق دوستويفسكي (ميخائيل)

المتطاول على السنن والقوانين... يخيل إليَّ أن عالمنا هو مطهر أو أعراف جهنم للأرواح السماوية التي تشوشت أذهانها بخطيئة التفكير. وأظن أن عالمنا بات مرادفاً للمعنى السلبي، ولذا تحول الصفاء الروحي الأنيق السامي إلى سخرية وتهكم. وإذا ولج هذه اللوحة شخص لا يؤمن بهذا التأثير ولا يفكر هذا التفكير، شخص غريب لا علاقة له بالموضوع على أية حال... فماذا تكون النتيجة؟ تتفكك اللوحة ولن تدوم.

ولكن ما أفظع أن تقتصر الرؤية على الغلاف الخشن الجاسئ الذي يلفع الكون المتعب. ما أفظع أن يعرف المرء بأن انفجاراً واحداً لإرادته يكفي لتمزيق ذلك الغلاف وملاقاة الأبدية كآخر مخلوق في هذا الكون... ما أشد وضاعة الإنسان! وأنت يا هاملت؟! آهٍ يا هاملت! عندما أتذكر هذه الخطب الطنانة الوحشية التي يتعالى فيها أنين عالمنا

الحائر لا ينقبض صدري حزناً أو تذمراً أو ملامة. فالروح منسحقة تحت وطأة الأحزان لدرجة تخشى فيها استيعابها وفهمها، وبخلاف ذلك ستمزق نفسها بنفسها. ذات مرة قال باسكال: من يعترض على الفلسفة هو نفسه فيلسوف. تلك فلسفة بائسة! لا مؤاخذة، لقد تماديت في الثرثرة. من بين رسائلك استلمت رسالتين فقط (إضافة إلى الأخيرة). ولكنك، يا أخي، تشكو من الفقر، فماذا عساي أن أقول؟ أنا نفسي لست غنياً. هل تصدق بأنني خلال خروجنا من المعسكرات لم أكن أمتلك ولا كوبيكاً واحداً حتى أنني مرضت بسبب الاستبراد في الطريق (المطر ظل يتساقط طول النهار وكنا تحت رحمته مكشوفين)، وليس لدي ما أسد به رمقي من الجوع أو أبلل حنجرتي بجرعة شاي. ولكنني تماثلت للشفاء وظلت أوضاعي مزرية في المعسكر إلى أبعد الحدود حتى استلمت من الوالد النقود. فسددت ديوني واحتفظت بالباقي. إلا أن توصيف حالتك يفوق التصور. فهل يستطيع من لا يملك خمسة كوبيكات ويقتات على ما لا يعرفه إلا الله أن يمتع أنظاره التواقة بحلاوة الثمار الزاهية التي كنت دوماً ترغب فيها أشد الرغبة؟ ما أعظم إشفاقي لك وعليك. وإذا سألتني عن عائلة ميركوروف وعما حصل لنقودك أقول لك إن ما حصل هو التالي: زرتهم عدة مرات بعد رحيلك. ثم عجزت عن زيارتهم لأنني أمضيت فترة الجزاء. وعندما دعت الحاجة بعثت لهم رسولاً، لكنه جلب لي مبلغاً زهيداً جعلني أشعر بالخجل من مطالبتهم. وبعد ذلك استلمت منك على عنواني رسالة موجهة إليهم. ولم يكن لدي ثمن طابع البريد فطلبت منهم أن يضعوا رسالتي مع رسالتهم، وأنت لم تستلم شيئاً. يبدو أنهم لم يكتبوا إليك. قبيل المعسكرات، ولأني لا أمتلك نقوداً لأبعث إلى الوالد الرسالة التي كتبتها له من زمان، طلبت منهم أن يبعثوا لي أي شيء.

فأرسلوا كل حاجياتنا من دون كوبيك واحد، ولم يردّوا على رسالتي. وكنت ساعتها كأبي الجنيب في سبخة غاض ماؤها. واستنتجت من هذا الموقف أنهم يريدون التخلص من طلباتنا اللجوجة. ورغبت في توضيح الأمور برسالة إليهم ، لكنني أقضي فترة ما بعد المعسكر، فيما غيروا هم مكان إقامتهم. أعرف الدار التي استأجروا شقة فيها، لكنني لا أعرف العنوان. وسأبلغك به فيما بعد. إلا أن الوقت قد حان من زمان لتغيير موضوع الحديث. أنت تتباهى بمطالعة العديد من الكتب. . . لكنني أرجوك أن لا تتصور بأني أحسدك. أنا نفسي طالعت في بيترهوف[1] ما لا يقل عما قرأته أنت من كُتُب. طالعت هوفمان كله بالروسية والألمانية (أقصد رواية «القط مور» غير المترجمة)، وكل مؤلفات بلزاك تقريباً (بلزاك كاتب عظيم! شخوصه نتاجات للفكر الكوني! ليس روح العصر، بل آلاف السنين هي التي مهدت، بتصارعها، التربة اللازمة لحل العقدة الدراماتيكية في روح الإنسان)، و«فاوست» غوته وقصائده القصيرة و«تاريخ» بوليفوي و«الكونت أوغولينو» و«أوندينا» (سأكتب لك شيئاً فيما بعد عن «أوغولينو»)، وكذلك فيكتور هيغو ما عدا «كرومويل» و«هيرناني». والآن وداعاً. اكتبْ لي، اعمل معروفاً ليهدأ بالي، فاكتب أكثر على قدر الإمكان. وابعث لي رداً عاجلاً على هذه الرسالة. آمل أن أستلم جوابك في غضون 12 يوماً. هذا أبعد موعد. اكتبْ لي وإلا سأتعذب.

أخوك ف. دوستويفسكي

ملحوظة: عندي مشروع. أريد أن أتقمص سربال المجنون. فلينشغل الآخرون في علاجي وتحويلي إلى عاقل. ما دمتَ قرأتَ هوفمان فلعلك تتذكر طباع آلبان. هل يعجبك؟ فما أفظع أن نرى

شخصاً يتمتع بسلطة ما بعدها سلطة ولا يدري ماذا يفعل، سوى ممارسة اللعبة التي لديه بصورة إله.

هل تكتب كثيراً إلى عائلة كومانين؟ اكتبْ لي هل أبلغك كودريافتسيف شيئاً عن تشيرماك؟ باللّه عليك اكتبْ لي عن ذلك أيضاً، فأنا أريد أن أعرف أخبار أندريه.

اسمع يا أخي. إذا كانت مراسلاتنا ستسير بهذه الصورة فالأفضل، على ما أعتقد، أن لا نتراسل. لنتفق على الكتابة أحدنا للآخر بعد أسبوع كل يوم سبت. فذلك أفضل. استلمت رسالة أخرى من شرينك ولم أردّ عليه طوال ثلاثة أشهر. ما أفظع أن نفتقد حتى ثمن طابع البريد!

---

(1) ضاحية أثرية في بطرسبورغ.



8. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 31 أكتوبر 1838

آه، يا أخي الحبيب، ما أطول الفترة التي لم أراسلك فيها... الامتحان المقيت أعاقني عن الكتابة إليك وإلى الوالد وعن مقابلة إيفان نيكولايفيتش. وماذا كانت النتيجة؟ لم أنجح في الانتقال. يا للفظاعة. أمامي سنة أخرى، طويلة لا موجب لها. وما كنت سأنفعل إلى هذا الحد لولا علمي بأن الخسة والنذالة تسببتا في رسوبي. وما كنت سأشعر بالأسف والمرارة لو لم تحرق دموع أبي روحي المتلهفة. لم أكن أعرف لحد الآن معنى إهانة المشاعر والكرامة الشخصية. كان وجهي سيحتقن لو سيطر عليّ هذا الشعور... هل تعلم؟ كنت سأرغب في سحق العالم كله دفعة واحدة... لقد ضيعت، قتلت أياماً طويلة قبل الامتحان، ومرضت ونحل جسمي وأدّيت الامتحان بالتمام والكمال وبدرجة ممتاز بكل ما في هذه الكلمة من معنى. لكنني بقيت في نفس الموقع... هكذا أراد أحد مدرّسي مادة الجبر الذي تعاملت معه بخشونة خلال السنة الدراسية. وها هو الآن يذكّرني، بخسة ونذالة، بما حصل بيننا. وهو

يفسر سبب رسوبي كالآتي: المطلوب عشر درجات كاملة، ولدي تسع ونصف. هذا هو سبب بقائي... فلتذهب كل هذه الأمور إلى الشيطان. سأصبر ما دام عليَّ أن أصبر. لن أنفق الورق جزافاً. فأنا قلّما أكتب إليك.

أنت، يا صديقي العزيز، تتفلسف كشاعر. وكما تتحمل الروح عبء الإلهام بلا توازن، كذلك هي فلسفتك تفتقر إلى التوازن وتقع في أخطاء. فلكي تعرف المزيد لا بدّ لك أن تقيد فيض المشاعر، وبالعكس تأتي القاعدة مغلوطة، مجرد هذيان الفؤاد. فماذا تقصد بمفردة المعرفة؟ اكتناه الطبيعة والروح والخالق والحب... ذلك كله يُعرف من خلال الفؤاد وليس العقل. ولو كنا أرواحاً أو جناً لعشنا ورفرفنا في جو تلك الفكرة التي تحلّق فوقها روحنا عندما تريد أن تكتشف حقيقتها. لكننا رميم لا غير. البشر يجب أن يكتنهوا جوهر الفكرة، لكنهم لا يستطيعون الإحاطة بها وإحتواءها فجأة. العقل هو موصل الفكرة عبر الغلاف الفاني إلى قوام الروح. العقل قدرة مادية... فيما الروح، أو النفس، تعيش على الفكرة التي تتلقفها بهمس الفؤاد... الفكرة تولد في الروح. بينما العقل أداة، آلة يحركها اللهيب الروحي... علماً بأن العقل البشري، المادة الثانية، المنهمك في فقه المعرفة يعمل بصورة مستقلة عن المشاعر والعواطف، وبالتالي يعمل بمعزل عن القلب أو الفؤاد. أما إذا كان هدف المعرفة هو الحب والطبيعة فأمام الفؤاد تنبسط صفحة بيضاء...
لا أريد هنا أن أتجادل معك، إلا أنني أخالفك الرأي في ما يخص الشعر والفلسفة... لا يجوز اعتبار الفلسفة مسألة رياضية المجهول فيها هو الطبيعة. ألا تلاحظ أن الشاعر في فورة الإلهام يكتشف الخالق، وبالتالي يؤدي وظيفة الفلسفة؟ ومن ثم فإن الإشراق الشاعري

هو إشراق فلسفي. . . ما يعني أن الفلسفة هي نفس الشعر، ولكن في أعلى ذروته!. . ومن الغريب أنك تفكر بروحية الفلسفة الراهنة. فما أكثر المنظومات الركيكة المتهافتة التي تمخضت عنها الأدمغة الذكية المتحمسة ليصار إلى الخروج بالثمرة الأولى لهذه الأكوام المتنوعة ووضع صيغة مادية لتلك الثمرة. تلك هي قواعد الفلسفة المعاصرة. . . ولكنْ عليَّ أن أتَّقي اللّه ولا أتمادى في الأحلام معك. . . فأنا لا أتقبل فلسفتك الواهية، إلا أني لا أعترض على وجود صيغة واهية لها، كوني لا أريد أن أثقل عليك. . .

العيش بلا أمل مبعث للحزن، يا أخي. . . أنظرُ إلى الأمام والمستقبل يرعبني. . . أتراكض في جو قطبي بارد لم يبلغه شعاع الشمس. . . لم أتحسس من زمان فورات الإلهام. . . فيما أجد نفسي غالباً في حالة سجين شيلون[1] بعد وفاة إخوته في غياهب القلعة، كما تتذكر. لن يصلني وحي الإلهام على جناح طائر الجنة ولن يدفئ الروح المتجلدة. . . تقول إنني انطوائي، ولكن حتى أمنياتي وأحلامي السابقة فارقتني، وحتى المنمنات الرائعة التي أبدعتها في فترة ما نزعت طلاءها الذهبي. والأفكار التي ألهبت الروح والفؤاد بأشعتها لم تعد تحتفظ بلهيبها ودفئها، فإما قلبي تحشف، وإما. . . أنا أخشى مواصلة هذا الكلام . . . يفزعني الكلام إذا كان كل ما مضى مجرد أضغاث أحلام أو أمنيات عِذاب. . .

قرأت قصيدتك يا أخي. . . وقد اعتصرت دمعات من روحي وهدّأت روعي مؤقتاً بهمس الذكريات والتحيات. تقول لديك فكرة لمسرحية. . . شيء مفرح. . . اكتبْها. فلو كنتَ محروماً أيضاً من آخر نفحات ريش طائر الجنة فماذا يبقى لك؟ يؤسفني أنني لم أستطع في الأسبوع الماضي أن ألتقي إيفان نيكولايفيتش. كنت متوعكاً. اسمع،

يخيل إليَّ أن الشهرة أيضاً تحفز إلهام الشاعر. بايرون كان أنانياً، فكرته عن الشهرة والأمجاد ضئيلة متنرفزة... (ويحضرني هنا قول بوشكين عن الشاعر وجمهوره الذي يبصق على شمعته في المذبح)[2]. أليس هذا توصيفاً رائعاً للمسألة؟ وداعاً!

صديقك وأخوك ف. دوستويفسكي

ملحوظة: تذكرت. اكتبْ لي عن الفكرة الرئيسية في مؤلَّف شاتوبريان «عبقرية المسيحية». قرأت مؤخراً في «ابن البلد» مقالة الناقد نزار عن فيكتور هيغو. ما أوطأ المنزلة التي يحتلها في نفوس الفرنسيين، بحسب الناقد، وما أوطأ المرتبة التي يفردها لمسرحياته ورواياته. لقد ظلموه. ومع أن هذا الناقد شخص ذكي لكنه يكذب ويتجنى. اكتبْ لي أيضاً عن الفكرة الرئيسية لمسرحيتك. وهل أنت واثق بأنها رائعة؟ فإن عشر سنوات لا تكفي لرسم الشخوص الدرامية الجيدة. هكذا أعتقد أنا على الأقل. آه، يا أخي، ما أشد أسفي لأنك لا تمتلك نقوداً. الدموع ترقرق في العينين. فمتى كنا بمثل هذه الحال؟ بالمناسبة، أهنئك يا عزيزي بالميلاد، ولو متأخراً، وكذلك بعيد الملاك الحارس.

في قصيدتك «رؤى الأم» لا أفهم الخطوط العريضة التي رسمتها لروح المرحومة. هذه الصورة العابرة للقبور غير مكتملة. إلا أن الأبيات جيدة رغم وجود زحاف في شطر منها. لا تزعل من هذا التحليل. انظم المزيد وسأكون أكثر تساهلاً.

أتطلع بفارغ الصبر لإعادة قراءة قصائد إيفان نيكولايفيتش الجديدة. فما أعظم الشاعرية فيها وما أكثر الأفكار العبقرية!.. ثم إني نسيت أن اقول لك إنك تعرف، على ما أظن، أن سميردين يعدّ

معبداً (أو مدفناً) لأدبائنا بشكل كتاب يضم 100 صورة بورتريه مع نموذج من نتاج كل أديب. تصور أن من بينهم زوتوف وألكسندر أورلوف. يا للسخرية! اسمع، أرسلْ لي قصيدة أخرى. فتلك رائعة. عائلة ميركوروف سترتحل قريباً إلى بينزا، وربما ارتحلت نهائياً، على ما أظن.

أسفي على والدي المسكين. طباعه غريبة. وما أكثر المصائب التي تحمَّلها. يحز في نفسي لحد البكاء أننا لا نستطيع أن نواسيه. وهل تعلم أن الوالد العزيز لا يعرف العالم وعلية القوم. أمضى بين الناس 50 عاماً، ومع ذلك ظل على رأيه بشأنهم كما كان قبل 30 عاماً. تلك جهالة سعيدة. لكنها مخيبة للآمال. فقد خيبت أمله. ويبدو أن ذلك هو مصيرنا المشترك جميعاً. وداعاً مرة أخرى.

---

(1) ملحمة بايرون.

(2) ما يرد في الكتاب بين هلالين كبيرين ترجمة بشيء من التصرف.



9. إلى ميخائيل دوستويفسكي (الأب)

بطرسبورغ، 5 - 10 مايو 1939

الوالد الحنون!

يقيناً أنك الآن أيضاً قلق عليّ لأنك لم تستلم في الحال رداً على رسالتك. والدي العزيز! أريد أن أهدئ خاطرك، وأحاول أن أبرر صمتي هذه المرة على قدر الإمكان. الآن حلّت فترة الامتحانات، ولا بد من المراجعة، فيما تلتهم التدريبات الجبهوية كل أوقات الفراغ، لأن استعراض مايو العسكري على الأبواب. ولم تبق فرصة لتحيّن الوقت إلا في الليل. ويسرّني جداً أنني وجدت في الأخير سويعة للكتابة إليك. ما أشد التأنيب الذي أعاني منه لأنني سبّبت لك حزناً واكتئاباً. سأحاول التكفير عن ذنبي قدر ما أستطيع. استلمت رسالتك وأنا شاكر لك على الطرد من صميم الفؤاد. تقول يا والدي العزيز أنْ ليس معك نقود ولن تتمكن من إرسال شيء لي بمناسبة رحيلنا إلى المعسكرات. الأولاد الذين يفهمون مواقف والديهم يجب أن يشاطروهم الأفراح والأتراح، وعلى الأولاد أن يتولوا تلبية حاجات الوالدين. وأنا لن أطالبك بالكثير.

لا بأس، لن يموت الشخص من الجوع إذا كف عن احتساء الشاي. وسأدبر حالي على نحو ما. لكنني أرجوك أن تبعث لي قيمة جزمة للمعسكرات. جزمة احتياطية لا بد منها. فلننتهِ من هذه المسالة. بدأتُ بأداء الامتحانات على أحسن ما يكون. وستأتي النتيجة بهذه الصورة أيضاً. أنا واثق من ذلك. حالياً الكثيرون من المدرسين الذين لم يتعاطفوا معي في العام الماضي باتوا يميلون إليَّ تماماً. وعلى العموم ليس لدي ما يدفعني للتذمر من الإدارة. أنا لا أنسى واجباتي، والإدارة عادلة نسبياً في معاملتي. لكنني لا بد أن أكمل أداء تلك الواجبات في وقت ما.

كتبتَ، يا والدي الكريم، توصيني بأن لا أنسى واجباتي. وأكرر إنني أتذكرها جيداً. فأنا مرتبط بالخدمة من خلال اليمين القانونية التي أقسمتها في يوم انتسابي للمدرسة العسكرية. لم أستلم رسائل من أخي منذ فترة طويلة. لعله نسيني. لكنني استلمت مؤخراً على أية حال قصاصة مشحونة يتهجم فيها عليَّ بقسوة بسبب صمتي المزعوم تجاهكم، وأعترف بأنه أهانني في هذه الرسالة من الصميم ، فصوَّرني بالمقارنة معه كائناً وضيعاً. لم أعبأ بهذا الكلام لأن رسالته لا تستهدفني. فأنا أعتبر نفسي أفضل بكثير ممن يتراسل معهم بهذه الصورة. على فكرة، بدأت أنسى هذه الإهانة، وأستعد للكتابة إليه هذا الأسبوع رداً على رسالته. أوضاعه الآن ليست سيئة بحال. كان بوسعه أن يؤدي الامتحان في مدرستنا لدخول صف الضباط الأوطأ. إنصحه أنت أن يفعل. الكثيرون من المستجدين في هندسة التحصين يفعلون ذلك. والأمثلة موجودة سنوياً. بعد عام واحد يكون مؤهلاً. وانا أتعهد بتزويده بتسجيلات المحاضرات وكل ما يلزم. وهو الآن يعرف الكفاية في الرياضيات. ولكنْ عليه أن يعرف بشكل أفضل

هندسة التحصين التي هي المادة الرئيسية في صفوف المستجدين وكذلك المدفعية، لأنها هي أيضاً تدرس عندنا بتفصيل كبير بوصفها من مكونات هندسة التحصين. ما أشد فرحتى وأنا أقرأ قولك بأنك في صحة جيدة والحمد للعلي القدير. فيما كنت أظن أن متاعبك الصحية المتواصلة ازدادت بسبب مرارة عدم استلام رسائلي. أقبّل أخواتي وإخوتي الصغار. هل يفعل أندريه شيئاً؟ هل يدرس أم ماذا؟ ألا تريد له أن يلتحق بنا في المدرسة؟ فالقبول سهل نسبياً. كوستوماروف أحزنك وأخذ منك نقوداً مقابل إعدادنا للمدرسة، بينما كان بإمكاننا أن ندخلها من دون جهوده. وأخيراً، وداعاً يا والدي الحبيب. أتمنى لك السعادة دون عد أو حصر.

ولدك المحب المطيع
ف. دوستويفسكي

ملحوظة: أهنئك بعيد القيامة الفائت. وأنا أتذكر بحزن واكتئاب كيف كنت أقضي هذا العيد بين أهلي وأحبائي. فماذا الآن؟ لا أطمح إلى أكثر من مغادرة المدرسة في هذا اليوم.

عندما أنتقل إلى الصف التالي أجد ضرورة قصوى للتسجيل في المكتبة الفرنسية للمطالعة هنا. فما أكثر النتاجات العظمى لعباقرة الرياضيات والعسكريين النوابغ باللغة الفرنسية. أرى أن قراءتها ضرورية، لأنني متيّم بمطالعة العلوم العسكرية، رغم أنني لا أطيق الرياضيات. فما أغرب هذا العلم، وما أشد الحماقة في الانكباب عليه! يكفيني ما يحتاج إليه المهندس وربما أكثر.

ولكن ما نفع أن أتحول إلى باسكال أو أوستروغرادسكي؟ الرياضيات من دون تطبيقات صفر على اليسار، ونفعها لا يزيد عن

نفع فقاعة الصابون. وأقول لك أيضاً إنني آسف لترك اللغة اللاتينية. فما أروعها. أنا الآن أقرأ يوليوس قيصر وأفهم كل شيء رغم انقطاع دام سنتين.

10 مايو.

ما أغرب الأمر. الملابسات الحمقاء لحياتي الراهنة تحرمني من الكثير. اضطررتُ إلى تأجيل إرسال رسالتي خمسة أيام. أرجئ الاستعراض العسكري إلى 10 مايو. وأردت أن أكتب لك عن هذا التعديل، ولكنْ هل تصدق يا والدي العزيز أنني لم أتمكن بسبب التدريبات الجبهوية التي يعذبوننا فيها وبسبب الامتحانات؟ وها أنا الآن أكتب لك على ظهر خرائط البريد.

والدي الطيب العزيز. هل يعقل أنك تظن أن ابنك عندما يطلب منك معونة مالية إنما يطلب أكثر من اللزوم؟ يشهد اللّه بأنني لا أقتطع من إمكانياتك إلا للضرورة، وليس لمنفعتي فقط. نقودي الضرورية تنوء بمرارة الديون. لدي دماغ ويدان، ولو كنت حراً طليقاً، أفعل ما أشاء، لما كلفتك بكوبيك واحد ولعشت رغم الحاجة الماسة. ولكانَ يخجلني أن أتفوّه ببنت شفة عن المعونة. الآن أنا أعبر عن وعود للمستقبل، وهذا المستقبل ليس ببعيد. وسيرضيك سلوكي بمر الزمن.

والآن تذكّر يا والدي العزيز أنني في الخدمة العسكرية بكل ما في كلمة الخدمة من معنى. فيجب عليّ، شئتُ أم أبيت، أن أتكيَّف مع الأنظمة الداخلية للوسط الذي أتواجد فيه. فما الذي يستثنيني من القاعدة؟ مثل هذه الاستثناءات تقود أحياناً إلى متاعب لا تحمد عقباها. وأنت تفهم ذلك يا والدي العزيز كونك عشت بين هؤلاء الناس. حالياً باتت المعيشة في المعسكرات تكلف كل تلميذ من

تلاميذ المؤسسات التعليمية العسكرية ما لا يقل عن 40 روبلاً. أنا أكتب لك كل هذه التفاصيل لأنني أكتب إلى أبي وليس غيره. وأنا لا أدرج ضمن هذا المبلغ احتياجات مثل الشاي والسكّر وغيرهما. وهي أمور ضرورية أصلاً، ضرورية بسبب الحاجة وليس من أجل اللياقة وحدها. عندما نبتل حتى العظام تحت المطر في اليوم المعتكر ونحن في الخيام القماشية الخفيفة أو عندما نعود في مثل هذا الطقس من التدريبات متعبين مرتجفين لا بد من الشاي، وإلا سنمرض، كما حصل لي في مسيرة العام الماضي. ومع ذلك أنا آخذ بنظر الاعتبار أوضاعك المالية التعبانة ولن أشرب الشاي. كل ما أطلبه هو ثمن زوجين من الجزمات البسيطة - 16 روبلاً. ثم إن حاجياتي الشخصية: الكتب والجزمة وريش الكتابة والورق وما إلى ذلك يجب أن تستقر في مكان ما. وهذا يحتم عليَّ شراء صندوق أو خزانة، لأن المعسكر لا يحتوي على أية مشتملات ما عدا الخيام. أسرَّة النوم فيها عبارة عن أكوام أو عليات من القش مغطاة بشرشف. وبالتالي فأين أضع حاجياتي وليس عندي صندوق لها؟ ولعلكم تعلمون أن الخزينة لا تفكر في ما إذا كنتُ محتاجاً إلى مكان ما لحفظ الحاجيات ولا يهمها هل يوجد لي صندوق أم لا. ذلك لأن الامتحانات تنتهي ولا لزوم للكتب بعدها. الخزينة توفر لي الملابس، وبالتالي قد لا أحتاج إلى جزمة، ولكنْ كيف أقضي الوقت من دون كتب؟ ثلاث جزمات لا تكاد تكفي في المدينة لنصف عام. وليس لدي مكان أضع فيه الصندوق الذي يلزمني. في الخيمة المشتركة سأضيّق على زملائي. وهذا الأمر يؤذيهم، ثم إن المسؤولين لن يسمحوا لي بوجود الصندوق في الخيمة، لأن أحداً لا يحتفظ بصندوق فيها. ما يعني ضرورة وجود مكان ما له. وسأجد ذلك المكان بالاتفاق مع أحد الجنود القائمين

على خدمة المعسكر، كما يفعل الجميع، لأترك الصندوق في عهدته. ولا بد من دفع الثمن. (قد يبلغ 13 روبلاً على وجه التقريب ثلاثة منها فضية). الأمر مختلف في المدينة، أما في المعسكر فينبغي الدفع على كل خطوة. والإدارة لا تتدخل.

تمكنت أن أوفر من حوالتك السابقة 15 روبلاً، (ومبلغ حاجتي الآن 40 روبلاً)، لذا أرجوك، يا والدي العزيز، أن تبعث لي 25 روبلاً. في بداية يونيو سننتقل إلى المعسكرات، ولذا أرسلْ هذه النقود إليّ قبيل 1 يونيو إذا كنت ترغب في معونة ابنك الذي يعاني من ضائقة خانقة. انا لا أتجرأ على المطالبة، ولا أريد أكثر من اللازم، لكن امتناني لك لن يعرف الحدود. ابعث الرسالة هذه المرة أيضاً على عنوان شيدلوفسكي. وداعاً يا والدي الكريم.

خادمك المطيع

ف. دوستويفسكي



10. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 16 أغسطس 1839

أجل، يا أخي الحبيب، هكذا يحصل لنا دوماً، نطلق الوعود ولا ندري هل نستطيع الوفاء بها أم لا؟ من حسن حظي أنني لا أعطي الوعود جزافاً. على سبيل المثال: ما رأيك في صمتي؟ تظن أنني كسول... أو أنني أنساك وما إلى ذلك. كلا. المشكلة أنني لم أكن أمتلك كوبيكاً واحداً. وها قد استلمت نقوداً، ففرحت بها أعظم الفرح كضيف عزيز لم يزرني من زمان.

وأخيراً هذه رسالتي إليك أنت أيضاً!

فلنتحدث عن كيت وكيت!

أخي الحبيب! ذرفت الدموع مدراراً على وفاة الوالد، وقد صارت حالنا الآن أسوأ وأفظع. أنا لا أتكلم عن نفسي، بل عن عائلتنا. أبعث رسالتي هذه إلى ريفيل[1] ولا أدري هل ستصلك أم لا... يخيل إليَّ أنك لن تكون هناك لدى وصولها... حبذا لو كنت في موسكو إن شاء اللّه، لأكون أكثر اطمئناناً على عائلتنا. ولكنْ قل رجاءً هل يوجد في العالم أناس أكثر تعاسة من أخواتنا وإخوتنا

المساكين؟ تقتلني فكرة كونهم سيتربّون على أيدي الغير. ولذلك أعتقد أن فكرتك حول السفر إلى القرية والعيش فيها بعد حصولك على وظيفة رسمية فكرة رائعة حقاً. فهناك يمكن أن تسهر على تربيتهم يا أخي الحبيب، وستكون تلك التربية هي السعادة بعينها لهم. وستتمخض مثل هذه التربية عن تنظيم قويم للروح بين أفراد عائلتنا العزيزة وعن تنمية كل الطموحات القائمة على العقيدة المسيحية والتحلي بالفضائل العائلية وخشية الخطايا وسوء الصيت. وعندذاك يغفو رفات والدينا بهدوء واطمئنان في أديم الأرض الرطبة. ولكنك، يا صديقي الحبيب، لا بد أن تتحمل الكثير. فعليك إما أن تعلن القطيعة التامة أو التصالح المتين مع الأهل. القطيعة تعني الهلاك، إنها حتف أخواتنا. وإذا تصالحت يجب عليك أن ترعاهن. وسيعتبرن استهانتك بالخدمة كسلاً وتهاوناً. ولكنْ، تحمَّلْ ذلك، يا أخي العزيز. ابصقْ على النفوس التافهة واعملْ معروفاً لإخوتك. أنت الشخص الوحيد الذي يمكن أن ينقذهم... أنا أعرف أنك تفقه المسألة الآن، فحقق طموحك المنقطع النظير. وليكن اللّه في عونك. ومن ناحيتي أعلن لك سلفاً أنني سأوافقك في كل شيء.[2]

هل تفعل شيئاً الآن؟ أنت أكثر صراحة مع إيفان نيكولايفيتش مني. قلت له إن عملك كثير وليس لديك وقت. نعم، شغلك فظيع. فما العمل؟ تخلص منه بأسرع ما يمكن.

ماذا عساي أن أقول لك عن نفسي؟... من زمان لم أتحدث معك على المكشوف. ولا أدري هل أنا الآن في مزاج يمكنني أن أتحدث معك بهذا الخصوص. لا أدري. لكنني صرت غالباً ما أنظر إلى ما يحيط بي بمنتهى اللاأبالية. إلا أن الصحوة، بالمقابل، تغدو أشد لدي. هدفي الوحيد أن أكون حراً طليقاً. وأنا أضحّي بالغالي والنفيس

في سبيل الحرية. لكنني كثيراً، كثيراً ما أفكر فيما ستمنحني إياه هذه الحرية... هل تجعلني وحيداً وسط حشود مجهولة؟ أستطيع أن أتخلص من كل هذه الأمور، لكنني أعترف بالحاجة إلى إيمان راسخ بالمستقبل ووعي عميق للذات لأعيش على طموحاتي الراهنة. على أية حال، لا فرق هل ستتحقق أم لا. فأنا سأقوم بما أريد. أنا أبارك اللحظات التي أتهادن فيها مع الحاضر، وهي لحظات أخذت تطل عليّ أكثر فأكثر، وفيها أعي حالتي بمزيد من الوضوح، وأنا متيقن بأن هذه الأمنيات الصافية ستتحقق.

الروح غير مستقرة اليوم. إلا أن في صراعها هذا تنضج، عادة، الطباع والشكيمة القوية، وتنجلي الرؤية الضبابية، فيما يحصل الإيمان بالحياة على منبع أنقى وأكثر تسامياً. لم تعد روحي سهلة المنال كما كانت أمام الفورات الشعورية الجامحة السابقة. كل شيء فيها هادئ، كما في فؤاد شخص يحتفظ بسرّ دفين. أنا أتعلم «ماذا تعني مفردة الإنسان والحياة». ولعلّي أفعل ذلك بالقدر المطلوب. أستطيع أن أتعلم الطباع من الكتّاب الذين يمضي أفضل شطر من حياتي معهم بطلاقة وفي فرح وسرور. وليس لدي ما أذكره لك عني أكثر من ذلك. أنا واثق بنفسي. الإنسان لغز لا بد من فكه. وإذا أمضيت حياتك كلها في فكه لا تقل إن تلك مضيعة للوقت. أنا أعكف على اكتناه هذا السر، هذا اللغز، لأني أريد أن أغدو إنساناً. وداعاً.

صديقك وأخوك

ف. دوستويفسكي

ملحوظة: أنا مشغول بأفكاري المحببة طول الوقت. والحياة تسير عفوياً في الأماني والأفكار. وثمة نقطة أخرى: أنا أستطيع أن أحب

وأكون صديقاً. وما أكثر القداسة والعظمة والطهارة في هذه الدنيا. النبي موسى وشكسبير...

الحب وما أدراك ما الحب. تقول إنك تقطف الزهور من أجلها. أعتقد أن لا وجود لقدسية أكثر من قدسية الشاعر في نكران الذات. كيف يجوز تقاسم الإشراق بين الإنسان والورق. الروح تنطوي دوماً على أكثر من قدرة التعبير بالكلمات والألوان والأنغام. وبناءً على ذلك يصعب تحقيق فكرة الإبداع.

عندما يربط الحب بين فؤادين لا تلوح الدموع في العيون، وإنما في الصدر وحده. يمكن للمرء أن يبكي وحده، وعليه أن يتحلى بالعزة والإيمان المسيحي... ماذا؟ هل أنت في مو...؟

إذا لم أستلم جواباً بعد أسبوع من تاريخ اليوم فسأستنتج أنك في موسكو وسأكتب لك على عنوان كومانين. اكتبْ لي، يا أخي، بالتفصيل كيف تداركت أنت والآخرون كل هذه الأمور. أنتظر الجواب بفارغ الصبر. من الآن فصاعداً لن تتوقف المراسلات بيننا يا عزيزي. سأبعث إليك قائمة الكتب قريباً. اكتبْ لي. لم يبقَ لدي وقت.

---

(1) مدينة على الساحل الجنوبي لبحر البلطيق.

(2) بعد وفاة والد فيودور دوستويفسكي تولى خاله ألكسندر كومانين رعاية إخوته الخمسة الأصغر (ألكسندرا ونيقولاي وفيرا وأندريه وبربارة) من دون إجراءات الوصاية الرسمية.

11. إلى الزوجين كومانين

بطرسبورغ، 25 ديسمبر 1839

السيد الكريم خالي العزيز (ألكسندر كومانين)
السيدة الكريمة زوجة خالي العزيزة (ألكسندرا كومانينا)

قد يبدو لكما، أيها العزيزان، صمتي الطويل الذي لا يغتفر أمراً غريباً غير مفهوم وليس له ما يبرره ولا يجوز التسامح معه لخشونته وكونه نكراناً فظيعاً للجميل. ها أنا آخذ الريشة أخيراً لا لأسطر المبررات والأعذار. كلا. فأنا أعرف أن الذنب ذنبي مهما كانت الملابسات التي تتشفع لي وأن هذا الذنب أوطأ وأخس من كل المبررات. ثم هل يحق لي الأمل بقبول تبريراتي؟ لكنني أقول: إذا كان اعترافي الصريح الصادق ومحاولة توضيح تصرفي الذميم تجاهكما يحظيان ولو بأقل اهتمام منكما فسأعتبر نفسي سعيداً، لأني سأستعيد ما لم أكن آمل باستعادته، وأعني أدنى قدر من اهتمامكما بي وميلكما إليّ.

عندما التحقت بمدرسة الهندسة الرئيسية شغلتني الدروس

والأخبار وتنوع نمط المعيشة الجديد لبعض الوقت. وها هي اللحظة الوحيدة التي يؤنبني فيها الضمير بشدة على نسياني واجبي ويذكّرني بتصرفي المستنكر تجاهكما، بصمتي الذي لا أستطيع أن أفسره. فلا مفسر ولا مبرر. ربما ما عدا ذهولي وشرود البال العجيب الغريب. . .

أنا أعرف أن اعترافي بشرود البال يقلل من قيمتي كثيراً في أنظاركما. لكنني يجب أن أتحمل عاري وشناري، وسأتحمل طالما جنيت على نفسي بنفسي. ذكريات المرحوم والدي وأوامره بأن أقطع صمتي الغريب مع أقربائنا الذين كثيراً ما تفضلوا علينا بمعروفهم ومبراتهم جعلتني أتعمق في فهم تصرفي، فنظرت إلى نفسي على ضوء ليس في صالحي إطلاقاً من حيث موقفي تجاه خالي العزيز وزوجته الكريمة. وإلى جانب ذنبي الجسيم في شرود البال رأيت أن تصرفي يمكن أن يتخذ شكلاً أكثر حلوكة وسواداً، شكل الخشونة الفظة ونكران الجميل. . . وهذا ما حيرني وأربكني كثيراً. . .

بديهي أن هذا الارتباك ما كان ليستمر أمداً طويلا. فأول ما كنت أفكر فيه هو التكفير عن ذنبي، وتصحيح الخطأ. إلا أن فكرة كوني خالفت أول التزاماتي ولم أنفّذ الواجب الذي كلفتني به الطبيعة نفسها، هذه الفكرة بحد ذاتها دمّرتني. أنا لم أتمسك بقاعدة الكثيرين ممن يقولون إن الورق لا يحتقن من الخجل وإن الاعتذار الرخيص مرة أو مرتين، بذريعة لا وقت لي وما إلى ذلك، يكفي لتصحيح الخطأ. لقد استولى عليَّ الخجل من بعيد وانتابتني الكآبة عن بعد، ولم أكن أعرف ماذا وكيف وبأي وجه أكتب لكما. التقطتُ الريشة ثم رميتها جانباً، دون أن أكمل رسالتي. أرجوكما يا عزيزيّ، أستعطفكما أن تصدقا ما أقول. إنه فيض صاف من ضمير يرزح تحت التأنيب. سبب صمتي الطويل هو الحيرة والارتباك والخجل الشديد منكما.

فاجعة وفاة والدي وفضلكما على عائلتنا الذي لا أعرف كيف أتعلم أن أشكركما عليه أثارا في نفسي مشاعر استثارت بدورها وبقدر أكبر مزيداً مما كان ينتابني في السابق، مزيداً من الخجل وعذابات التوبة. أنا أشعر بذنبي، ولا أتجرأ على الأمل بالصفح والمسامحة. ولكنكما سترأفان بحالي أعظم رأفة لو سمحتما بالكتابة إليكما أو على الأقل إلى شقيقتي لأعرف منها عن كل ما هو عزيز على قلبي. وسيكون رأس السنة الذي أتمنى لكما فيه الخير والسعادة، يا عزيزيّ، دليلاً على صلاحي.

سأحاول خلاله أن أحظى باهتمامكما من خلال تعلقي الخالص بكما وامتناني على أفضالكما ومعونتكما لعائلتنا وحرصي الدائم على المودة والاحترام والتقدير والإخلاص لكما. ويشرفني أن أبقى ابن أختكم المطيع المخلص.

ف. دوستويفسكي



12. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 1 يناير 1840

أشكرك من صميم القلب، يا أخي الطيب، على رسالتك الرقيقة. كلا، أنا لست مثلك. أنت لا تصدق مدى عمق خلجات الفؤاد الدافئة التي تعتريني حينما يأتونني برسالة منك، ولذا ابتدعت أسلوباً جديداً - عجيباً- للمتعة والتلذذ هو «تعذيب» النفس بالانتظار.

أتلقف رسالتك متلهفاً، أقلّبها بضع دقائق، أتلمسها، لأقتنع باكتمال وزنها، وبعد أن أشبع من فحصها والتمتع برؤية مظروفها أدسها في جيبي. . . أنت قد لا تصدق بفرحة الروح والمشاعر والفؤاد بالرسالة. أحياناً أبقى في حالة الانتظار هذه ربع ساعة، ثم أعمد بنهم وتشوق إلى فتح ختم المظروف وألتهم سطورك، سطورك الرقيقة. ما أكثر المشاعر التي تكتنف القلب عندما أقرأ هذه السطور. وما أكثر ما تزدحم به الروح من إحساسات بهيجة وغير بهيجة، حلوة ومُرّة. نعم، يا أخي الحبيب، بعضها إحساسات مُرّة غير بهيجة. ولن تصدق مدى المرارة والأسف عندما لا يفهمك الآخرون ولا يدركون مقصدك ويصورون الأمر على خلاف ما هو عليه، ليس كما قلت، بل بشكل

آخر بشع ومشوَّه. . . عندما قرأت رسالتك الأخيرة استولت عليَّ حالة من (الهياج الشديد)[1] لأنني لم أكن معك: أجمل خلجات الفؤاد وأكثر القواعد قدسية مما كسبته بالتجربة، بالخبرة العسيرة المضنية، تعرَّض للتشويه والتزوير وارتدى لبوساً مزرياً بائساً. فأنت نفسك كتبت في رسالتك لي تقول: «اكتبْ، اعترضْ، تجادلْ معي». وترى أن في ذلك منفعة ما. لا نفع في ذلك إطلاقاً، يا أخي الحبيب، لا شيء سوى أن أنانيتك التي هي أنانيتنا جميعاً، نحن البشر الخاطئين، ستجعلك تخرج باستنتاج نافع عن شخص آخر وليس أنا، عن آرائه وقواعده وطباعه وقلة عقله. . . وهذا مؤسف جداً ومهين يا أخي. كلا. الجدل في رسائل المودة سم زعاف مُحلّى قليلاً. هل سيحصل شيء عندما نلتقي وإياك؟ يخيل إليَّ أن ما سيحصل هو التحجج الأبدي لإثارة الخلاف بيننا. . . ولكنني أترك هذا الموضوع الآن، على أن أعود إليه في الصفحات الأخيرة من الرسالة.

الأكاديمية العسكرية ذات هالة متسامية وهّاجة. لعلك تدري أن هذا مشروع لا أروع منه. ولقد فكرت طويلاً في مصيرك لكي أوفق بينه وبين الملابسات التي نعيشها. واستقر رأيي على الأكاديمية العسكرية. إلا أنك سبقتني، ما يعني انها تعجبك أيضاً. . . ولكنْ ينبغي أن تخدم ما لا يقل عن سنة قبيل الالتحاق بالأكاديمية. فابقَ في قسم التخطيط هذا العام.

لماذا تشغل بالك بدفاتر الملخصات وأنا لا أعرف مناهجك؟ فماذا أرسل إليك والحال هذه؟ على فكرة، المدفعية مادة للصفوف المبتدئة. وهذا تحديداً ما أنتم بحاجة إليه. وسأرسل لك حتماً ملخص محاضرات الميجر- جنرال ديادين الذي سوف يختبرك بنفسه. لكنني سأبعث إليك هذه الدفاتر لمدة شهر لا غير، فهي ليست لي.

وقد حصلت عليها بصعوبة. شهر واحد ولا يوم أكثر. استنسِخْها أو اطلب من شخص ما ليستنسخها لك. ديادين غريب الأطوار، يطالب بحفظ محاضراته عن ظهر قلب أو عرضها بنفس مفردات كتابه. هندسة التحصين الميدانية تافهة يمكن حفظها عن ظهر قلب في 3 أيام. وسأرسلها إليك هي أيضاً في مايو. أما المحاضرات التي تتطلب وقتاً فهي مسألة أخرى سأحاول معالجتها. ولدينا دفاتر ليثوغرافية في مجال التحليل. إلا أنها منقولة حرفياً عن براشمان وباختصار طبعاً. إذن، نحن ندرس براشمان، فاحفظْ محاضراته عن ظهر قلب. اشترِ لنفسك نسخة. هل أنت مطَّلع على الجيوديسيا؟ منهج بولوتوف (في علم المساحة) يدرس عندنا. كما يدرس منهج أوزيموف في الفيزياء. وسأحاول توفير دفاتر التفاضل الليثوغرافي. منهج التاريخ عندنا في منتهى الضخامة والاكتمال، بطبعة ليثوغرافية لا أستطيع الحصول عليها. منهج اللغة والأدب الروسي من تأليف بلاكسين، وهو نفسه يدرسنا. وأفيدك بأن امتحانكم لكلية المهندسين الميدانيين في منتهى السهولة. الجميع متساهلون وملتزمون بمنطق لا يضيق الخناق على المهندسين. وهذا ما أرى أمثلة كثيرة عليه.

بعثت إلى كومانين وزوجته رسالة مؤدبة للغاية. فلا تقلق. وأنا أنتظر نتائج طيبة. لم أكتب للوصي[2] حتى الآن. فلا وقت لدي، واللّه العظيم.

أهنئك برأس السنة يا حبيبي. سيحمل لنا شيئاً ما. كيف لا وقد كانت السنوات الخمس الأخيرة فظيعة بالنسبة لعائلتنا. قرأت تهنئتك برأس السنة الفائتة. فكرتها جيدة. الروح المعنوية وتعبيرية الأشعار جاءت بتأثير أوغست باربيه[3]. وأنت، على فكرة، تتذكر تهكمه على نابليون.

والآن فلنتحدث عن أشعارك. اسمعني يا أخي الحبيب. أنا على يقين بأن حياة الإنسان مشحونة بالمصائب والأحزان، والأفراح أيضاً.

حياة الشاعر مفروشة بالأشواك والورود. فيما الموهبة الغنائية رفيقة الشاعر الدائمة. لأنه كائن ناطق. أشعارك الغنائية رائعة، ومنها «النزهة» و«الصباح» و«رؤيا الأم» و«الوردة»، على ما أتذكر، و«جياد فيبي» وكثير غيرها[4]. ما أروع هذه القصة الحية عنك يا عزيزي. وما أحبها إلى قلبي. آنذاك كنت أستطيع أن أفهمك، لأن تلك الأشهر مشهودة وعالقة في الذاكرة. فما أكثر ما حصل في حياتي آنذاك من غرائب الأمور وعجائبها الرائعة. تلك قصة طويلة لن أبوح لأحد بتفاصيلها.

شيدلوفسكي عرض عليَّ آنذاك أشعاره... فما أقساك على شيدلوفسكي. لقد ظلمته وتجنيت عليه. أنا لا أريد أن أدافع عما لن يراه إلا من لا يعرفه ومن لا يغيّر رأيه بسهولة، أقصد معارفه وقواعده. ولكنك لم تره في العام الفائت، حيث أمضى السنة كلها في بطرسبورغ بلا عمل ولا وظيفة. اللّه يعلم لماذا أقام هنا. لم يكن متمكناً من الناحية المادية لكي يعيش في بطرسبورغ من أجل اللهو والتسلية. وكان واضحاً أنه جاء إلى بطرسبورغ ليفر منها إلى جهة ما. لو نظرت إليه لرأيت عذاباته. أصابه النحول وانخسفت وجنتاه والتهب محجرا عينيه وجفّا بعد بلل، وتعمّق الجمال الروحي لمحياه مع تدهور مظهره البدني. كان يعاني. ومعاناته شديدة مرهقة. يا إلهي، ما أعظم حبه لفتاة اسمها ماري على ما أظن. تزوجت من غيره. من دون ذلك الحب ما كان بوسعه أن يغدو كاهناً للشعر متسامياً طاهراً نزيهاً... عندما أتردد عليه أحياناً في شقته المتواضعة في مساء شتوي قبل عام بالتمام والكمال كنت أتذكر عفوياً شتاء أونيغين الحزين في

بطرسبورغ.[5] ولكن الذي كان أمامي ليس شخصاً بارد الأعصاب ولا حالماً متحمساً بالفطرة، وإنما هو كائن رائع متسام. إنه لمحة قلمية متناغمة للإنسان، كالتي قدمها لنا شكسبير وشيلر. ولكنه كان آنذاك على وشك الولوج في كآبة شخوص بايرون. وكنت كثيراً ما أقضي معه أمسيات كاملة نتجاذب أطراف الحديث في أمور ما أنزل اللّه بها من سلطان. ما أشد صراحة هذه الروح النقية. دموعي تسيل عندما أتذكر ما مضى. لم يكن يخفي عليّ شيئاً. وما قيمتي أنا بالنسبة له؟ كان يريد أن يفضي لأحد ما بما في نفسه. فما أشد أسفي لعدم وجودك معنا. كان يتوق إلى رؤيتك، ليسميك صديقاً شخصياً يعتز بصداقته. أتذكر كيف سالت دموعه أثناء تلاوة أشعارك، وهو يحفظها عن ظهر قلب. فكيف تقول عنه إنه كان يسخر منك؟ ما أشد إشفاقي على هذا البائس المسكين. روح طاهرة كالملاك. وحتى في هذا الشتاء العصيب لم ينس حبه، فقد تأجج من جديد وبأشد من السابق.

حل الربيع. وأنعشه. تصوراته أخذت تبدع دراما ومسرحيات، ولكنْ أي مسرحيات يا أخي! لعلك كنت ستغير رأيك فيه لو قرأت «ماريا سيمونوفا» بعد تنقيحها. انكبَّ على تعديلها طول الشتاء. وكان قد اعتبر صيغتها السابقة بالمشوهة. ثم ما أروع قصائده الغنائية. يا ليتك تعرف القصائد التي نظمها في الربيع الماضي. كالقصيدة التي يتحدث فيها عن الشهرة والأمجاد. يا ليتك تقرأها يا أخي![6]

عندما عدت من المعسكر قضينا معاً فترة قصيرة. في اللقاء الأخير تمشينا في يكاترينهوف. وما أروع تلك الأمسية. تذكرنا حياتنا في الشتاء عندما كنا نتحدث عن هوميروس وشكسبير وشيلر وهوفمان الذي تكلمنا عنه قدر ما قرأناه. كما تحدثت معه عن حياتنا، نحن الاثنين، عن حياتنا الماضية والقادمة. وتحدثنا عنك يا حبيبي. أما

الآن فهو قد غادر من زمان، ولا علم لي بأخباره. فهل هو على قيد الحياة؟ كان يعاني من الناحية الصحية أيضاً. أرجوك، اكتبْ له.

خلال الشتاء الماضي كنت مبتهجاً جداً. تعرفي على شيدلوفسكي منحني ساعات عديدة من حياة أفضل. إلا أن ذلك لم يكن هو سبب ابتهاجي آنذاك. ربما كنتَ ولا تزال تلومني على عدم مراسلتك. والسبب هو الملابسات الحمقاء في السرية العسكرية. ولكني أقول لك يا عزيزي إنني لم أكن أبداً لاأبالياً تجاهك، وإنني أحبك لقصائدك ولشاعرية حياتك ولمصائبك، ولا شيء آخر. لم يكن هذا الحب مودة أخوية خالصة. . . فقد كان عندي صديق حميم أودّه ويودّني.[7] كتبت لي، يا أخي، تقول إنني لم أقرأ شيلر. أنت على خطأ يا أخي. فقد حفظت شيلر عن ظهر قلب وكنت أترنم به لحد الهلوسة والهذيان. وأعتقد أن أفضل ما فعلته الأقدار في حياتي هو أنها مكّنتني من معرفة شيلر في تلك الحقبة التي ما كان بوسعي أن أعرفه بأفضل منها في أوقات أخرى. كنت أقرأ شيلر مع صديقي وأجرب عليه خصال دون كارلوس النبيل النشيط والمركيز بوزا ومورتيمير[8]. هذه الصداقة حملت لي الكثير من الأفراح والأتراح. وسألزم الصمت بشأنها إلى الأبد. فيما بات اسم شيلر عزيزاً عليَّ، وصار بمثابة صوت سحري يستثير كماً هائلاً من الطموحات. وهي طموحات عسيرة ومريرة، يا أخي ، ولذا لم أحدثك عن شيلر وعن الإنطباعات التي خلفها في نفسي، فأنا أشعر بألم تلك الانطباعات حتى من مجرد سماع اسمه.

كنت أريد أن أكتب الكثير في الرد على تهجماتك عليّ، كونك لم تفهم كلماتي. كما أردت أن أتحدث عن بعض الأمور. إلا أن رسالتي هذه إليك منحتني لحظات حلوة وأمنيات لذيذة وذكريات كثيرة جعلتني أعاف الكلام عن أية أمور أخرى. وعذري انني لم أعمد إلى تصنيف

الشعراء العظام، خاصة إذا كنت لا أعرفهم. أنا لم أعمد إلى المقاربة أو المقارنة بين الشعراء، بين بوشكين وشيلر على سبيل المثال. لا أدري ما الذي جعلك تتصور ذلك. أرسلْ لي، رجاءً، كلماتي بهذا الخصوص وسأتبرأ من مثل هذه التصنيفات. ربما كنت أتكلم عن أمر ما، فوضعت بوشكين وشيلر جنباً إلى جنب، ولكنني أظن أن ثمة فاصلة بين هاتين الكلمتين. إنهما لا يتشابهان من نواح كثيرة. بوشكين وبايرون صحيح. وفيما يخص هوميروس وفيكتور هيغو يخيل إليَّ أنك تعمّدت عدم فهمي. إليك ما أقوله: هوميروس، ذلك الإنسان الملحمي الذي خلقه اللّه وأرسله إلينا كالمسيح، لا يمكن أن يقارن إلا بالمسيح وليس بغوته. تعمق فيه، يا أخي، افهم «الإلياذة»، إقرأها جيداً، أنت لم تقرأها؟ أليس كذلك؟ اعترف. في «الإلياذة» قدم هوميروس للعالم القديم بمجمله تنظيماً للحياة الروحية والدنيوية بنفس القوة التي قدم فيها المسيح تنظيمه للعالم الجديد. فهل تفهمني الآن؟ فيكتور هيغو شاعر غنائي بطباع الملائكة وتوجهات الشعر الطفولية النصرانية، ولا أحد يفوقه في ذلك، لا شيلر، مهما كانت نصرانية شعره، ولا شكسبير بشاعريته الغنائية، وقد قرأت السوناتات بالفرنسية، ولا بايرون ولا بوشكين. هوميروس برسالته الراسخة وإيمانه الطفولي بإله الشعر الذي يعبده هو الوحيد الذي يشبه فيكتور هيغو من حيث وجهة ينابيع الشعر، ولكنْ من حيث الوجهة فقط، وليس الفكرة التي وهبته إياها الطبيعة وعبَّر عنها. ولعلّي أقول إن ديرجافين[9] يمكن أن يتجاوزهما كليهما من حيث الشاعرية. وداعاً يا عزيزي.

صديقك وأخوك

ف. دوستويفسكي

ملحوظة: هذا توبيخ تستحقه. فعندما تحدثت عن الشكل فقدت عقلك تقريباً. وأنا من زمان أظن أن اضطراباً طفيفاً حصل في دماغك. أنا لا أمزح. فقد قلتَ مؤخراً عن بوشكين ما لا يليق. أنا أهملت ذلك، وليس من دون سبب. وسأتحدث في الرسالة التالية عن الشكل. فلم يبق الآن مجال ولا وقت لهذا الحديث. ولكنْ خبرني رجاءً من أين جئت بهذا الكلام، أثناء حديثك عن الشكل، وكأن راسين وكورناي لا يمكن أن يروقا لنا بسبب رداءة الشكل عندهما؟ ما أتفهك من إنسان. وإلى ذلك تسألني بفطنة: «هل يعقل أنك تظن أنهما لا يمتلكان شعراً؟» ليس لدى راسين شعر؟ راسين المتحمس الفوّار المتيم بمُثُله العليا لا يمتلك شعراً؟ وأنت تسأل عن ذلك؟ فهل قرأت «أندروماك» يا ترى؟ ماذا، يا أخي، هل قرأتها؟ هل قرأت «إفغينيا»؟ هل يمكنك أن تنكر روعتهما؟ أليس أخيل راسين هو أخيل هوميروس؟ راسين انتحل هوميروس، ولكنْ كيف؟ ما طبيعة نسائه؟ حبذا لو تفهمته. راسين لم يكن نابغة، وهل كان بوسعه أن يؤلف الدراما! كان عليه أن يحاكي ويقلد كورناي. و«فيدرا»، يا أخي، هل بوسعك أن تنكر روعتها؟ اللّه يعلم من ستكون أنت إذا لم تقل إنها تجسيد للطبيعة الصافية والشعر المتسامي. إنها بصمة شكسبير مع أن التمثال من الجبس وليس من الرخام.

وهذه المرة عن كورناي؟ اسمع يا أخي، لا أدري كيف أتكلم معك. لعلك تشبه إيفان نيكيفوريتش «الذي أكل الكثير من الحمص»[10]. كلا، أنا لا أصدق، يا أخي! أنت لم تقرأه، ولذا أخطأت الهدف. هل تعلم أنه بمستوى شكسبير تقريباً من حيث الطباع الجبارة والروح الرومانسية. يا لك من مسكين. لديك معيار واحد ترد به، ألا وهو «الشكل الكلاسيكي». هل تعلم، يا مسكين، أن كورناي

ظهر لـ 50 عاماً فقط بعد جوديل البائس الحزين غير الموهوب في تراجيديته الهجائية «كليوبطرة»، وبعد رونسار الذي يشبه تريدياكوفسكي عندنا، وبعد النظّام الباهت مالهيرب المعاصر له تقريباً؟ فمن أين له فرصة ابتداع الشكل اللازم لمخطط المسرحيات؟ ومن حسن الحظ أنه اقتبسه من سينيكا. ثم هل قرأت مسرحيته «سينا»؟ إذا لم تكن قد قرأتها، يا مسكين، فاقرأ منها خصيصاً حوار أوغسطس مع سينا عندما عفا عن خيانته، ولكنْ كيف عفا؟ وسترى أن ذلك حوار لا يلازم إلا الملائكة المهانين. وخصوصاً عندما قال أوغسطس: «فلنكن صديقين، يا سينا، ونطوي ما جرى منا». (. . .).

لا تزعل، يا عزيزي، بسبب تعابيري الخشنة. ولا تكن مثل إيفان إيفانيتش (في قصة غوغول).

هذه الرسالة جعلتني أبكي لذكريات الماضي.

حبكة مسرحيتك رائعة، وفكرتها الصحيحة واضحة، ويعجبني فيها خصوصاً أن بطلك فاوست عندما يبحث عما لا حدود له ولا يمكن الإحاطة به إنما يتحول إلى مجنون ما إنْ يعثر على بغيته ويبلغ ما لا حدود له، فيجد ضالته في الحب. هذا رائع. يسرّني أنك تعلمت شيئاً من شكسبير.

أنت مستاء لأني لا أجيب عن جميع التساؤلات. كان بودّي أن أجيب عنها، ولكنْ ليس عندي لا ورق ولا وقت. على فكرة، إذا كنت سأجيب عن كل الأسئلة، كالسؤال التالي: «هل نبت لديك شارب؟»، لن أجد أبداً مجالاً لكتابة ما هو أفضل. وداعاً يا أخي الطيب الحبيب. وداعاً مرة أخرى. اكتبْ لي.

(1) في الأصل بالفرنسية.
(2) المقصود السيد ن. يلاغين. رسائل دوستويفسكي إليه مفقودة.
(3) أسماء العديد من الكتّاب وعناوين مؤلفاتهم وردت في هذه الرسالة بالفرنسية.
(4) قصائد ميخائيل دوستويفسكي هذه مفقودة، ما عدا «رؤيا الأم».
(5) ملحمة بوشكين «يفغيني أونيغين». الفصل الثامن.
(6) مسرحية «ماريا سيمونوفا» وقصيدة «الشهرة» مفقودتان.
(7) يفترض النقاد أنه عسكري كان في الخدمة مع دوستويفسكي.
(8) من أبطال مسرحيتَي شيلر «دون كارلوس» و«ماري ستيوارت».
(9) جبريل ديرجافين شاعر روسي (1743-1816).
(10) بطل قصة غوغول «شجار بين إيفان إيفانيتش وإيفان نيكيفوريتش» (1834).



13. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بيترهوف، 19 يوليو 1840

ألتقط الريشة من جديد، يا أخي الحبيب، اللطيف والعنيد في الوقت ذاته. وعليّ أن أبدأ الرسالة من جديد برجائي أن لا تضمر غيظاً، وهو رجاء أشدد عليه كلما تماديت في عنادك وزعلك. كلا، يا أخي العزيز الطيب، لن أتركك وشأنك ما لم تمد لي يد المودة كالسابق. ولا أدري، يا عزيزي، لقد كنتَ دوماً عادلاً في معاملتي، إلا فيما ندر، ومتسامحاً معي دوماً في حالة صمتي الطويل، والآن حيث أقدّم السبب الوجيه أراك، وأنت تعرف ذلك، وكأنما أصبت بالصمم ولا تسمع كلامي. سامحني على هذه الملامة، يا صديقي الطيب، وأنا لا أخفي عليك أنها نابعة من الفؤاد، وأنا أحبك، يا عزيزي، ويولمني أن ألمس هذه اللامبالاة تجاهي. لو كنت مكانك لنسيت كل شيء من زمان لأغفر لصديقي بأسرع ما يمكن بدلاً من جعله يلحّ فترة أطول في طلب المغفرة. من ناحيتي، على الأقل، وأنا أجد نفسي في ملابسات مقبولة، أي بوجود النقود التي أرسلها الوصي إليَّ، رغم قلّتها، أعدك بالتأكيد أنني سأكتب إليك كل أسبوع حتماً.

إلا أنني حالياً أكتب على عجل، لأنني لا أجرؤ على الإفاضة في رسالة مطولة ونحن ننتظر في كل لحظة صفارات الإنذار والمناورات التي ستستمر ثلاثة أيام.

آه، يا أخي العزيز، اكتبْ لي باللّه عليك ولو قصاصة. ليتك تعرف مدى قلقي على مستقبلك وعلى قراراتك ونواياك، وعلى امتحانك يا أخي الحبيب لأنه هو أيضاً على الأبواب. اللّه يعلم هل ستصلك هذه الرسالة وأنت في ريفيل. آمل أن تصلك يا صديقي العزيز إن شاء اللّه. لو استمرت هذه الخلافات وهذا الخلل في أواصر صداقتنا فلا أدري بأية شدة سيحز الألم في نفسي بسبب صمتك. ها هو الوقت قد حان لحل العقدة الحمقاء والحاسمة في الوقت ذاته في مصيرك ومستقبلك، وهو الحل الذي كنت أنتظره دوماً بشيء من الخوف والهلع. حقاً ما الذي يتوقف على ذلك؟ تذكّر يا عزيزي. حياتك وراحتك وسعادتك، نعم سعادتك. لأنك لو لم تتغير بنفسك أو لم يتغير مصيرك منذ أن كتبت لي متحمساً عن أمانيك وعن فتاة أحلامك إيميليا فيمكنك طبعاً أن تتأمل في نوعية التغيير الذي يمكن أن يجريه نجاح الامتحان على مستقبلك. وبناءً على هذه الملابسات المتعلقة بمستقبلك أليس من القساوة البالغة حجب ثقتك عن أخيك في وقت أستطيع فيه أن أتقاسم معك صداقتي وسعادتي أو تعاستي يا حبيبي؟ آه يا صديقي العزيز. لك اللّه على ما تركتني فيه من جهالة مضنية لا تطاق.

نعم، لقد حصل لك شيء ما يا أخي. الزمن هو المحك. الزمن سيبين هل تحققت، لا أقول أحلامك، هل تحقق ما ومض في عينيك من بريق القدر حينما أضاء في أفق حياتك الحالك ركن منير شحن الفؤاد بالأمل والسعادة. الزمن وحده يمكن أن يقيّم ويحدد بوضوح

مجمل أهمية مراحل حياتنا هذه. الزمن يمكن أن يحدد، اعذرني يا أخي على كلماتي، يمكن أن يحدد هل كان هذا النشاط روحياً من الصميم وصافياً صحيحاً وواضحاً نيراً، شأن طموحنا الطبيعي في الحياة المكتملة للإنسان، أم أنه كان نشاطاً عبثياً خاطئاً من دون هدف وضلالاً اضطرارياً لقلب شخص يشعر بالوحدة والوحشة ولا يفهم نفسه ولا يزال في الغالب بلا وعي ناضج كالطفل الصغير، لكنه أيضاً متحمس مندفع بلا إرادة يبحث لنفسه عن قوت فيما حواليه ويهدر طاقاته في طموح غير طبيعي إلى «حلم وضيع». حقاً، من المحزن أن يعيش المرء حياة تعشش الكآبة في ثناياها عندما يتلمس المتاهات التي ولجها ويدرك الطاقات اللامحدودة التي يمتلكها ويرى أنها تعرضت للهدر والتبذير في نشاط زائف مناف للطبيعة، نشاط لا يليق بأرومة مثل أرومتك، ويفهم أن لهيب الروح مخنوق أطفأته أمور لا يعلم بها إلا اللّه، وأن القلب ممزق شذر مذر، وبأي سبب؟ بسبب حياة لا تليق حتى بالأقزام، وليس بالطفل العملاق، الإنسان بأوسع معنى للكلمة.[1]

وهنا أيضاً تدعو الحاجة إلى الصداقة، لأن القلب عندئذ يشبّك نفسه ويقيدها بأواصر ونياط خشنة، وتنهار معنويات الإنسان وتخبو جذوته أمام الأحداث وأمام تقلُّب أطوار فؤاده وكأنما هي من مقدرات المصير، فيعتبر خيوط العنكبوت التافهة شباكاً فظيعة لا فكاك منها ولا أحد يفلح في التملص منها وتذوي بوجودها كل الأحياء، بينما المصير هو القدر الحقيقي للمشيئة الإلهية، بمعنى أنه يؤثر فينا بقوة طبيعتنا المتكاملة التي لا تقف في وجهها أية قوة أخرى.

قطعتُ رسالتي لبعض الوقت بسبب الخدمة التي شغلتني. آه، يا أخي، ليتك تعرف كيف نعيش. تعال إلينا بأسرع ما يمكن،

يا صديقي العزيز، باللّه عليك تعال. ليتك تدرك مدى ضرورة تواجدنا معاً، يا صديقي العزيز. سنوات كاملة مرت على فراقنا. قصاصة الورق التي أبعثها من شهر لآخر هي الوسيلة الوحيدة للتواصل بيننا، فيما يمر الوقت وينقضي ويكدس الغيوم على رؤوسنا ويريق الدلاء. كل ذلك يمر بالنسبة لنا في وحدة كئيبة مضنية. آه، لو كنت تعلم كم توحشتُ هنا، يا صديقي الطيب العزيز. حبي لك حاجة مفهومة تماماً. فأنا حر طليق بالكامل، لا أعتمد على أحد، لكن الروابط بيننا، يا حبيبي، تجعلني أبدو وكأنني أعتمد بنيوياً على حياة شخص آخر.

ما أكثر ما انفلت وتبدد من تبدلات في عمرنا وأحلامنا وأمانينا وأفكارنا دون أن نلاحظه ولم يبق منه سوى المخزون في الفؤاد. عندما أراك سأشعر بأن كياني يتجدد، وأنا الآن لا أعرف الاستقرار على أية حال، وسير أوقاتي غير صحيح... أنا نفسي لا أدري ماذا جرى لي. تعال، باللّه عليك، يا صديقي وأخي الحبيب، تعال.

لا أدري هل ينبغي لي أن أخشى عليك من الامتحان؟ هل أنت مستعد له؟ بخصوص أساتذتنا الذين يديرون الامتحانات أنا واثق بهم. سيجرون امتحانك عندنا، كالعادة، ببساطة وسهولة لدرجة أنك ستؤدي الامتحان[2] حتى لو لم تراجع بعض المواد. والأمثلة كثيرة على هذه الحالة. أظن انك لست زعلاناً عليّ بسبب دفاتر الملخصات. أكرر هنا انك لست بحاجة إليها نظراً لقلة أهميتها. إنها مجرد تلخيصات بائسة لحد مخجل. ثم إنها غير متوفرة.

أختي[3] لم تكن موجودة في بطرسبورغ. ونحن سنغادر بيترهوف قريباً، إلى عنواننا في بطرسبورغ. وداعاً يا صديقي الطيب العزيز. هذه السطور كتبتها في أوقات مختلفة. يا ليتك تعرف بحياتنا التي لا تطاق الآن.

إذن، إلى اللقاء يا صديقي الطيب وأخي العزيز. اكتبْ لي بسرعة من كل بد.

ف. دوستويفسكي

---

(1) هنا يتجلى تأثير ميخائيل ليرمونتوف وروايته «بطل من هذا الزمان» على دوستويفسكي.

(2) وهذا ما حصل بالفعل، وقبل ميخائيل دوستويفسكي برتبة ملازم ثان هندسة عام 1841.

(3) يرجح أن المقصود الأخت الكبرى بربارة التي تزوجت آنذاك.



14. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 22 ديسمبر 1841

كتبت لي، يا صديقي الغالي، عن الألم الذي يحزّ في نفسك وعن مصيبتك، وقلت إنك، يا أخي الطيب الحبيب، في يأس وقنوط. ولكن تصور مدى حزني واكتئابي وألمي وأنا أسمع منك هذا الكلام. لقد اشتدت عليَّ الأحزان لدرجة لا تطاق. إنك تقترب من لحظة الحياة التي تزدهر فيها كل آمالنا وأمانينا، فتغرس السعادة في الفؤاد وهو مفعم بالغبطة والسرور. ولكن. . . ماذا نرى؟ هذه اللحظات يفسدها ويعكرها الحزن والضنى والهموم. يا عزيزي، يا حبيبي. يا ليتك تعلم كم أنا سعيد لأني أستطيع مساعدتك ولو بشيء طفيف. أرسل إليك بارتياح هذه «الحاجة» الزهيدة لعلها تعيد إليك بعض الهدوء. وانا أعرف أن هذا قليل. ولكن ما العمل إذا كنتُ، واللّه، لا أستطيع أكثر؟ حكّم عقلك يا أخي. لو كنت وحدي لأعطيتك كل شيء يا حبيبي. ولكنني أعيل أخي[1] ولا أريد أن أكتب عاجلاً إلى موسكو. كي لا يظنوا بي الظنون. هكذا إذن، أرسل لك هذه «الحاجة» وما فيها. ولكن ، يا إلهي، كم أنت مجحف، يا صديقي

الطيب الغالي، عندما تكتب كلاماً مثل: «سأسدد لك الدين». ألا تشعر بالخجل؟ حرام هذا الكلام بين الإخوة. هل يعقل أنك، يا صديقي ويا أخي، لا تعرفني على حقيقتي. إنني أستطيع أن أضحّي من أجلك ليس بهذا!! كلا، لقد كنتَ معتكر المزاج، ولذا أسامحك.

متى الزفاف؟ أتمنى لك السعادة وأنتظر منك رسائل مطولة. أنا حتى الآن لا أستطيع أن أكتب الكثير. هل تصدق بأني أكتب إليك الآن في الثالثة فجراً، ولم أذق طعم النوم ليلة البارحة. الامتحانات والدروس فظيعة. يسألون عن كل شيء، ولا أريد المجازفة بسمعتي. ولذا أحضّر الواجبات وأحفظ عن ظهر قلب «باشمئزاز».

أنا مقصّر كثيراً جداً بحق خطيبتك العزيزة، أختنا الطيبة الغالية، مثلك يا صديقي الطيب، ولكنْ ذات الطباع غير المفهومة.

هل يعقل أن ثقة الأقرباء بي قليلة لهذا الحد؟ أو أن هناك فكرة سيئة عني وكأنني عديم الاحترام ومعدوم اللياقة وشديد النفور، بل وأنوء بثقل جميع العيوب والخطايا لتكون هي متحيزة ضدي ولا تصدق بأنني لا أملك الوقت إطلاقاً وتزعل مني بسبب صمتي. لكنني لا أستحق ذلك، واللّه لا أستحقه. اعتذر لي منها لتصفح عني وتتساهل وتغفر لي، أنا الخاطئ اللعين، كل خطاياي وذنوبي. يطيب لي أن أسمّي نفسي أخاً لها محباً صادقاً طيباً، ولكن ما العمل؟ ليس في الأمر حيلة. أنا دوماً أعلل النفس وسأظل أعللها ببلوغ ذلك الطموح في آخر المطاف.

لن أكتب شيئاً عن نفسي وأحوالي في هذه الرسالة. لا أستطيع، لا وقت لدي. إلى حين آخر. أندريه تمرّض، وأنا في غاية القلق. ما أكثر متاعب السهر عليه. هذه مصيبة إضافية. تربيته ومعيشته معي، أنا الوحيد الحر الطليق المستقل، أمر يفوق طاقتي على التحمل. لا

مجال لممارسة شيء ولا الانشغال عنه. هل تفهمني؟ وإلى ذلك لديه طباع غريبة خاوية ومنفّرة تبعد عنه أياً كان. أنا آسف جداً لمحاولتي الغبية في إعالته. وداعاً يا صديقي الغالي. رافقتك السعادة!

المخلص

دوستويفسكي

ملحوظة: أبعث إليك 150 روبلاً. أكرر 150.

---

(1) كان دوستويفسكي آنذاك يستأجر شقة ومعه أخوه الأصغر أندريه.



15. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 31 ديسمبر 1843

لم نتراسل من زمن بعيد يا أخي الحبيب. ولا جدال أن ذلك لا يليق بنا كلينا. أنت متكاسل بطيء الحركة يا حبيبي. وما دام الأمر كذلك فلا يبقى سوى التشبث بذيل المستقبل، فيما أتمنى لك السعادة في رأس السنة ، لك وللصغيرة. إذا ولدت لك بنت سمّها ماريا[1].

احتراماتي وتقديري لإيميليا متمنياً لها عيداً سعيداً في رأس السنة وكل التهاني لها بهذه المناسبة. أتمنى لها موفور الصحة، وقبّل فيودور نيابة عني، أتمنى له أن يتعلم السير على القدمين.

والآن فلنتحدث عن أمور الدنيا يا حبيبي. على الرغم من أن كاريبين أرسل لي 500، إلا أنني، بناءً على الطريقة المنزلية القديمة، لا أزال مديناً بـ 200 روبل فضي. ولا بد من التخلص من الديون على أية حال. مَن جدّ وجد، والماء الراكد لا يحرك الجلاميد الساكنة. لقد باركني المصير بفكرة أو بشغلة، سمّها ما شئت. المهم أنها مفيدة جداً وأنا أسارع لأعرض عليك اقتراحاً بالمشاركة في العمل وفي المجازفة والمنافع. ذلك هو منبع القوة.

قبل عامين ظهرت باللغة الروسية ترجمة نصف المجلد الأول من رواية «ماتيلدا» لإيجين سيو، أي جزء واحد من 16 جزءاً من الكتاب. ومنذ ذلك الحين لم يصدر شيء آخر منها. على الرغم من اهتمام جمهور القراء. فقد ورد من إحدى المحافظات 500 طلب لمواصلة إصدار الرواية.[2]

(...). باتون وأنا، وأنت إذا أردت، نوحد جهودنا ونصدر ترجمة الرواية لمناسبة أسبوع الآلام (...) نقسم الترجمة إلى ثلاثة أجزاء متساوية ونواظب على إنجازها بجد. (...) تكاليف الطباعة في حدها الأدنى.(...) والرواية ستحظى برواج. الموزعون يتوقعون نفاد نسخها في ستة أشهر. هذه هي مبادرتنا، فهل ترغب في المشاركة؟ منافع المشروع بادية للعيان. يمكنك أن تبدأ الترجمة من الفصل «la cinquième partie». اكتبْ لي رأساً، هل ترغب في المشاركة أم لا؟

دوستويفسكي

ملحوظة: أجبني فوراً. وداعاً.

---

(1) تيمناً باسم والدة الكاتب ماريا دوستويفسكايا.

(2) لم يفلح دوستويفسكي في إصدار هذا الكتاب الهام، لكنه تأثر به دون ريب.

16. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، منتصف يناير 1844

أخي العزيز!

سررت لاستلام جوابك، وأسارع لأكتب لك بضعة سطور. تقول إنك ما كنت تعرف عنواني. لكنك، يا حبيبي، تعرف أنني أخدم في مديرية التخطيط الهندسي. فهل يقع خطأ إذا كتبت إلى مكان الخدمة؟ العنوان صحيح تماماً. لكنني فرح لحجتك، وأتقبلها. فأنت، على الأقل، لم تنسني تماماً يا عزيزي. مسرور جداً لسعادتكما. أتمنى لابنتك وفيودور الصحة والعافية. وإذا تعين عليّ التعميد عندك، فتلك مشيئة اللّه، فلينعم اللّه على الطفلين بالسعادة. أقبِّل يدي إميليا وأشكرها على الهدية التذكارية. بخصوص ريفيل سنفكر في الموضوع، مَن يعشْ يَرَ، على حد تعبير الأب غراندي.[1]

والآن أنتقل إلى شؤوننا. وهذه رسالة عمل. الملابسات عندنا تسير جيداً، ولأقصى حد. أنا مكلف بالتحرير، وستكون الترجمة جيدة. باتون إنسان يفوق التقدير عندما تصل الأمور إلى المصالح. وأنت تعرف أن أمثال هؤلاء الرفاق أفضل من أكثر الأصدقاء نزاهة

فيما يخص الغش والاحتيال. لا مناص من مساعدتك لنا، فحاول أن تترجم برشاقة وأناقة. أردت أن أبعث إليك الكتاب بهذا البريد، إلا أن النسخة موجودة عند باتون، وباتون أختفى. سأبعثه مع البريد التالي. ولكن، باللّه عليك، يا عزيزي، لا تخذلني. ترجمْ ونقِّح. حبذا لو أرسلت لي الترجمة في الأول من مارس كموعد أقصى. وسننجز بأنفسنا القسم المخصص لنا، ونسلم الترجمة إلى الرقابة. باتون على معرفة بالرقيب نيكيتنكو، وقد وعده بتمرير الرواية في أسبوعين. وسنطبعها دفعة واحدة في 15 مارس. ولعلك تسأل عن مصدر النقود، أنا استجمعت ما لدي، وسأقدم 500 روبل، وباتون يقدم 700، وهي متوفرة لديه، ووالدة باتون تعطينا 2000. إنها تقرض ابنها بفائدة 40%. هذه النقود كافية تماماً للطباعة، والباقي بالآجل.

تجولنا على جميع بائعي الكتب والناشرين، واتضح لنا ما يلي:

تشيرنوغلازوف، مترجم «ماتيلدا» لا يمتلك مالاً ولا فكرة عن الموضوع. ترجمته جاهزة، ونحن سنعلن عن ترجمتنا عندما يكون نصفها جاهزاً، وفي هذه الحالة يروح تشيرنوغلازوف في داهية. وهو نفسه مذنب، فلماذا فوَّت ثلاثة أعوام بين الجزءين الأول والثاني. كما يحق لأي كان أن يقدم ترجمتين أو ثلاثاً لنتاج أدبي واحد. الباعة يتعهدون بتوزيع ألف نسخة في المحافظات، ويتقاضون 40 كوبيكاً للروبل الواحد. قالوا لنا أن ليس من الحكمة إصدار الكتاب بأقل من ستة روبلات فضية للنسخة الواحدة، سعر طبعة بروكسل الفرنسية. وبالتالي سنستلم رأساً في مايو 3500 روبل فضي (. . .) وفي بطرسبورغ يؤكد الناشرون أنفسهم أن 350 نسخة ستعرض في السوق حتماً، ومنها 20% لأصحاب الأكشاك والمكتبات. ولن يقل ما

سنحصل عليه عن 5000 روبل فضي، منها 1000 ديون علينا، والـ 4 آلاف المتبقية ربح صاف لنا. قررنا أن نتقاسمها كثلاثة أخوة، وستحصل أنت على حصتك بالتأكيد (. . .) فابدأ الترجمة الآن.

يا شقيقي الحبيب! لدي رجاء ملحّ إليك. ليس معي نقود. وأحيطك أنني ترجمت في فترة الأعياد «أوجين غراندي» لبلزاك. روعة بكل معنى الكلمة. ترجمة منقطعة النظير. أكثر ما سيعطونني مقابل الترجمة 350 روبلاً. وأنا حريص جداً على بيعها. إلا أن الثري المرتقب لا يمتلك نقوداً ولا وقتاً. فلوجه ملائكة السماء ابعثْ لي 35 روبلاً لأنفق على المكاتبات. وأُقسم لك بآلهة الأولمب وبمسرحيتي الناجزة «اليهودي يانكل»[2] وبكل ما تريد، حتى بشاربيَّ اللذين سينبتان في زمن ما وأتعهد بأن أعطيك نصف الأجر الذي سيدفعونه لي على ترجمة «أوجين». كلمة شرف.

إلى اللقاء.

دوستويفسكي

مع أول بريد. مفهوم؟

---

(1) بطل رواية بلزاك «أوجين غراندي» بترجمة فيودور دوستويفسكي (1844).

(2) دراما مفقودة ألّفها دوسويفسكي متأثراً بما كتبه شكسبير ونيقولاي غوغول عن اليهودي الجشع.

17. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، يوليو - أغسطس 1844

أخي العزيز! الفترة بين رسالتك الأخيرة وردّي عليها كانت حبلى بأحداث كثيرة. لم ننجح في كل شيء، إلا أن بعض ما حدث كان موفقاً على أية حال.

استلمت «قطاع الطرق» وعكفت على المراجعة رأساً، وإليك رأيي في الترجمة: الأناشيد مترجمة بأروع صورة، وهي ذات قيمة نقدية تفوق التقدير. والنص النثري مترجم بشكل رائع أيضاً. من حيث القوة التعبيرية والدقة والأمانة. أنت تتشكى من لغة شيلر، ولكن لاحظ يا عزيزي أن هذه اللغة ما كان بوسعها أن تأتي على نحو آخر. وقد رأيت، في حالات متكررة، أنك أولعت كثيراً بلغة الحوار وكثيراً ما ضحيت بصواب المفردة الروسية من أجل الحفاظ على لهجة الحوار التقليدية. وإلى ذلك تظهر في بعض المواضع مفردات غير روسية، علماً بأن استعمال مثل هذه المفردات على الوجه المطلوب أمر في غاية الصعوبة من الناحية الفنية والإبداعية. وأخيراً نجد بعض العبارات مترجمة بمنتهى الإهمال. إلا أن الترجمة عموماً مدهشة بكل

ما في الكلمة من معنى. أجريت بعض التنقيحات وبدأت العمل رأساً. راجعت بيسوتسكي وميجيفيتش. الحقيران لا يفكران في نشر شيلر كله في مجلتهما. إنهما لا يفهمان الأفكار الجيدة، همّهما الوحيد هو المتاجرة. ولا يريدان نشر «قطاع الطرق» وحدها خوفاً من الرقابة. (وفكرت أن ننشر في مجلتهما «دون كارلوس» مع إعلان عن قرب صدور شيلر كله) وسيثير ذلك اهتمام القراء، وسيدفعان لنا مقابل «دون كارلوس»، وأصر من جانبي على أن يكون المبلغ مجزياً. ولذا باللّه عليك أكمل الترجمة بأسرع ما يمكن. في الخريف سنطبع رأساً «قطاع الطرق» و«فيسكو» و«دون كارلوس» و«ماري ستيوارت» ، باللّه عليك «ماري ستيوارت» أيضاً. ولا بد من الأشعار إذا كنت ترغب في النجاح. (اكتبْ يا صديقي، ترجم). أنا أتعهد بالنجاح، ولن أتركك بلا نقود. سترى أنهم سيتهافتون علينا كالذباب عندما يرون التراجم في أيدينا. وستنهال علينا العروض والطلبات من الموزعين والناشرين، هؤلاء الكلاب الذين صرت أعرفهم نوعاً ما.

إذن، عجِّل في ترجمة «دون كارلوس»، عجّل. فهذا يعطينا نقوداً نبدأ بها طبعتنا. آمل أنك لم تتكاسل، بل كنت تترجم طول هذه الفترة. ولو كنت تريد نقوداً كثيرة منذ البداية لكان عليك أن تبدأ من «دون كارلوس» مباشرة وليس بالتعاقب. لكنْ الأفضل هو تأمين جودة العمل.

ميجيفيتش يرجونا أن نوافيه على جناح السرعة بكل ما هو جاهز من كتابات شيلر في الدراما وفن المسرح. وخصوصاً المواضيع العاطفية الساذجة. أنصحك بترجمتها لتتوفر النقود، فأسرع في الترجمة. ولا تخش شيئاً. أنا لن أسلم الترجمة من دون نقود. إذن، واظب على العمل. على «دون كارلوس» والنصوص النثرية الآن.

و«فيسكو» و«ماري ستيوارت» فيما بعد. كل أملي فيك، يا أخي، فلا تصعر خدك. أنت تتذكر «سيميلا» و«غيرمان ودوروتيا». عندما رفضوا «سيميلا» في إحدى دور النشر أهملتَ الترجمة. بينما ظهرت مؤخراً في مجلة «مذكرات الوطن» بأتعس ترجمة. وكذلك «غيرمان ودوروتيا» وكلتاهما حققتا نجاحاً. فلماذا؟ لأنك، يا عزيزي، صعرت خدك في وقت غير مناسب. باللّه عليك، سارع واشتغل. النفع سيكون مجزياً. «فيسكو» و«ماري» في البداية ثم يمكنك العمل على مهل. وسنطبعهما حالما يتوفر المال. وسيتوفر. يمكننا في هذه الحالة أن نضغط على الناشرين في موسكو.

والآن لن تحزر، يا أخي الحبيب، حتى لو ساعدتك كل الشياطين، من التقيتُ في بطرسبورغ. عائلة ميركوروف!! التقيتهم بالصدفة، واستأنفت العلاقة معهم طبعاً. أحدثك بالتفاصيل. أقول أولاً، يا أخي، إنهم أناس طيبون. ماريا كريسكينتيفنا امرأة مدهشة. أحترمها من كل قلبي. ميركوروف فيه شيء من خشونة البيكارديين، إلا أنه رجل محمود. لقد حققا ثراءً، دخلهم السنوي يناهز السبعة آلاف. الشيخ ميركوروف توفّي على ما أظن. فانفصلا بعضهما عن بعض من بعده. ولستَ محقاً عندما اعتبرته من الدرك. لقد خدم في الدرك ستة أشهر فقط. ثم انتقل إلى فوج الخيالة في أولفيوبولسك في الجنوب. ثم أوفد إلى بطرسبورغ للخدمة في الفوج النموذجي. حصل ذلك عندما جرى ترفيعك إلى سلك الضباط ولم نكن نعلم به. وأخيراً بات يخدم من جديد ضابط أركان، وأحيل على التقاعد التام، ويقيم في بطرسبورغ. استقبلاني بمنتهى الحفاوة. وهما على عاداتهما القديمة، لكنهما لم يتطرقا إلى النقود في اللقاءات الأربعة الأولى. وأنا أيضاً لم أتطرق إليها. كنت أشعر بالخجل. إلا أن حادثاً مؤسفاً

جرى لي بالصدفة. كنت أفتقر إلى النقود. إلا أن ترجمتي لرواية جورج صاند «ألديني الأخيرة» أوشكت على الانتهاء، فيما عرفت مرتعباً أن الرواية مترجمة في عام 1837. ارتبكتُ كثيراً ووقعت في أشد حال من الانفعال. كتبتُ إلى موسكو، فيما بقيت أتلوى ألماً في بطرسبورغ. ودفعتني الحاجة إلى الاقتراض من ميركوروف. وبدلاً من الرد المباشر دعاني لاحتساء الشاي. وقال لي إنه يشعر بالخجل من رسالتي، لأنني ينبغي أن أطلب مستحقاتي. وإنه كان صامتاً لعدم توفر السيولة، وقد رأيته ذات مرة بالفعل ينفق 2000 على بعض المشتريات. وأنه ينتظر استلام مبلغ في القريب العاجل وكان يريد أن يعطينا المال دون طلب منا، ليثبت احترامه لنفسه. إلا أنه يشعر بالخجل الآن لأنني ذكّرته بالموضوع. ولعدم توفر النقد رجاني أن أقبل منه 50 روبلاً ورقياً. فقبلتها، لأنك لا تعرف ، يا أخي، مدى حاجتي إليها. هما يبلغانك تحياتهما، اكتب لهما، يا أخي، فهما مهتمان كثيراً بأحوالك. وقد دهشا لنبأ زواجك. ما أجمل السعادة. النقود باتت أكيدة. في السابق ما كان يريد أن يدفع، وعندما رآني من جديد تأكد لي منذ اللقاء الأول أنه ينوي أن يدفع، خاصة وأن لديه نقوداً. اكتبْ له، رجاء، بمزيد من المودة، ولا تطلب المزيد من النقود. فهي ستصل في كل الأحوال بأقرب وقت ممكن.

ولكنْ يمكنك أن تذكر عرضاً وتشير إلى مجمل الدين لا على التعيين. فهو قد نسي المبلغ. وأنا لا أعرفه تحديداً. وداعاً، يا حبيبي، أهنئك بالأكلة غير المتوقعة. أعطه عنوانك في ريفيل. وبلّغني. عندما يدفع لك. فالنقود ليست لي، وأنا لن أستلمها. إنه يقيم على مقربة مني، جنب كنيسة فلاديمير. شارع فلاديمير، منزل ناشوكين، صاحب السعادة.

وداعاً. بلّغ تحياتي لزوجتك الرقيقة وقبّل الطفلين، رافقتك السعادة والأناقة.

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: أحيطك بأن أويبودوفسكي ترجم «دون كارلوس». تنبه يا أخي، خذ بالك، وعجّل. أويبودوفسكي لم ينشر الترجمة بعد، بل ولا ينوي نشرها حتى الآن.

قد أكسب قرابة 500 روبل في مقابل«دون كارلوس». لا يمكننا نشر الترجمة جزءاً جزءاً. جمهور القراء لا يزال يتذكر غوته. كلا، لن نستطيع.



18. إلى بطرس كاريبين[1]

بطرسبورغ، 7 سبتمبر 1844

السيد بطرس أندريفيتش الموقر!

في رسالتي الماضية إلى أخي ميخائيل طلبت منه أن يتعهد لعائلتنا كلها بالنيابة عني بأنني حالما أتسلم المبلغ المطلوب لن أخالف الاتفاق الذي ترغبون في عرضه عليَّ باسم جميع أهلنا، وأن أخي ميخائيل ينبغي أن يستجيب بنفسه لمطالبي المستقبلية أو يدفع لي في النهاية بنفسه جزءاً من حصته. ولكوني على يقين بأن أخي ميخائيل سيؤدي ما طلبته منه رأيت من الضروري أن أشغل بالكم مرة أخرى بهذه الرسالة.

يخيل لأخي، كما كان يخيل إليَّ من زمان، أن التقسيم العائلي بالتراضي أسهل بكثير من القسام الشرعي، ويمكن التقيد به من الجانبين أولاً، ثم يصار إلى التقيد بالقوانين. وطبيعي أنني لست أنا الذي يمكن أن يعرض عليكم هذا المقترح، فإن وكالة شقيقي تستطيع طبعاً أن تعجل في سير الإجراءات. نظراً ليقيني بأن التدبير الذي اتخذتُه الآن، أي الاستقالة بسبب الديون وسوء الحال، سيقابل

بصيحات واتهامات وكأنني أريد أن أعيش عالة على إخواني وأخواتي، ولذا أرى أنني ملزم بأن أتميز، رغم أن القضية مهمة في الملابسات التي أعيشها. وللأسباب المذكورة أعلاه أحدد المبلغ بـ 1000 روبل فضي الذي يعتبر، على خلفية تسديد الديون الرسمية والشخصية وغيرها ، مقبولاً تماماً، بل هو بالتأكيد أقل من المطلوب إذا أخذنا بالاعتبار تقديراتكم السابقة.

من هذا الألف الفضي أرجو تسديد 500 روبل دفعة واحدة، وتسديد الباقي على أقساط بمقدار عشرة روبلات في الشهر. (. . .). ولا بد من الاعتراف، يا بطرس أندريفيتش، بأن الموافقة والقرار يعودان لك. ويمكنك أن ترفض كل هذه المقترحات بآلاف الحجج والأعذار. (. . .) إلا أن حكمتكم ونبلكم ومشاطرتكم التي ترافق كل خطوة تخطونها إنما تساعد، في اعتقادي، على تخفيف مرارة ما أكتبه من سطور بمقتضيات الضرورة.

(فهل يعقل أن غضبكم عليَّ يبقى دون تغيير بعد هفوات الشباب من جانبي تجاهكم؟).

ملابسات حياتي الحالية كالآتي: في منتصف أغسطس قدمت استقالتي لكثرة ديوني ولا يكفي الإيفاد لتسديدها، ما يعني أن الضابط المعروف بدأ خدمته بشكل غير حميد. ثم إن معيشتي نفسها ليست هي الجنة. فالديون التي تتجاوز الإمكانيات أمر مسموح به للأثرياء. وحتى في الملابسات غير المقبولة ينظر الناس إلى ذلك بعين الاحترام. أما الفقير فيواجهونه بالصد والرد. كان من الأفضل مواصلة الخدمة وتوزيع الشكاوى ذات اليمين وذات الشمال. ثم إن استقالتي جاءت بسبب التسرع. الديون تعذبني ولا أستطيع سدادها منذ ثلاث سنوات. وكان يعذبني غياب أمل التسديد في المستقبل. ولذا أقدمت على

الاستقالة لغرض واحد هو تسديد الديون بالطريقة المعروفة، بتقسيم المزرعة التي هي صغيرة جداً، على حد تعبيركم، لكنها تصلح لهذا الغرض. أما احترام ذكرى الوالدين فلأجل هذه الملابسات تحديداً أريد أن أستخدم تركتهما لهدف ما كان والدي سيبخل باستخدامها من أجله. أي من أجل استقرار ابنه ومن أجل الصرف على الطريق الجديد والتخلص من سبة الدنيء على الرغم من أن أحداً لم يشتمني بها صراحة. طلبات التقسيم وفق الملابسات العائلية يتخذ بشأنها القرار السامي في الأول من أكتوبر. ولا يحتاج النظر في القضية إلى أكثر من عشرة أيام، وربما أسبوعين. منتصف الشهر يقترب. وسأقال. وسيتهافت عليَّ الدائنون بلا رحمة، لاسيما وانني لن أكون في البزة (الرسمية)، وسأتعرض لأشد أنواع الأذى. ومع أنني توقعت شيئاً من هذا القبيل، وإذا صدقت توقعاتي وافتراضاتي، وأنا مستعد لها، إلا أنني، وأظنكم توافقونني، لن أذهب إلى السجن مترنماً بأنشودة الشجاع الأحمق. فهذا مبعث للضحك والسخرية على أية حال. ولذلك أكتب إليك، يا بطرس أندريفيتش، هذه الرسالة لآخر مرة. لأعرض حاجتي الملحة لآخر مرة، وأرجوك أن تساعدني بأسرع ما يمكن، ولآخر مرة، وفقاً للشروط المقترحة، ولو ليس دفعة واحدة، بل على الأقل بالقدر الذي يكفي لسد الرمق وستر البدن. وأخيراً، أقول، ولآخر مرة، وأنا جاهل تماماً بقرارك، إن الأفضل لي أن يتعفن بدني في السجن من أن أعود إلى الخدمة قبل انتهاء مشاكلي وديوني.

ف. دوستويفسكي

---

(1) الوصي على تركة دوستويفسكي (الأب) اعترض على بيع حصة الكاتب من المزرعة بالتراضي عائلياً.

19. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 30 سبتمبر 1844

أخي الحبيب!

استلمتُ «دون كارلوس» وأسارع إلى رد عاجل، ليس عندي وقت. الترجمة جيدة جداً، بل مدهشة في بعض المواضع من حيث جودتها. وفي بعض السطور رديئة، لأنك ترجمت على عجل. ولكن لا أكثر من ستة سطور رديئة. تجرأتُ على تصحيح بعض المواضع، كما نقحت بعض الأشعار لتأتي طنانة. وأكثر ما يثير الأسف أنك استخدمت مفردات أجنبية لا مبرر لاستخدامها. كما أنك استخدمت مفردة «سير»، ولا أدري كيف هي في الأصل، لكنني أعرف أنها غير مستعملة في إسبانيا، بل كانت في أوروبا الغربية فقط، في الدول ذات الأصول النورماندية. إلا أن تلك هفوات طفيفة. الترجمة جيدة لحد مدهش. أفضل مما كنت أتوقع. وسأحملها إلى الأحمقين في «المسرح الروسي والأوروبي». فليفغرا فاهيهما دهشة. وإذا كانت لديهما ترجمة أوبودوفسكي، وهذا ما أخشاه، فسأحمل ترجمتك إلى «مذكرات الوطن». ولن أبيعها رخيصاً. فلا تقلق. وحالما أبيعها

أبعث إليك النقود. وفيما يخص إصدار شيلر فأنا أوافقك طبعاً، حتى أني أردت أن اقترح عليك بنفسي تقسيم العمل على ثلاثة أعداد أو إصدارات. في البداية ننشر «قطاع الطرق» و«فيسكو» و«دون كارلوس» و«الغدر». والرسائل عن كارلوس والسذاجة. وسيكون ذلك أكثر من جيد. وسنفكر في موضوع الناشرين. إلا أن الأفضل أن نتولى المهمة بأنفسنا، وإلا لن نكسب شيئاً. أنت واظب على الترجمة ولا تفكر في النقود. سنجدها على أية حال، بصورة أو بأخرى. ولكن، يا أخي، ينبغي أن ننجز العمل بعد شهر، أي نعزم على الإنجاز، فلا يمكننا الإعلان بعد ذلك. ومن دون الإعلان نعود بخفَّي حنين. ولذا سأصر على نشر بضع كلمات حول الموضوع في «المسرح الروسي والأوروبي».

الترجمة ستثير ضجة. والكسب سيكون مذهلاً حتى في أدنى درجات النجاح. ولكنني أنا نفسي، يا أخي، أعرف أنني في ظروف جهنمية، ولذا أوضح لك:

قدمت استقالتي، لأنني، أقسم لك بأغلظ الأيمان، لم أتمكن من مواصلة الخدمة. لا أجد مسرّة في الحياة عندما ينتزعون مني عبثاً أفضل الأوقات. والحقيقة أنني لم أكن أبداً أرغب في خدمة طويلة، وبالتالي فما الداعي لتضييع أفضل السنوات؟ والأهم أنهم أرادوا أن يوفدوني، فقل لي رجاءً ماذا أستطيع أن أفعل من دون بطرسبورغ؟ وهل أصلح لشيء بعدها؟ هل تفهمني؟

بخصوص حياتي لا تشغل بالك. سأجد لقمة العيش قريباً. سأعمل كالمجنون. فأنا حر طليق الآن. ولكن ماذا أفعل حالياً، في الوقت الحاضر؟ تلك هي المسألة. تصور جيداً يا أخي إنني مدين بـ 800 روبل، منها 525 روبلاً ورقياً لصاحب البيت. وقد كتبت

لأهلي أن ديوني 1500 روبل، لعلمي أنهم تعودوا دوماً على إرسال ثلث ما أطلب.

لا أحد يعرف أنني قدمت الاستقالة. فماذا سأفعل إذا قُبلت؟ ليس لدي ولا كوبيك واحد لشراء بدلة. استقالتي ستتم في 14 أكتوبر. وإذا تباطأ خنازير موسكو فسأقع في داهية. وواضح أن السجن ينتظرني. من سخرية المصادفات أنك تتحدث عن التقسيم العائلي للتركة. ولكن هل تعرف كم أطلب في مقابل حصتي منها؟ في مقابل تنحيتي من المشاركة في شؤون المزرعة حالياً ثم سحب حقوقي منها عندما تتوفر الفرصة، أي في مقابل التنازل لهم عن مزرعتي الآن، أنا أطلب 500 روبل فضي إلى جانب 500 روبل فضي تسدد على أقساط بـ 10 روبلات في الشهر. هذا كل ما أطالب به. ألا توافقني بأن ذلك قليل ولا يسيء إلى أحد؟ ومع ذلك لا يصغون إليّ. ألا توافقني بأنني لست ملزماً أن أقترح عليهم هذا الحل الآن؟ إنهم لا يثقون بي. يظنون أنني سأغدر بهم. فتعهد لي عندهم، يا روحي، رجاءً. قل لهم إنك تتعهد بكل ما تملك نيابة عني، وإنني لن أوسع مطالبي لاحقاً. وإذا لم يتوفر لديهم المبلغ المطلوب، فيمكنني أن أكون مسروراً لـ 700 أو حتى 600 روبل ورقي وأكتفي بذلك حالياً، فتشفّع لي وتعهّد بأنني سأقبلها على حساب المبلغ الإجمالي وهو500 روبل فضي نقداً و500 روبل فضي بالتقسيط.

تقول إن الدراما هي سفينة النجاة بالنسبة لي. ولكن الإخراج يتطلب وقتاً، كما يتطلب أجوراً. وقبول الاستقالة على الأبواب. بالمناسبة لو كنت لم أقدم استقالتي حتى اليوم لقدمتها الآن. ولست نادماً.

لدي أمل. فأنا أوشك على إنجاز رواية بحجم «أوجين

غراندي»[1]. وهي رواية أصيلة تماماً. أعكف الآن على تبييض المسودة، ولعلّي سأستلم رداً عليها في 14 يناير. سأقدمها إلى «مذكرات الوطن». وأنا راض عن الرواية، وربما سأتقاضى 400 روبل عنها. تلك هي كل آمالي. كان بودّي أن أحدثك أكثر عن روايتي، ولكن لا وقت عندي. كما سأعمل في الدراما كمورد للرزق.

الخنزير كاريبين غبي كحصان مخصي أدهم[2]. أهالي موسكو من أمثاله معتدّون بأنفسهم لحد يفوق الوصف. إنهم بُلْهٌ، طبول طنانة جوفاء. في رسالته الأخيرة نصحني كاريبين دون مناسبة أن لا أولع بشكسبير. يقول إن شكسبير وفقاعة الصابون شيء واحد. أريد لك أن تفهم هذا التحامل المضحك على شكسبير. ما علاقة شكسبير في الموضوع؟ أجبته برسالة توقفه عند حده. باختصار أجبته بنموذج للجدل الحقيقي. لو تعلم كيف ألقمته حجراً. وأنت تعرف لهجة رسائلي.

اكتبْ إلى الأهل بسرعة يا أخي، باللّه عليك. أنا في وضع عصيب وفظيع. فالرابع عشر من الشهر هو الموعد الأقصى بعد أن قدمت الاستقالة قبل شهر ونصف. أرجوك، لوجه مالك السموات والأرض، اطلبْ منهم أن يرسلوا إليَّ نقوداً. لأشتري بدلة على الأقل. فسأكون من دون البزة العسكرية. خليستياكوف[3] لم يوافق على دخول السجن إلا في هندام مقبول. وإذا لم يبق لي بنطال فهل أدخل السجن مهندماً؟!

... كاريبين يحتسي الفودكا، ويشغل وظيفة في الدولة ويؤمن باللّه. بمعنى أنه اعتمد على نفسه وفطنته.

عنواني: منزل بريانشكيوف قرب كنيسة فلاديمير في زقاق غرافسكي. لعناية دوستويفسكي.

أنا راض تماماً على روايتي، ومسرور لها جداً. وأظن أنني سأستلم نقوداً منها، ولكن اللّه أعلم.

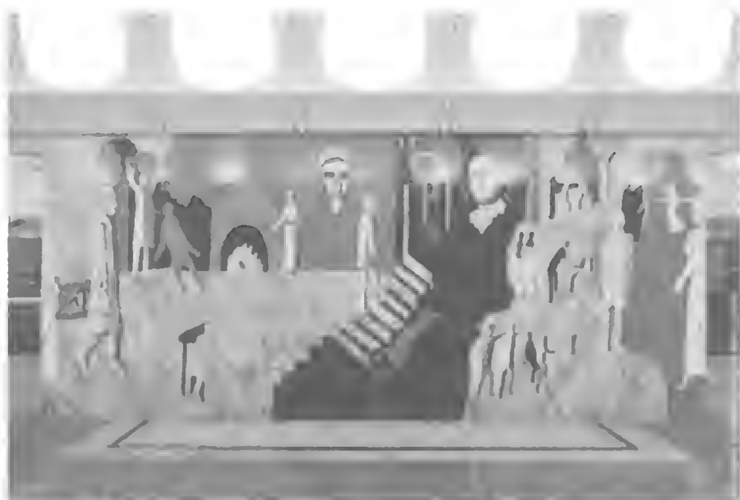
لا مؤاخذة على عدم ترابط الرسالة.

---

(1) يرجح الباحثون أن دوستويفسكي أوشك آنذاك على إكمال المسوّدة الأولى من روايته «المساكين» (أو «الفقراء» حسب ترجمة سامي الدروبي).

(2) التوصيف مقتبس من كوميديا غوغول «المفتش العام».

(3) بطل مسرحية «المفتش العام».



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

20. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ ، 24 مارس 1845

أخي الكريم!

أكيد طال انتظارك لرسالتي يا أخي العزيز. أوضاعي المتقلقلة هي التي أعاقتني عن الكتابة إليك. لا أستطيع القيام بشيء عندما لا ترى عيناي سوى المجهول وضعف العزيمة. ومع أنني لم أحقق حتى الآن ما هو إيجابي بشأن أوضاعي الشخصية فأنا أكتب لك، لأنه كان من اللازم أن أكتب من زمان.

استلمت من موسكو 500 روبل فضي. لكن ديوني القديمة والجديدة المتراكمة التهمتها ولم يبقَ منها ما يكفي للطباعة. ولا ضير كبيراً في ذلك، لأن بالإمكان الاقتراض من المطبعة أو عدم تسديد بعض الديون المنزلية، إلا أن الرواية لم تكن جاهزة تماماً. أنهيتها في نوفمبر تقريباً، لكنني صممت في ديسمبر أن أعيد هيكليتها، فعكفت على الإعادة، إلا أنني عمدت في فبراير إلى تنقيحها من جديد بحذفٍ وإضافة وما إلى ذلك. وفي منتصف مارس على وجه التقريب كنت جاهزاً وقانعاً. إلا أن ثمة مسألة أخرى. فالرقابة لا تقبل بأقل من

شهر. ولا تقوم بفحص الكتاب قبل هذه المدة. أشغالهم كثيرة كما يقولون. أخذت المخطوطة منهم ولا أدري ماذا أفعل. فبالإضافة إلى الرقابة التي تستغرق أربعة أسابيع تلتهم الطباعة ثلاثة أسابيع أخرى. وستصدر في مايو، وهو موعد متأخر. بدأت عليَّ ضغوط ذات اليمين وذات الشمال لأسلم المخطوطة إلى «مذكرات الوطن». وتلك مسألة ميئوس منها. لن أكون مسروراً إذا سلمتها. فهم لن يقرأوها. هذا أولاً، وإذا قرأوها فبعد نصف عام. لديهم مخطوطات كثيرة حتى من دونها. ويطبعونها دون أن يدفعوا شيئاً. تلك أشبه بمؤسسة أوليجاركية. وما حاجتي إلى الشهرة إذا كنت أكتب من أجل القوت؟ ولذا قررت القيام بخطوة مستميتة هي أن أنتظر وأقترض من جديد، حتى الأول من سبتمبر عندما ينتقل الجميع إلى بطرسبورغ ويبدأون، ككلاب السباق، يتشمّمون بمناخيرهم للعثور على شيء مستحدث ويدسّون روايتي على آخر الفتات التي يمكن أن لا تبلغها. دفع الكتاب إلى المجلة يعني الانحدار إلى الوهدة التي يتحكم فيها ليس الموظف الرئيسي فقط، بل وكذلك جميع المسؤولين الصغار ومساعديهم المعششين في أعشاش الثقافة والتنوير. المدراء لا أقل من عشرين، وليس مديراً واحداً. أما إذا طبعنا الرواية بالاعتماد على أنفسنا فسنشق الطريق بصدورنا، وإذا كانت الرواية جيدة فلن تفشل، بل ستخلصني من ربقة الديون وتطعمني.

والآن أكتب عن الطعام. أنت تعرف، يا أخي، أن الحبل عندي متروك على الغارب من هذه الناحية. ومهما يكن من أمر فقد أقسمت أن أصمد ولا أكتب حسب الطلب حتى لو مت جوعاً. فالطلب يقتل كل المبادرات. وأنا أريد لكل ما أكتبه أن يكون جيداً بلا جدال. انظر إلى بوشكين، وإلى غوغول، كتبا القليل لكن تمثالين ينتظرانهما.

ويتقاضى غوغول الآن على الملزمة الواحدة 1000 روبل فضي. أما بوشكين، وأنت تعرف ذلك، فقد باع البيت الشعري الواحد بوزن الذهب (عشرة روبلات). إلا أنهما دفعا ثمن تلك الأمجاد، وخصوصاً غوغول، بسنوات من البؤس والجوع. المدارس القديمة تندثر. والمدارس الحديثة تتعثر ولا تكتب. كل المواهب تنفق على نطاق واحد واسع تلوح فيه أفكار رهيبة مبتورة وعضلات مفتولة لا جدوى منها، فالعمل الحقيقي نزر يسير. قال فيرانجيه عن الكتّاب الفرنسيين الفكاهيين المعاصرين إنهم لا أكثر من قنينة نبيذ في دلو من الماء. وعندنا يقلدونهم أيضاً. رافائيل كان يرسم طوال سنوات يصقل ويشذب ويهذب خلالها فتخرج المعجزات من بين يديه. الآلهة خرجوا من بين يديه. فيما كان فيرنيه يرسم لوحة في الشهر تعرض في قاعات خصوصية بالغة الاتساع وسط آفاق عريضة ولمسات فرشاة متباعدة، والنتيجة لا شيء. إنهم لا أكثر من رسامي ديكورات!

أقول بكل جد أنا راض عن روايتي. إنها ذات حبكة قويمة ملتزمة. وهناك، على فكرة، نواقص فظيعة، والنشر سيكافئني. لكنني لا أزال خالي الوفاض. أفكر في كتابة شيء ما كبداية أو كوسيلة للكسب. إلا أنني لا أريد أن أكتب تفاهات، فيما يتطلب العمل الحقيقي وقتاً طويلاً.

يقترب الموعد الذي وعدت بزيارتكم فيه يا أصدقائي الأحبة. وطالما تنعدم الوسيلة، أي النقود، فقد رأيت أن أبقى في الشقة القديمة. وقَّعت هنا على الأقل عقد إيجار لمدة ستة أشهر لن أفكر خلالها في هذا الموضوع. والقضية أنني أريد أن أسدد الديون من خلال الرواية. وإذا فشلت لربما أنتحر.

أطمح إلى توفير 300 روبل على الأقل قبل أغسطس. فبهذا

المبلغ أيضاً يمكن طبع الكتاب. إلا أن النقود تزحف كسرطان البحر في جهات مختلفة. كانت ديوني قرابة 400 روبل فضي، مع المصروفات والبدلة. بمعنى أن لدي ما أرتديه مدة سنتين على الأقل بهندام مقبول. عموماً سآتي إليكم من كل بد. اكتبْ لي على جناح السرعة ما رأيك بخصوص شقتي. تلك خطوة حاسمة. فما العمل؟

كتبتَ لي تقول إنك خائف من مستقبل بلا نقود. إلا أن شيلر سيعوض عن كل النفقات، وإلى ذلك لا يعرف أحد كم سيباع من نسخ روايتي. وداعاً، أجبني بأسرع وقت. سأطلعك في البريد القادم على كل قراراتي.

أخوك دوستويفسكي

ملحوظة: قبّل الأطفال وبلّغ تحياتي إلى إميليا. إنني أفكر فيكم كثيراً. ولعلك تريد أن تعرف ماذا أعمل أنا عندما لا أكتب؟ أنا أقرأ. أقرأ بنهم فظيع. والقراءة تؤثر عليَّ بشكل غريب. أقرأ من جديد شيئاً مما كنت قد قرأته من زمان، فأنفعل لقوى وطاقات جديدة، وأتبحر في كل التفاصيل، وأفهمها بوضوح وأنتزع منها القدرة على الكتابة.

كيف تتحدث (بهذه البساطة) عن كتابة الدراما يا أخي. تلك مسألة تحتاج إلى سنوات من العمل والهدوء، بالنسبة لي على أية حال. الكتابة المسرحية الآن شيء جيد. الدراما انضوت تحت لواء الميلودراما. تألق شكسبير يخفت في الغسق ويلوح كالإله عبر غبش الكتّاب المسرحيين العشوائيين وكأنه الروح القدس يطل من فوق جبل بروكين هارتس. على فكرة، في الصيف ربما سأكتب (الدراما). عامين أو ثلاثة، وسنرى. أما الآن فلننتظر!

يا أخي، من ناحية الأدب أنا لم أعد ذاك الذي كان قبل عامين.

آنذاك كانت هناك صبيانية وهذر. عامان من الدراسة جاءا بالكثير وأخذا الكثير.

قرأت تواً في «الإنفليد» مقالة في الهجاء الاجتماعي عن الشعراء (والملحنين) الألمان الذين لقوا حتفهم بسبب المجاعة والبرد وفي دار المجانين. عددهم 20 تقريباً، وبينهم أسماء شهيرة.[1] لا أزال حتى الآن أشعر بالرعب. لا بد لجماعة «الإنفليد » أن يكونوا نصّابين ليكتبوا عن أشياء كهذه. . . .

(1) منهم ، بحسب المجلة الروسية، ليسنغ وشيلر وموزارت وبتهوفن.





ثانياً:

ما قبل «مذلون مهانون»

(1861)



21. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 3 سبتمبر 1845

صديقي الغالي!

أكتب إليك فور وصولي، كما اتفقنا. وأذكر لك يا صديقي الحبيب ما أكثر المنغصات والضجر والأحزان والدناءات التي تحمّلتها في الطريق وفي اليوم الأول من مكوثي في بطرسبورغ. إنها أكثر مما تتحمّل ريشتي كتابته. أولاً، عندما ودعتك مع إميليا العزيزة ركبت الباخرة بمزاج معتكر للغاية. الزحام رهيب. وأحزاني لا تطاق. تحركنا في بداية الواحدة ظهراً. وكانت الباخرة تزحف ولا تسير. والريح مؤذية والأمواج تصفع المتن كله، وانتابني برد شديد فأمضيت الليل جالساً فاقد المشاعر تقريباً ومن دون قدرة على التفكير. وأتذكّر الغثيان الفظيع الذي انتابني وجعلني أتقيأ ثلاث مرات. في اليوم التالي وصلنا إلى كرونشتادت في الرابعة بعد الظهر، أي بعد 28 ساعة. انتظرنا حوالى ثلاث ساعات ثم ركبنا في الغسق باخرة صغيرة مزعجة أخرى اسمها «أولغا» سارت بنا قرابة ثلاث ساعات ونصف في ظلام الليل والضباب. ما أشد حزني وأنا أدخل بطرسبورغ. كنت

أقلّب مستقبلي بغموض ونحن في تلك الساعات الثلاث المميتة لوصولنا. خصوصاً بعد أن تعودت عليكم وتعايشت معكم وكأنني موجود في ريفيل من مئة عام. وبدت لي بطرسبورغ والحياة القادمة فيها فظيعة خالية لا تبعث على السرور.

إلا أن الضرورة قاسية، لدرجة أنني قد أفضّل إنهاء الحياة في هذه اللحظات وأتقبل الموت بارتياح على ما أظن. أنا لا أبالغ. كل هذه التمثيلية لا تساوي شروى نقير. أنت، يا أخي، ترغب في المكوث في بطرسبورغ. فإذا جئت تعال بالطريق البري. إذ لا أفظع من دخولها، وخصوصاً في الليل، من جهة نيفا[1] هكذا خيل إليَّ على الأقل. وأنت محق عندما لاحظت أن أفكاري لا تزال حتى الآن تتأرجح كاهتزازات الباخرة.

عندما وصلت إلى الشقة في الثانية عشرة ليلاً لم أجد صاحب البيت، كان يخدم مؤقتاً في مكان آخر. استقبلني الفراش فرحاً، ولا أدري لماذا، وسلمني المفتاح اليتيم للشقة التي استأجرتها بـ 600 روبل والدفع بالآجل. ولم أستطع حتى أن أحتسي الشاي بالقدر الذي أريد، فأويت إلى النوم في مزاج معتكر جداً. عندما استيقظت اليوم في الثامنة رأيت صاحب البيت واقفاً أمامي. أجاب على تساؤلاتي مؤكداً أن كل شيء باق على حاله. في الشقة شيء من التصليح. غريغوريفيتش ونكراسوف غير موجودين بعد في بطرسبورغ. ثمة إشاعة بأنهما سيأتيان على الأرجح في 15 سبتمبر. وحتى هذه الإشاعة مشكوك فيها. وبعد مقابلة قصيرة وحاسمة جداً مع بعض الدائنين مضيت لأعمالي دون أن أحقق شيئاً. تصفحت المجلات وتناولت طعاماً على عجل واشتريت ورقاً وريش كتابة. هذا كل شيء. لم أذهب إلى بيلينسكي، غداً أنوي الذهاب إليه. فاليوم مزاجي معتكر

إلى أبعد الحدود. في المساء جلست لأحرر الرسالة، وأنا على وشك الانتهاء منها. فجاءت باهتة كئيبة تعكس حالتي العصبية الراهنة. «دنيا اللّه مملة، يا سادة»[2].

أكتب لك هذه الرسالة لأني وعدتك بالكتابة سريعاً. هذا أولاً، وثانياً الكآبة نفسها دفعتني لكتابتها. ما أشد أحزان الوحدة يا أخي. وقد أخذت أحسدك أو أغبطك الآن. أنت سعيد يا أخي. حقاً، سعيد ولا تدري بذلك. مع البريد القادم سأكتب لك أيضاً. يشغل بالي بعض الشيء أنني بلا نقود تقريباً حتى منتصف الشهر. انشغال البال بهذا الأمر ليس كبيراً، لأنني في الحال الحاضر لا أستطيع أن أفكر في شيء. عموماً، تلك سخافات. أنا مرهق جداً، وأريد أن أنام، لأن الليل قد حل. وسيقول المستقبل شيئاً. للأسف الشديد لا بد من العمل لنعيش. عملي لا يتحمل الإكراه.

لن تصدق، يا أخي، إذا قلت لك إنني أتوق إلى العيش معكم ولو ساعتين أخريين. فهل ينطوي المستقبل على شيء، هل سيأتي بشيء؟ أنا الآن مثل غوليادكين[3] الذي سأبدأ به، على فكرة، غداً. أما الآن فوداعاً. حتى البريد التالي. وداعاً يا صديقي الحبيب، تحياتي لإميليا وقبلاتي للصغيرين. ألا يزال فيودور يتذكرني أم أنه يبدي لامبالاة؟ وداعاً يا أعز أعزائي، إلى اللقاء!

المخلص دوستويفسكي

غولیادكين انتفع من كآبتي. فولدت لدي فكرتان ووضع جديد. ولكن، وداعاً يا عزيزي. ماذا؟ هل سيحصل لنا شيء بعد عشرين عاماً؟ أنا لا أدري ماذا سيحصل لي. الشيء الوحيد الذي أعرفه أنني أتعذب الآن كثيراً.

تحياتي واحتراماتي لعائلة ماريا وألكسندر بيرغمان . بطرسبورغ لا تزال خالية. ذوى وذبل كل شيء فيها.

---

(1) نهر يصب في بحر البلطيق

(2) تحوير لآخر عبارة في قصة غوغول «الشجار...»

(3) بطل رواية دوستويفسكي «الشبيه» التي كان يعمل عليها آنذاك.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

22. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 8 أكتوبر 1845

أخي الحبيب!

لم يكن لدي حتى الآن وقت ولا مزاج لأبلغك عن شؤوني. كل شيء كان مؤذياً مقيتاً لدرجة كنت أشعر فيها بالغثيان وأنا أنظر إلى دنيا اللّه. أولاً، كنت كل هذا الوقت، يا صديقي الوحيد العزيز، بلا نقود، أعيش على الاقتراض. وذلك أمر مقرف للغاية. وثانياً، كان الحزن ينتابني عموماً حتى تتضاءل معنوياتي عفوياً ولا أعتني بنفسي بل أتحول إلى لاأبالي لا عقل له، بل وإلى أسوأ من ذلك، حيث أندفع متجاوزاً الحدود وأغضب لأتفه الأسباب. في بداية هذا الشهر ظهر نكراسوف (في بطرسبورغ) وسدد لي جزءاً من الدين، وسأستلم الجزء المتبقي بعد أيام. ولعلمك ألقى عليَّ بيلينسكي قبل أسبوعين موعظة مستفيضة عن كيفية التعايش في عالمنا الأدبي، وأبلغني في الختام بأنني يجب أن أطالب بما لا يقل عن 200 روبل ورقي للملزمة الواحدة، سعياً لإنقاذ نفسي. وبالتالي سيباع غوليادكين بـ 1500 روبل ورقي في أقل تقدير. وكان نكراسوف بدافع من تأنيب

الضمير قد سارع ووعدني بمئة روبل فضي في منتصف يناير مقابل رواية «الفقراء» التي اشتراها مني. ذلك لأنه أدرك بنفسه أن الـ 150 روبلاً الفضية لا يجمعها بالتعاليم المسيحية جامع، ولذا قرر، على ما يبدو، أن يضيف لي مئة روبل دليلاً على التوبة. كل ذلك أمور جيدة حتى الآن. إلا أن المزعج فيها أننا لم نسمع شيئاً من الرقابة اللاأبالية بخصوص «الفقراء». إنهم يتكالبون على هذه الرواية البريئة ولا أدري ما ستكون النتيجة. هل سيمنعونها، أم يختزلونها طولاً وعرضاً؟ تلك مصيبة، مصيبة بكل معنى الكلمة. فيما يلمح نكراسوف أن الوقت لم يعد يكفي لإصدار حوليته[1] بعد أن أنفق عليها 4000 روبل ورقي.

يعقوب غوليادكين اسم على مسمى. سافل دنيء لا أحد يصل إلى مقامه، ولا يريد أن يمضي إلى الأمام مؤكداً أنه غير مستعد للتقدم بعد، وأنه لا يزال يدور في فلك ذاته، وأن وضعه هذا لا يشغل باله على الرغم من أنه قادر، هو أيضاً، على زحزحة الجبال إذا اقتضت الضرورة. نعم. لم لا؟ فهو لا يختلف عن الآخرين. لا بأس به، ولا يختلف عن أولئك الآخرين. ماذا يهمه؟ إنه سافل في أبعد حدود الخسة والدناءة. لا يوافق على إنهاء وظيفته قبل منتصف نوفمبر. لكنه أوضح لصاحب السعادة وأقنعه، ولم لا؟ بأنه مستعد لتقديم استقالته. هكذا فعل ووضعني، أنا المؤلف، في موقف حرج للغاية[2].

أنا كثيراً ما أتردد على بيلينسكي. وهو يميل إليّ تماماً ويرى جاداً أن لوجودي أمام الجمهور دلالة وأن آراءه بخصوصي مبررة. كما تعرفت قبل أيام على كرونبيرغ ، مترجم شكسبير، ابن البروفيسور العجوز كرونبيرغ من خاركوف. عموماً المستقبل المؤمل، وغير البعيد، يمكن أن يكون جيداً، ويمكن أن يكون رديئاً لحد مرعب.

بيلينسكي يحثني على إنجاز صورة غوليادكين. وقد أذاع سره في العالم الأدبي كله وكاد يبيعه إلى كرايفسكي. أما «الفقراء» فنصف أهالي بطرسبورغ يتحدثون عنها. موقف غريغوريفيتش وحده يفوق التقدير. قال لي بنفسه: «أنا بوق للدعاية لك».

نكراسوف نصّاب بالفطرة، وإلا لما استطاع أن يحافظ على وجوده. ولد على هذه الشاكلة، ولذا قدم في يوم وصوله، خلال المساء عندي، مشروع مطبوعة صغيرة عاجلة يعمل جميع الأدباء وبقدر المستطاع على إصدارها، بحيث أتولى أنا مهمة رئاسة التحرير وكذلك غريغوروفيتش ونكراسوف. فيما يتعهد الأخير بالنفقات على حسابه. المطبوعة ستصدر في ملزمتين مرة كل أسبوعين، في 7 و21 من كل شهر. عنوانها سيكون «الأنياب المكشرة» بهدف تشديد التهكم والسخرية من الجميع بلا استثناء والتشبث بالكلمة والمجلات والمجتمع والأدب وأحداث الشارع والمعارض وأخبار الجرائد والأخبار الأجنبية، باختصار التشبث بكل هذه الأمور على وتيرة واحدة وباتجاه واحد. البداية ستكون في 7 نوفمبر. وقد وضعنا لها توليفة رائعة. فهي ستكون مصورة، شعارها مقتبس من هجائية بولغارين المنشورة في «نحلة الشمال»: «نحن مستعدون للموت دفاعاً عن الحقيقة، فلا حياة لنا من دونها». وسيوقّعها فادي بولغارين. وسنكتب الشيء ذاته في الإعلان الذي سننشره في الأول من نوفمبر. مقالات العدد الأول ستكون لنكراسوف عن بعض الدناءات التي ستحصل طبعاً في بطرسبورغ خلال هذه الأيام. وثانياً الرواية المرتقبة لأوجين سيو «الخطايا الفتاكة السبع» في ثلاث صفحات[3]، وكذلك استعراض جميع المجلات. المحاضرة التي القاها شيفيريف بجامعة موسكو عن تناغم أشعار بوشكين قبل أن يرتقي المدرج الروماني ويتلو

على سيدتين جاءتا معه إلى هناك أبياتاً جعلت الضفادع والعضايا تتحشد لتنصت إليه!!

ثم تفاصيل الجلسة الأخيرة لدعاة النزعة السلافية الذين أكدوا على رؤوس الأشهاد أن آدم كان صقلبياً يعيش في روسيا، ولذا يتسم بأهمية بالغة ونفع كبير حل هذه المسألة الاجتماعية العظمى من أجل خير الأمة الروسية وازدهارها. ثم تكرس «الأنياب» قسم الفنون التشكيلية بالكامل لتبيان مصداقية «رسوم» كوكولنيك (. . .)، فيما يتولى غريغوريفتش كتابة «حصاد الأسبوع» وينشر بعض متابعاته الشخصية. وأنا سأكتب «مذكرات خادم عن سيده»[4] وما إلى ذلك. وهكذا يمكنك أن تلاحظ أن المجلة ستكون مرحة جداً مثل «لا غوبيس»[5]. وتلك مبادرة طيبة، لأنها يمكن أن توفر لي كسباً بـ 100-150 روبلاً في الشهر على أقل تقدير. وستحظى المجلة بالرواج. نكراسوف سينشر فيها أشعاراً أيضاً.

وداعاً، إذن. في المرة القادمة سأكتب لك أكثر. أما الآن فأنا مشغول جداً. ومع ذلك حررت لك كما ترى رسالة كاملة، وأنت لن تكتب لي نصف سطر من دون رسالتي، وتحسب الحساب للزيارات، كسول أنت واللّه كسول![6]

اقرأ «تيفيرينو» لجورج صاند في عدد أكتوبر من «مذكرات الوطن». إنها ظاهرة غير مسبوقة في القرن الحالي. هذه هي النماذج البشرية المثلى.

وداعاً يا صديقي. تحياتي إلى إميليا. أقبِّل يديها. كيف صحة الصغيرين؟ اكتبْ لي تفصيلاً.

ترجم شيلر خلسة، مع أننا لا ندري إطلاقاً متى سيصدر. أنا الآن أتشمم عملاً لك كي تترجمه. لكن الطامة الكبرى هي وجود ثلاثة

مترجمين رسميين في «مذكرات الوطن». عسى أن نفلح في إصدار شيء ما أنا وأنت معاً. المستقبل مفتوح على كل الاحتمالات. والشيء الأكيد الذي أعرفه أن مسرح شيلر سينجح إذا مضيت أنا فيه.[7]

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) نشرت «الفقراء» لأول مرة في حولية نكراسوف «مجموعة بطرسبورغ» في 15 يناير 1846

(2) هذه إشارة إلى مشهد في الفصل ما قبل الأخير من «الشبيه»، وكان دوستويفسكي على وشك إنهائها في أكتوبر 1845.

(3) المقصود مقالة نقدية لاذعة لروايات سيو.

(4) عدل دوستويفسكي عن «مذكرات خادم» وكتب بدلاً منها «رواية في تسع رسائل».

(5) جريدة الكاتب الفرنسي ألفونس كار الهزلية 1839.

(6) في إشارة إلى نوزدروف بطل رواية غوغول «النفوس الميتة».

(7) في البداية كان إصدار تراجم دوستويفسكي لمسرحيات شيلر متعثراً.

23. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 16 نوفمبر 1845

أخي الكريم!

أكتب إليك هذه المرة باستعجال، فليس لدي كثير من الوقت. لم أكمل غوليادكين حتى الآن. ولا بد لي أن أفرغ منه في 25 من هذا الشهر. لم تردّ على رسائلي فترة طويلة، فانتابني قلق شديد عليك. اكتبْ أكثر. لماذا تتحجّج بغياب الوقت وهذه حجة سخيفة، لأن الرسالة تحتاج إلى قليل من الوقت. كسل المدن الهامشية يقتلك في عز الشباب يا عزيزي، الكسل وليس غيره.

ولكن، يا أخي، لا أعتقد أن شهرتي ستبلغ في أي زمن مثل ما هي عليه الآن. احترام بالغ في كل مكان، وفضول شديد بخصوصي. تعرفت على عدد كبير من أحسن الناس خلقاً. الأمير أودويفسكي يرجوني أن أسعده بزيارة، والكونت سولوغوب ينشب أظفاره في شعره من اليأس والقنوط. فقد أبلغه بانايف بوجود كاتب موهوب سيفوقهم جميعاً. عرج سولوغوب على الجميع وعرج على كرايفسكي وسأله بصورة مباغتة: «من هو دوستويفسكي هذا؟ أين أجد

دوستويفسكي؟». فأجابه كرايفسكي بحدّته المعروفة وصراحته المعهودة: «دوستويفسكي لن يرغب في إسعادكم بزيارته». بالفعل تحوّل الأمر وكأنهم تلك الأرستقراطية المتعالية على عكاز وتفكر في تدميري بملاطفاتها الممجوجة. الجميع يستقبلونني وكأني أعجوبة. لا أتفوّه بكلمة إلا وأجد أصداءها في الأنحاء: قال دوستويفسكي كذا ويريد أن يفعل كذا. بيلينسكي يحبني إلى أبعد الحدود. قبل أيام عاد من باريس الشاعر تورغينيف، لا بد أنك سمعت الخبر، وارتبط بي منذ الوهلة الأولى بصداقة يعزوها بيلينسكي إلى أن تورغينيف أحبني. ولكن أي إنسان هو يا أخي؟ ما أروعه! أنا أيضاً كدت أقع في حبه. شاعر موهوب أرستقراطي وسيم ثري وذكي، ومثقف في الخامسة والعشرين من العمر. لا أعرف أي صفة حميدة حجبتها الطبيعة عنه. ثم إن طباعه متفتحة بمنتهى الصراحة والروعة، متمرسة في مدرسة الطيبة والبشاشة. اقرأ قصته «أندريه كولوسوف» في «مذكرات الوطن». إنها صورة شخصية مع أنه ما كان يريد الكتابة عن نفسه.

لا أزال حتى الآن قليل النقود، لكنني لست في عوز. قبل أيام كنت في عوز شديد. نكراسوف بادر إلى إصدار مجلة «الأنياب» الهزلية الرائعة التي كتبت أنا إعلاناً عنها أثار ضجة لأنها أول ظاهرة خفيفة وفكاهية في مثل هذه الأشياء. وذكرني ذلك بالمقالة الهجائية الأولى للوسين دي روبمريه (بطل روايات بلزاك). إعلاني نشر في «مذكرات الوطن» في ركن «أخبار متفرقة». وقد تلقيت 20 روبلاً فضياً بالمقابل. أكمل الحديث: قبل أيام، وكنت بلا نقود، عرجت على نكراسوف. وأنا جالس عنده وردت على بالي فكرة كتابة رواية في 9 رسائل. عدت إلى البيت وكتبتها في ليلة واحدة بنصف ملزمة. وفي الصباح حملتها إلى نكراسوف واستلمت لقاءها 125 روبلاً ورقياً.

بمعنى أن سعر ملزمتي في «الأنياب» 250 روبلاً ورقياً. وفي المساء، عند تورغينيف، تمت تلاوة قصتي بحضور كل أفراد حلقتنا، أي 20 شخصاً في أقل تقدير. وأثارت دهشة الجميع. وستنشر في العدد الأول من «الأنياب». سأبعث إليك الكتاب في 1 ديسمبر، وسترى بنفسك هل هو أسوأ من «الدعوى» لغوغول على سبيل المثال؟ بيلينسكي قال إنه بات واثقاً مني كلياً، لأنني أستطيع أن أتناول عناصر متنوعة للغاية. وقبل أيام عندما سمع كرايفسكي أنني خالي الوفاض ترجاني أن أتقبل منه قرضاً بـ 500 روبل. وأعتقد أنني سأبيعه الملزمة بسعر 200 روبل ورقي.

لدي أفكار لا نهاية لها. ولا يجوز أن أتحدث عنها، حتى لتورغينيف، مثلاً. لأن الجميع في كل أرجاء بطرسبورغ تقريباً سيعرفون غداً، والحال هذه، بأن دوستويفسكي يكتب كذا وكذا. ولكن، يا أخي، لو عددت لك كل نجاحاتي لما وجدت الورق الكافي للكتابة. وأعتقد أنني سأكسب نقوداً. غوليادكين يصدر بشكل رائع. (. . .) . أمس زرت باناييف لأول مرة، ويخيل إليَّ أنني وقعت في غرام زوجته[1]. فهي ذكية مليحة، إضافة إلى كونها مؤدبة وصريحة للغاية. أقضي الوقت بسرور. حلقتنا كبيرة جداً. أنا أكتب لك طول الوقت عن نفسي. لا مؤاخذة. يا عزيزي، أقول لك صراحة بأنني الآن مغمور بالأمجاد. أمجادي الشخصية. سأبعث لك مع الرسالة المقبلة مجلة «الأنياب». يقول بيلينسكي إنني أستخف بسمعتي عندما أنشر مقالاتي في «الأنياب».

وداعاً يا عزيزي، أتمنى لك موفور السعادة. وأهنئك بالمنصب. أقبِّل يدي إميليا وأقبِّل طفليك. كيف حالهما؟

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: بيلينسكي يحميني من ملاحقة متعهدي الحفلات المسرحية. أعدت قراءة رسالتي واكتشفت أني، أولاً، أميّ، وثانياً معتدّ بنفسي.

وداعاً، اكتبْ لي باللّه عليك!

ستتحسن أمور ترجماتنا لشيلر من كل بد. بيلينسكي يمتدح موضوع المؤلفات الكاملة. أظن أن بالإمكان بيعه بنفع كبير بمرور الزمن على نكراسوف مثلاً. إلى اللقاء.

العرائس والخطيبات وغيرهن صرن أكثر جمالاً، لكن الكلفة تفوق التصور. قبل أيام انهال عليَّ تورغينيف وبيلينسكي باللوم بسبب حياة العزوبة المرتبكة. هذان السيدان لا يريدان أن يعترفا بأنهما يحبانني كلاهما. ديوني لا تزال على المستوى نفسه.

---

(1) لم يدم غرام دوستويفسكي طويلاً. وكانت تلك هي الحالة الوحيدة التي صادفها في شبابه ولم تتكرر.

24. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 1 فبراير 1846

أخي الكريم!

أولاً، لا تزعل لأني لم أكتب طويلاً. واللّه لم يكن لدي وقت، وسأثبت لك الآن. أهم ما أخّرني هو أنني كنت، حتى الآونة الأخيرة، أي حتى 28 من الشهر، أواصل العمل لإنهاء غوليادكين، صاحبنا السافل. شيء فظيع. تلك هي الحسابات البشرية: أردت أن أنجز الرواية قبل أغسطس واستطال الأمر حتى فبراير. والآن أبعث إليك المجلة. «الفقراء» صدرت في 15 منه، ولكن، يا أخي، ما أشد حملة التهجم التي واجهتها في كل مكان. في «المصور» قرأت قذفاً وشتائم بدلاً من الانتقاد. وما جاء في «نحلة الشمال» أسوأ. لكنني أتذكر كيف استقبل أولئك الأشخاص أنفسهم غوغول، ونحن نعرف كيف استقبلوا بوشكين. حتى الجمهور في هياج: ثلاثة أرباع القراء يتهجمون، وربع، وربما أقل من الربع، يفرطون في المديح. واحتدت المجادلات إلى اقصى درجة. يتهجمون ويطيلون التهجم، لكنهم يقرأون على أية حال. المجلة لقيت رواجاً غير مسبوق، ولن

يبقى منها ربما ولا عدد واحد بعد أسبوعين. مثل هذا حصل لغوغول. هاجموه بكل شدة، لكنهم قرأوه على أية حال وانقادوا له وراحوا يمتدحونه الآن. قدمتُ لهم عظمة كلب فليتمصمصوا. والشهرة لي، فيما يتصرفون كالحمقى. وقد بلغت بهم قلة الحياء حداً جعل انتقاد «نحلة الشمال» عديم الحياء بالمطلق. ما أسخف هذه الحماقات. ولكن من ناحية أخرى، يا أخي، ما أجمل الثناء الذي أتلقاه. تصور أن أفراد حلقتنا، وحتى بيلينسكي، يعتقدون بأنني سبقت غوغول أشواطاً. «مكتبة المطالعة» التي يكتب قسم النقد فيها نيكيتينكو ستنشر تحليلاً مستفيضاً «للفقراء» في صالحي. وسيدق بيلينسكي الأجراس في شهر مارس[1]. فيما كتب أوديفسكي مقالة منفصلة عن «الفقراء»، كما كتب زميلي سولوغوب عنها أيضاً.[2] أنا، يا أخي، ولجت المجتمع الراقي وسأحدثك شخصياً عن جميع مغامراتي بعد شهر.[3]

يمتلك جمهورنا غريزة فطرية كما في أي جمع من الجموع لكنه يفتقر إلى الثقافة. ولا يفهم كيف يمكن الكتابة بمثل هذه المفردات. لقد اعتادوا أن يروا في كل شيء بوز المؤلف، بينما أنا لا أعرض بوزي (في ما أكتب). ولا يتصورون أن المتكلم هو ديدوشكين ولست أنا، وأن ديدوشكين هذا لا يستطيع أن يتكلم على نحو آخر. يجدون في الرواية إسهاباً وتمطيطاً. وليس فيها كلمة واحدة نافلة. بيلينسكي وآخرون يجدون في كتاباتي نفحة أصيلة جديدة تقوم على التحليل وليس التركيب، أي أنني أتعمق بحثاً عن الكل من خلال تفكيك ذراته وجزيئاته. أما غوغول فهو يتناول الكل رأساً، ولذا لا يتعمق كما أتعمق. سترى ذلك بنفسك عندما تقرأ الرواية. أمامي، يا أخي، مستقبل باهر!

اليوم يصدر غوليادكين («الشبيه»). قبل أربعة أيام كنت لا أزال أضع اللمسات الأخيرة عليه. وستشغل الرواية في «مذكرات الوطن» 11 ملزمة. غوليادكين أرقى من «الفقراء» بعشر مرات. يقول البعض في حلقتنا إن روسيا لم تشهد، بعد «النفوس الميتة»، رواية كهذه. يقولون إن الكتاب عبقري وأكثر. ويتطلعون إليَّ بآمال عريضة. بالفعل جاء غوليادكين موفقاً إلى أبعد الحدود. وسيعجبك كل الإعجاب، بل سيعجبك أكثر من «النفوس الميتة». أنا على يقين من ذلك. هل توزع «مذكرات الوطن» عندكم؟ ولا أدري هل سيعطيني كرايفسكي نسخة.

اعذرني، يا أخي، لم أكتب لك من زمان، حتى أني لا أتذكر أين توقفت آنذاك. وقت طويل مضى، وأحداث جرت. سنلتقي قريباً. في الصيف سآتي إليكم حتماً يا أصدقائي وأمضي الصيف كله في الكتابة. الأفكار جاهزة. وأنا أكتب الآن أيضاً. استلمت 600 روبل فضي بالتمام والكمال مقابل غوليادكين وإلى ذلك استلمت نقوداً كثيرة حتى أني أنفقت 3 آلاف بعد مفارقتك. معيشتي غير منتظمة. تلك هي المشكلة. انتقلت من الشقة وأستأجرت غرفتين مؤثثتين بامتياز. حياتي جيدة جداً.

عنواني: مقابل كنيسة فلاديمير، في الركن بين شارع غريبتسكايا وزقاق كوزنيتشني. دار التاجر كوتشين رقم 9. اكتبْ لي رجاءً، بالله عليك. اكتبّ لي هل أعجبتك «الفقراء». تحياتي إلى إيمليا وقبلاتي للصغيرين. كنت واقعاً في غرام بانايفا بكل جد. حالياً هان الأمر. ولا أدري ماذا بعد. صحتي متوعكة جداً. أعصابي مريضة. وأخشى السخونة والحمى العصبية. لا أستطيع أن أعيش بانتظام. أنا متهور ضال. والطامة الكبرى ستأتي إذا لم أوفق في الاستجمام على البحر

صيفاً. وداعاً، اكتبْ لي باللّه عليك. لا مؤاخذة على لهجة الرسالة. فأنا مستعجل. أعانقك. وداعاً.

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: اعذرني، يا أخي، باللّه عليك، لأنني لم أبعث لك شيئاً حتى الآن. في الصيف سأجلب كل ما يلزم. وداعاً، الساعة تقترب من الثالثة ليلاً.

سأجلب هدايا للجميع.

سنقضي الصيف معك، يا صديقي الكبير، بسرور أكثر. لن يكون مالي وفيراً، لكنني آمل في 800 أو 1000 روبل. وهذا مبلغ كاف للصيف.

فيرا مخطوبة وستتزوج.[4] هل تعرف ذلك؟

---

(1) أشار بيلينسكي إلى اعتماد دوستويفسكي في «الفقراء» و«الشبيه» على غوغول، لكنه شدد على أصالة موهبته.

(2) المقالتان لم تريا النور.

(3) لا أحد يعرف عن «مغامرات» لدوستويفسكي في المجتمع الراقي. المعروف أنه كان متردداً في التواصل معه.

(4) أخت دوستويفسكي الوسطى.

25. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 1 أبريل 1846

أخي العزيز

أرسل إليك خوذة ومستلزماتها وزوجاً من الكتافيات. الخوذة غير ملبسة لأن العارفين يقولون إن ريشتها العالية يمكن أن تتلف في الطريق. ولا أدري هل قدمت لك خدمة جيدة أم لا. إذا كان العكس فلست أنا المذنب، لأنني لا أفقه شيئاً بالمطلق في هذه الأمور. أنا تخلفت عن الزمن يا صديقي.

والآن المسألة الثانية. يمكنك أن تسأل لماذا كل هذا التأخير؟ إنني، يا حبيبي، في أشغال شاغلة قد يبدو غريباً معها، في رأيك، أنني لم أجد الوقت اللازم للجنتك. صحيح أنني أضعت فرصتين للبريد بسبب أخطائي. أعتذر، لا تزعل.

ثم إنك، يا صديقي المخلص، على حق عندما تلومني على تأخري في الكتابة إليك. لكنني موافق بالكامل على رأي بوبريشين، بطل غوغول، الذي قال: «الرسالة سخافة. ولا يكتب الرسائل إلا الصيادلة»[1]. فماذا عساي أن أكتب لك؟ كان عليّ أن أحبّر مجلدات

لو بدأت بالكتابة كما أريد. ففي حياتي يومياً كثير من المستجدات والتبدلات والانطباعات وكثير من الأمور الطيبة والنافعة بالنسبة لي بقدر ما هي مؤذية وغير نافعة لدرجة لا تترك لي وقتاً للتأمل والتفكير. فأنا مشغول بالكامل. هذا أولاً. الأفكار تتوالى وأنا أكتب بلا انقطاع. فلا تظن أنني كنت في جنينة من الورود. كلا. وثانياً، أنفقت نقوداً كثيرة، وتحديداً 4500 روبل منذ أن افترقنا، وبعت بضاعتي سلفاً بـ 1000 روبل ورقي، وبالتالي، ونتيجة لما تعرفه عني من سوء التدبير سرقت نفسي بنفسي وعدت كالسابق إلى الجيوب الخالية.

ولكن، لا بأس، لا ضير في ذلك. شهرتي بلغت الذروة. وفقاً لحساباتي تحدثت مختلف المطبوعات عني 35 مرة تقريباً. بعضها رفعتني بمديحها إلى عنان السماء وبعضها باعتدال، والبعض الثالث جللتني بالعار والشنار. فما الأفضل والأعلى؟ إلا أن المؤذي والمؤسف أن رفاقنا، بيلينسكي والآخرين، غير راضين عني بسبب غوليادكين. الانطباع الأول ملؤه الإعجاب بلا حساب، والمديح والصخب والضجيج. والانطباع الثاني هو الانتقاد. فالجميع، رفاقنا والجمهور، وكأنهم تواطأوا على قاسم مشترك، يرون أن غوليادكين شخصية مملة وباهتة ومهلهلة لدرجة لا تترك رغبة في مواصلة القراءة. والمهزلة الأكثر أنهم جميعاً غاضبون عليَّ بسبب الإطالة والإطناب، لكنهم في الوقت ذاته يقرأون ويطيلون القراءة ويعيدونها. حتى أن أحد رفاقنا يعكف على قراءة فصل كل يوم كي لا يجهد نفسه، بل يتلمظ من الارتياح. والبعض الآخر من الجمهور يصرخ ويجأر أن من الغباء نشر مثل هذه الأشياء، فيما يصيح آخرون أن الرواية تصورهم وتتحدث عنهم، بل إني سمعت من البعض مدائح مطولة من المخجل استعراضها.

أما بخصوصي أنا فقد انتابني الاكتئاب بعض الوقت. أنا أعاني من عيب فظيع هو حب الذات والمباهاة. وقد آلمتني، بل قتلتني، فكرة أنني خيبت الآمال وأتلفت نتاجاً كان يمكن أن يكون عظيماً. لقد كرهت غوليادكين. الكثير فيه مكتوب على عجل وفي تعب وضنى. النصف الأول من الرواية أفضل من نصفها الأخير. وإلى جانب الصفحات المتألقة هناك غث وقذى يدفعان إلى الغثيان ويشطبان الرغبة في القراءة. هذا ما جعل حياتي جحيماً لبعض الوقت وأحزنني لحد المرض. سأبعث لك، يا أخي، غوليادكين بعد أسبوعين. وستقرأه، فاكتبْ لي عن رأيك كاملاً فيه.

أترك حياتي وتدريباتنا جانباً وأحدثك عن بعض أخبارنا. الخبر الأول والأكبر أن بيلينسكي يترك «مذكرات الوطن». تدهورت صحته وينوي الذهاب إلى المياه (المعدنية) وربما إلى الخارج. ولن يكتب نقداً قرابة عامين. إلا أنه سيصدر حولية ضخمة (60 ملزمة) لدعم أحواله المالية. أنا أكتب له قصتين غير طويلتين: 1. «حليق الفودين»، و2. «قصة المكاتب المدمرة»، وكلتاهما بمضمون مأساوي مثير ومكثف للغاية. الجمهور ينتظرني بفارغ الصبر. وإلى ذلك أكتب شيئاً ما لكرايفسكي ورواية لنكراسوف. كل ذلك سيشغلني عاماً. أنا الآن على وشك الانتهاء من «حليق الفودين».[2]

الخبر الثاني: ظهر لفيف كبير من الكتّاب الجدد. منافسون لي من نوع آخر. ومن أبرزهم اسكندر هيرتسين وغونتشاروف. الأول نشر، والثاني بادئ لم ينشر بعد شيئاً. يحظيان بثناء كبير. قصب السبق لا يزال في يدي، وآمل أن يبقى في يدي إلى الأبد. عموماً لم يكن الأدب يغلي في فترة ما كما يغلي الآن. وهذا من بشائر الخير.

ثالثاً، سآتي إليكم إما في وقت مبكر جداً أو في وقت متأخر

جداً، أو لا آتي عموماً. أنا مدين، ولن تكون لدي نقود، من دون نقود لن آتي إليكم مطلقاً، ثم إنني غارق في العمل. القول الفصل للمستقبل.

رابعاً. شيدلوفسكي استجاب. أخوه زارني. وقد بدأت المكاتبات معه.

خامساً. إذا أردت يا صديقي الحبيب أن تكسب شيئاً في مضمار الأدب فثمة فرصة للظهور والتأثير من خلال ترجمة «رينيكه فوكس» لغوته. طُلب منّي أن أكلفك بالترجمة لأنها ضرورية لحولية نكراسوف. ترجمْها إذا أردت. ولا تستعجل. وحتى لو لم أصلكم في 15 مايو أو 1 يونيو يمكنك أن ترسل الترجمة إذا كانت جاهزة. الجميع يتفرقون للاصطياف. وإذا توفرت الفرصة يمكن أن أنشرها في الربيع، وأجلب لك النقود. وإذا لم أوفق في الربيع ففي الخريف حتماً. وستتوفر النقود حتماً أيضاً. نكراسوف ناشر يشتري، وبيلينسكي يشتري، وبيوتر راتكوف يشتري كذلك، أما كرايفسكي فهو تحت تصرفي. والقضية مربحة. دار بيننا حديث عن هذه الترجمة. ولذا ابدأ إذا أردت، وأنا أتعهد بالنجاح الباهر. إذا ترجمت ثلاثة فصول أرسلها لي، لأعرضها على السادة ، ولعلهم يدفعون الأجر سلفاً.

لم يحصل حتى الآن أن كنت مشغولاً بالنشاطات لهذا الحد. كل شيء يجري، كل شيء يغلي... ولكن هل سيحصل المنشود؟ وداعاً يا حبيبي!

إلى اللقاء يا عزيزي. أقبّلكم جميعاً وأتمنى لكم كل خير. وأقبِّل كلتا يدي إميليا. والطفلين أيضاً. وأنت، كيف حالك؟ اكتبْ لي عن صحتك. ما أشد رغبتي في رؤيتك يا صديقي. ولكن ما العمل؟

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: فيرا تزوجت منذ ثلاثة أشهر. ويقال إنها سعيدة. الخال (كومانين) أعطاها بقدر ما أعطى باربارة. اكتبْ له. تزوجت من إيفانوف، صاحب السعادة، وهو في الثلاثين من العمر. بروفيسور في الكيمياء. فيرا كتبت لي، وتقول إنها كتبت لك أيضاً.

---

(1) من «مذكرات مجنون» لغوغول.

(2) لم يكمل دوستويفسكي هاتين القصتين. وفيما بعد انعكست جوانب منهما في مؤلفات أخرى.



26. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 26 أبريل 1846

أخي الكريم!

لم أكتب لك لأنني لم أتمكن حتى اليوم أن ألتقط الريشة، فقد كنت مريضاً، على شفا الموت بكل معنى الكلمة. كنت مريضاً بأشد درجة من حساسية النظام العصبي كله، فيما اتجه المرض صوب القلب وأحدث فيضاً في الدم والتهاباً في القلب أمكن وقفه بشق الأنفس بواسطة ديدان العلق والفصد مرتين. وإلى ذلك أنفقت كل ما لدي على مختلف النقوع والقطرات والمستحضرات والمخاليط وما يماثلها من الأشياء المقيتة. حالياً لا خطر عليَّ. ولكن المرض بقي معي، لأن الطبيب يقول إن ممهدات المرض موجودة من قبل ثلاث أو أربع سنين، ولذا فإن الشفاء منه يتطلب وقتاً. والعلاج يجب أن يكون بدنياً ومعنوياً. 1) حمية وحرمان بدني متواصل كما وصف الطبيب. 2) استبدال الأمكنة، وتحاشي كل الانطباعات والهزات المؤثرة وتأمين حياة متوازنة هادئة وأخيراً التقيد بالنظام في كل شيء. هذه المرة الرحلة إلى ريفيل، ليس للاستحمام، فهو يعتبر مضراً بالنسبة

لي، بل لتغيير المكان ونمط المعيشة، إنما ستغدو وسيلة علاجية ناجعة. ولمّا كنت خالي الوفاض، وهذه الرحلة تحتاج إلى مبلغ كبير جداً ، ليس من أجل ريفيل، بل على الأكثر للنفقات وتسديد الديون في بطرسبورغ، ولذا، على ما يبدو ، تتوقف حياتي كلها تقريباً وكذلك صحتي على كرايفسكي. فإذا أعطاني النقود سلفاً سأجيء إليكم، وإن لم يعطني لن أجيء. ولذا لن أكتب بعد هذه الرسالة ثلاثة أسابيع تقريباً أكون بعدها عندكم بشخصي الكريم أو لا أراكم طول الصيف.

أكتب إليك باستعجال وبهدف معيَّن. لدي رجاء إليك أنتظر منك أن تلبيه وتحاول بكل الجهود. ألا وهو: بيلينسكي مسافر إلى موسكو لقضاء الصيف. توجه اليوم. ثم يقوم مع صديقه الممثل شيبكين وآخرين بجولة في جنوب روسيا، وفي روسيا الصغرى (أوكرانيا) وأوديسا والقرم. وسيعود في سبتمبر ويهتم بمجلته الدورية. فيما تتوجه زوجته مع أختها ورضيعتها البالغ عمرها عاماً واحداً إلى هابسال[1]. ربما سآتي معهما، أو لا آتي. الباخرة تتوقف عندكم في ريفيل بضع ساعات. والمشكلة أنه لم يعد هناك من يسافر معهما إلى جهة غريبة وإن كان لفترة الصيف فقط. ولذا بقيتا من دون حاضنة. ولا يمكن تكليف حاضنة من هنا، لأنها عاجزة عن تسديد المبلغ الكبير عند الحدود. ولذا طلبتا مني أن أكتب إليك عن رجائهما التالي: اعتباراً من تاريخ استلام رسالتي هذه أن تحاول جهدك ، وأنا أرجوك أيضاً، للبحث عن حاضنة في ريفيل ألمانية حتماً وليس إستونية، في سن متقدمة إن أمكن، توافق على السفر معهما إلى هابسال حتى سبتمبر. الراتب المقترح 15 روبلاً ورقياً في الشهر، وإذا وافقت على الذهاب معهما فيما بعد إلى بطرسبورغ يكون الراتب 25

روبلاً، فليس بوسعهم الدفع أكثر. ومفهوم أن المطلوب هو البحث عن امرأة ذات سمعة طيبة، باختصار حاضنة معتبرة. وبالعثور عليها ينبغي تهيئتها للرحيل في أية لحظة اعتباراً من 5 مايو، ذلك لأن الباخرة تتوقف في ريفيل 4 ساعات وخلالها تأتيك السيدة بيلينسكايا وتبعث أنت في طلب الحاضنة فيتم ترتيب الأمر. هذا ما يقترحونه. والمشكلة هل ستوافق أنت، بينما أبتهل أنا إليك ساجداً من أجل ذلك. أرجوك وأستعطفك من أجلي شخصياً. فأنا أحب هؤلاء الناس وأحترمهم. أرجوك كل الرجاء. أرجوك مع إميليا، فحاولا. السيدة بيلينسكايا ضعيفة جداً ومتقدمة في السن ومريضة مضطرة للسفر وحدها مع طفلتها. ولا أفضل من الخدمة عندها. خاصة وأنهم أناس طيبون ومكتفون وحسنو المعشر. والحاضنة عندهم حاضنة فقط، لا تؤدي أي أعمال أخرى. حاول، يا أخي، باللّه عليك. وإلى ذلك أجبني بأسرع ما يمكن. عائلة بيلينسكي يمكن أن تصل إلى ريفيل في العاشر من الشهر. اكتبْ لي بسرعة وأوضح ما إذا كانوا يقبلون ركاباً على الباخرة المتجهة من بطرسبورغ إلى هابسال عبر ريفيل؟ وإلا لن ينقلوا الحاضنة بالباخرة.[2]

عليّ أن أنهي إحدى القصص غير الطويلة قبل السفر، مقابل المبلغ الذي أخذته من كرايفسكي، ثم أستطيع أن أستدين.

الحياة في أدبنا تغلي على قدم وساق. الجديد لا يحيطه الوصف. والآمال عريضة. سأحدثك عندما نلتقي. والآن وداعاً.

المخلص ف. دوستويفسكي

ملحوظة: أنتظر رسالتك بفارغ الصبر. كل الحب والاحترام إلى إميليا، وإلى (الصغيرين) فيودور وماريا.

---

(1) مدينة في إستونيا على بحر البلطيق.

(2) رسالة ميخائيل دوستويفسكي الجوابية مفقودة.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

27. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 5 سبتمبر 1846

ها أنا، يا أخي الحبيب، أخبرك بأني وصلت على أية حال إلى بطرسبورغ ونزلت، كما أردت، عند تروتوفسكي. لم أشعر بغثيان البحر، لكنني تبللت حتى العظام في الطريق وهنا في بطرسبورغ وأصابني الاستبراد، مع السعال والرشح. كل ذلك في أشد درجاته. في البداية شعرت بضجر لا يطاق. مضيت لأستأجر شقة واستأجرت من الأهالي غرفتين صغيرتين مؤثثتين مع خادمة بـ 14 روبلاً فضياً. لكنني لم انتقل بعد. العنوان: مقابل كاتدرائية قازان في دار كوخيندورف رقم 25. اكتبْ لي سريعاً على هذا العنوان، لأنني أتشوق إلى رسالة منك. فأنا في حزن شديد.

عائلة بيلينسكي[1] وصلت (معي) بسلام، ولم أرهم منذ (توديعهم في) المرفأ. خلال اليوم التالي عرجت على نكراسوف. وهو يعيش في شقة واحدة مع بانايف، ولذا التقيت الجميع. الحولية في طريقها إلى الصدور، ولا بد من الإستعجال. ولم أرغب في السؤال عن الكشك ولا أدري، ربما أموره تسير أيضاً. وإليك هذا الخبر الجديد:

لكي أعرف عنوان نكراسوف ذهبت إلى بروكوبوفيتش، فأوضح لي سبب رحيل الرجل إلى ريفيل. وكان يحتفظ بهذا السبب بين الأسرار، لمختلف المبررات السياسية، ولم يخبر حتى بروكوبوفيتش الذي حزر بالأمر بناء على معطيات متنوعة. جاء ليلتقي مع ماسالسكي كي يشتري منه «ابن الوطن». ويبدو أن الأمر يسير كما ينبغي، وقد تظهر عندنا مجلة جديدة مع حلول العام الجديد.

لم أحدثك بشيء عن غوغول. فإليك هذه المعلومة. في الشهر القادم ستنشر «المعاصر» مقالة لغوغول هي وصيته الروحية التي يتبرأ فيها من جميع مؤلفاته ويعتبرها بلا فائدة، بل وأدهى من ذلك. ويقول إنه لن يلتقط الريشة مدى العمر، لأن مهمته هي الصلاة والابتهال. ويوافق على جميع انتقادات خصومه. ويأمر بنشر صورته بأكبر قدر من النسخ وتخصيص عائداتها لمساعدة الحجاج المتوجهين إلى القدس وغيرها. تلك هي المسألة. فتأمل!

زرت أيضاً كرايفسكي. بدأ بتنضيد «بروخارتشين» وستصدر في أكتوبر. ولم أتطرق بعد إلى النقود. يازيكوف افتتح مكتباً وعلق رقعة. في الشارع مطر مدرار، والخروج صعب. لا أزال أقيم عند تروتوفسكي، وغداً سأنتقل إلى الشقة الأخرى. بخصوص المعطف لم أفعل شيئا بسبب الأشغال والأمطار. أريد أن أعيش بمنتهى التواضع. وأتمنى لك الشيء ذاته. ينبغي المضي في العمل رويداً رويداً. مَن يعشْ يَرَ. والآن وداعاً. أنا مستعجل. بودّي أن أكتب الكثير، لكن الصمت أفضل أحياناً. اكتبْ لي. أنتظر منك جواباً بأسرع ما يمكن. أقبِّل الصغيرين. تحياتي إلى إميليا. كما أحيي الآخرين أيضاً. في البريد القادم سأكتب أكثر. هذه الرسالة مجرد تبليغ. وداعاً. أتمنى

لك كل خير، يا صديقي الغالي. وأهم ما أتمناه لك الآن هو الصبر والصحة الجيدة.

المخلص

أخوك ف. دوستويفسكي.

---

(1) أمضت زوجة بيلينسكي ورضيعتها وأختها الصيف في ريفيل ولم تواصل رحلتها، وتعرفت على عائلة ميخائيل دوستويفسكي.



28. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 17 سبتمبر 1846

أخي العزيز!

أبعث إليك المعطف. واعذرني على التأخير. وهو ليس من جانبي. كنت أبحث عن الشخص الذي أعرفه، إلى أن وجدته. وما كان بوسعي أن أشتريه من دونه. فللمعطف مزاياه وعيوبه. من مزاياه أنه كامل تماماً وكأنه مزدوج، ولونه مقبول، رمادي، معتدل. ومن عيوبه أن قماشه بسعر 8 روبلات ورقية للمتر. لم نجد أفضل. وبالمقابل بلغ ثمنه 82 روبلاً ورقياً لا غير. باقي النقود أنفقت على الطرد. (...)

لم أكتب لك لحد الآن بسبب المعطف. وقد أخبرتك بأني استأجرت شقة. أموري ليست سيئة. لكنني لا أمتلك نقوداً تقريباً للمستقبل. كرايفسكي أعطاني 50 روبلاً فضياً، ومن تعابير وجهه يبدو أنه لن يعطيني أكثر. وعليّ أن أصبر وأتحمَّل.

«بروخارتشين»[1] تشوّهت لحد مرعب في المكان المعهود. فالسادة هناك منعوا حتى استخدام مفردة الموظف وشطبوها في كل

مكان، واللّه وحده يعلم لماذا، رغم أن كل شيء (في المتن) بريء تماماً. واختفى كل ما هو حي. لم يبق سوى هيكل عظمي لما قرأته عليك. (أريد أن أتبرأ من قصتي).

ليس لدينا جديد. كل شيء على حاله. ننتظر بيلينسكي. السيدة بيلينسكايا تبلغك تحياتها. كل المشاريع تراوح في مكانها، أو ربما تحيط بها غلالة من الكتمان. الشيطان وحده يعلم.

أنا أتناول طعامي مع الجماعة. في عائلة بيكيتوف ستة أشخاص من معارفهم، وأنا منهم، وكذلك غريغوريفيتش، كل منا يدفع 15 كوبيكاً فضياً في اليوم الواحد ونحصل على غداء صاف جيد من طبقين. والجميع مسروررون. بمعنى أنني أنفق على وجبة الغداء 16 كوبيكاً.

أكتب لك مستعجلاً. لأنني تأخرت. والساعي ينتظر حاملاً الطرد ليوصله إلى البريد. لدي إشكالات أكثر مما كانت لديك عندما تألمت أسنانك. أخشى أن يصلك المعطف متأخراً. ما العمل؟ لقد بذلت جهدي قدر ما أستطيع.

لا أزال أكتب «حليق الفودين». ببطء شديد. وأخشى أن أتخلف عن الموعد. سمعت من سيدين (. . .) أن أهالي المحافظات يسمون حولية «مجموعة بطرسبورغ» لا باسمها بل «بالفقراء». ولا يقرأون مما في المجموعة سوى الرواية، رغم التنافس على شرائها بثمن مرتفع. وفي أكشاك الكتب في بينزا وكييف مثلاً بلغ ثمن النسخة الواحدة رسمياً 25 و30 روبلاً ورقياً. حالة غريبة. (المجلة) مهملة هنا، وهناك يتهافتون عليها.

كتب غريغوريفيتش قصة جيدة للغاية بتشجيع مني ومن مايكوف. والأخير، على فكرة، ينوي كتابة مقالة وافية عني لمناسبة الأول من

أبريل. قصة غريغوريفيتش[2] ستنشر في «مذكرات الوطن» التي باتت فقيرة تماماً، وليس في حقيبتها ولا قصة واحدة.

أنا هنا في حالة من الكآبة القاتلة. وأنا أعمل بشكل أسوأ. عشت عندكم كما في الجنة. لكنني بطباعي، يا للشيطان، أحول كل الطيبات إلى أدران. أتمنى لإميليا صادقاً الراحة والرفاه وموفور الصحة والعافية. أنا أفكر فيكم كثيراً. أجل، يا أخي، المال والرفاه شيء جيد. أقبّل ابنك وابنتك. وداعاً. في الرسالة القادمة سأكتب أكثر. أما الآن فلا تزعل مني باللّه عليك. أتمنى لك الصحة، ولا تأكل بهذا القدر الكبير من لحم البقر.

عنواني:

قرب كاتدرائية قازان، في ركن شارع ميشانسكايا الكبير وساحة الكاتدرائية، دار كوخيندورف 25.

وداعاً.

أخوك ف. دوستويفسكي

رجاءً حاول أن تأكل طعاماً صحياً، من دون فطر ولا خردل وما يماثلهما من أدران، باللّه عليك.

---

(1) قصة «السيد بروخارتشين» لم ترأف بها الرقابة.

(2) «القرية».

29. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 26 نوفمبر 1846

كيف استطعت، يا صديقي الغالي، أن تكتب بأنني زعلان منك لعدم إرسال النقود، ولذلك لا أتواصل معك؟ كيف تخطر فكرة كهذه في بالك؟ ثم ما هي الذريعة التي جعلتك تفكر فيّ بهذه الصورة؟ إذا كنت تحبني فاعمل معروفاً وامتنع في المستقبل عن مثل هذه الأفكار إلى الأبد. حاولْ أن يكون كل شيء فيما بيننا صريحاً بسيطاً. وأقول لك علناً وبصراحة إنني مدين لك بالكثير وإن عدم الاعتراف بذلك من جانبي دناءة وسفالة ومثارة للسخرية. فيكفي الكلام عن ذلك. الأفضل أن أكتب الآن عن ظروفي وأحاول إطلاعك على كل شيء بمزيد من الوضوح.

أولاً- كل مشاريعي للنشر فشلت. لم تكن تستحق الاهتمام، وشغلت وقتاً كثيراً وكانت سابقة لأوانها. ولربما ما كان الجمهور سيستجيب. سأقوم بالطباعة في الخريف القادم. حتى ذلك الحين سيتعرف الجمهور عليّ أكثر، وسيكون موقفي واضحاً. زد على ذلك أنني أنتظر استلام عدة سلف. «الشبيه» تم تزيينها من قبل أحد رسامي

موسكو. «الفقراء» يجري تزيينها هنا في مؤسستين على أساس التنافس. برناردسكي يقول إنه لا يمانع في بدء محادثات معي في فبراير وتسليمي مبلغاً معيناً مقابل حق النشر في «المصور». وحتى ذلك الحين ينشغل مع «النفوس الميتة». باختصار لم أعد أبالي بالإصدارات لحين من الوقت. ثم إنني في شغل شاغل عن هذه الأمور. العمل والطلبيات الموجهة إليّ بلا نهاية. وأقول لك إنني تشاجرت نهائياً للأسف الشديد مع «المعاصر» بشخص نكراسوف. فقد أحزنه أنني أعطي كرايفسكي قصة على أية حال، فأنا مدين له، وانني لا أريد أن أعلن على الملأ أنني لا أنتمي إلى «مذكرات الوطن»، ويئس من الحصول على قصة مني في القريب العاجل، فأغلظ لي الكلام وطالبني بإعادة النقود. ولقد أدنته من لسانه ووعدته في رسالة مقابلة بأني سأسلمه المبلغ في 15 ديسمبر. أريد لهم أن يأتوا إليَّ بأنفسهم. إنهم جميعاً أنذال وحساد. عندما سلطت اللوم على نكراسوف أخذ يجرجر قدميه ومضى كيهودي سرقت نقوده. باختصار، تلك حكاية قذرة. والآن يشيعون بأنني مصاب بحب العظمة أفكر في نفسي وأنساق إلى كرايفسكي لأن مايكوف يمتدحني. نكراسوف ينوي ملامتي. أما بيلينسكي فهو شخص ضعيف لا يستقر له رأي حتى في المداولات الأدبية. معه فقط حافظت على العلاقات الطيبة السابقة. فهو إنسان نبيل. فيما فرح كرايفسكي للمناسبة وأعطاني نقوداً ووعد، فضلاً عن ذلك، بتسديد كل ديوني حتى 15 ديسمبر. وبالمقابل أنا أعمل له حتى الربيع. لاحظ، يا أخي، أنني استخلصت من ذلك كله قاعدة حكيمة. أول تصرف خاسر بالنسبة للموهبة الناشئة هو الصداقة مع دهاقنة المطبوعات، والتي تنجب المحسوبية وتعقبها مختلف الفواحش. ثم التبعية، وأخيراً العمل في

سبيل «الفن للفن»، وهو عمل طاهر مقدس من صميم القلب الذي لم ينبض في السابق أبداً ولم يتحرك كما ينبض عندي الآن أمام كل الصور الجديدة التي ترتسم في روحي. إنني ، يا أخي، في حالة إحياء وإنعاش بدني، إضافة إلى المعنوي. لم يكن لدي مثل هذا القدر من الوفرة والوضوح والهدوء في الطباع والصحة البدنية. وأنا مدين بذلك كثيراً لأصدقائي الطيبين من عائلة بيكيتوف وكذلك زالوبيتسكي وآخرين ممن أعيش معهم. إنهم أناس أذكياء جادون بأريحية عالية وطبع نبيل. لقد شفيت بفضل وجودهم حولي. وأخيراً اقترحت عليهم أن نقيم معاً. فوجدنا شقة كبيرة كل نفقاتها على جميع الجوانب المعيشية لا تتجاوز 1200 روبل ورقي للشخص الواحد في العام. تلك هي ثمار الروابط الاجتماعية. لدي غرفتي الخاصة، أعمل فيها طول الوقت. عنواني جديد أرجوك أن تكتب لي عليه: جزيرة فاسيليفسكويه، الخط الأول، جنب الطريق العام ، في دار سولوشيتش 26 مقابل الكنيسة اللوثرية.

أهنئك، يا صديقي العزيز، بالمولود الثالث، وأتمنى لك وله ولإميليا كل خير. أنا الآن أحبكم ثلاث مرات أكثر. ولكنْ لا تزعل مني، يا أخي الغالي، لأنني أكتب قصاصة ورق، وليس رسالة معتبرة. لا وقت لدي. ينتظرونني. وسوف أكتب لك مرة أخرى يوم الجمعة. فاعتبر هذه الرسالة غير مكتملة.

صديقك ف. دوستويفسكي

30. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 17 ديسمبر 1846

ماذا حدث لك، يا أخي الحبيب، حتى لزمت الصمت؟ مع كل بريد أنتظر شيئاً منك، ولا كلمة. أنا قلق. كثيراً ما أفكر فيك، وفي أنك تمرض أحياناً وأخشى أن أخرج باستنتاجات. اكتبْ لي ولو سطرين، باللّه عليك. اكتبْ لي رجاءً وهدئ أعصابي. ربما كنت تنتظر بقية رسالتي الأخيرة، ولكن لا تزعل مني لأني غير منضبط من حيث تنفيذ الوعود. أنا الآن غارق في العمل. وقد التزمت أن أسلّم إلى كرايفسكي في 5 يناير الجزء الأول من رواية «نيتوشكا نيزفانوفا» التي ربما قرأت خبر نشرها في «مذكرات الوطن». أكتب هذه الرسالة على فترات متقطعة، لأنني مشغول في التأليف ليل نهار، ما عدا الساعة السابعة مساءً حيث أتردد على «الأوبرا الإيطالية» للترفيه عن النفس وأستمع في الجاليري إلى إنشاد مغنينا الذين لا يجاريهم أحد. صحتي جيدة. ولا داعي للكتابة عنها أكثر. أكتب بحماس كبير. ويخيل إليَّ أنني دخلت في عملية مع أدبنا كله، مع المجلات والنقاد وثلاثة أجزاء من روايتي في «مذكرات الوطن»، وأرسم أسبقيتي

وتفوّقي لهذا العام أيضاً رغم أنف خصومي. كرايفسكي صعر خده. وهو يكاد يهلك. أحوال «المعاصر» ليست باهرة. وقد بدأ تبادل إطلاق النار فيما بينهم.[1]

اسمع يا أخي، أنا لن أسافر إلى الخارج في هذا الشتاء ولا في الصيف، بل سآتي من جديد إليكم في ريفيل. وأنتظر الصيف بفارغ الصبر. في الصيف سأعيد تنقيح المكتوب، وأستعد للنشر في الخريف، وآنذاك لكل حادث حديث. هل الجميع عندكم في صحة جيدة يا أخي؟ أليست إميليا متوعكة؟ أطالبك بالجواب على هذه الرسالة فوراً. أنا أقيم، كما أبلغتك يا أخي، عند بيكيتوف في جزيرة فاسيليفسكويه. ليس هناك ملل، الموقف طيب، والكلفة ليست عالية. أزور بيلينسكي أحياناً. وهو مريض طول الوقت. ولكن بآمال عريضة. السيدة بيلينسكا وضعت مولوداً جديداً.[2]

أنا أسدد كل ديوني من خلال كرايفسكي. ومهمتي هي أن أعمل من أجله طوال الشتاء كيلا أكون مديناً ولا بكوبيك واحد في الصيف. سأتخلص من الديون في وقت ما. فالمصيبة هي العمل أجيراً عند أحد. إنه يفتك بكل شيء، بالموهبة والفتوة والأمل، فتتردى الجهود ويتحول الشخص في الأخير إلى متأدب ملوث وليس كاتباً حقيقياً.

وداعاً يا أخي. لقد شغلتني عن الصفحة الأكثر إثارة في الرواية، فيما ينتظرني عمل كثير. آه، يا عزيزي! حبذا لو وُفقتَ. يشدني الشوق إلى رؤيتك بأسرع ما يمكن، إلى رؤيتك بعد أن نحدد موقفي ونحل مشكلتي. لقد قيدت يدي وقدمي بسلاسل متعهدي نشر مؤلفاتي، بينما تأتيني من جهات أخرى عروض مغرية. «المعاصر» التي تريد أن تنتقدني بريشة نكراسوف إنما تعرض عليَّ 60 روبلاً فضياً، ما يعادل 300 روبل ورقي في «مذكرات الوطن» و250 روبلاً

في «مكتبة المطالعة» وهلمجرا مقابل كل ملزمة من مؤلفاتي وأنا لا أستطيع أن أعطيهم شيئاً لأن كرايفسكي وضع يده على كل شيء مقابل 50 روبلاً فضياً أعطاني إياها سلفاً. على فكرة: غريغوريفيتش نشر روايته «القرية» في «مذكرات الوطن» وأثارت الإعجاب عندنا. وداعاً يا أخي الوفي تحياتي إلى إميليا و(الصغار) فيودور وماريا وميخائيل. هل نسيني الأطفال أم لا؟ تحياتي إلى رينهارت والآخرين. هل تتردد عليكم آنا إيفانوفنا؟[3] تحياتي أيضاً إلى جميع المعارف القدامى..

المخلص لك دوماً

ف. دوستويفسكي

ملحوظة:

عنواني جزيرة فاسيليفسكويه، الخط الأول، على الشارع العام، دار سولوشيتش 26، شقة بيكيتوف.

والآن يا أخي تعال إلى بطرسبورغ في عيد المرافع لهذا العام. ولو لأسبوعين. تعال من كل بد. السكن والغذاء لن يكلفانك شيئاً. الشاي والسكر وباقي المؤونة أيضاً. ولن تنفق على النثريات تقريباً. وستكون الرحلة كلها زهيدة للغاية. فما رأيك؟ ها..؟ فكر في الموضوع. فماذا يكلفك؟ سأكون مسروراً جدًا لرؤيتك. وسيسرك أنت أيضاً المكوث في بطرسبورغ. بل إنك لا تحتاج إلى أية نقود لتأتي إلى هنا. أنا مدين لك وسأدفع ثمن كل المتطلبات. وسنحصل على نقود. تعال يا أخي بالله عليك. أنت. هل يعقل أنك تريد أن تصل إلى حالة يحتاج فيها سحبك من ريفيل إلى كماشة؟ تعال في أسبوع المرافع. أقولها بلا مزاح.

(1) لعل دوستويفسكي يقصد السجال بين مايكوف وبيلينسكي. في تلك الفترة.
(2) ولدت زوجة بيلينسكي صبياً سرعان ما توفي.
(3) ربما المقصودة خطيبة مايكوف.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

31. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، يناير - فبراير 1847

أخي الكريم!

من جديد أستميحك عذراً لأنني لم أف بوعدي ولم أكتب لك مع البريد التالي. كل هذا الوقت استولت عليَّ كآبة شديدة أعاقتني عن الكتابة. فكرت فيك كثيراً وبألم هو العذاب بعينه. مصيرك صعب، يا أخي الحبيب. الحياة لا تطاق بمثل صحتك وأفكارك من دون أناس حواليك، وبالملل بدلاً من الأفراح، وبالعائلة التي تشكل عبئاً ثقيلاً رغم قدسية السهر عليها وفرحة رعايتها. ولكن ليس لك، يا أخي، أن تنساق للأحزان. فستنكشف الغمة. وكلما كانت الروح فينا وفيرة زاخرة، وكلما كان محتوانا الداخلي غنياً، بدا ركننا في الحياة أكثر بهاءً وجمالاً. بديهي أن عدم التناغم وغياب التوازن في المجتمع شيء رهيب. واللازم أن يكون المحيط الخارجي متوازناً مع الباطن الداخلي. وإلا يعلو الباطن إلى درجة خطيرة جداً في ظل غياب الظواهر الخارجية. وتشغل الأعصاب والخيال مجالاً واسعاً جداً في الكائن الحي. وتبدو كل ظاهرة خارجية، بسبب عدم التعود عليها،

ضخمة ومخيفة بعض الشيء. وينتاب المرء خوف من الحياة. وقد حالفك الحظ حيث منحتك الطبيعة حباً غامراً وطباعاً قوية. ولا يزال فيك فكر سليم متين وبوارق من الفكاهة والمرح كالمجوهرات. وهذا كفيل بإنقاذك. أنا أفكر فيك كثيراً. ولكن، يا إلهي، ما أكثر الحكماء والعرافة الطاعنين في السن وفقهاء الحياة المرائين من ضيقي الأفق المقيتين الغدارين الذين يتباهون بالخبرة والحنكة، أي بغياب الهوية، لأنهم مصهورون بمقياس واحد، ويروجون طول الوقت للقناعة بالمصير والإيمان بشيء محدود في الحياة والرضا بالمكانة التي هم فيها دون أن يتفهموا مغزى هذه الكلمات، وهي قناعة أشبه بعذاب وقيود الاعتكاف في الأديرة، ويستنكرون بغضب تافه لا ينضب الروح القوية الفوارة التي لا تطيق توقيتاتهم اليومية المبتذلة وتقويم حياتهم الخاوي. إنهم سفلة أنذال بما يتحدثون عنه من سعادة دنيوية أسطورية. أنذال ولا شيء آخر. نصادفهم أحياناً فنشتاط غضباً ونتضور ألماً.

حالياً على سبيل المثال عكّر عليَّ عملي الثرثار الثقيل الظل سفيريدوف بزيارة مما اعتادت عليه النخبة الفطينة. ويخيل إليَّ، يا أخي، أنه أكثر الحمقى لجاجة وثقلاً. جاء بسؤال من كتابات المحللين وبصفحات عتيقة متنوعة تبدو تافهة لا نفع فيها. ويرجوني أن أتوسط له عند بيكيتوف بشأن تنقيح هذه الصفحات. إنه إنسان مضحك. هو نفسه لا يفقه شيئاً في هذه الأوراق ويريد من الآخرين أن يجربوا حظهم لعلهم يفهمون. (. . .)

إلا أن الوقت يمضي. وكان بودّي أن أكتب لك الكثير. وللأسف الشديد تعثّر كل شيء. ولذا أكتفي بكتابة شيء ما عن نفسي. أنا أعمل، يا أخي، ولا أريد تقديم شيء قبل أن أنتهي منه. والحال

النقود غير متوفرة. ولولا وجود الطيبين من الناس لهلكت. ظهور شهرتي في المجلات يمنحي منافع أكثر من الأضرار. ما يدفع المعجبين بي، وهم كثيرون جداً على ما أعتقد، إلى تلقف الجديد والدفاع عني. أنا أعيش في فقر مدقع. ومنذ أن غادرتك أنفقت 250 روبلاً فضياً بالإضافة إلى 300 روبل فضي على تسديد الديون. وكانت ضربة نكراسوف هي الأشد. فقد أعدت له سلفة الـ 150 روبلاً فضياً لعدم رغبتي في التواصل معه. وفي الربيع سآخذ من كرايفسكي قرضاً كبيراً وأرسل إليك حتماً 400 روبل. وهذا عهد أمام اللّه. لأن انشغال بالي بك يؤرقني أكثر من أي شيء آخر. ومن المستبعد أن أصل إلى هلسينغفورست مبكراً. لأنني ربما سآخذ علاجاً بالماء البارد للشفاء النهائي على طريقة بريسنيتس. ولذا سآتي في يوليو على الأرجح. والحقيقة، يا عزيزي، أنني لا أدري بعد. مستقبلي بعيد. ولكنني لن أتزحزح الآن حتى لو أرعدت الدنيا وأبرقت فوق رأسي. أنا أعرف كل ما أستطيع القيام به ولن أقصر في عملي وسأصحح أوضاعي المالية بالنجاح في تسيير أمور الكتاب الذي سأصدره في الخريف[1]. سفيريدوف اللعين! حوالى ساعتين. حاولت بكل السبل أن ألمح له بأن لا وقت لدي. لكنه ظل جالساً يثرثر عن كيفية طرحه لسؤالك وعن أهمية مساعدتك له وكيف سيسافر إلى القوقاز ويؤلف عن عالم النبات هناك كتاباً غير مسبوق. فليذهب إلى الشيطان. إنه مهرج. صحيح أنني أتكلم مع أشخاص آخرين أحياناً وكأنني خرجت تواً من أحد المكاتب الإدارية. لكنه شغلني عنك يا حبيبي. حافظ على نفسك يا أخي. وخصوصاً على صحتك. خذ قسطاً من الترفيه، ولا تنس أن تتمنى لي إنجاز العمل بأسرع ما يمكن. فبعده تأتي النقود وأستطيع عندئذ أن أكون عندك. العلاج بطريقة بريسنيتس مجرد فكرة.

فالأطباء ربما لن ينصحوا به. ما أشد رغبتي في رؤيتك. أحياناً تنتابني كآبة قاتلة. وأتذكر أحياناً كم كنتُ فظاً ثقيلاً عليكم في ريفيل. لقد كنت مريضاً يا أخي. وأتذكر كيف قلت لي مرة إن تعاملي معك يشطب المساواة فيما بيننا. يا أخي الحبيب، لم يكن في ذلك شيء من العدالة. إلا أن طباعي مقيتة منفّرة. وأنا دوماً أقدرك أكثر وأفضل مما أقدر نفسي. أنا مستعد أن أضحّي بحياتي من أجلك ومن أجل أسرتك، ولكنني أحياناً، وعندما يكون قلبي مفعماً بالمحبة، بخيل ولا تحصل مني على كلمة ملاطفة. أعصابي لا تنصاع لي في تلك اللحظات. أنا كريه مثير للضحك والسخرية ولذا أعاني دوماً من التقويمات المجحفة بحقي. يقال إنني متخشب لا قلب لي ولا عواطف. فما أكثر ما أخشنتُ القول لإميليا، تلك المرأة النبيلة التي هي أفضل مني ألف مرة. وأتذكر كيف كنت أحياناً أغضب متعمداً على فيودور الصغير الذي كنت أحبه في الوقت ذاته حتى أكثر منك. أنا لا أستطيع أن أبدو إنساناً ذا فؤاد وعواطف ومحبة إلا عندما تنتزعني الملابسات الخارجية والمصادفات عنوة من دناءة الأيام. وحتى ذلك الحين أبقى حقيراً مقيتاً. وأنا أنسب سبب هذه اللامساواة إلى المرض. هل قرأت «لوكريتسيا فلورياني»[2] لاحظ (شخصية البطل) كارول. إلا أنك ستقرأ قريباً (روايتي) «نيتوتشكا نيزفانوفا». وهي عبارة عن اعتراف مثل غوليادكين، ولو بلهجة أخرى ومن نوع آخر. بشأن غوليادكين سمعت من الكثيرين بصورة غير مباشرة إشاعات تثير الهلع. البعض يقولون صراحة إن هذه الرواية أعجوبة لم يفهمها القراء. وسيكون لها دور خطير في المستقبل. ولو أني كتبت غوليادكين وحدها لكان ذلك كافياً، وإن اهتمامهم بها أكبر من اهتمامهم بكتابات دوماس. وهكذا انتفض غروري. ولكن يا أخي،

ما أجمل أن يفهمك الآخرون. لماذا تحبني يا أخي؟ سأحاول أن أعانقك قريباً. وسنحب بعضنا بعضاً حباً جماً. ادعُ لي بالنجاح. أواصل كتابة «ربة المنزل». ولعلها أفضل من «الفقراء». وهي في السياق نفسه. ريشتي يوجهها منبع إلهام منبجس من الروح مباشرة. ليس كما كان الحال مع «بروخارتشين» التي عانيت منها طول الصيف. ما أشد رغبتي في مساعدتك، يا أخي، بأسرع ما يمكن. علق آمالك، يا أخي، على النقود التي وعدتك بها، فالوعد راسخ كالجدار، كالجبل. قبلاتي للجميع. (...)

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: هل سنلتقي في وقت ما، يا أخي، في بطرسبورغ؟ ما رأيك في الخدمة المدنية براتب محترم؟.

(...)

---

(1) المقصود الطبعة الثانية من «الفقراء».

(2) رواية جورج صاند وبطلها كارول.

32. إلى يفغينيا مايكوفا

بطرسبورغ، 14 مايو 1848

السيدة الفاضلة يفغينيا بيتروفنا (مايكوفا)

أسارع في الاعتذار منكم، فأنا أشعر بأنني تركتكم أمس بغيظ لا يليق، حتى أني لم أودعكم إلا بعد أن نبهتموني إلى ذلك. وأخشى أن تظنوا أنني كنت متشدداً فظاً غليظاً بنوايا غريبة. إلا أنني مضيت مسرعاً بالغريزة متحسساً ضعف طباعي الذي لا بد أن يطفو على السطح في الحالات القصوى، ويطفو تحديداً بشكل تطرف مبالغ فيه. أرجو أن تفهموني: بسبب ضعف أعصابي يصعب عليَّ التحمل والرد على الأسئلة ذات المعنيين التي تطرح عليَّ وضبط النفس بسبب ازدواجية تلك الأسئلة، فأغضب على نفسي لأني عجزت عن جعل تلك الأسئلة صريحة مباشرة ومقبولة، وفي الوقت ذاته يصعب عليَّ أن أحتفظ ببرود الأعصاب، وأنا أعترف بذلك، عندما أرى أمامي أكثرية تعمل ضدي، كما أتذكر، بالحدّة نفسها التي عارضتها بها. بديهي أنه حصل هرج ومرج وتطايرت من الجانبين النعوت الغلاظ، المتعمدة والساذجة، فلذت أنا بالفرار غريزياً خشية أن يتسع نطاق تلك النعوت أكثر. لكم

أن تحكموا على ضعف طباع شخص مثلي. التقطت الريشة لأعتذر ببساطة وبكل رضوخ وانصياع. إلا أنني بدأت أكتب مبرراتي بالصيغة اللازمة. أنا أشعر بالفعل أنني كنت متشدداً ثقيل الظل مزعجاً لكم، ولذا أستعين بصبركم وأرجو صفحكم. وأنا على يقين بأنكم تفهمون لجاجتي وإلحاحي على طلب المسامحة. فأنا أقدر رفيع التقدير اسمكم الكريم، ولذا أخشى كثيراً أن أفقده. ولعل هذه الرسالة نافلة لا موجب لها، ولربما أنا أبالغ كعادتي، ولعلكم سامحتموني منذ اللحظة الأولى، إلا أن هذا الخوف الزائد وهذا الشعور بالخجل تجاهكم يبينان لكم، إذا سمحتم، مدى الاحترام الذي أكنّه لكم دوماً كالابن البار.[1]

المخلص لكم أبداً

ف. دوستويفسكي

---

(1) لعل الكلام في هذه الرسالة يدور عن شجار حصل بين دوستويفسكي وأحد أعضاء حلقة «المعاصر» في منزل مايكوف.

33. إلى أندريه كرايفسكي

بطرسبورغ، 31 مارس 1849

السيد الفاضل أندريه ألكساندروفيتش (كرايفسكي).

ذكرتم في رسالتكم أنكم تبعثون النقود للمرة الأخيرة، وأن من اللازم التسديد الكامل في مقابل المطالبة بنقود أخرى.

هذا ما كنت أريده. أي أن أقدم أولاً الجزء الثالث[1] الذي كنت أتصور بأني سأنجزه حتى يوم الاثنين. ثم أشرع فوراً بالجزء الرابع والجزء الخامس اللذين قررت تخصيصهما لشهر مايو. ولكنني، خلافاً لكل الحسابات، أنهيت الجزء الثالث، ثلاث ملازم ونيفاً، يوم الأربعاء، وسيكون حجم الجزء الرابع قرابة 4 ملازم. المجموع 7 ملازم، أي 350 روبلاً فضياً (. . .). وكنت أنوي أن أجلب لكم الجزء الثالث في نهاية هذا الأسبوع وأطلب منكم مساعدة لمناسبة العيد، وفي العاشر من الشهر بودّي أن أسلمكم الجزء الخامس.

أما ألان فأنا أواظب على كتابة الجزء الرابع من دون توقف. بدأته حالما أنهيت الجزء الثالث ولم آخذ قسطاً من الراحة، لأنني أريد (. . .) نشر الجزءين الرابع والخامس في مايو من كل بد. وأنا الآن

غاضب على نفسي لأن المشهد غير مكتمل، بل مجزأ إلى ثلاثة أقسام. لا شيء مكتملاً، سوى إثارة الفضول. والفضول المثار في بداية الشهر، باعتقادي، ليس هو ذاته في آخر الشهر. فهو يخفت ويبرد وتفقد التوليفات شيئاً من قيمتها. وهذا يضاهي تقسيم مشهد بوكروفسكي في «الفقراء» إلى جزءين، لو كنت قد فعلته، ما يجعل الجمهور ينتظر شهراً كاملاً. والانطباعات تتلاشى. إذن أنا أتحدث عن الجزءين. أنا أعمل على الجزء الرابع. وسأقدم هذا الجزء مع الجزء الخامس في الموعد المحدد، لا أبعد من الخامس عشر من الشهر، لأن من اللازم، فضلاً عن ذلك، توجيه رد على «المعاصر». (. . .)

خبرني رجاءً، يا أندريه ألكساندروفيتش، هل يعقل أنكم لم تلاحظوا طوال أربعة أعوام من عملي عندكم أنني لا أستطيع أبداً أن أسدد ديوني لكم إذا بقينا على النظام نفسه من التسليم والتسديد الذي نحن عليه لحد الآن؟ خذوا مثلاً الشتاء الحالي. لقد عملت فيه كالحصان، وكنت أنتقل من نجاح إلى نجاح. والجمهور معجب، وأنا رغم كل اعتباراتي في الخريف المنصرم لا أستطيع حتى شهر مايو أن أسدد أكثر من 650 روبلاً فضياً. ولا أزال مديناً. فما سبب ذلك؟ أليس السبب واضحاً، يا أندريه ألكساندروفيتش؟ فأنا أخذت النقود منكم، كثيراً من النقود. فلنأخذ المثل التالي: عندما أخذت منكم آخر مرة مئة روبل، قبل شهرين، عكفت شهراً كاملاً على ابتداع قصة منحتني 50 روبلاً فضياً أخرى لأن المئة روبل لم تؤمن لي الاستقرار. وطالما كنت أكتب قصة ذات اتجاه وطبيعة يتوافقان مع المجلة التي أردت أن أنشرها فيها فقد بقيت شهراً كاملاً أفكر ولم يتمخض تفكيري عن شيء سوى الصداع وارتباك الأعصاب، بالإضافة إلى ثلاث حبكات رائعة لثلاث روايات مطولة. (. . .)



الناشر كرايفسكي

عندما استلفت منكم مئة روبل في المرة الأخيرة أقسمت أن لا آخذ النقود مسبقاً بعد الآن. لكن حساباتي تلك جاءت من دون موسكو.[2] وسوف يبعثون مبلغاً من هناك بعد العيد. العيد وما أدراك ما العيد. بالنسبة لي كله سواء. لكنّ الدائنين ينتظرونه تحديداً، فهم يتهالكون على المدينين زرافات ووحداناً، لأنه ليس لديهم، المساكين، سوى موعدين في السنة تسدد فيها كل الديون تقريباً.

هل يعقل أنكم، يا أندريه ألكساندروفيتش، لم تفكروا أبداً في أنني يمكن أن أموت ذات يوم، فماذا يحصل لديوني آنذاك؟ ديوني لكم كثيرة لدرجة لا تكفي النقود الواردة من موسكو لتسديدها. فلننته بأسرع ما يمكن من هذا النظام التسليفي وننتقل إلى الدفع الهادئ بالقطعة في مواعيد مُحددة في الأيام الأولى (من الشهر). وللأسف الشديد أنني حتى لو عملت لدرجة يتشقق فيها جلد يدي لن أتمكن بدنياً من تسليمكم الجزء الرابع يوم السبت، بل سأسلمه في السابع من

الشهر. والحقيقة لن يكون بإمكاني أن أكتب. لقد عذبني الدائنون، فهم على مدار سبع سنوات جعلوني سريع الانفعال أندفع لأداء عمل جانبي، أي أني سأكون مضطراً لكتابة حكاية ما لجهة أخرى. والطامة الكبرى أن العمل الجانبي لأسبوعين أو لشهر يعيق طاقة تأليف روايتنا ويلغي الرغبة في مواصلتها.

سآتي إليكم، يا أندريه ألكساندروفيتش، صباح هذا السبت. باللّه عليكم سامحوني على المئة روبل التي أخذتها منكم. سأعيدها لكم واكثر، لا أقول بمئة ضعف، بل بخمس مرات في 15 أبريل. ولن آخذ ديناً بعد الآن، وأخي شاهد على ما أقول. فاسألوه: نقودنا من موسكو ستصل في أبريل حتماً، وعندها لن أطلب منكم طبعاً. ولن أنسى فضلكم أبداً في مساعدتي الآن لآخر مرة. ذكّروني بذلك في وقت ما، وسترون بأنفسكم. حكّموا العقل: طوال فريضة الصوم كنت أنتظر بقلق وتوجس أسبوع الآلام وغزوات الدائنين. هل تتذكرون يوم الجمعة في أسبوع الآلام العام الماضي؟ لا يزال عالقاً في ذاكرتي حتى الآن. آنذاك وصلتنا، فضلاً عن ذلك، عائلة شقيقي من ريفيل. أما الآن فستنتابني الكوليرا، ولا شيء غيرها. فأين هي الشاعرية يا ترى؟

المخلص

ف. دوستويفسكي

---

(1) من رواية «نيتوتشكا نيزفانوفا».

(2) لعل دوستويفسكي كان ينتظر مبلغاً من كاريبين الوصي على التركة.

34. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ. قلعة بتروبافلوفسكايا[1]، 18 يوليو 1849

شعرت بفرحة عارمة تفوق الوصف لرسالتك، يا أخي الحبيب. استلمتها في 11 يوليو. وأخيراً أطلقوا سراحك، وأنا أتخيل مدى الفرحة التي اكتنفتك عندما التقيت مع أفراد عائلتك. أكيد كانوا ينتظرونك على أحر من الجمر. وأرى أنك بدأت تنظم حياتك بشكل جديد. فماذا يشغلك الآن؟ والأهم على أي مورد تعيش؟ هل لديك عمل؟ وماذا تفعل تحديداً؟ الصيف في المدينة صعب ثقيل. وإلى ذلك تقول إنك استأجرت شقة أخرى، ربما هي أضيق. للأسف أنك لا تستطيع قضاء فصل الصيف في الضاحية.

أشكرك على الطرود، فقد سهّلت عليَّ الأمور وآنستني. تكتب لي، يا صديقي العزيز، أن لا أنساق للاكتئاب. أنا غير مكتئب. طبعاً لا مفر من الملل والضجر. فما العمل؟ على فكرة ليست الأحوال مملة دوماً. عموماً أوقاتي تسير بغير توازن. تارة بسرعة كبيرة، وتارة ببطء شديد. وأحياناً أشعر بأنني كأنما تعودت على هذا النمط من الحياة وكأن كل الأمور سواء. أنا بالطبع أطرد كل المغريات من

مجال تصوراتي، إلا أنها أحياناً أقوى مني، فتقتحم الحياة القديمة روحي مع انطباعاتها السابقة. وهذا، على فكرة، في طبيعة الأشياء. حاليا الأيام أكثر صحواً، معظمها على الأقل، فصار الجو أكثر حبوراً. إلا أن الأيام المكفهرة لا تطاق. وتبدو الزنزانة الانفرادية أكثر قسوة. ثم إنني مشغول. ولم أضيع الوقت جزافاً. فقد فكرت في ثلاث قصص وروايتين، أكتب إحداهما حالياً. لكنني أخشى العمل كثيراً.

هذا العمل، وخصوصاً عندما يجري برغبة شديدة، إنما يرهقني كثيراً ويؤثر على أعصابي. ولم أكن قد عملت يوماً بمثل هذا القدر من الحب والرغبة كما أعمل الآن. عندما عملت خارج السجن كنت بحاجة إلى التوقف كثيراً واللجوء إلى الترفيه. أما هنا فالانفعال بعد الكتابة ينبغي أن ينتهي من تلقاء ذاته. صحتي جيدة، ما عدا التهاب البواسير واضطراب الأعصاب الذي يتصاعد شيئاً فشيئاً. حنجرتي باتت، كالسابق، تؤلمني من حين لآخر، شهيتي ضعيفة، ونومي قليل، مع كوابيس مؤذية. أنام قرابة خمس ساعات في اليوم، وأستيقظ في الليل أربع مرات تقريباً. هذا هو الأمر الصعب الوحيد. أصعب الأوقات عند الغسق، والظلام يخيم عندنا في التاسعة. أحياناً لا أنام حتى الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل. ولذا يصعب جداً تحمُّل الظلام قرابة خمس ساعات. وهذا يشوش الصحة أكثر من غيره.

لا أعرف شيئاً عن موعد انتهاء دعوانا[2]، لأني ضيعت الحساب، وأكتفي بتقويم أسجل فيه يومياً، دون حماس، تاريخ اليوم الذي ينتهي والحمد للّه. مطالعتي هنا قليلة. قرأت عن رحلتين إلى الديار المقدسة، ومواعظ القديس دميتري روستوفسكي. وقد أثارت الأخيرة

اهتمامي. إلا أن هذه المطالعة قطرة في بحر، وسأكون سعيداً جداً، على ما أعتقد، لو استلمت كتاباً ما للقراءة. لا سيما وأن ذلك سيكون وسيلة حتى للعلاج بإزاحة أفكار الغير لأفكاري أو إعادة بناء الأخيرة في ترتيب جديد.

تلك هي كل تفاصيل حياتي المعيشية، ولا شيء غيرها. يسرني أنك وجدت عائلتك كلها في صحة جيدة. فهل كتبت إلى موسكو عن إطلاق سراحك؟[3] يؤسفني جداً أن الأمور هناك لا تستقيم. ما أشد رغبتي في التواجد معكم ولو ليوم واحد. قريباً تنقضي ثلاثة أشهر على اعتقالنا، وسيحدث شيء ما لاحقاً. ربما لن نرى خضرة الأشجار هذا الصيف. هل تتذكر كيف كانوا يقتادوننا أحياناً للتمشي في الجنينة في شهر مايو؟ يومها بدأت الأرض هناك تعشوشب، وتذكرت ريفيل عندما كنت في زيارتك في مثل تلك الأوقات، وكذلك حديقة دار المهندسين. وخيل إليّ آنذاك أنك أيضاً ستقارن بين الحالتين. كان الموقف حزيناً. وبودّي أن أرى آخرين أيضاً. البعض منهم. أنت الآن تلتقي أشخاصاً، ينبغي أن تلتقيهم في الضاحية. أخونا أندريه لا بد أن يكون في المدينة. هل رأيت نيقولا؟ تحياتي لهما. وقبلاتي للأطفال، وتحياتي لزوجتك. قل لها إنني ممتن جداً لأنها تتذكرني، وبلّغها أن لا تقلق عليّ كثيراً. كل ما أتمناه أن أكون في صحة جيدة، أما الملل فهو ظاهرة عابرة. ثم إن المزاج الطيب يتوقف عليّ شخصياً. في الإنسان بحر من المرونة والحيوية. ولم أكن أعرف في الحقيقة عن ذلك البحر الزاخر، وقد تأكدت منه الآن بالتجربة. وداعاً إذن. أرجو لهذه الكلمات المقتضبة أن تبعث في نفسك الارتياح. بلّغ تحياتي لجميع من تراهم ولجميع من أعرفهم بلا استثناء. فأنا أتذكر الجميع. ماذا يظن بي أطفالك؟ حبذا لو عرفت افتراضاتهم بخصوصي: أين

اختفى يا ترى؟ وداعاً. أرسلْ لي «مذكرات الوطن» إن أمكن. فلا بد أن أقرأ فيها شيئاً. واكتبْ لي أنت أيضاً كلمتين، فذلك يبعث الفرحة في نفسي.

إلى اللقاء.

أخوك ف. دوستويفسكي

---

(1) كانت القلعة سجناً في العهد القيصري.

(2) اعتُقل فيودور دوستويفسكي وأُودع سجن القلعة ليلة 22 على 23 أبريل 1849. كما اعتُقل أخوه ميخائيل وسرعان ما أفرج عنه. سبب الاعتقال هو تأييدهما لحركة بتراشيفسكي الثورية المناهضة للنظام القيصري.

(3) يبدو أن أقارب دوستويفسكي في موسكو لا علم لهم بخبر اعتقال الأخوين.



35. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، قلعة بيتروبافلوفسكايا، 27 أغسطس 1849

يسرّني جداً، يا أخي العزيز، أنني أستطيع أن أجيبك وأشكرك على الكتب التي أرسلتها. وأنا شاكر لك بخاصة على (مجلدات) «مذكرات الوطن». كما يفرحني أنك في صحة جيدة وأن السجن لم يترك أي أثر سيئ على حالتك الصحية. لكنك قليل الكتابة. ولذا فإن رسائلي أكثر تفصيلاً من رسائلك. إلا أني أترك ذلك جانباً. فستصحح هذا الأمر فيما بعد.

عني شخصياً لا أستطيع أن أقول شيئاً على وجه التحديد. نفس ذلك المجهول فيما يخص انتهاء دعوانا. حياتي الشخصية لا تزال رتيبة كالسابق. لكنهم سمحوا لي من جديد أن أتمشى في الحديقة التي تحوي 17 شجرة تقريباً. وتلك بالنسبة لي فرحة لا تقدر بثمن. وإلى ذلك يمكنني الآن أن أحصل على شمعة في المساء. وتلك فرحة أخرى. والثالثة ستتحقق عندما تجيبني بسرعة وترسل إليّ «مذكرات الوطن»، لأنني بصفتي مشتركاً فيها من مدينة أخرى أنتظرها كما ينتظر المرء تباشير عهد جديد، كإقطاعي قتله الملل في ضيعة هامشية[1].

تريد أن ترسل لي مدونات تاريخية؟ سيكون ذلك رائعاً. إلا أن الأفضل أن ترسل لي الكتاب المقدس بجزءيه. أنا بحاجة إليه. وإذا كان إرساله ممكناً أرسله لي بالترجمة الفرنسية. وإذا أضفت النسخة السلافية فسيكون ذلك منتهى الروعة.

بخصوص صحتي لا أستطيع أن أقول ما يسر الأسماع. فمنذ شهر كامل أتناول زيت الخروع، وبفضله أواصل بقائي على قيد الحياة. التهاب البواسير اشتد إلى أقصى حد. وأشعر بألم في الصدر لم أكن أعرفه في السابق مطلقاً. وإلى ذلك يشتد التأثر النفساني، وخصوصاً مع قدوم الليل. أحلام طويلة مشوشة كل ليلة، وفوق ذلك يخيل إليَّ من وقت قريب أن الأرضية تترنح تحتي وأجلس في غرفتي كأنني في قمرة باخرة. وأستنتج من ذلك كله أن أعصابي تتدهور. عندما كانت هذه الحالات العصبية تداهمني في السابق كنت أستفيد منها لأكتب. فالكتابة تأتي أفضل وأكثر في مثل هذه الحالات، أما الآن فأمتنع، كيلا أجهز على البقية الباقية مني. كانت لدي فرصة، قرابة ثلاثة أسابيع، لم أكتب فيها شيئاً. أما الآن فقد بدأت من جديد. كل ذلك لا ضير فيه، يمكن أن أعيش معه. فقد أفلح في التعافي.

لقد أدهشتني عندما كتبت تقول إن معارفنا في موسكو، باعتقادك، لا يعرفون شيئاً عن اعتقالنا. فكرت في ذلك وحللته واستنتجت أن ذلك غير ممكن بأي حال. إنهم، ربما، يعرفون، وأنا أرى لصمتهم سبباً آخر. عموماً، هذا شيء متوقع، والقضية غنية عن البيان.

كيف هي صحة إميليا؟ ما أتعسها. هذا هو الصيف الثاني وهي تعاني من ملل لا يطاق. العام الماضي بسبب الكوليرا وغيرها، والعام الحالي اللّه وحده يعلم برداءة الجو. ولكنْ يا أخي من الخطيئة أن

نتساق إلى الخمول. العمل الحثيث بولع شديد هو السعادة بعينها. فما أفضل من أن تعمل وتكتب.

تقول إن الأدب في وعكة. ومع ذلك لا تزال أعداد «مذكرات الوطن» غنية بالمواد، وإن كانت غير روائية. ولا مقالة فيها تقرأ بغير متعة. قسم العلوم رائع. «غزو بيرو» لا أقل من الإلياذة. ولا تقل أهمية عن مقالة «غزو المكسيك» في العام الماضي. ولكن ما الحاجة إلى نشرها مترجمة؟!

قرأت بمنتهى الارتياح المقالة الثانية في تحليل «الأوديسة». إلا أن هذه المقالة أسوأ بكثير من الأولى، مقالة دافيدوف. فتلك كانت مقالة أدبية، وخصوصاً في الموضع الذي يفند فنيه آراء وولف، مكتوبة بفهم عميق للقضية وبحماس يصعب توقعه من بروفيسور طاعن في السن. وحتى في هذه المقالة تمكن من تحاشي الحذلقة الملازمة لكل العلماء بعامة، وعلماء موسكو بخاصة. من ذلك يمكنك، يا أخي، أن تستخلص أن كتبك تبعث في نفسي ارتياحاً عظيماً وإنني شاكر لك على إرسالها أجزل الشكر. وداعاً، أتمنى لك كل النجاح. اكتبْ لي بسرعة. وسيكون جميلاً لو أنك كتبت إلى أقربائنا في موسكو عن قضيتنا وسألتهم رسمياً كيف أحوال الضيعة؟

قبلاتي للجميع. أعتقد أنهم يأخذون الأطفال للتنزه في حديقة «ليتني». تحياتي إلى إميليا ومن تراهم من معارفنا. كتبت تقول إنك تتمنى أن تراني... سيتحقق ذلك في وقت ما. أما الآن فوداعاً.

المخلص فيودور دوستويفسكي

<u>ملحوظة</u>: اكتبْ لي من هو السيد ف. ش. الذي نشر مقالاته في

«مذكرات الوطن». ثم من هو صاحب تحليل أشعار شاخوفا في عدد يونيو من هذه المجلة. اسألْ عنهما إن أمكن.

بين العاشر والخامس عشر من سبتمبر تنفد نقودي يا أخي. ساعدني من جديد إذا استطعت. المطلوب قليل. لي دين على سوروكين من ريع «الفقراء» لكنني نسيت المبلغ، وأعتقد أنه زهيد للغاية. فقد سدد لي الأجر كاملاً تقريباً.

---

(1) تكرار هزلي لعبارة وردت في رسالة سابقة من ميخائيل إلى أخيه فيودور دوستويفسكي.



36. الى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، قلعة بيتروبافلوفسكايا، 14 سبتمبر 1849

أخي العزيز! استلمت رسالتك مع شكسبير والكتاب المقدس و«مذكرات الوطن» وعشرة روبلات فضية، وأنا شاكر لك على ذلك كله. ويسرني أنك في صحة جيدة. أما أنا فكالسابق. اضطراب المعدة نفسه، والتهاب البواسير نفسه. ولا أدري متى ينتهيان. وها هي شهور الخريف الصعبة مقبلة علينا، ومعها هواجس الأمراض والوساوس التي تلازمني. السماء مكفهرة الآن. والبقعة المضيئة التي يمكن أن أراها من كوة زنزانتي هي ضمانة صحتي وحسن مزاجي. ولكنني، على أية حال، لا أزال حياً أرزق. هذه حقيقة وواقع بالنسبة لي. ولذا لا تفكر، رجاءً، أنني في حالة ميئوس منها. كل شيء تمام فيما يخص صحتي حتى الآن. . كنت أتوقع الأسوأ، والآن أرى الحيوية في كياني لن تنضب.

أشكرك مرة أخرى على الكتب. فهي على أية حال تلهية. ها أنا أعيش قرابة خمسة أشهر على وسائلي الخاصة، أقصد على دماغي وحده ولا شيء غيره. هذه الآلة لا تزال تعمل ولم تتقوض.

بالمناسبة، التفكير المتواصل وحده، من دون أية انطباعات خارجية تحيي الفكرة وتدعمها، أمر صعب. فأنا كأنني تحت مضخة هوائية تنفث الهواء. كل ما فيه مضى إلى الدماغ، ومن الدماغ إلى الفكر. كل شيء، نعم كل شيء. ورغم ذلك يستمر هذا العمل يوماً بعد يوم. الكتب، مع أنها قطرة في بحر، إنما تساعدني على نحو ما. أما عملي الشخصي فهو، على ما أعتقد، يمتص آخر نسغ لدي. على فكرة أنا مسرور لهذا العمل.

أقرأ من جديد الكتب التي أرسلتها لي. وأشكرك خصوصاً على شكسبير. كيف حزرت؟ الرواية الإنجليزية[1] في «مذكرات الوطن» جيدة للغاية. لكن ملهاة تورغينيف[2] سيئة لدرجة لا يجوز السكوت عليها. من أين جاءته هذه المصيبة؟ هل يعقل أنه مقدر له أن يتلف كل مؤلف له يتجاوز الملزمة الواحدة؟ أنا لم أتعرف عليه في هذه الملهاة. ليس فيها أية أصالة: طريق وعر ومطروق. كل تلك الأمور قيلت قبله، وبأفضل منه. المشهد الأخير يسوده عجز صبياني. في بعض المواضع تلمع شذرات، لكنها تعتبر جيدة لعدم وجود أفضل منها. ما أروع المقالة عن البنوك، وكيف فهمها المجتمع؟

أشكر جميع الذين يتذكرونني. وتحياتي إلى إميليا وأخي أندريه، وقبلاتي لأطفالك الذين أتمنى لهم خصوصاً موفور الصحة والعافية. أنا لا أدري، يا أخي، كيف ومتى نتلاقى. وداعاً ولا تنسني رجاءً. اكتبْ لي ولو بعد أسبوعين.

إلى اللقاء.

المخلص ف. دوستويفسكي

ملحوظة: أرجوك، لا تقلق بخصوصي. إذا وجدت شيئاً يُقرأ أرسلْه لي.

---

(1) المقصود رواية «جين آير» لشارلوت برونتي. الترجمة الروسية 1849.
(2) «الأعزب». سبب انتقاد دوستويفسكي اللاذع لمسرحية تورغينيف هذه هو مزاجه الذي يقوده إلى توجهات أخرى.



37. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، قلعة بيتروبافلوفسكايا، 22 ديسمبر 1849

أخي وصديقي الحميم!

خلاص. صدر القرار. حكموا عليَّ بالأشغال الشاقة لمدة أربع سنوات أقضيها في إحدى القلاع. أعتقد قلعة أورينبورغ. وبالإضافة إلى ذلك تخفض رتبتي إلى جندي عادي. هذا اليوم، الثاني والعشرين من ديسمبر، نقلونا إلى ساحة سيمينوفسكي للاستعراضات. هناك تلوا علينا جميعاً حكم الإعدام. وقربوا الصليب منا فقبّلناه، وعقدوا السيوف فوق رؤوسنا، وقاموا بغسيل الموت[1] حيث ألبسونا قمصاناً بيضاء. ثم اقتادوا ثلاثة منا إلى عمود تنفيذ الإعدام. أنا كنت سادس محكوم. وكانوا يستدعوننا ثلاثة ثلاثة، بمعنى أنني في الوجبة الثانية ولم يبق لي على قيد الحياة سوى دقيقة واحدة. تذكرتك، يا أخي، وعائلتك جميعاً. في اللحظة الأخيرة كنت وحدك، ولا أحد غيرك، في ذهني. فعرفت مدى حبي لك يا أخي الوفي. وتسنى لي أن أعانق بليشييف ودوروف اللذين كانا جنبي وودعتهما. وفي تلك اللحظة دوى بوق تغيير الحكم. فأعادونا وأبلغونا أن صاحب الجلالة الإمبراطور

يهبنا الحياة. ثم تلوا الأحكام الحقيقية. وتم العفو عن بالم وحده. وأبقوه على رتبته في الجيش.

عرفت الآن، يا أخي العزيز، أننا سنتوجه اليوم أو غداً في التسفيرات. وطلبت أن يسمحوا لي بمقابلة معك. فامتنعوا.[2] يمكنني فقط أن أكتب لك رسالة، فأسرع أنت في الرد عليها. أخشى أن تكون على علم بحكم الإعدام علينا. رأيت من نافذة العربة التي نقلونا فيها إلى ساحة الاستعراضات جمهوراً غفيراً. ولربما وصلك النبأ أنت أيضاً، فكنتَ متألماً عليّ. الآن سيكون الأمر بشأني أهون عليك. أنا لم أكتئب، يا أخي، ولم تضعف معنوياتي. فالحياة هي الحياة أينما كانت. الحياة في داخلنا، في الباطن وليس في الظاهر. سيكون على مقربة مني أناس، وأن يكون الشخص إنساناً بين البشر ويبقى إنساناً أبداً، مهما كانت المصائب، ولا يكتئب ولا يسقط، ذلك هو مغزى الحياة ومهمتها. لقد أدركت ذلك. هذه الفكرة تسربت في مسامات كياني، في دمي. نعم، تلك هي الحقيقة. فالدماغ الذي كان يبدع ويحيا حياة الفن الراقية، والذي أبدع وتعوّد على احتياجات الروح السامية، دماغي ذاك قطع من العنق. وبقيت الذاكرة والصور المرسومة وغير المتجسدة من قبلي في واقع الحال. صحيح أنها قروح في داخلي. لكن القلب باق لدي ونفس الدم ونفس النطفة التي تستطيع أن تحب وتتألم وتتوق وتتذكر. وهذا كله حياة على أي حال. السجين أيضاً يرى الشمس[3]. وداعاً، إذن، يا أخي. ولا تحزن عليّ. والآن أتناول الأمور الشيئية: الكتب، ما عدا الإنجيل، وعدة ملازم من مخطوطاتي، مسودة مسرحية ورواية وخاتمة قصة «حكاية الأطفال» انتزعت مني، والاحتمال الأكبر أن تسلم لك. وسأترك معطفي وبدلتي القديمة أيضاً. ويمكنك أن تأخذهما. والآن يا أخي العزيز ربما

ينتظرني طريق طويل بالتسفيرات. وأنا بحاجة إلى نقود. أخي العزيز إذا استلمت هذه الرسالة وإذا كان بالإمكان استحصال بعض النقود أَرسلْها فوراً. فالنقود الآن أهم من الهواء بحسب ملابساتي. وابعثْ لي كذلك بضعة أسطر عنك شخصياً. وفيما بعد، إذا استلمت النقود من موسكو، حاول من أجلي ولا تتركني... هذا كل شيء. هناك ديون، فماذا نفعل لها؟!

قبلاتي لزوجتك وأطفالك. ذكّرهم بي واجعلهم لا ينسونني. ولربما سنلتقي في وقت ما. حافظ على نفسك وعائلتك يا أخي، عش بهدوء وتحوّط وبُعد نظر. وفكر في مستقبل أولادك... عش حياة إيجابية.

لم يكن كياني يزخر بمثل هذه الاحتياطيات السليمة والوفيرة للحياة الروحية كما هو الآن. ولكن هل سيتحمل بدني؟ لا أدري. أنا متوجه للتسفيرات ولست بصحة جيدة. أصبت بتدرن الغدد اللمفية العقدية. ولكنْ لعله ينتهي. فما أكثر ما جربت في الحياة، يا أخي، ولم أعد أخشى هذه الأمور. فليكن ما يكون. سأخبرك بأحوالي في أول فرصة سانحة.

انقلْ تحياتي الوداعية الأخيرة إلى عائلة مايكوف. وقل لهم إنني أشكرهم جميعاً لمشاطرتهم المتواصلة في مصيري. وانقلْ بضع كلمات أكثر دفئاً، بما يمليه عليك فؤادك، إلى يفغينيا مايكوفا. أنا أتمنى لها المزيد من السعادة وسأبقى أتذكرها دوماً بامتنان واحترام. شد على يد نيكولاي ألكساندروفيتش وأبولون مايكوف، ثم الآخرين فرداً فرداً.

حاول أن تجد يانوفسكي شد على يده واشكره. وأخيراً اشكر جميع الذين لم ينسوني. وذكّر الذين نسوني. قبّل أخي نيكولاي،

واكتبْ رسالة إلى أخي أندريه وأخبِره عني. اكتبْ لخالي وزوجته. أرجوك أن تكتب بالأصالة عن نفسي، وتحييهما بالنيابة عني. واكتب لأخواتي، أنا أتمنى لهن السعادة.

لربما نلتقي يا أخي. حافظ على نفسك، وعش، باللّه عليك، حتى موعد اللقاء معي. فلربما نتعانق في وقت ما، ونتذكر صبانا وأوقاتنا الذهبية السابقة وآمالنا وطموحاتنا التي اقتطعها في هذه اللحظة من قلبي وأدفنها مدماة.

هل يعقل أني لن آخذ الريشة بيدي بعد الآن؟ أظن أن ذلك سيكون بالإمكان بعد أربعة أعوام. سأبعث لك كل ما سأكتبه إذا كنت سأكتب شيئاً. يا إلهي! ما أكثر الصور التي عايشتها ورسمتها من جديد ستتلف وتموت، ستخبو في مخيلتي ودماغي أو تنسكب سماً زعافاً في دمي. نعم. إذا استحال عليَّ أن أكتب سأهلك وأموت. الأفضل خمسة عشر عاماً في السجن مع ريشة الكتابة في اليد.

اكتبْ لي أكثر، اكتبْ بتفصيل أكثر وبإسهاب. فصّل في كل رسالة أحوال العائلة حتى صغائر الأمور. لا تنس ذلك. فهو يمنحني الأمل والحياة. يا ليتك تعلم كيف أنعشتني رسائلك هنا، في الزنزانة. هذان الشهران والنصف، هذه الفترة الأخيرة التي منعوني فيها من المراسلة كانت صعبة جداً. وكنت متوعكاً. عدم إرسالك النقود أحياناً عذبني بالتفكير فيك. ذلك يعني أنك نفسك كنت في عوز شديد. قبّل الأطفال مرة أخرى. محيّا كل صغير منهم عالق في ذاكرتي. فما أجملهم. ياليت أن يكونوا سعداء. وكن سعيداً أنت أيضا، اتمنى لك السعادة يا أخي.

لا تحزن باللّه عليك. لا تحزن عليّ. واعلم أنني لم أكتئب. وتذكر أن الأمل لم يفارقني. بعد أربعة أعوام سيهون المصير. سأكون

جندياً، والجندي ليس سجيناً. واعلم أنني سأعانقك في زمن ما. ألم أكن اليوم في حضرة ملاك الموت؟ ثلاثة أرباع الساعة عايشت هذه الفكرة، كنت على شفا الهاوية، وها أنا الآن على قيد الحياة من جديد[4].

إذا كان أحد يذكرني بسوء، وإذا كنتُ قد تشاجرت مع أحد، وإذا تركتُ انطباعاً منفّراً في نفس أحد، قل لهم إذا التقيتهم أن ينسوا ذلك. لا مرارة ولا حقد في نفسي. حبذا لو أستطيع في هذه اللحظات أن أحب وأعانق أحداً من المعارف القدامى. هذه فرحة جربتها اليوم، حينما ودعت زملائي الطيبين قبيل مواجهة الموت. فكرت في تلك اللحظة أن نبأ إعدامي كان سيقتلك. ولكنْ ثق الآن بأنني أعيش وسأظل أعيش في المستقبل على فكرة أنني سأعانقك يوماً ما. لا شيء في دماغي الآن سوى هذه الفكرة.

ماذا تفعل؟ هل فكرت في شيء اليوم؟ هل تعرف عن أحوالنا؟ ما أشد البرد هذا اليوم[5].

يا ليت رسالتي تصلك سريعاً، وإلا سأبقى قرابة أربعة شهور من دون أخبار منك. رأيت المظاريف التي أرسلت لي فيها النقود في الشهرين الأخيرين، العنوان بخط يدك، وفرحت لأنك في صحة جيدة.

قلبي يكاد يتفطر كلما عدت بالذاكرة إلى الماضي ورأيت إلى كثرة الوقت المبدد عبثاً والمضيع في الضلالات والأخطاء والبطر وسوء تدبير العيش وكيف أني لم أقدّر ثمن ذلك الوقت وكم خطيئة ارتكبت ضد روحي وفؤادي. الحياة نعمة، الحياة سعادة، كل دقيقة يمكن أن تكون بمثابة دهر من السعادة. «فيا ليت الشباب يعود يوماً...»[6] أما

الآن وقد تغيرت حياتي فقد تحولتُ إلى كيان آخر. أقسم لك، يا أخي، أنني لن أفقد الأمل وسأحتفظ بروحي وفؤادي نقيين صافيين. وسأخلَق من جديد بشكل أفضل. ذلك هو كل أملي، وتلك هي سلواي الوحيدة.

حياة الزنازين قتلت في داخلي الكثير من المتطلبات الجسدية غير النظيفة تماماً، بينما لم أكن أحافظ على نفسي كثيراً في الماضي. أما الآن فالحرمان لا أهمية له بالنسبة لي، ولذا لا تخشَ أن تقتلني شهوة مادية ما. ذلك لن يحصل. يا ليت أن أكون في صحة جيدة.

وداعاً، يا أخي، وداعاً. سأكتب لك مرة أخرى في زمن ما. وستستلم تقريراً عن تسفيري بأكبر قدر من التفصيل. يا ليتني أحافظ على صحتي، والباقي سيكون حسناً على العموم.

إذن، وداعاً، يا أخي، وداعاً. أعانقك بشدة، وأقبلك بشدة. تذكرني من دون ألم في القلب. ولا تحزن، رجاءً، لا تحزن عليّ. في الرسالة القادمة سأكتب لك عما ينتظرني في الحياة. فتذكر ما قلته لك: إحسب الحساب لحياتك ولا تبذرها ولا تهدرها، ابنِ مصيرك واحرص على أطفالك. يا إلهي، متى، متى أراك؟ وداعاً. والآن أنفصل عن كل ما كان عزيزاً على الفؤاد، ويؤلمني أن أتركه. يؤلمني أن أقسم نفسي إلى شطرين، وقلبي إلى فلقتين. وداعاً وداعاً. لكنني سأراك. أنا على يقين من ذلك وآمل أن يتم، فلا تتبدل، وابقَ على حبك لي. ولا تجعل ذاكرتك فاترة باردة، وسيكون تفكيري في حبك لي أفضل جزء في جياتي. وداعاً، مرة أخرى وداعاً. وداعاً لكم جميعاً.

أخوك فيودور دوستويفسكي

ملحوظة: أخذوا مني عدة كتب أثناء الاعتقال. اثنان فقط كانا من الكتب الممنوعة. ألا تريد أن تحصل على الكتب الباقية؟ أحد تلك الكتب «مقالات فاليريان مايكوف النقدية»، وهو نسخة يفغينيا بتروفنا. وقد أعارتني إياها كقطعة من المجوهرات. أثناء الاعتقال طلبتُ من ضابط الجندرمة أن يسلمها هذا الكتاب وأعطيته عنوانها. ولا أدري هل أعاده إليها. رجائي أن تستفسر عن الموضوع. أنا لا أريد أن أنتزع منها هذه الذكريات. وداعاً، وداعاً مرة أخرى.

لا أدري هل سأمضي في التسفيرات ماشياً أم راكباً. أعتقد راكباً. يا ليت.

مرة أخرى شد على يد إميليا وقبِّل الأطفال بدلاً مني. وبلِّغ تحياتي ربما... إلى كرايفسكي أيضاً.

اكتبْ لي بمزيد من التفصيل عن اعتقالك وعن السجن وإطلاق سراحك.

---

(1) تعبير رسمي يقصد به تنفيذ حكم الإعدام.

(2) لقاء الكاتب مع أخيه تم في 24 من ديسمبر في يوم التسفيرات إلى سيبيريا.

(3) في الأصل بالفرنسية، نقلاً عن فيكتور هيغو..

(4) إشارة إلى إلغاء حكم الإعدام قبل ثلاثة أرباع الساعة من تنفيذه. هذا المشهد انعكس في رواية «الأبله».

(5) كانت درجة الحرارة 21 مئوية تحت الصفر والمحكومون ينتظرون الإعدام في قمصان بيضاء.

(6) أبو العتاهية. في الأصل بالفرنسية.

38. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

أومسك، 30 يناير - 22 فبراير 1854

أخيراً يبدو أنني أستطيع أن أتحدث إليك باستفاضة وبشكل أصح. ولكن قبل أن أكتب سطراً أسألك: لماذا لم تكتب لي حتى الآن ولا سطراً واحداً، أخبرني باللّه عليك، لماذا؟ (السلطات منعت ميخائيل من مراسلة أخيه 4 سنوات) وهل أتوقع منك ذلك؟ هل تصدق أنني، في وحدتي الانفرادية، واجهت القنوط الفعلي عدة مرات، متصوراً أنك لم تعد على قيد الوجود. وآنذاك كنت أفكر طوال الليالي ماذا سيحدث لأولادك، فلعنت مصيري لأني عاجز عن مساعدتهم. وفي مرات أخرى عندما عرفت أنك على قيد الحياة شعرت بغضب شديد، وكان ذلك في ساعات المرض، وهي كثيرة عندي، فصرت أسلط اللوم عليك بمرارة وألم. وفيما بعد زالت هذه الحالة، فسامحتك وحاولت أن أجد لتصرفك كل المبررات، وكنت أهدئ نفسي على أفضل تلك المبررات، ولم أفقد ثقتي وإيماني بك ولا مرة. فأنا أعرف أنك تحبني وتتذكرني بالطيب الحسن. بعثت إليك رسالة عن طريق هيئة الأركان، وكان لا بد أن تصل إليك.

وبقيت أنتظر منك جواباً لم أستلمه. هل يعقل أنهم منعوك؟ هذا شيء مسموح به، وكل السجناء السياسيين يستلمون عدة رسائل في العام. دوروف استلم عدة مرات. وقد أكدت الإدارة مرات كثيرة، في معرض الاستفسار منها عن الرسائل، السماح بكتابتها. أعتقد أنني حزرت سبب سكوتك الطويل. فإنك، بسبب خمولك، لم تراجع البوليس، وإذا كنت قد راجعته فإنك تهدأ بعد أول رد سلبي ربما من شخص غير ملم بالأمور جيداً. وبذلك سببت لي الكثير من المصائب الأنانية أيضاً. وكنت أفكر: «إذا كان لا يستطيع المطالبة بكتابة رسالة فهل يستطيع القيام بشيء أهم من أجلي؟» اكتبْ. أجبني بأسرع ما يمكن. قبل كل شيء اكتبْ بصورة رسمية دون انتظار مصادفة ما. اكتبْ بتفصيل أكثر وبإسهاب. أنا الآن كفلذة منتزعة منكم. وأريد للفلذة أن تعود إلى موضعها، لكنني عاجز عن إعادتها. الغائبون يجانبون الحقيقة دوماً. هل يعقل أن ذلك كان يجب أن يحصل بيننا؟ ولكنْ لا تقلق. أنا (الغائب) أثق بك.

منذ أسبوع خرجت من نظام الأشغال الشاقة. هذه الرسالة تأتيك في منتهى السرية. ولا يجوز التفوه بشأنها أمام أحد. على فكرة، سأبعث إليك أيضاً رسالة بالقنوات الرسمية من خلال أركان الفيلق السيبيري. أجب على الرسالة الرسمية فوراً، أما هذه فأجب عليها في أول فرصة سانحة. بالمناسبة ينبغي لك في جواب الرسالة الرسمية أيضاً أن تستعرض بأكبر قدر من التفصيل أهم ما كان في حياتك طوال هذه السنوات الأربع. أما بخصوصي أنا فيسرّني أن أكتب لك مجلدات كاملة، ولكن ما دام لا يوجد لدي الوقت الكافي حتى لهذه الرسالة فسأكتب الأهم فقط.

ما هو الأهم؟ وما الذي أعتبره هو الأهم بالنسبة لي في الآونة

الأخيرة؟ كلما فكرت في الأمر أستنتج أنني لن أصف لك شيئاً في هذه الرسالة. فكيف أنقل إليك دماغي، ومفاهيمي، وكل ما عايشته، وكل ما اقتنعت به وما توقفت عنده في هذه الفترة؟ لن أقوم بذلك. فهو عمل غير ممكن إطلاقاً. وأنا لا أحب القيام بعمل لحد النصف. بينما الكلام عن شيء ما بلهجة معتدلة لا يعني شيئاً. على فكرة، البلاغ الرئيسي أمامك. اقرأ واستنتج منه ما يحلو لك. أنا ملزم بالقيام بذلك. ولذا أبدأ بالذكريات.

هل تتذكر كيف افترقنا يا عزيزي وأخي الحبيب الغالي؟ حالما غادرتني أخذونا نحن الثلاثة، دوروف وياسترجيمبسكي وأنا، لتقييدنا بالسلاسل. وفي تمام الثانية عشرة، أي في عيد الميلاد، ارتديت السلاسل لأول مرة. وزنها قرابة عشرة أرطال والسير فيها صعب للغاية. ثم أجلسونا في زحافة مكشوفة كل واحد على حدة مع دركي، وتوجهنا على أربع زحافات من بطرسبورغ، ساعي البريد العسكري (ضابط الارتباط) في الأمام. كنت أشعر بثقل في القلب وبغموض مشوش ناجم عن الكثير من الأحاسيس المتنوعة. كان القلب يعيش حالة من الفوضى، ولذا كان يئن ويحزن دون وضوح. إلا أن الهواء الطلق أنعشني. وما دام المرء يشعر مع كل خطوة يخطوها في الحياة عادة بشيء من النشاط والحيوية فإنني كنت في الواقع هادئاً تماماً أتطلع باهتمام إلى بطرسبورغ وزحافاتنا تسير جنب البيوت المزينة بمناسبة العيد، وكنت أودع كل بناية ودار على حدة. ومررنا بشقتك. كما رأيت في منزل كرايفسكي إنارة أكثر. خبرني هل زيّن شجرة الميلاد وذهبت إليه إميليا مع الأطفال؟ بقرب هذا المنزل شعرت بحزن شديد وكأنني أودع الأطفال. كنت آسفاً عليهم.. وحتى فيما بعد، بمرور السنين، كنت أتذكرهم مراراً والدموع تترقرق في عينيّ.

سفّرونا لجهة ياروسلافل. وفي الصباح، بعد ثلاث أو أربع محطات توقفنا أمام مقهى في شليسيلبورغ. هرعنا إلى أكواب الشاي وكأننا لم نذق طعاماً من أسبوع. فبعد ثمانية أشهر من السجن شعرنا بجوع شديد في الفرسخ الستين من سفرتنا في الشتاء لدرجة أفقدتنا الذاكرة. أنا كنت مرحاً، وكان دوروف يثرثر بلا انقطاع، فيما كانت تلوح في دماغ ياسترجيمبسكي مخاوف رهيبة من المستقبل. كنا جميعاً نتابع ساعينا العسكري ونجربه، واتضح أنه شيخ طيب حسن المعشر يعاملنا معاملة إنسانية بالقدر الذي يمكن تصوره عن ضابط ارتباط مجرب جاب أوروبا كلها حاملاً الرسائل العاجلة. وقد قدم لنا الكثير من الخدمات الطيبة في الطريق. اسمه كوزما بروكوفيف. على فكرة، لقد نقلنا كوزما إلى العربات المسقوفة، وكان في ذلك نفع كبير لأن الزمهرير لا يطاق. اليوم التالي كان يوم العيد. الحوذية ركبوا الزحافات معنا، وهم يرتدون قفاطين من الجوخ الألماني الرمادي ومآزر حمراء (فوق المعاطف الدافئة)، ولا أحد في شوارع القرى. كان الجو شتوياً رائعاً. ساروا بنا في البراري على طريق بطرسبورغ ونوفغورود وياروسلافل وهلمجرا. المدن متباعدة ومظهرها لا يثير الاهتمام. إلا أننا دخلناها في العيد، ولذا كان هناك ما يؤكل ويُشرب. وتعرضنا لزمهرير فظيع. كنا نرتدي ملابس دافئة، إلا أن الجلوس عشر ساعات تقريباً من دون مغادرة العربة والقيام بتبديل الجياد 5-6 مرات شيء لا يطاق. نخر البرد عظامي حتى النخاع. ولم أتمكن من أن أتدفأ فيما بعد في الغرف الدافئة إلا بشق الأنفس. والغريب أن الطريق حسَّن أوضاعي الصحية. ففي محافظة بيرم تجمدنا ليلة بدرجة حرارة 40 مئوية تحت الصفر. وأنا لا أنصحك بذلك. إنه لأمر غير مريح! وكانت حزينة فترة عبور الأورال. الخيول

والعربات تغوص في أكوام الثلوج، والزوبعة الثلجية تصفر. خرجنا من العربات، وكان الوقت ليلاً وبقينا ننتظر حتى يتم سحبها. الثلج في كل مكان والزوبعة تفحّ على حدود أوروبا، وأمامنا سيبيريا والمصير الغامض فيها، ووراءنا الماضي كله. موقف حزين. وانبجست الدموع. على امتداد الطريق كانت قرى كاملة تهرع للتفرج علينا، ورغم السلاسل التي تقيدنا كانوا يأخذون منا في المحطات أضعاف المطلوب. الساعي العسكري كوزما وحده تكفل قسراً بحوالي نصف مصروفاتنا. ولذلك دفع كل واحد منا 15 روبلاً فضياً فقط على مصروفات الطريق. في 11 يناير وصلنا إلى توبولسك. وبعد أن قدمونا إلى الإدارة وفتشونا وصادروا كل نقودنا، زجّونا، أنا ودوروف وياستيرجيمبسكي، في حجرة خصوصية صغيرة، فيما كان الآخرون، سبيشنيف والذين وصلوا قبلنا، مسجونين في قسم آخر. ولم نر بعضنا بعضاً طول الوقت تقريباً. بودّي أن أتحدث بمزيد من التفصيل عن تواجدنا في توبولسك لمدة ستة أيام. وعن الانطباع الذي تركته تلك الأيام في نفسي. ولكن المجال هنا لا يتسع. أكتفي بالقول إن المشاطرة والتعاطف الحي منحانا السعادة تقريباً. المنفيون من الأزمان البعيدة، وعلى الأصح زوجاتهم وليس هم، سهروا علينا كما لو كنا من أهلهم. ما أروع هذه القلوب التي جربتها خمسة وعشرون عاماً[1] من المحن والتضحية بالنفس. رأيناهم بصورة خاطفة، بسبب التشدد الكبير تجاهنا. إلا أنهم أرسلوا لنا الطعام والثياب، وقاموا بمواساتنا وتشجيعنا. أنا، بعد أن بدأت التسفيرات من غير ثياب دافئة، لم آخذ حتى بدلتي، أسفت كثيراً لذلك. فأرسل لي المنفيون بدلة. وأخيراً غادرنا ووصلنا إلى أومسك بعد ثلاثة أيام. وعندما كنا في توبولسك عرفت بآمرينا المباشرين الذين سنكون في

عهدتهم. القومندان رجل شريف. إلا أن الميجر الميداني كريفتسوف لئيم من أحقر الناس. إنه بربري متوحش، سكير ومشاكس، فيه كل ما يمكن تصوره من منفرات.

بدأ بشتمنا، أنا ودوروف، على قضيتنا وهدد بجلدنا في أول تصرف خاطئ من جانبنا. كان للعام الثاني في رتبة ميجر ميداني، واقترف أبشع المظالم.

وبعد عامين أحيل إلى المحكمة. وخلصني اللّه منه. كان يداهمنا دوماً في حالة سكر، ولم أره مرة صاحياً. ويأخذ بخناق السجين الصاحي ويضربه بحجة أنه سكران لأقصى حد. وفي التفقد الليلي يضربه أحياناً لمجرد أنه ينام على جنبه الأيمن أو يهذي ويتأوه في المنام، ولأية ذريعة تتبادر إلى الرأس المخمور. كان علينا أن نتعايش مع هذا الشخص دون أن نصاب بأذى. وكان هو يرفع التقارير ويبيع شهادات واقع الحال عنا كل شهر في بطرسبورغ. تعرفت على المحكومين بالأشغال الشاقة منذ أن كنا في توبولسك. وهنا في أومسك كنت أتوقع أن أعيش معهم أربعة أعوام. إنهم أناس غلاظ انفعاليون وموتورون. حقدهم على النبلاء يتجاوز كل الحدود، ولذا استقبلونا، نحن أبناء طبقة النبلاء، بعداء وشماتة على المصيبة التي حلّت بنا. كانوا على استعداد أن يأكلونا لو سمح لهم بذلك. بالمناسبة، حكم عقلك، هل كانت الحماية كافية ونحن مضطرون أن نعيش ونقتات وننام عدة سنوات مع هؤلاء الناس، وليس هناك من نشتكي إليه أو يسمع شكوانا من شتى الإهانات اللاإنسانية: «أنتم النبلاء نقرتمونا بأنوفكم الفولاذية، في السابق كنتم أسياداً تعذبون الناس، واليوم صرتم كسائر الناس وأسوأ منهم». هذا هو الموضوع الذي تكرر طوال أربعة أعوام. 150 من الأعداء كانوا يلاحقوننا بلا

كلل. كانت تلك هي تسليتهم المحببة وشغلهم الشاغل. وما كنا نتخلص من هذه المصيبة إلا باللاأبالية وعدم الرضوخ لإرادتهم وبالتفوق الخلقي الذي ما كان بوسعهم أن يتجاهلوه أو لا يحترموه. كانوا يدركون دوماً أننا أرقى منهم. ولم يكونوا يفهمون الجريمة التي نسبت إلينا. نحن التزمنا الصمت بهذا الخصوص، ولذا لم نكن معهم نفهم بعضنا بعضاً. وتعيَّن علينا أن نتحمل الثأر والانتقام الذي يعيشون عليه ويتنفسون تجاه طبقة النبلاء[2]. كانت حياتنا سيئة للغاية. الأشغال الشاقة العسكرية أثقل من المدنية. أمضيت السنوات الأربع كلها رهين المحبس وراء الجدران، لا أغادرها إلا للعمل. وكان من نصيبي عمل شاق حقاً، ليس دوماً بالطبع، وكان عليَّ أن أستهلك آخر طاقاتي، في الجو المكفهر، في البلل والوحول أو في الشتاء القارس لدرجة لا تطاق. ذات مرة قضيت أربع ساعات في عمل طارئ عندما تجمد الزئبق، وبلغت درجة الحرارة ربما 40 تحت الصفر. تجمدت ساقي. كنا نقيم سوية في ثكنة واحدة. فتصور القاووش الخشبي العتيق البالي الذي كان ينبغي تجريفه من زمان ولم يعد صالحاً للخدمة. في الصيف جو خانق، وفي الشتاء برد لا يطاق. خشب الأرضية متعفن. والأرضية نفسها قذرة بطبقة سميكة من الأوساخ يمكن أن ينزلق الشخص عليها ويسقط. النوافذ الصغيرة متجلدة ولا يمكن القراءة طول النهار تقريباً. طبقة الجليد على الزجاج بسمك عدة سنتمترات. ومن السقف تتساقط قطرات. والريح تصول وتجول في الداخل. نحن كالسمك المعلب. تسخين الفرن يجري بست حطبات سميكة ولا دفء هناك. فالجليد في الغرفة لا يكاد يذوب. وروائح الدخان لا تُحتمل. ذلك هو الشتاء. وفي الثكنة يغسل السجناء ثيابهم فتبتل الثكنة الصغيرة عن آخرها. والتحاشك لا يتيح للشخص حتى أن

يستدير. ومن الغسق حتى الشفق يُمنع الخروج لقضاء الحاجة، وتُقفل الثكنة. ويوضع في المدخل للتبول برميل ذو عروتين. ولذا فالجو خانق جداً. والروائح الكريهة تفوح من جميع السجناء كما من الخنازير. وهم يقولون إنهم لا يستطيعون أن يتجنبوا سلوك الخنازير لأنهم «كائنات حية» مثلها. ننام على أسرَّة خشبية من دون حشية. ولكل منا وسادة واحدة. نلتحف معاطف قصيرة، وأقدامنا عارية طول الليل. نرتجف من البرد طول الليل. والبراغيث والقمل والصراصر أكوام لا تعد ولا تحصى. في الشتاء نرتدي معاطف قصيرة، من أسوأ الأنواع في الغالب، ولا تدفئ تقريباً. ونحتذي جزمات لا تكاد أطرافها القصيرة تغطي الساقين ولا تقي من الزمهرير. وعندما يعطوننا رغيفاً مع حساء يحتوي على ربع رطل من اللحم للشخص الواحد فإن اللحم يضعونه مفروماً ولم أره مرة في الحساء. وفي العطل والأعياد يعطوننا عصيدة من دون زبدة تقريباً. وفي الصيام يعطوننا قرنبيطاً بالماء ولا شيء آخر تقريباً. اضطربت معدتي في ألم لا يُحتمل، فمرضتُ عدة مرات. فهل يمكن العيش والحال هذه بلا نقود؟ لو لم تكن معي نقود لهلكت حتماً. ولا أحد من المساجين يتحمل حياة كهذه. كل واحد منهم يمارس عملاً ما ويبيع ما يبيع ولديه فلوس. أنا كنت أحتسي كوب الشاي وأتناول أحياناً شريحة من لحم البقر، وهذا ما أنقذني. عدم التدخين غير ممكن. وكان بالإمكان الاختناق في هذا الجو العفن. ذلك كله يجري بالخفية. كنت غالباً ما أرقد مريضاً في المشافي. وبسبب الاضطراب العصبي أصبت بالصرع[3]، ولكن في حالات نادرة. كما أعاني من الروماتيزم في القدمين. وفي ما عدا ذلك أشعر بأن صحتي لا بأس بها. أضف إلى هذه المنغصات تعذر الحصول على الكتاب تقريباً. وما أحصل عليه أقرأه خفية. العداء

المتواصل والشجار الدائم حوالي والشتائم والصياح والصخب والضجيج، وكوني دوماً تحت الحراسة لا يتركونني وحدي، كل ذلك، على مدى أربع سنوات دون تغيير، شيء قد لا يجوز التسامح مع من يقول بخصوصه إنه رأى أسوأ منه. وإلى ذلك هناك الشعور بالمسؤولية الذي يلاحقنا دوماً، هناك القيود والسلاسل والمضايقة التامة للروح- تلك هي صورة وجودي وحياتي. لن أحدثك عما حصل لروحي، لمعتقداتي، لعقلي وقلبي خلال هذه السنوات الأربع. هذا الحديث يحتاج إلى وقت طويل. إلا أن التركيز المتواصل على الذات والذي لجأت إليه فراراً من الواقع المرير عاد بثماره. فلدي الآن متطلبات وطموحات كثيرة لم أكن أتصورها. إلا أن تلك ألغاز ولذلك أمرّ عليها مر الكرام. الشيء المهم هو أن لا تنساني، تذكّرني وساعدني. أنا بحاجة إلى الكتب والنقود. فأَرسلْها لوجه المسيح!

أومسك مدينة صغيرة مقيتة. لا أشجار فيها تقريباً. الصيف شديد الحرارة مع عواصف رملية، وفي الشتاء زوابع ثلجية. لم أر أثراً للطبيعة. المدينة عسكرية قذرة، ومتفسخة أخلاقياً لأبعد الحدود. أنا أتحدث عن العامة المتجهمة. ولو لم أجد هنا أناساً طيبين لهلكت وانتهى أمري. على سبيل المثال ك. إيفانوف، يصح فيه القول «رب أخ لم تلده أمك». لقد فعل من أجلي كل ما يستطيع. وأنا مدين له ببعض النقود. فإذا جاء إلى بطرسبورغ اشكره. أنا مدين له بـ 25 روبلاً فضياً. ولكن بماذا نرد الجميل امتناناً على الترحاب والاستعداد الدائم لتنفيذ مختلف الطلبات والاهتمام والعناية التي لا يبديها الشخص إلا لأخيه من أمه وأبيه. وليس إيفانوف الوحيد. ففي الدنيا، يا أخي، كثير جداً من الناس الطيبين.

سبق وكتبت أن صمتك كان يعذبني أحياناً. شكراً على تحويل

النقود. مع أول رسالة، ولو كانت رسمية، لأنني لا أعرف حتى الآن هل أستطيع أن أبعث إليك معلومات، مع أول رسالة اكتبْ لي تفصيلاً عن أحوالك، وعن زوجتك إميليا والأولاد وعن جميع الأهل والأقارب والمعارف. في موسكو، من منهم على قيد الحياة ومن توفاه اللّه وعن أمورك التجارية، اكتبْ لي من أين لك رأس المال الذي صرت تمارس به التجارة، وهل هي مربحة، وهل لديك شيء، وأخيراً هل تستطيع مساعدتي مالياً، وكم تستطيع أن تبعث لي سنوياً[4]. ولكن لا ترسل النقود بالرسائل الرسمية، إلا إذا لم أجد أنا عنواناً آخر. أرسل الآن من ميخائيل بتروفيتش. مفهوم؟[5] علماً بأنه لا تزال لدي بقية من نقود، ولكن ليس عندي كتب. إرسل لي، إذا إستطعت، مجلات هذا العام، «مذكرات الوطن» على الأقل. إلا أن المهم أنني بحاجة ماسة إلى المؤرخين القدامى بالترجمة الفرنسية والمحدثين[6] وكذلك الإقتصاديين وآباء الكنيسة. أرسلْ هذه الكتب من كل بد. اختر الأرخص والأصغر مقاساً. سيتم تسفيري إلى سيميبالاتينسك، في سهب قرغيزيا تقريباً. وسأبعث إليك العنوان. وأسجله هنا أيضاً على سبيل الاحتياط: (. . .) وهو عنوان رسمي ابعث الرسائل عليه. أما بالنسبة للكتب فسأرسل لك عنواناً آخر. أما الآن فاكتبْ لي باسم ميخائيل بتروفيتش. وليكن في علمك أن أول كتاب أنا بحاجة إليه هو المعجم الألماني[7].

لا أدري ماذا ينتظرني في سيميبالاتنسك. وأنا أشعر بشيء من اللاأبالية تجاه هذا المصير. لكنني لست أبالياً تجاه أمر آخر. حاول أن تتشفع لي، واطلب ممّن يستطيع أن يتشفع لي بإرسالي إلى القوقاز (للخدمة الفعلية في الجيش) بعد عام أو عامين. فالقوقاز، على أية حال، روسيا. تلك هي رغبتي الشديدة. فتشفع لوجه المسيح. لا

تنسني يا أخي. ها أنا أكتب لك وأتصرف بكل شيء حتى بأمورك المالية. إلا أن ثقتي بك لم تخفت. أنت أخي، وقد أحببتني. أنا بحاجة إلى النقود. وعليّ أن أعيش يا أخي. لن تكون هذه السنوات عجافاً. أنا بحاجة إلى النقود والكتب. كل ما تنفقه عليّ لن يذهب هباءً. أنت لا تسرق أطفالك إذا أعطيتني. وسأعيده إليهم وزيادة إذا بقيت على قيد الحياة. أكيد سيسمحون لي بالنشر بعد ست سنوات أو قبل ذلك. أمور كثيرة ستتغير. وأنا لن أكتب تفاهات بعد الآن. وستأتيك أخباري.

سنلتقي، يا أخي، قريباً جداً. أنا واثق من ذلك ثقتي ببديهيات الحساب. روحي في وضوح. كل مستقبلي وكل ما سأقوم به يلوح أمام أنظاري. وأنا راض على حياتي. الشيء الوحيد الذي يمكن أن أخشاه هو الأشخاص والاستبداد. تأتي إلى رئيسٍ فيكرهك، والرؤساء من هذا النوع موجودون. يبحث عن النواقص، فنهلك بسببها أو يهلكنا بالخدمة، وأنا ضعيف القوى لا أستطيع بالطبع تحمُّل كل أعباء الجنود. يقول لي البعض مشجعين: «كل الناس هناك بسطاء». والحقيقة أنا أخشى الشخص البسيط أكثر من المعقد. على فكرة، الناس سواء في كل مكان. وفي الأشغال الشاقة، بين قطاع الطرق، تمكنت في أربع سنوات أن أميز أخيراً بين الناس. هل تصدق؟ هناك طباع قوية عميقة رائعة، وكم كان مبعثاً للمرح البحث عن الذهب تحت القشرة الخشنة. تلك ليست الحالة الوحيدة أو الثانية. بل عدة حالات. البعض منهم يستحقون الاحترام، والبعض الآخر رائعون بلا جدال. علّمت اللغة الروسية شاباً شركسياً محكوماً بالأشغال الشاقة لجريمة نهب وسلب، فما أكثر ما أمطرني به من امتنان وتشكرات. وسجين آخر بكى عندما ودعني. كنت أعطيته نقوداً، على قلّتها،

فكانت تشكراته بلا حدود. علماً بأن طباعي تردت. كنت معهما سريع الانفعال نافد الصبر. وهما يقدران حالتي النفسانية، فكانا يتحملان دون أثر للتشكي. وبالمناسبة ما أكثر ما خرجت به من النماذج والصور والطباع الشعبية من الأشغال الشاقة. لقد تعايشت معهم، ولذا يخيل إليَّ أنني أعرفهم جيداً. ما أكثر المصائر التي تجوب (منطقة الجنايات) وما أكثر قطاع الطرق، وعموماً ما أكثر أصحاب السوابق الحزانى في تلك المعيشة الكالحة. تلك النماذج البشرية تكفي لكتابة مجلدات. فما أغرب هذا الشعب. وما أروعه. عموماً الوقت ليس ضائعاً أو مضيعاً بالنسبة لي. فقد عرفت الشعب الروسي، إنْ لم أقل روسيا، جيداً. عرفته بالقدر الذي لا يعرفه فيه إلا القليلون. هذا ما تقوله كبريائي المتواضعة. فلا مؤاخذة.

اكتبْ لي، يا أخي، حتماً عن جميع الملابسات الرئيسية لحياتك. ابعث الرسائل إلى سيميبالاتنسك رسمياً وبالشكل غير الرسمي الذي تعرفه. اكتبْ عن جميع معارفنا في بطرسبورغ، اكتبْ عن الأدب، آخر تفاصيله، وأخيراً عن معارفنا في موسكو. كيف حال أخي نيقولاي؟ وكيف حال أختي ألكساندرا، وهذا هو المهم، هل خالي على قيد الحياة، كيف حال أخي أندريه؟ أنا أراسل زوجة خالي بواسطة أختنا فيرا، بالمناسبات. هذه الرسالة بالخفية. باللّه عليك، احتفظ بهذه الرسالة خفية، بل أحرقها كيلا نسيء إلى سمعة الناس. ولا تنس تزويدي بالكتب، يا صديقي الحميم. المهم مؤلفات المؤرخين والاقتصاديين ومجلدات «مذكرات الوطن» ومدوّنات الآباء الكنسيين وتاريخ الكنيسة. أرسلْها في أوقات مختلفة، ولكن أَرسلْها حتماً. أنا أتصرف بجيبك وكأنه جيبي. وسبب ذلك هو جهلي بإمكانياتك المادية. اكتبْ لي عنها بشكل دقيق، لكي آخذها بنظر الاعتبار. وليكن

في علمك، يا أخي، أن الكتب هي حياتي، هي طعامي. هي مستقبلي. فلا تتركني باللّه عليك. لوجه الرب الخالق. اطلب سماحاً واستفسر هل يمكنك أن ترسل لي الكتب رسمياً؟ بالمناسبة، اسألهم بحذر. إذا سمحوا رسمياً فابعثْ. وإلا فعن طريق الأخ ق. إ. (قسطنطين إيفانوفيتش - ملاحظة المترجم). وهو نفسه سيكون في بطرسبورغ هذا العام. وسيحدثك عن كل شيء. عن عائلته، عن زوجته. هذه السيدة هي كريمة (الثوري) الديسمبري آنينكوف. سيحدثك عن طيبة القلب، عن النفس الرائعة، وكم تحملوا من معاناة!

سأحاول أن أعثر لك على عنوان آخر في سيميبالاتنسك التي سأتوجه إليها بعد أسبوع. أنا لا أزال متوعكاً بعض الشيء. ولذا أرجأوا سفري إلى هناك مؤقتاً. أَرسلْ لي نسخة من القرآن[8] وكذلك «نقد العقل الخالص» لكانْت. وإذا كنتَ قادراً على إرسال شيء بصورة غير رسمية أَرسلْ لي من كل بد هيجل، وخصوصاً كتابه «تاريخ الفلسفة». مستقبلي كله مرتبط بذلك. ولكن أرجوك، باللّه عليك، اسألهم بخصوص تنسيبي إلى القوقاز، واسأل من العارفين هل يحق لي أن أنشر، وما صيغة الطلب بهذا الخصوص. سأطلب بعد عامين أو ثلاثة. وحتى ذلك الحين أطعمني رجاءً. فبلا نقود الجنود سيخنقونني. ثم انظر، ألا يستطيع أقرباؤنا الآخرون أن يساعدوني بشيء ولو للمرة الأولى؟ في هذه الحالة فليسلموك النقود وأنت ترسلها لي. على فكرة، في رسائلي إلى فيرا وإلى زوجة خالي أنا لا أطلب منهما مساعدة. ويمكنهما أن تحزرا إذا أمرهما القلب.

عندما سافر فيليبوف إلى سيواستوبول أهداني 25 روبلاً فضياً. تركها عند القومندان نابوكوف كي لا أعرف بالموضوع. كان يتصور أنني لن أمتلك نقوداً. ما أطيب قلبه. جميع المنفيين عندنا يعيشون

بتواضع. تول أنهى فترة الأشغال الشاقة، وهو في تومسك يعيش بلا إشكالات. ياستارجيمبسكي على وشك إنهاء الأشغال الشاقة بمدينة تارا. سبيشنيف في محافظة إركوتسك يتمتع بحب الجميع واحترامهم. عجيب مصير هذا الإنسان. فأينما وكيفما ظهر يحيط به الناس رأساً زرافات ووحداناً ويغرقونه بالاحترام والتقدير. بتروشيفسكي لا يزال كالسابق بعيداً عن العقل السليم.[9] مومبيلي ولفوف في صحة جيدة. أما المسكين غريغوريف فقد اختل عقله نهائياً وهو في المستشفى. وأنتم كيف الحال عندكم؟ هل تلتقي السيدة بليشييفا؟ كيف حال ابنها؟ سمعت من سجناء التسفيرات أنه حي يرزق في سجن قلعة أورسكايا. أما غولوفينسكي فقد نُقل إلى القوقاز من زمان. ما موقفك من الأدب ووضعك فيه؟ هل تكتب شيئاً؟ ماذا عن كرايفسكي، وما هي علاقاتك به؟ أوستروفسكي[10] لا يعجبني. أنا لم أقرأ بيسيمسكي. مقالات دروجينين تبعث في نفسي الغثيان. أعجبت كل الإعجاب بيفغينيا تور. كريستوفسكي تعجبني أيضاً[11].

بودّي أن أكتب لك الكثير، لكن وقتاً طويلاً مضى لدرجة أجد فيها صعوبة حتى مع هذه الرسالة. فليس معقولاً أن أموراً بهذا القدر تغيرت فينا أحدنا تجاه الآخر. قبّل الأطفال. هل يتذكرون عمهم فيودور؟ تحياتي لجميع معارفنا، لكن هذه الرسالة يجب أن تبقى طي الكتمان. وداعاً، وداعاً يا عزيزي الغالي. ستسمع عني، ولربما ستراني. نعم سنلتقي حتماً. أليس كذلك؟ وداعاً. اقرأ جيداً كل ما أكتبه إليك. اكتبْ لي أكثر، ولو رسمياً. أعانقك وجميع أفراد العائلة مرات لا تعد ولا تحصى.

المخلص

ملحوظة: هل استلمت «حكاية أطفال» التي كتبتها في سجن القلعة؟ إذا كانت عندك لا تتصرف بها ولا تعرضها على أحد. من هو تشيرنوف الذي كتب (قصة) «الشبيه» عام 50. (في محاكاة لرواية دوستويفسكي «الشبيه»- ملاحظة المترجم). وابعثْ لي، رجاءً، سيجار، ولو رديئة بشرط أن تكون أميركية، وكذلك سجائر لف فيها مفاجآت حتماً.

22 فبراير

غداً على الأرجح سيسفرونني إلى سيميبالاتنسك. وسيبقى ق. إ. هنا حتى مايو. وأعتقد أنك تستطيع، إذا أردت، أن ترسل لي شيئاً ما، كالكتب مثلاً، على الاسم السابق ميخائيل بتروفيتش.

للمراسلة مع سيميبالاتنسك ربما سأزودك بعنوان آخر، غير رسمي. ولكن اكتبْ لي على العنوان الرسمي بأسرع وأكثر ما يمكن. اسعَ من أجلي باللّه عليك. هل يمكن تسفيري إلى القوقاز أو أية جهة أخرى بعيداً عن سيبيريا؟

من الآن فصاعداً سأكتب روايات ومسرحيات، وإلى ذلك بقي الكثير، الكثير جداً، مما يجب أن أقرأه. لا تنسني. وداعاً مرة أخرى. قبّل الأولاد. إلى اللقاء! المخلص.

---

(1) الخدمة الإلزامية في الجيش القيصري آنذاك 25 عاماً.

(2) الملاك العقاريين والإقطاعيين. ألغي نظام القنانة والعبودية في روسيا رسمياً عام 1861.

(3) هذه أول إشارة إلى إصابة دوستويفسكي بالصرع. وبين الباحثين من يقول إن الكاتب أصيب بهذا المرض في الطفولة.

(4) يحتمل أن يكون الكاتب قرأ في الجرائد الإعلان الذي نشره أخوه ميخائيل حول تجارة السجائر. ويرجح أن ميخائيل بدأ يمارسها في بطرسبورغ بعد أن استلم حصته من تركة الوالد.

(5) الأرجح أن هذا اسم مستعار.

(6) فيكو وغيفو وتيير ورانكيه وهلمجرا. (ملاحظة دوستويفسكي)

(7) تفيد بعض المعلومات أن دوستويفسكي كان آنذاك ينوي ترجمة «الفلسفة» لهيجل وغيرها.

(8) أول طبعة لترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية صدرت بمرسوم من القيصر بطرس الأكبر في عام 1716.

(9) موقف دوستويفسكي من بيتروشيفسكي، زعيم الحركة الثورية المسماة باسمه والتي حكم على الكاتب بسبب الانتساب إليها، متناقض لغرابة أطواره، قال عنه: «عقل بيتروشيفسكي أكبر من عقلانيته»، لكن دوستويفسكي أكد في الوقت ذاته أنه يكنّ له كل الاحترام لنزاهته ونبله.

(10) فيما بعد قرأ دوستويفسكي مسرحيات ألكسندر أوستروفسكي وأعجب بها.

(11) كريستوفسكي اسم مستعار للكاتبة خفوشينسكايا التي بدأت تنشر في «مذكرات الوطن» عام 1850.

39. إلى نتاليا فونفيزينا

أومسك، يناير- فبراير 1854

وأخيراً، يا مثال الطيبة والأريحية السيدة ن.د.[1]، أكتب إليك بعد أن خرجت من المكان السابق. في المرة الأخيرة التي كتبت فيها إليك كنت مريضاً نفسياً وبدنياً. كانت الكآبة تنهشني، وأظن أني كتبت رسالة مشوشة للغاية.. هذه الحياة الطويلة الكالحة المرهقة مادياً ومعنوياً قهرتني. وأنا أحزن دوماً عندما أكتب الرسائل في مثل هذه اللحظات. من الجبن والتخاذل، في اعتقادي، إلقاء الأحزان في تلك اللحظات على الآخرين، مهما كانوا يميلون إلينا. أرسل هذه الرسالة في فرصة مناسبة، وأنا مسرور جداً لأنني أستطيع أن أتكلم معك هذه المرة، خاصة وأنهم نسبونا إلى الكتيبة السابعة في سميبالاتينسك ولا أدري كيف أستطيع فيما بعد أن أكتب لك الرسائل أو أستلمها منك. لقد كتبتِ لي من زمان عن أخي. آنذاك أعددت رسالتين لك وله، لكنني خشيت أن أرسلهما، وأعتقد حسناً فعلتُ. قرأت كل عناوينك في رسالتك إلى س. د. (سرغي دوروف) وسآخذها منه على سبيل الاحتياط. ولربما هي عناوين مأمونة، إلا أن رسالتك الأخيرة وصلت

مفتوحة، ولذا لا بد من التزام الحذر الشديد. الأفضل، لو أردت أن تسعديني بالكتابة إليّ، أن تعنونيها إلى أخي في بطرسبورغ، أو أنه يأتي إليك بنفسه، ليس أكيداً، ويلتقيك شخصياً. أو يبعث إليك شخصاً موثوقاً به. أخي يمارس التجارة الآن. ولذا أعتقد أن العثور على عنوانه ليس صعباً، في المطبوعات مثلاً. أنا شخصياً لا أعرف عناوينه. بالمناسبة أنا لا أنصحك بالاعتماد على البريد. فما دام يتنقل بين موسكو وبطرسبورغ، على ما أعتقد، أشخاص من معارفك فالأفضل توصيل الرسالة المعنونة لي إليه عن هذا الطريق. وبالتالي سأتراسل مع أخي فقط.. والأفضل في مثل هذه الأحوال أن يكون هناك اتصال واحد وليس اثنان. فهذا آمن وأسلم. وإذا وجدت، بالمناسبة، فرصة مأمونة ولا ضرر فيها للكتابة إليَّ بطريقة أخرى فسيكون ذلك أيضاً شيئاً رائعاً، بل وأفضل من كوني لا أعرف فيما بعد الطريقة التي يتعين عليَّ أن أكتب فيها لأخي. إنني أعتمد عليه لأن المراسلة معه تتم من كل بد. ثم إنك تقيمين في مارينو، وهذا طريق عادي من موسكو إلى قريتنا في محافظة تولا. لقد قطعت هذا الطريق قرابة عشرين مرة ذهاباً وإياباً، ولذا أستطيع أن أتصور بوضوح مكان إقامتك الجبرية، والأصح محبسك الجديد. ما أشد الارتياح الذي أقرأ فيه رسائلك يا ن. د.(نتاليا دميتريفنا) الغالية. تكتبينها بأروع صورة، أو الأفضل أن أقول إن رسائلك تنساب برفق وهدوء من أعماق قلبك الطيب المحب للإنسانية. هناك نماذج ذات طباع انطوائية موتورة نادراً ما تجد في نفسها لحظة طيبة للتواصل مع الآخرين. أنا أعرف مثل تلك الطباع. ولكنهم عموماً ليسوا من الأشرار، بل على العكس تماماً.

لا أدري تحديداً، لكنني أستشف من رسالتك أنك وجدت مسقط

رأسك مجدداً بحزن واكتئاب. أنا أفهم ذلك. لقد فكرت مراراً أنني إذا عدت في زمن ما إلى مسقط رأسي فسأجد في انطباعاتي أحزاناً تفوق المسرات. أنا لم أعش حياتك، ولا أعرف الكثير فيها، كما لا يعرف أي إنسان في حياة إنسان آخر. إلا أن الشعور الإنساني فينا مشترك. ويخيل إليَّ أن كل منفي عندما يعود إلى موطنه يستحضر من جديد، في الوعي وفي الذكريات، جميع مصائبه السابقة. ذلك يشبه الميزان الذي تزن وتعرف من خلاله على وجه الدقة الوزن الحقيقي لما تحملته وعانيته وفقدته، ولما انتزعه منا الناس الطيبون. بارك اللّه فيك وأمد في عمرك. لقد سمعت من الكثيرين أنك متديّنة متعبدة، أقول لك يا (نتاليا دميتريفنا)، ليس لأنك متدينة، بل لأنني عايشت ذلك وتلمسته، إن الإنسان في هذه اللحظات يتعطش «كالعشب الجاف»[2] إلى الإيمان ويجد السبيل إليه، في الواقع لأن الحقيقة تتضح في المصائب والملمات. عن نفسي أقول لك إنني ابن عصري وزماني، ابن الشكوك وغياب الإيمان حتى الآن، وربما حتى اللحد، أنا أعرف ذلك. فما أشد العذابات الفظيعة التي كنت ولا أزال أتحملها ثمناً لتعطشي إلى الإيمان الذي يزداد في روحي كلما ازدادت الذرائع والحجج المضادة. إلا أن الخالق يهبني أحياناً لحظات أكون فيها هادئ البال تماماً. وفي تلك اللحظات أنا أحب، وأرى أنني محبوب من قبل الآخرين، وفي مثل تلك اللحظات جمعت في نفسي مكونات رمز الإيمان الذي كل شيء فيه بالنسبة لي واضح ومقدس. هذا الرمز بسيط للغاية: الإيمان بعدم وجود ما هو أروع وأعمق وأجمل وأرجح عقلاً وأكثر بسالة وكمالاً من (السيد) المسيح. لا أقول مجرد عدم وجود مثيل له، بل أقنع نفسي بكل محبة وحرص بأن لا مثيل له إطلاقاً. والأكثر من ذلك لو استطاع شخص ما أن يثبت لي

بأن المسيح خارج عن الحقيقة، وأن الحقيقة بالفعل خارج المسيح لفضلت البقاء مع المسيح وليس مع الحقيقة.

لكن الأفضل أن نكف عن الكلام في هذا الموضوع. ولا أدري، على فكرة، لماذا أبعدت بعض مواضيع الحوار نهائياً عن التداول في المجتمع، وإذا تكلم البعض فيها على نحو ما يبدو هذا الكلام وكأنه يخدش أسماع البعض الآخر. فلنترك هذا الموضوع جانباً. سمعت أنك تنوين السفر إلى الجنوب، فعلى بركة الله. ولكن، خبريني رجاءً متى سنكون أحراراً تماماً، أو، على الأقل كسائر الناس؟ عندما تنتفي الحاجة إلى الحرية كلياً؟! فيما يخصني شخصياً أنا أتمنى إما الكل أو لا شيء. ففي معطف الجندي أنا أسيرٌ أيضاً كالسابق. وما أكثر سروري لأنني أجد في نفسي صبراً يكفي لوقت طويل، وأنني لا أرغب في خيرات الدنيا، ما عدا الكتب وإمكانية الكتابة والبقاء وحيداً لعدة ساعات كل يوم. النقطة الأخيرة تشغل بالي كثيراً. فقريباً جداً سأعيش عامي الخامس وأنا تحت الحراسة أو بين جمع من الناس، ولم أكن وحدي ولا ساعة واحدة. بقاء الشخص وحده حاجة في طبيعة الأشياء، كالشرب والأكل، وإلا يتحول في هذه الشيوعية القسرية إلى كاره لبني آدم. ، فيما يتحول المجتمع البشري إلى سم ووباء. ومن هذا العذاب الذي لا يطاق كانت حصتي أكثر من غيرها طوال هذه السنوات الأربع. وصادفتني لحظات شعرت فيها بالكراهية لكل من أصادفه سواء كان على حق أو باطل. وكنت أنظر إليهم كما أنظر إلى أعداء سرقوا مني حياتي دون أن يتلقوا العقاب. إن أكبر مصيبة لا تطاق هي عندما يتحول الشخص إلى جائر حقود كريه، ويدرك ذلك ويلوم نفسه ولا يستطيع أن يسيطر على الموقف أو يغيره. لقد مررت بهذه التجربة. وأنا واثق بأن الله خلصك من هذا الشعور.

أنا أفكر فيك كامرأة لديها الكثير من الطاقات على التحمل والمسامحة.

اكتبي لي شيئاً. يا ن. د. سيتم تسفيري إلى مجاهل آسيا، وهناك في سيميبالاتنسك، يتركني، على ما أعتقد، الماضي كله، كل انطباعاتي وذكرياتي، لأن آخر الأشخاص الذين كانوا أمامي كظلي في الماضي سيفترقون عني. أنا أتعايش مع الآخرين حتى النخاع. أتحول رأساً إلى جزء من معاملتهم لي، ثم أنفصل عن ذلك بألم شديد. عيشي يا ن. د. عيشي عمراً مديداً بسعادة أوفر. عندما نلتقي، ستتعرف بعضنا على بعض من جديد. وقد يخصص المصير الكثير من الأيام السعيدة لكل منا. أنا أتوقع حدوث شيء ما. أنا أشعر وكأنني لا أزال مريضاً جداً. وأظن أن شيئاً حاسماً سيحدث لي في القريب العاجل، وأني أقترب من أزمة في مجمل حياتي، وأنني قد نضجت لشيء ما، وأن شيئاً ما، ربما هادئاً وواضحاً، ربما رهيباً، سيحدث حتماً على أية حال.. وإلا ستكون حياتي حياة شخص منسلخ عن المجتمع فاقد للذاكرة التاريخية. أو ربما هذا مجرد هذيان من دماغي المحموم. وداعاً، وداعاً يا ن. د. والأفضل أن أقول إلى اللقاء!

المخلص د.

ملحوظة: لا مؤاخذة، اعذريني باللّه عليك لأني أكتب لك رسائل غير منقّحة وفيها شطب كثير. فأنا واللّه لا أستطيع من دون الشطب. لا تزعلي مني رجاءً.

---

(1) نتاليا دميتريفنا، زوجة أحد الثوريين الديسمبريين.

(2) الإنجيل، سفر إشعياء، الإصحاح 42.

40. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 30 يوليو 1854

منذ شهرين لم أكتب لك، يا صديقي الحميم وأخي الكريم. لم تكن الكتابة ممكنة، كانت مستحيلة تقريباً. ولكن قل لماذا أنت صامت؟ كم عدد الرسائل التي بعثتها إليك؟ فيما عدا رسالة يناير أجبتني على رسالة واحدة فقط، هي الأولى. هذا الجواب، أي رسالتك الثانية المكتوبة في أبريل، استلمته في مطلع يونيو، ولحد الآن لم أجبك عليه. أؤكد لك، يا عزيزي، أنه لم يكن لدي وقت تقريباً حتى هذه اللحظة. ثم إنه حتى لو توفرت بضع دقائق من الوقت فقد أرجأت الكتابة عمداً إلى حين أفضل كان الجميع يتوقعون مجيئه قريباً. ولم أكن راغباً في الكتابة إليك باستعجال خاطف. طبيعي أنك تعرف أو تحزر بما أنا مشغول فيه الآن. التدريبات واستعراض آمري اللواء والكتيبة والتحضير له. وصلت إلى هنا في مارس، ولم أكن أعرف شيئاً تقريباً عن تدريبات الاصطفاف. إلا أنني شاركت في الاستعراض في شهر يوليو على قدم المساواة مع الآخرين عارفاً بواجبي لا أسوأ من غيري. كم كان تعبي شديداً وكم كلفتني تلك

الجهود- موضوع لست بصدده الآن. غير أن المسؤولين راضون عني والحمد للّه. الحديث عن هذه الأمور ليس مهماً جداً بالنسبة لك طبعاً. لكنك تعرف على أية حال بما كان يشغلني كلياً هنا ومهما كتبت في الرسالة ليس بالإمكان توضيح كل شيء. ومهما كان ذلك غريباً عليك فأنا أعتقد أنك تفهم أن خدمة الجندي ليست تسلية، وأن حياة الجنود مع مجمل واجباتهم ليست سهلة تماماً بالنسبة لشخص بمثل هذه الصحة المعتلة وبمثل هذا الابتعاد، أو على الأصح غياب المعرفة في مثل هذه التدريبات. وللحصول على هذه الخبرة لا بد من العمل كثيراً. أنا لا أتشكى. فهذا صليبي الذي أستحقه. أكتب ذلك لأرغمك على تحبير عدة أسطر يصعب عليَّ العيش واللّه، من دونها. تصور أخيراً إذا كنا ننتظر بعضنا من بعض جواباً عن كل رسالة ولا نكتبه أصلاً، فستطول مدة الانتظار ربما ثلاثة أشهر. فمن يتحمل؟ وأنت تعرف قيمة رسالتك بالنسبة لي. فهل يعقل أننا سنحسب الرسائل كما نحسب الزيارات؟ فنحن لم نلتق أصلاً من زمان، ولم نكتب بعضنا لبعض منذ وقت طويل.

وأخيراً استلمت رسالتين من شقيقتينا الرائعتين كالملائكة بربارة وفيرا. أنا واثق أنهما تحبانني كما تقولان. ما أرقّ ما كتبته بربارة. الروح كلها في هذه الرسالة الرائعة. فكرت أن أرد عليهما في أول بريد، لكنني أرجأت الجواب لثالث بريد. كنت مشغولاً جداً. ولا أرغب في كتابة رسالة صغيرة. لا أدري كيف أعرض مشاعري واهتمامي وحبي لهما. فليباركهما الرب. الآن صرت تعرف أهم مشاغلي. والحقيقة لم تكن هناك سوى مشاغل الخدمة. ولم تحصل أحداث خارجية أو انقلابات حياتية أو حالات طارئة. أما الروح والقلب والعقل، ما نما وكبر، ونضج ثم ذوى، وما رمي بعيداً مع

الزؤان فليس بالإمكان توصيله أو تحبيره على قصاصة الورق. أعيش هنا منعزلاً. أتحاشى الظهور مع الآخرين كما هي عادتي. وإلى ذلك كنت خمس سنوات تحت الحراسة، ولذا أجد أعظم المتعة في البقاء وحيداً في بعض الأحيان. عموماً الأشغال الشاقة خلصتني من الكثير وغرست في نفسي الكثير. أنا، مثلاً، كتبت عن مرضي. نوبات الاختلاج والتشنج الغريبة الشبيهة بالصرع. إلا أنه ليس داء الصرع. سأكتب عنه بتفصيل أكثر في وقت ما.

على فكرة، اعملْ معروفاً ولا تتصورني سوداوي المزاج وسواسياً كما كنت في بطرسبورغ في السنوات الأخيرة. كل ذلك انتهى دون أن يبقى له أثر. بالمناسبة، كل شيء من عند اللّه وبيد اللّه. اشكر أخي نيقولاي على المراسلة. كنت نفسي أريد أن أكتب له. ولكن فليواصل لبعض الوقت ويعذرني أنا المسكين. وليكن واثقاً بأنه عزيز جداً على قلبي وأنني أتذكره بمشاعر الدفء والمحبة. قبّله كثيراً بدلاً عني، وتمنَّ له كل خير. وقبّل الأولاد أيضاً. وبلّغ تحياتي إلى إميليا. أحياناً أتذكر مرتعباً عام 49 والشهرين اللذين قضتهما وحدها عندما إعتقلوك. هل هي بصحة جيدة؟ وهل هي راضية الآن؟ في الأشغال الشاقة ازدادت أمنياتي وازداد تفكيري في الماضي والمستقبل، والأهم فيكم جميعاً.

بعض الذكريات مريضة مريرة، ولكنني لا أطردها. حتى المر حلو بالنسبة لي.

بلّغ تحياتي لأختي ألكساندرا، قبّلها وهنئها نيابة عني.[1] هل هي بصحة جيدة الآن؟ قبّلها نيابة عني وأخبرها بشيء جيد عن أموري. عموماً امتدحني، وتمنَّ لها الكثير الكثير من السعادة.

أخي الحبيب! أنت تكتب لي عن النقود وتتساءل هل أنا بحاجة

إليها؟ لكنك تعرف أحوالي بنفسك. إذا كنت تستطيع فابعث. فأنت أملي الأول. أنا لا أعلق آمالي على أحد مثلما أعلقها عليك.

وداعاً يا حبيبي. اكتبْ لي أكثر عن أحوالك. اكتبْ لي من كل بد عن صحتك، وبمزيد من التفصيل عن سير تربية أولادك. وداعاً، يا صديقي، ها قد انتهت الرسالة، فماذا كتبت فيها؟ من المحزن أن نعيش على الرسائل دون أن يرى أحدنا الآخر خمس سنوات. من الآن فصاعداً سأكتب أكثر. مضموناً وعدداً. ولكن أجبني أنت أيضاً بأسرع ما يمكن.

وداعاً وإلى اللقاء.

أخوك فيودور دوستويفسكي

---

(1) دوستويفسكي يهنئ بزواج أخته.



41. إلى يفغيني ياكوشكين

سيميبالاتينسك، 15 أبريل 1855

أشكرك، يا يفغيني إيفانوفيتش الموقر، على تذكرك لي واهتمامك بي. لحسن حظي أني وجدت فيك فجأة شخصاً من أهلي. فشكراً لك مرة أخرى. عن أحوالي أقول إنني أعيش معظم أوقاتي على الآمال وحدها. والحال الحاضر ليس جميلاً. وإلى ذلك اختلط المكروه بالمحمود. رفيقي دوروف ترك الخدمة العسكرية وانتقل، كما سمعت، إلى الخدمة المدنية في أومسك، بسبب المرض. رب ضارة نافعة.

استلمت بوشكين، أشكرك كل الشكر. أخي كتب لي أنه أرسل لي عن طريقك منذ ربيع العام الماضي بعض الكتب، مثل مدونات القديسين والمؤرخين القدامى، ومن بين تلك الحاجيات علب سيجار. لكنني لم أستلم منكم شيئاً. أرجوك أن تبلغني الآن هل أرسلتها إليّ أم لا؟ إذا كنت قد أرسلتها فالضائع ثمين، وإن لم ترسلها فذلك يعني أنك نفسك لم تستلمها. تكرّم وأخبر أخي بذلك[1].

أشغالي هنا متنوعة وغير محددة إطلاقاً. بودّي أن ألتزم

بالانضباط، ما يجعلني أقرأ وأكتب على فترات متقطعة أسعى جاهداً إلى تصيدها. لا وقت لدي، خصوصاً الآن، لا وقت بالفعل. اكتب أنت عن جمع الأغاني (الفولكلور). ومن جانبي سأحاول جمعها إن وجدت. ولكن ذلك مستبعد. سأحاول على أية حال. أنا في السابق لم أجمع نتاجات من هذا القبيل. كانت تمنعني فكرة الجودة، فإذا قمت بعمل يجب أن أتقنه. أما جمع الأغاني الشعبية على سبيل الصدفة فلن يعطي شيئاً. لا شيء يتم من دون جهد جهيد. خاصة وأن أشغالي الآن من طبيعة أخرى. فكم ينبغي عليَّ أن أطالع؟ وكم تأخرتُ في هذا المضمار؟ عموماً حياتي مرتبكة.

أخبرني رجاءً من هي أولغا ن[2]. ومن هو ل. ت. الذي نشر «المراهقة»[3] في «المعاصر».

وداعاً يا عزيزي يفغيني إيفانوفيتش. لا تنسني، وأنا لن أنساك أبداً.

المخلص د. (وستويفسكي)

ملحوظة: أبعث طياً رسالة إلى ك. إيفانوف، أرجو التكرم بإرسالها إلى بطرسبورغ، دار ليسيتسين قرب كنيسة المخلص. ولعلك تعرف العنوان من دوني.

---

(1) تؤكد المصادر أن ياكوشكين أرسل الكتب عن طريق موظف خشي أن يسلمها إلى دوستويفسكي عندما عرف أنه محكوم..

(2) الاسم المستعار للكاتبة الروائية الروسية س. إنغيلهاردت.

(3) هذه الرواية نُشرت في «المعاصر» عام 1854 بالأحرف الأولى ل. ن. ت. (ليف نيكولايفيتش تولستوي)

42. إلى ماريا عيسايفا

سيميبالاتينسك، 4 يونيو 1855

لا حدود لتشكراتي لكم على رسالتكم الرقيقة من الطريق مباشرة. وآمل يا صديقتنا الغالية ماريا دميتريفنا أنك مع العزيز ألكسندر إيفانوفيتش تسمحان لي بأن أطلق كلمة الصديق عليكما كليكما. فقد كنا أصدقاء هنا، أليس كذلك؟ وآمل أن نبقى أصدقاء. فهل يعقل أن الفراق سيغيرنا؟ كلا. فالأمور صعبة عليَّ من دونكما يا صديقيَّ العزيزين وأنا جالس بحكم تعلقي... أكتب الرسالة الثانية لكم. ولمناسبة البريد السابق كان جاهزاً لدي جواب على رسالتكم العاطرة الطيبة يا عزيزتي الغالية ماريا دميتريفنا. لكنه لم يصل. فإن الكسندر يغوروفيتش الذي أردت أن أعطيه المظروف ليوصله إلى البريد سافر فجأة (...) السبت الماضي دون أن أعلم بسفره (...). ثم إن خادمه اختفى أيضاً ليومين وظلت الرسالة في جيبي. فما أعظم مصيبتي! والآن أكتب ولا أدري هل ستذهب هذه الرسالة أم لا(...).

عندنا ينتظرون في كل لحظة وصول الحاكم العسكري للمحافظة،

ولعله وصل الآن. ويقال إنه سيمكث هنا قرابة خمسة أيام. ولكن فلنترك هذه المسألة. لقد وصلتِ إلى كوزنيتسك، فهل حصل مكروه، والعياذ باللّه، في الطريق؟ كتبتِ تقولين إنك متكدرة بل متوعكة. أنا لا أزال حتى الآن خائفاً عليك أشد الخوف. فما أكثر المشاغل والهموم والمنغصات المترتبة على الانتقال والسفر وحدهما، فكيف إذا أضيف إليها المرض؟ وما أصعب تحمل ذلك كله. أنا أفكر فيك طول الوقت. وإلى ذلك تعرفين أنني وسواسي، وبوسعك أن تحكمي على مدى قلقي. يا إلهي هل تليق بك وتبلغ مقامك هذه الهموم وهذه الحزازات وهذا المصير عموماً؟ مقامك أنت التي يمكن أن تكون زينة لكل مجتمع؟ يا له من مصير ملعون! أنتظر رسالتك على أحر من الجمر. (. . .) تسألين كيف أقضي أوقاتي ولا تعرفين كيف تسير وتتوزع ساعاتي بغيابك؟ منذ أسبوعين وأنا لا أعرف ماذا أفعل لطرد الأحزان. آه، لو تعلمين إلى أي مدى تيتمت أنا هنا وحدي. صحيح أن هذا الوقت أشبه بالفترة التي اعتقلوني فيها عام 1849 وزجوا بي في السجن وعزلوني عن كل ما هو عزيز عليَّ ومفضل لدي. لقد تعودت جداً عليكم، ولا أعتبر تعارفنا أمراً عادياً، والآن، وبعد أن فقدتكم، توصلت إلى الكثير من خلال الحدس والتجربة. لقد عشت خمس سنوات من دون بشر، وحيداً ليس لدي، بكل معنى الكلمة، شخص أستطيع أن أبوح له بمكنون فؤادي. فيما تقبلتموني أنتم كواحد من أبناء الأسرة. أتذكر أنني كنت عندكم كما عند أهلي. ألكسندر إيفانوفيتش كان يداريني أكثر مما يداري أخاه. وما أكثر المنغصات التي سببتها لكم بسبب طباعي الثقيلة. وأنتما، كلاكما، أحببتماني. أنا أفهم ذلك وألمسه، فأنا، على أية حال، لست بلا فؤاد. أنت امرأة مدهشة، أعجوبة، وقلبك كبير تملأه طيبة الأطفال. لقد كنتِ

بالنسبة لي شقيقة لم تلدها أمي. مجرد كون المرأة قد مدت يدها لي إنما يشكل حقبة كاملة في حياتي. فالرجل، حتى أجود الرجال، لا يمثل في بعض الأحيان، ولا مؤاخذة، سوى هراوة. فيما قلب المرأة والمشاطرة الأنثوية والمواساة والطيبة اللامتناهية التي لم نشهدها من قبل ولا نلاحظها في الغالب لحماقتنا المعهودة إنما هي خصال لا بديل لها. كل ذلك وجدته فيك. ولن تبلغ حتى أختي وشقيقتي المستوى الذي بلغته أنت من حيث الاهتمام بي وبنواقصي ومن حيث مدى الطيبة واللطف في معاملتي. وحتى لو حصلت مجادلات بيننا فذلك لأنني، أولاً، كنت خنزيراً عقوقاً، وثانياً، لأنك، وأنت المريضة، المتوترة الأعصاب، المظلومة من قبل المجتمع الكريه الذي لم يفهمك ولم يقدرك حق قدرك، كان لا بد أن تستنكري الغبن والظلم بما جبلتِ عليه من قوة شكيمة وعزم، وكان هذا الموقف نبيلاً نزيهاً. هذا هو أساس طباعك. إلا أن المصيبة والمعيشة بالغا في أمور عديدة وأثارا أعصابك لأسباب كثيرة. ولكن، ما شاء الله، تم التعويض عن ذلك وأكثر، بمرات ومرات. وطالما أنا لست غبياً دائماً، فقد رأيت ذلك وأقدره حق قدره. باختصار، ما كان بوسعي أن لا أتعلق بداركم روحياً كما لو كانت دار أهلي. أنا لن أنساكما أبداً وسأبقى شاكراً لكما أبد الدهر. لأنني على يقين بأنكما لا تفهمان حقاً مدى أهمية ما قدمتماه لي ومدى ضرورة أمثالكما من الناس بالنسبة لي. فهذا أمر لا يمكن فهمه إلا بعد تجريبه. فلولاكما لتخشبت أنا وتحجرت نهائياً، وبفضلكما أنا إنسان من جديد. ولكن كفاية بشأن هذا الموضوع، فليس بالإمكان إشباعه بالكلام، وخصوصاً في رسالة. الرسالة باتت ملعونة لأنها تذكرني بالفراق، وكل شيء هنا يذكرني بالفراق. في الأمسيات، عند الغسق، يصادف أن أذهب إليكم في الساعات التي

كنت آتي بها إليكم سابقاً، وتعتصر فؤادي الكآبة لحد انهمار الدموع لولا أنني عصي الدمع. وأكيد أنك لن تضحكي أو تسخري مني بسبب ذلك. من خواص قلبي أنه يلتصق بمن وبما يحب لدرجة تدعو فيما بعد إلى انتزاعه وعلاجه. أعيش الآن وحيداً وليس من جهة يمكنني أن ألجأ إليها. مللت من كل ما هو موجود هنا. فراغ مطلق. ما عدا ألكسندر يغوريفتش (فرانغيل). إلا أن الاختلاط به صعب عليَّ لأنني أقارن عفوياً بينه وبينكم، والبون شاسع بالطبع. ثم إنه غير موجود في المنزل. ذهبت من دونه مرة أو مرتين إلى دارة بستان كازاكوف التي انتقل للإقامة فيها. وكان اللقاء حزيناً. كلما أتذكر الصيف الفائت يعود إلى ذهني منظرك أنت المسكينة ورغبتك طول الوقت في السفر إلى مكان ما في الضواحي لاستنشاق الهواء الطلق على الأقل ولم تتمكني، فأشعر بالإشفاق عليك وأحزن لك. هل تتذكرين أننا تمكنا مرة أن نذهب أنت وألكسندر إيفانوفيتش وأنا وهيلينا إلى بستان كازاكوف. وتذكرت الآن عندما أتيتُ إلى هنا كل شيء. لم يتغير شيء في البستان. المصطبة ذاتها التي جلسنا عليها... فشعرت بالحزن. تقترحين في رسالتك أن أقيم مع فرانغيل. لكنني لا أريد، لأسباب وجيهة عديدة: 1) النقود، عندما أقيم معه لا بد أن أنفق المزيد من النقود طبعاً على الإيجار والخدمة والمائدة، أما العيش على حسابه فهو صعب عليّ. 2) طباعي. 3) طباعه، 4) لاحظت أن الضيوف يترددون عليه غالباً. بأعداد كبيرة أحياناً. ومن المتعذر الانسلاخ عن الجماعة في بعض الأحيان، لا سيما وأنا لم أعد أطيق الغرباء. وأخيراً أنا أحب الوحدة، تعودت عليها، والتعود هو الطبيعة الثانية للإنسان.

(... في اليوم الذي ارتحلتم فيه وودعتكم حتى طرف

الغابة. . .) لم يقر لي قرار. واشتدت بي الرغبة أن أبقى وحدي. لم أذق طعم النوم طويلاً في البيت. كنت أجوب الغرفة جيئة وذهاباً، واتطلع إلى الفجر المنبلج وأتذكر كل هذا العام الذي انقضى بالنسبة لي بصورة غير ملحوظة. تذكرت كل شيء وانتابني الحزن عندما فكرت في مصيري. من ذلك الحين أتسكع من دون هدف واضح، كذلك اليهودي الجوال[1]، ولا أتردد على أحد تقريباً، مللت. (. . . زرت بعض الأشخاص)، وأنا أتردد على المعسكر للتدريبات. صحتي تتوعك أحياناً. (. . .). عرجت على شقتكم، أخذت أصيص اللبلاب، فهو عندي الآن، ورأيت (القطة) الميتمة سوركا (ولعله سنجاب الجحور- المرموط)، هرعت إليّ بأقصى سرعتها، لكنها لم تترك المنزل. وأخيراً جاء السائس برسالتك التي أشكرك عليها جزيل الشكر، فقد عادت عليَّ بالفرحة. (. . .). ما أروع كتابتك لهذه الرسالة يا ماريا دميتريفنا. كنت أطمح إلى رسالة كهذه بالذات. تحتوي على الكثير من التفاصيل. فاكتبي في المستقبل أيضاً بهذه الطريقة. أنا كأنما أرى جدتكم، هذه العجوز البغيضة التي ستسعى إلى محوكم من قيد الوجود. فلتبق مع جرائها المدللة «حتى مثواها الأخير». آمل أن ألكسندر إيفانوفيتش سينتزع الوصية المطلوبة، ويترك العجوز وشأنها. ينبغي إقناعها بأن ذلك أفضل، وإلا يتوجب عليها أن تعطي تعهداً بأنها ستموت بعد ثلاثة أشهر وتدفع ألف روبل مقابل كل شهر. وبغير ذلك لا توافقوا على قبولها. هل يعقل، يا ماريا دميتريفنا، أنك ستضطرين إلى رعاية كلابها، وأنت بصحة متدهورة؟ هؤلاء العجائز لا يمكن تحمّلهن. قرأت رسالتك على فرانغيل، مقاطع منها طبعاً. ولم أصبر، فمضيت إلى هيلينا، إنها المسكينة تعيش وحيدة. يؤسفني جداً أن صحتك توعكت في الطريق. سأبقى في

انتظار رسالتك. أنا قلق بسبب ما حصل لك في الطريق. أشد على يد ألكسندر إيفانوفيتش وأقبّله. آمل أن يكتب لي قريباً. أعانقه من صميم القلب. وأتمنى له كصديق وأخ شلة من الرفاق أفضل. فهل يعقل أنه في كوزنيتسك أيضاً سيحيط نفسه بأشخاص لا يعرف حقيقتهم كما كان في سيميبالاتينسك؟ وهل يستحق هؤلاء الأشخاص التواصل معهم والجلوس إلى مائدة طعام واحدة ثم تحمّل المساوئ منهم؟ ذلك يعني إلحاق الضرر بالنفس عمداً. إنهم مقيتون، والأهم، ملوثون. فبعد اللقاء معهم تبقى النفس ملوثة وكأنما كان الشخص في حانة خمور. آمل أن ألكسندر إيفانوفيتش لن يزعل من تمنياتي له. وداعاً يا ماريا دميتريفنا الغالية، وداعاً. وسنلتقي حتماً، أليس كذلك؟ اكتبي لي أكثر وأوفر. اكتبي عن كوزنيتسك، عن المعارف الجدد، عن شخصك الكريم. اكتبي أكثر ما يمكن. قبّلي (الصغير) بافل، لعله كان يتشيطن في الطريق. وداعاً، وداعاً. هل يعقل أننا لن نلتقي؟

المخلص دوستويفسكي

---

(1) الذي رفض مساعدة المسيح في حمل الصليب، فحكمت عليه الأقدار بالتسكع الدائم.

43. إلى ألكسندر فرانغيل

سيميبالاتينسك، 14 أغسطس 1855

أبدأ رأساً بالاعتذار منك، يا عزيزي ألكسندر يغوروفيتش، على التشويش في رسالتي هذه. فأنا واثق بأنها ستصلك مشوشة. الآن الساعة الثانية بعد منتصف الليل. وقد حررت رسالتين[1]، وأشعر بالصداع وأرغب في النوم، وإلى ذلك أنا منفعل كلياً. صباح اليوم استلمت من (مدينة) كوزنيتسك رسالة. توفي المسكين التعيس ألكسندر إيفانوفيتش عيسايف. أنت لا تصدق مدى أسفي وحزني عليه ومدى اضطرابي وانفعالي. ربما أنا الوحيد من نزلاء المنطقة الذي يجيد تقديره حق قدره. وإذا كانت لديه نواقص فإن مصيره الأسود هو المسؤول عن نصفها. أنا لم أجد شخصاً أكثر صبراً منه في مثل هذه الإخفاقات. وبالمقابل ما أكثر الطيبة والنبل الحقيقي في سلوكه. أنت لم تكن تعرفه جيداً. وأخشى أن أكون مذنباً بحقه لأنني أحياناً، في حالات الغضب، كنت أحكي لك، ربما باهتمام لا موجب له، عن خصاله السيئة فقط. توفي في آلام تفوق التصور.(...) ماريا دميتريفنا كتبت لي عن وفاته بكل التفاصيل. وتقول إن ذكرى هذه

التفاصيل هي السلوى الوحيدة لها. (. . .) هل تتذكر ابنهما بافل؟ كاد يجن. أخذ يقفز من السرير في منتصف الليل ويركع أمام أيقونة المسيح ويتلو الابتهالات بتلقين من أمه على روح والده. دفنوه بتواضع الفقراء. على حساب غرباء طيبين. وكانت هي كالممسوسة. تقول إن صحتها متدهورة جداً. وهي لم تنم عدة أيام وليال جنب سريره. وتؤكد أنها مريضة فقدت طعم النوم وشهية الطعام. زوجة القسيس وامرأة أخرى تساعدانها. وليس لديها سوى الديون المستحقة للحانوت. أحدهم أرسل لها ثلاثة روبلات فضية. وتقول: «الحاجة دفعتني لقبول هذه الصدقة!. . .»

إذا كنت، يا ألكسندر يغوروفيتش، على نفس رأيك، كما كنت في سيميبالاتينسك قبل أيام، وأنا واثق بأن لديك قلباً كبيراً وأنك لا تتخلى عن الأفكار الطيبة لسبب تافه لا يتناسب والقضية أبداً، فارسل الآن مع الرسالة التي أرفقها لها ذلك المبلغ الذي تحدثت عنه آنذاك. وأكرر لك، يا عزيزي ألكسندر يغوروفيتش، أنني أفكر الآن حتى أكثر مما في تلك الأيام في أن هذه الـ 75 روبلاً هي دين لك عليّ. وسأعيدها لك من كل بد، ولكن ليس قريباً. أنا أعرف جيداً أن قلبك يتوق إلى فعل الخير. . . ولكن، حكّم عقلك: أنت تعرفت عليهم منذ فترة قصيرة، ولا تعرف عنهم إلا القليل. ومع أن المرحوم ألكسندر إيفانوفيتش استدان منك نقوداً للسفر، فإن من الصعب أن تعرض عليها النقود باسمك.

ومن ناحيتي أنا أكتب لها في رسالتي عن استعدادك التام لمساعدتها، ومن دونك ما كان بإمكاني أن أفعل شيئاً. أكتب ذلك لا لكي يكون لك شرف عمل الخير والامتنان المستحق. فأنا أعرف أنك، كمسيحي، في غنى عن ذلك. ولكنني لا أريد أن أتلقى

تشكرات لا أستحقها، فأنا أخذت من جيب الغير، ومع أني سأحاول التسديد لك في القريب العاجل، إلا أنني أخذت منك ديناً لأجل غير مسمى في الواقع.

إذا كنت تنوي إرسال النقود ضعها في رسالتي هذه غير المختومة. وسيكون من أطيب الأفعال من جانبك إذا كتبت لها بضعة سطور. كأن تقول لها كنا على معرفة ضعيفة بعضنا ببعض، لكنه بقي مديناً لك، وستعرف بأنك أعطيتني نقوداً، ولذا فالفرصة مناسبة للكتابة، بل من الضروري الكتابة. فما رأيك؟ بضعة أسطر لا أكثر. . . يا إلهي، ارأف بحالي، يبدو أنني بدأت أعلمك كيف تكتب. أعوذ باللّه. صدقني، يا ألكسندر يغوروفيتش، أنا أعرف جيداً أنك تفهم أفضل من أي شخص آخر كيف تتواصل مع إنسان اضطررت إلى إقراضه. أنا أعرف أنك تضاعف الاحترام للشخص الذي أقرضته، وتتصرف معه بحذر. فهو وسواسي يخيل إليه أن تساهل الآخرين معه وعدم اللياقة في معاملتهم له يهدفان إلى جعله يدفع ثمن أفضالهم عليه. كل ذلك تعرفه أنت كما أعرفه أنا. فما دام اللّه منحنا التفكير والشهامة النبيلة فلا يمكننا أن نكون على غير ذلك. فالنبل له مستحقاته[2] والنبل من خصالك. أنا أعرف ذلك.

كما أعرف، من كلامك، أن حافظة نقودك ليست على ما يرام حالياً. وبالتالي إذا تعذر عليك إرسال النقود فلا تبعث إليها رسالتي، بل أعدها إليَّ فيما بعد. وتكرّم بإبلاغي مع البريد الأول هل بعثت الرسالة أم لا.

(. . .) أكتب إليك في بارناول على العنوان الذي أعطيتنيه، ولا أدري هل وصلتَ إليها أم لا. أظن أنك كتبت آنذاك أن أراسلك في بارناول بعد الثالث والعشرين من الشهر. أبعث الرسالة على طريقة

عسى ولعل. أبعثها من خلال كروتوف. فهل هذا أفضل؟ اكتبْ لي. ماذا تفعل؟ هل أنت في مرح وحبور؟ هل صحيح ما سمعته من أن المدموازيل أولغا أباظه[3] مخطوبة؟

إذا كنت سترسل النقود فلا تتهاون. فالوضع لن يكون، بالطبع، أصعب مما هو عليه الآن.

بما أنني لا أعرف هل ستصلك هذه الرسالة وأنت في بارناول (. . .) أكتب الآن رسالة أخرى إلى ماريا دميتريفنا مع نفس البريد الذي سأرسله غداً إن شاء اللّه. كما أرسل لك بريدك ليوم السبت. فتحتُ الرسالة كما طلبتَ. إذا تمكن كروتوف من توصيل رسائل يوم الاثنين فسأضع معها بريد السبت.

إلى اللقاء. ما أشد الصداع. أنا منفعل إلى أقصى حد. أصابعي ترتعش حتى من الريشة. أعانقك من صميم القلب.

المخلص ف. د.

---

(1) الرسالتان مفقودتان، وهما معنونتان إلى ماريا عيسايفا.

(2) في الأصل بالفرنسية.

(3) إحدى معارف دوستويفسكي.

44. إلى براسكوفيا آنينكوفا[1]

سيميبالاتينسك، 18 أكتوبر 1855

السيدة الفاضلة براسكوفيا يغوروفنا!

كنت من زمان أريد أن أكتب لك وانتظرت طويلاً الفرصة السانحة لدرجة لا يمكنني معها أن أفوت الفرصة الحالية. حامل رسالتي، ألكسي إيفانوفيتش باخيريف، شاب متواضع للغاية وفي منتهى الطيبة والبساطة والتزاهة. أعرفه من عام ونصف ولا أعتقد أنني مخطئ في وصف خصاله.[2]

وسأبقى أتذكر دوماً أنكم، أنت وعائلتك الرائعة، شاطرتموني ورفاقي التعساء مشاطرة صادقة وكاملة منذ أن وصلتُ إلى سيبيريا. وكلما أتذكر هذا الموقف أشعر بالارتياح والسلوى، وأظن أنني لن أنساه أبداً. فمن عاش متاعب الحياة القاسية وتجرّع مرارتها، وخصوصاً في ملابسات معينة، إنما يدرك حلاوة المشاطرة الأخوية التي يتلقاها حينئذ على غير المتوقع. كان هذا موقفكم تجاهي. وأنا أتذكر لقائي بكم عندما وصلتم إلى أومسك وعندما كنت أنا في الأشغال الشاقة.

منذ وصولي إلى سيميبالاتينسك لم أستلم أية أخبار تقريباً عن قسطنطين إيفانوفيتش وعن أولغا إيفانوفنا الموقرة[3] التي سيبقى تعرّفي عليها من أفضل الذكريات في حياتي. قبل عام ونصف، عندما أنهينا الأشغال الشاقة أنا ودوروف، أمضينا شهراً تقريباً في منزلهما. وأنت تعرفين مدى الانطباع الذي يمكن أن يخلفه هذا التعارف في نفس شخص كان طوال أربع سنوات بمثابة قطعة منتزعة من البدن ومطمورة في الأرض على حد تعبير رفاقنا السابقين في الأشغال الشاقة. لقد مدت أولغا إيفانوفنا يد العون لي كأخت لم تلدها أمي، وسيظل الانطباع عن هذه الروح النقية الرائعة المتسامية النبيلة هو الأكثر تألقاً وشفافية في حياتي. فليختصها اللّه بالكثير الكثير من السعادة، السعادة لها شخصياً ولمن تحب. أنا أتشوق لمعرفة أخبارها. ويخيل إليَّ أن روحاً رائعة كهذه يجب أن تكون سعيدة هانئة. فالأرواح الشريرة وحدها تعيسة. يخيل إليَّ أن السعادة تكمن في النظرة الوضاءة إلى الحياة وفي طيبة القلب، وليس في المظهر الخارجي. أليس كذلك؟ أنا على يقين بأنك تدركين ذلك تماماً، ولذا أكتب لك بهذا الخصوص.

حياتي تمتد كيفما اتفق. وأحيطك علماً بأن لدي آمالاً عريضة... تقوم على بعض الوقائع: هناك جهود كبيرة تبذل من أجلي في بطرسبورغ، ولربما سأعرف شيئاً بعد بضعة شهور. ولعلك تعلمين أن دوروف أعفي من الخدمة العسكرية لأسباب صحية وانتقل إلى الخدمة المدنية في أومسك. ربما لديك معلومات عنه. نحن وإياه لا نتراسل، مع أننا نتذكر بعضنا بعضاً جيداً.

البارون فرانغيل الذي تعرفينه يخصك بالسلام. وأنا تربطني به صداقة حميمة. فهو شاب أريحي رائع، فليكن اللّه في عونه ليبقى دوماً كما هو الآن.

تحياتي الخالصة واحترامي الصادق لزوجك. أتمنى لكما موفور السعادة.

(. . .) وداعاً يا براسكوفيا يغوروفنا المحترمة. أنا واثق بأن المشيئة الإلهية ستجمعنا، وربما قريباً. فأنا أتشوق إلى ذلك. وأتذكرك وجميع أفراد عائلتكم بكل حنان.

وتقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

---

(1) زوجة أحد الثوار الديسمبريين.

(2) باخيريف شقيق آمر السرية التي خدم فيها دوستويفسكي. وكانت بينهما علاقة مودة.

(3) يبدو أن المقصود عائلة ابنة آنينكوفا.

45. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 13- 18 يناير 1856

أنتهز الفرصة للكتابة إليك يا صديقي. منذ العام الفائت، عندما كتبت لك مع م. م. خومينتوفسكي، لم أجد الفرصة السانحة، وها هي الآن تتوفر. لا بد من الاعتراف بأنك في العام الماضي دفعت القليل في مقابل رسالتي المطولة، فلم ترد على شيء تقريباً، بل إنك لم تجب عن بعض أسئلتي التي كنت أنتظر منك رداً مفصلاً عليها. لا أدري ما الذي منعك آنذاك، هل هو الكسل؟ لم يكن الكسل في محله إطلاقاً. هل هو العمل؟ لكنني كتبت لك أنني لن أصدق بوجود أعمال لا توفر لحظة من وقت الفراغ. هل هو الحذر؟ ولكن ما دمتُ أنا أكتب لك فلا موجب للتخوف أغلب الظن. آمل أنك هذه المرة ستكتب لي أكثر، على الرغم من أنني سأنتظر جوابك طويلاً، قرابة سبعة شهور. وهذه المرة أيضاً أردت أن أحرر لك الكثير جداً، وبالتفصيل، عن عيشتي وحياتي منذ أن غادرت أومسك ووصلت إلى سيميبالاتينسك.

إلا أنني سأكتفي بهذه الورقة، ذلك لأن ألكسندر يغوروفيتش

فرانغيل، حامل هذه الرسالة، يمكن أن يطلعك بكل تفصيل ويكشف لك عن الكثير من الخفايا عني من نواح عديدة، إن لم أقل من جميع النواحي. استقبلْه بأكبر قدر من الحفاوة وحاول أن تتعرف عليه وتتواصل معه بأسرع ما يمكن. فهذا الشاب يستحق معاملة كهذه. إنه طيب القلب، نظيف، ناهيك عما فعله من أجلي وعن مدى إخلاصه لي وارتباطه بي أكثر من ارتباط الأخ مع أخيه. لا أعنيك أنت طبعاً. فاعمل معروفاً وحاول أن تودّه وتتواصل معه سريعاً. فقد أوصيته بك خيراً. وإلى ذلك أعتقد أن المسألة ليست صعبة بالنسبة لك، وأنا أتذكر بهذا الخصوص طبعك الطيب المتميز بحسن المعاشرة وأدب اللياقة والذي يعجب الجميع فأحبوه فيك. وأصور لك هنا باختصار طباع ألكسندر يغوروفيتش ليسهل عليك التواصل معه ولا تشغل بالك بهذا الأمر أكثر. إنه شاب يافع ووديع جداً، على الرغم من شعوره العالي بالكرامة الشخصية. وهو في منتهى الطيبة وبشيء من الاعتزاز بالنفس، حسب الظاهر، وأنا أحب ذلك الشعور، ولديه بعض نواقص الفتوة. وهو مثقف من دون بريق التعليم وأعماقه. ويحب التعلم. ضعيف العزيمة يتأثر بالعواطف كالنساء، سوداوي المزاج بعض الشيء ينساق للوساوس. وما يثير غضب غيره ويخرجه عن طوره يسبب له هو مرارة وألماً، وهذا دليل على طيبة القلب. متقيد بأداب اللياقة إلى أقصى حد. لقد تشفع لي بنكران ذات وساعدني بكل ما يستطيع. خلاصة القول لقد توالفنا، وهو يحبني. سأحدثك المزيد عنه فيما بعد. أما الآن فأنتقل إلى أموري أنا.

لعلك تعلم يا عزيزي أن هناك، في بطرسبورغ، من يبذل جهوداً كبيرة من أجلي وأن لدي آمالاً عريضة. وإذا لم تتحقق كلها، إي إذا لم يطلقوا سراحي، فمن المحتمل تحقق بعض تلك الآمال على

الأقل. شقيق ألكسندر يغوروفيتش الذي يخدم في فرقة الخيالة كان عندك. أعرف ذلك من رسالته إلى أخيه، ولعله أخبرك بجميع الجهود التي بذلت من أجلي في بطرسبورغ. وأنا واثق بأن ألكسندر يغوروفيتش من جهته سيهز الأرض والسماء لصالحي عندما يصل إلى بطرسبورغ. وسيحدثك عن كل ذلك بتفصيل أكثر مما أستطيع أن أكتبه في هذه الرسالة. وأقول لك من جهتي إنني الآن في موقف سلبي تماماً، حيث قررت أن أنتظر. وأفيدك بالمناسبة أنه تم ترفيعي إلى ملازم ثان. وهو أمر هام نسبياً، لأن المرحمة التالية، إذا حصلت، يجب أن تكون بالضرورة أعلى من رتبة الملازم. وأكدوا لي هنا أنني يمكن بعد عامين أو حتى عام واحد أن أرشح رسمياً لسلك الضباط. وأعترف لك أنه كان بودّي أن أنتقل إلى الخدمة المدنية، والآن أيضاً أرغب في ذلك، ولربما سأحاول. لكنني حالياً على الأقل قررت أن أنتظر صابراً الرد على كل الجهود الراهنة التي تبذل من أجلي في بطرسبورغ. وأكرر لك أن ألكسندر يغوروفيتش سيحدثك عن ذلك بمزيد من التفصيل. أما أنا فأضيف الآتي: لا تظن، يا صديقي، أن منافع اجتماعية أو ما يشابهها حملتني على بذل الجهود بإصرار من أجلي شخصياً. كلا، صدقني، عندما يخوض الشخص مشاكل كالتي خضتها إنما يخرج أخيراً بعدة صيغ فلسفية. والفلسفة كلمة فسرها كما تشاء. إلا أن هناك سببين يجعلانني أخرج بأسرع ما يمكن من عنق الزجاجة ويدفعانني إلى الاهتمام المحموم بنفسي وبشؤوني. ولا بد لي أن أطلعك على هذين السببين. 1) رغبتي في الكتابة والنشر، فأنا أعرف أكثر من أي وقت مضى أنني لم ألج هذا الطريق عبثاً وأنني لن أثقل جزافاً على هذه الأرض بوجودي فيها. أنا على يقين من أن لدي موهبة وأنني أستطيع أن أكتب شيئاً مرموقاً. أرجوك، باللّه عليك، لا

تعتبر كلماتي هذه تغنجاً أو غندرة. فمن غيرك يستطيع أن يصدق طموحاتي وآمالي؟ ثم إنني أردت لك حتماً أن تعرف لأية اعتبارات أنا بحاجة إلى الحرية وإلى مكانة ما في المجتمع.

والآن السبب الثاني، المهم جداً بالنسبة لي، لكنك لم تسمع مني شيئاً عنه بالمطلق. لا بد لك أن تعلم، يا صديقي، أنني عندما أنهيت الأشغال الشاقة الحزينة توجهت إلى هنا تحدوني السعادة والأمل. كنت أشبه بالمريض الذي أخذ يتعافى بعد داء مستعصٍ، وبات بعد أن أشرف على الموت يشعر بلذة الحياة في الأيام الأولى من النقاهة بأشد مما مضى. وكانت آمالي كثيرة. كنت راغباً في الحياة. فماذا أقول لك؟ لم ألاحظ كيف انتهت السنة الأولى من حياتي هنا. كنت سعيداً جداً. وهبني اللّه التعارف مع عائلة لن أنساها أبداً. إنها عائلة عيسايف التي كتبت لك عنها مراراً، بل وطلبت منك أن تقدم لها خدمة. كان هنا في وظيفة ليست رديئة مطلقاً، لكنه لم يتمكن من التعايش معها واستقال بسبب المنغصات. عندما تعرفت عليهم كان متقاعداً من عدة شهور، يبحث طول الوقت عن وظيفة أخرى. كان يعيش على المعاش وليس لديه مدخرات، ولذا بات في عوز شديد بعد أن حُرم من الراتب. عندما تعرفت عليهم كانوا يدبرون أمرهم على نحو ما. وتراكمت عليه الديون. كان يعيش من دون انتظام. وهو بطبيعته غير منتظم. طباعه غريبة ومتعنتة وغليظة بعض الشيء. لقد سقط في أنظار الرأي العام وواجه أذى كبيراً. لكنه تحمَّل من المجتمع الحالي الكثير من الملاحقات التي لا يستحقها. كان لأبالياً كالغجر، معتداً بنفسه فخوراً، لكنه لا يجيد السيطرة على أعصابه، فسقط إلى الهاوية، كما أسلفت. إلا أنه في الوقت ذاته كان رجلاً طيب القلب ذا شخصية متطورة جداً. كان متعلماً يفقه كل ما تتكلم

معه عنه. وهو في منتهى النبل والشهامة رغم اللطخات الكثيرة. لكن زوجته ماريا دميتريفنا جذبتني إلى عائلتهم، وليس هو. هذه السيدة الشابة، في الثامنة والعشرين، مليحة ومثقفة جداً، وذكية للغاية وطيبة ورقيقة وأنيقة بقلب رائع كبير. تحملت مصيرها هذا بأنفة وشموخ، ومن دون تذمّر أو شكوى. كانت تؤدي بنفسها واجبات الخادمة وترعى زوجها اللاأبالي الذي قدمتُ له أنا نصائح كثيرة، بحكم الصداقة، كما تسهر على ابنها الصغير. إلا أنها غدت مريضة سريعة التأثر والانفعال.

كانت بطبيعتها، على فكرة، مرحة لعوباً. وأنا لم أغادر منزلهم تقريباً. فما أروع الأمسيات السعيدة التي قضيتها بحضورها. أنا لم أصادف امرأة مثلها إلا فيما ندر. الجميع تفرقوا عنهم تقريباً، بعضهم بسبب زوجها. ثم إنهم ما كانوا يستطيعون الحفاظ على التعارف. وأخيراً حصل الزوج على وظيفة في كوزنيتسك بمحافظة تومسك. محلفاً، فيما كان في السابق موظفاً للمهمات الخاصة في الكمارك. وكان الانتقال من الوظيفة المرموقة الغنية إلى هيئة المحلفين مهيناً جداً. ولكن لا حيلة في الأمر. لم يكن لديهم ثمن القوت تقريباً. وأنا لم أتمكن رأساً من تقاسم الخبز الكفاف معهم، فلم يوافقوا على مساعدتي إلا بعد فترة طويلة من الصداقة الخالصة. وفي مايو 55 ودعتهم إلى كوزنيتسك، وبعد شهرين توفي الزوج بسبب ترسب الحصى. وظلت هي في دار الغربة، وحيدة معذبة بالمصيبة الداهمة، مع ابنها البالغ من العمر سبع سنوات، من دون ثمن كسرة الخبز. ولم يكن لديها حتى ما تدفن به زوجها. ولم تكن لدي أنا نقود. اقترضت من ألكسندر يغوروفيتش في الحال 25 روبلاً فضياً، ثم 40 روبلاً وأرسلتها إليها. والآن يساعدها والحمد للّه أقرباؤها الذين كانت في

خلاف معهم بسبب زوجها. وهم يقيمون في آستراخان. والدها ابن نازح فرنسي، واسمه دي كونستانت، وهو عجوز يشغل منصباً كبيراً في آستراخان بصفة مدير الحجر الصحي. ليس لديه أملاك، ويعيش على راتبه الكبير. وسيتقاعد قريباً، فيتقلص دخله. وهو إلى ذلك يعيل ابنتين أخريين. ثم هناك أقارب زوجها الأبعدون. أحد إخوة زوجها يخدم كابتناً في كتيبة المشاة الفنلندية التابعة للحرس (القيصري). أنا أعرف أن عائلة الزوج أيضاً كانت محترمة جداً. والآن أفيدك يا صديقي بأنني أحب هذه المرأة من زمان، وأعرف أنها هي أيضاً يمكن أن تحب. أنا لا أستطيع العيش من دونها، ولذا سأتزوجها حالما تتبدل ظروفي نحو الأحسن وبصورة إيجابية ولو قليلاً. وأنا أعرف أنها لن ترفض. إلا أن المصيبة هي أنني لا أمتلك نقوداً ولا منزلة اجتماعية، في حين أن أقاربها يدعونها للذهاب إليهم في آستراخان. وإذا لم يتغير مصيري حتى الربيع فإنها سترحل إلى روسيا. لكن ذلك سيؤجل القضية ولا يغيرها. قراري نهائي، وسأنفذه حتى لو انفطرت الأرض بين قدمي. ولكنني لا أستطيع الآن، وأنا لا أملك شيئاً، أن أستغل ميل هذا الكائن النبيل إليَّ، وأدفعها إلى الزواج. منذ مايو حيث فارقتها تحولت حياتي إلى جحيم. نتراسل كل أسبوع. وكان ألكسندر يغوروفيتش (فرانغيل) على معرفة مع عائلة عيسايف، ولكن فقط للفترة الأخيرة من حياتهم في سيميبالاتينسك. لقد رأى ماريا دميتريفنا، لكنه قليل المعرفة بها. وقد كنت صريحاً معه بعض الشيء بهذا خصوص، ولكن ليس بالكامل. وهو لا يعرف مضمون هذه الرسالة، لكنه، على ما أظن، سيتحدث معك عن كل هذه الأمور. لا أزال حتى الآن أفكر في الانتقال إلى الخدمة المدنية. مدير مصانع ألطاي المقدم هيرنغروس، صديق ألكسندر يغوروفيتش،

راغب جداً في انتقالي للعمل عنده، وهو مستعد لتعييني براتب في بارناول. وأنا أفكر في ذلك، لكنني، على أية حال، أنتظر هل يأتي خبر من بطرسبورغ حتى الربيع؟ فإذا تعذر عليّ السفر من سيبيريا أنا أنوي الإقامة في بارناول حيث سينتقل للخدمة هناك ألكسندر يغوروفيتش. وبعد حين من الوقت سأعود إلى روسيا، أنا أعرف ذلك. لكنني، على أية حال، لا أعرف هل يحق لي أن آمل براتب معين. ولا يمكن لهذا الراتب أن يكون كبيراً. بديهي أنني سأبحث عن كل السبل لكسب المال. وسيكون رائعاً لهذا الغرض لو سمحوا لي بالنشر. وإلى ذلك، يمكن هنا في سيبيريا المضاربة الجيدة الموفقة برأسمال صغير جداً لا يستحق الذكر. ولو كنت أملك هنا، في سيميبالاتينسك، 300 روبل فضي نافلة لكسبت من خلالها حتماً 300 روبل أخرى في العام. فالمنطقة جديدة ومثيرة للفضول. على أية حال، سيكون مخجلاً لي، يا صديقي الغالي، أن أطلب منك إعالتي. ولكنني على يقين بأنك ستساعدني بعض الشيء عاماً آخر. المهم أن تساعدني الآن. فإذا جاءتني مرحمة سأطلب المساعدة من خالي، فليعطني شيئاً أبدأ به حياتي الجديدة. بديهي أنني لن أكتب لأحد في العالم بأنني أنوي أن أتزوج قبل أن يحصل ذلك. وقد أفضيت لك بهذا السر الخطير فحافظ على كتمانه. وأعترف بأنني لم أكن راغباً بفضحه حتى لك أنت. فتلك قضية قلبي يخشى الإعلان عنها ويخشى نظرة الغير وتعرضهم. تلك هي، على الأقل، طباعي. ولذا، فلوجه المسيح لا تخبر أحداً بسرّي مطلقاً. عموماً لا تخبر أحداً بكل مضمون رسالتي ولا تعرضها على أحد. باللّه عليك، لا تتعرض لهذا الموضوع بكلمة أمام أخواتي، فسيشعرن بالخوف عليَّ رأساً، وتبدأ النصائح بالتزام التعقل. أما بالنسبة لي فلا حاجة للحياة نفسها من

دون الشيء الذي بات رئيسياً فيها. أنا أثق بك وحدك، يا أفضل صديق. أنت الوحيد لديّ. والآن أحدثك عن بعض الملابسات العامة في حياتي هنا، ببضع كلمات، لأن الأفضل أن يحدثك البارون (فرانغيل) بكل شيء. صحتي جيدة تماماً، نوبات الصرع لم تحصل من زمان. وقد سلكت هنا الطريق القويم. فعلى الرغم من أنني مجرد جندي، إلا أن جميع ذوي المراتب الأعلى يعرفونني، بل ويتشرفون بمعرفتي. الرئاسة تحبني وتحترمني. (الجنرال هاسفورت) آمر الفيلق وحاكم المحافظة يعرفني ويحاول مساعدتي. وفي بارناول الجنرال مدير التعدين مستعد، من جانبه، أن يبذل كل ما من شأنه أن يساعدني، وهو في منصبه (العالي) قادر على الكثير. إلا أن الأفضل بالنسبة لي هو، في اعتقادي، الانتقال إلى روسيا (الداخل)، للخدمة في مكان ما في البداية. ثم، إذا استطعت أن أحصل على حق النشر، فلن أكون في عوز. كل ذلك سيحصل. أنا على يقين، ولكن ربما ينبغي الانتظار فترة أخرى. وحتى ذلك الحين ربما سأضطر إلى العيش في سيبيريا. فما العمل؟ لا بد من الانتظار. المهم أن أحصل على مرحمة مهما كانت ضئيلة، للانتقال إلى الخدمة المدنية والتعيين في وظيفة متواضعة براتب في مكان ما. لا أدري هل ستتحقق كل أمنياتي؟ ولربما تتبدد فرصة الزواج. وعندها سأكون تعيساً مغلوباً على أمري من جديد. أنا أعرف نفسي. لا بد من النقود. تلك هي المشكلة..

أقول لك إنه يخجلني أن أطلب منك مساعدتي عندئذٍ، ولكن، ولو بالقليل، ساعدني في البداية على الأقل. والآن إليك بضع كلمات عن أموري المالية الفعلية. طلبت منك في رسالة عن طريق شقيق ألكسندر يغوروفيتش أن ترسل لي 100 روبل فضي. يا صديقي، هذه

الـ 100 روبل لا تكاد تسعفني، لأن ديوناً كثيرة تراكمت عليّ. مجموعها 50 روبلاً فضياً، وإذا وصلتني نقودك قريباً ستبقى لدي 50 روبلاً تمكنني من انتظار تبدل ملابسات حياتي، في حال صدور المرحمة مثلاً. وعندذاك سأحتاج إلى مبلغ كبير لأشتري الثياب وغيرها من الحاجيات، ولا موجب للتعداد. هذه الـ 50 روبلاً التي ستبقى لدي سرعان ما تصرف، لأن كل ثيابي رثة، ولا بد من شراء ملابس داخلية وترميم البدلة وخياطة معطف جديد. ولن يبقى لدي سوى القليل، ولا يمكن العيش بأقل من 15 روبلاً في الشهر، إضافة إلى المصروفات غير المتوقعة. اسأل من فرانغيل عن ذلك. كل شيء هنا باهظ الثمن. على فكرة، أنا لا أطلب أكثر. سأكتفي بهذه الـ 100 روبل على أية حال. ربما باربارة ذات الروح الملائكية تبعث لي شيئاً. ما أروع رسائلها. من أين تعلمت الكتابة هكذا؟ إنها أجمل من رسائلك يا صاحب السعادة! وفي حال تغير مصيري، حيث سأحتاج إلى الكثير من النقود، سأطلب من خالي كما أبلغتك. فهل يعقل أنه سيرفض؟ آه يا صديقي، ليتك تعلم كم يصعب عليَّ الاعتراف لك بنقطة أخرى. لدي دين آخر، بالإضافة إلى هذا الدين. أنا مدين لألكسندر يغوروفيتش، حيث أخذت منه في أوقات مختلفة 125 روبلاً فضياً. ولا تسألني علامَ أنفقتها؟ أنا نفسي لا أدري. أنا أعرف فقط أنني أعيش بفقر مدقع، وأتحاشى التمتع بشيء، ومع ذلك أصبحت مديناً. أنا لا أطالبك، يا صديقي، بأن تسدد لألكسندر يغوروفيتش بدلاً مني. فهذا الطلب يتجاوز الحدود. لكنني أعرف أنني يجب أن أسدد له على الرغم من أنه لا يحتقن غضباً عندما أتحدث عن هذا الدين، بل ويشعر بالمرارة عندما أذكّره به. فهو مؤدب للغاية. عموماً، يكفينا كلاماً عن النقود. أنا أعرف أنك لن تنساني. فكرتي

الرئيسية هي أن أؤمن الكسب لنفسي بأسرع ما يمكن كيلا أثقل عليكم جميعاً. وأضيف هنا بضع كلمات عن ألكسندر يغوروفيتش. فاسمعني. إذا تسنى لك أن تتواصل معه راقبه ولا تتركه وحده. وأكشف لك هنا عن سر كبير. وربما أنا أسيء التصرف لكلامي معك عنه. ولكن ذلك من مصلحته. «إنه واقع في غرام سيدة من هذا البلد، كريمة المحتد وثرية جداً ومن عائلة محترمة»[1] وستصل إلى بطرسبورغ في الوقت نفسه تقريباً.

لا تبين لفرانغيل أنك تعرف بذلك، ولكن كن له بمثابة الأخ الشقيق، كما كنت أنا. وخذ مكاني بهذا الخصوص، فراقبه، لأنه يمكن أن يقوم بحماقات فظيعة، أي مأساوية حتى ضد أخيه، وأنا لا أريد ذلك. هناك المدعو المركيز دي ترافيرس، من أبناء ريفيل، وقد كان صديقاً للبارون فرانغيل، حيث ترعرعا في الطفولة معاً، لكن البارون يعتبره منافساً له، ولذا يمكنهما أن يقدما على حماقات كبيرة. لن أكتب لك أكثر. فإذا تصادقت مع ألكسندر يغوروفيتش وحظيت بثقته فإنه سيحدثك أكثر. وإلا فليس لك أن تعرف المزيد. في كل الأحوال راقبه مستفيداً من القليل الذي كتبته لك عنه. إنه ضعيف العزيمة، رقيق المعشر، بل وسريع التأثر، فأوقفه عند حده. ولكن، باللّه عليك، لا تتفوّه ببنت شفة عن ذلك لأحد. ولا تقل لفرانغيل إنني كتبت لك بهذا الخصوص، حتى في لحظة المصارحة إذا تم التواصل بينكما. فقد فعلتُ ذلك من أجله، لأنني أوده كثيراً. لا يعرف السر أحد سوانا، هو وأنا، والآن أنت. ولا أحد غيرنا. أعطني كلمة شرف بأنك لن تفشي السر. إنه غير صريح تماماً مع أخيه، لكنني مهتم بكل ما يتعلق به، حتى أني أفكر أن أكتب لأخيه بضع كلمات. وبالإضافة إلى هذا السر أخبرك بأن علاقته ليست على ما يرام مع

والده المتعنت الغريب الأطوار والوسواسي الشكاك. والده يحبه كثيراً، لكنه يطالبه، مثلاً، بأن لا يقوم حتى الآن بخطوة دون استشارة الأب، حتى في صغائر الأمور، بسبب حبه لابنه. وهو ثري، بل ثري جداً، لكنه بخيل على أولاده. إلا أن صديقي البارون لا يريد أن يأخذ شيئاً من والده لأن الأخير متعود على الملامة بسبب النقود التي يعطيها لأبنائه. لن أستطيع الحديث عن كل شيء في سطور. لكنني أتوقع وأعرف أن مشاكل كبيرة يمكن أن تحصل له مع والده. فإذا صارحك أعلنْ مشاطرتك له في الملمات ومارس الإيحاء له بأن والده هو الأب، على أية حال، وبالوالدين إحساناً. ولديه أخت هي على ما أعتقد الملاك الحارس للعائلة كلها. لقد قرأت رسائلها وأعرفها من أحاديث البارون نفسه.

18 يناير. حررت رسائل لأخواتي وخالي، ولم أطلب من أحد شيئاً، وكذلك إلى إيفانوف ومايكوف والأمير أوديفسكي. وطلبت من الأمير أن يساعدني عندما سأقدم طلب السماح باستئناف النشر. ولربما أستطيع أن أكتب في القريب العاجل مقالة عن الحركة الوطنية في روسيا.

إذا سمحوا لي بالنشر فسأطلب مالاً (بالمقابل) وستكون لدي نقود. هل تعرف يفغيني نيكولايفيتش ياكوشكين؟ إذا كنت لا تعرفه فتعرَّف عليه. إنه يتعاطف معي كثيراً. كما أرجوك أن تتعرف على إيفانوف بشكل أفضل.

باللّه عليك لا ترتعب ولا تفكر كثيراً فيما كتبته لك عن عواطفي. فذلك يمكن أن يحصل ويمكن أن لا يحصل. أنا إنسان شريف ولا أريد أن أستغل نفوذي لإرغام هذا الكائن النبيل على أن يضحي من أجلي. ولكن عندما تحين الفرصة، ولو بعد 5 سنوات، سأنفذ نواياي

(في الزواج منها). رجاءً لا تزعل مني على طلب النقود. ساعدني الآن فقط، ففي القريب العاجل، والعاجل جداً، يمكن أن يتغير مصيري.

وداعاً يا صديقي. عش بسعادة ولا تنسني. فبرحيل فرانغيل غدوت الآن يتيماً تماماً. ما أشد حزني.

قبّل الأطفال وبلّغ تحياتي إلى إميليا. كيف صحتها؟ فليهبكم الله جميعاً موفور السعادة. أحبني وتذكرني. وأنا أيضاً أحبك حباً جماً.

المخلص د (وستويفسكي)

---

(1) في الأصل بالفرنسية.



46. إلى أبولون مايكوف

سيميبالاتينسك، 18 يناير 1856

أردت من زمان أن أرد على رسالتك الغالية[1] يا عزيزي أبولون نيكولايفيتش. وقد تلمست فيها وأنا أقرأها نفحة الماضي وسابق العهود. أشكرك جزيل الشكر لأنك لم تنسني. ولا أدري لماذا كان يخيل إليَّ دوماً أنك لن تنساني، ذلك على الأقل لأنني أنا أيضاً لا يمكن أن أنساك. كتبتَ تقول إن وقتاً طويلاً مضى وإن أموراً كثيرة تبدلت، وحصلت تحولات جمة. نعم، هكذا بالفعل. إلا أن الشيء الجيد أننا كبشر وكأناس لم نتغير. أنا أتحدث عن نفسي بشعور من المسؤولية. وكان بوسعي أن أكتب لك الكثير عني ما يثير الفضول وحب الاستطلاع. لا تلمني لأنني الآن أكتب الرسالة على عجل، وبفترات متقطعة، ولربما بغير وضوح. لكنني أشعر في هذه اللحظة ربما بما كنت تشعر به أنت عندما كتبت لي: لا يمكن التعبير عما في النفس بعد كل هذه السنين ليس في صفحة واحدة، بل بـ 50 صفحة. من الضروري والحال هذا أن يدور الكلام وجهاً لوجه، لكي تُقرأ بصمة الروح على الوجه ولكي يرن صدى القلب في أصوات

الكلمات. الكلمة الواحدة التي تقال باعتقاد راسخ وبمنتهى الصدق والإخلاص ومن دون تردد، وجهاً لوجه، إنما تتضمن مغزى أكبر بكثير من عشرات الصفحات المحبرة.

أشكرك بخاصة على المعلومات عن أحوالك الشخصية. أنا كنت أعلم مسبقاً أن أمورك ستؤول إلى الزواج. كتبت لي تتساءل هل أتذكر آنا إيفانوفنا؟ كيف يمكن نسيانها؟ أنا مسرور لسعادتها وسعادتك. لم يكن ذلك غريباً عليَّ في السابق أيضاً. هل تتذكر عام 47 عندما بدأت (قصتكما). ذكّرها بي، وأكد لها احترامي وإخلاصي اللامتناهيين. وبلّغ والديك بأنني أتذكر تعرفي عليهما ورعايتهما بكل سرور. (...) بلّغ تحياتي لوالديك، أتمنى لهما من صميم القلب السعادة وطول العمر. لعلك تعرف من أخي بعض تفاصيل حياتي. في ساعات الفراغ أسجل بعضاً من ذكريات تواجدي في الأشغال الشاقة، مما يثير الفضول ويسترعي الانتباه. على فكرة، الأمور الشخصية الصرف قليلة في هذه التسجيلات. عندما أفرغ من التسجيل وأحصل على فرصة سانحة سأبعث إليك نسخة بخط يدي للذكرى (...) هذه الرسالة يحملها إليك البارون ألكسندر يغوروفيتش فرانغيل. وهو شاب يافع بخصال قلبية وروحية رائعة، جاء إلى سيبيريا من الثانوية مباشرة بأحلام بريئة ليتعرف على المنطقة وليكون نافعاً لها وما إلى ذلك. وقد خدم في سيميبالاتينسك، وتعارفنا، فكانت بيني وبينه مودة عميقة. وما دمتُ سأطلب منك بإلحاح أن تلتفت إليه وتهتم به وتتعرف عليه بشكل أفضل إن أمكن، فإنني أذكر لك بإيجاز شيئاً عن طباعه: إنه طيب القلب للغاية، ولا يحمل أية معتقدات متميزة. يتحلى بالنبل والشهامة والفطنة والذكاء. إلا أن قلبه ضعيف، رقيق، مع أن مظهره يبدو متعالياً متكبراً للوهلة الأولى. بودّي لو تعرفتَ عليه عموماً من أجل

مصلحته. البيئة التي ترعرع فيها شبه أرستقراطية أو أرستقراطية بثلاثة أرباعها، في عائلة بارون. إلا أن هذه البيئة لا تعجبني كثيراً، بل ولا تعجبه هو أيضاً، لأنها رغم المزايا الرائعة، إلا أنها متأثرة بالماضي كثيراً وبشكل صارخ. فليكن لك تأثير عليه إذا تمكنت، فهو يستحق ذلك. وقد عمل لي الكثير من المعروف. لكنني أحبه ليس فقط بسبب ما قدمه لي من معروف. وفي الختام أقول إنه وسواسي بعض الشيء، سريع التأثر، انطوائي أحياناً، ويعوزه بعض التوازن في المزاج. تكلم معه، إذا توافقتما، بصراحة وببساطة، وبأكبر قدر ممكن من الصدق، ولا تبدأ الكلام من بعيد. لا مؤاخذة لأني أرجوك هكذا بخصوص البارون، ذلك، وأكرر، لأنني أوده كثيراً. ملاحظاتي عنه، وكذلك هذه الرسالة عموماً، ينبغي أن تبقى طي الكتمان. وبالطبع لا موجب لإلفات نظرك إلى ذلك، فأنت أدرى.

(. . .) كتبت تقول إنك عانيت الكثير وفكرت في الكثير ورأيت من المستجدات الكثير. ذلك في طبيعة الأشياء، وأنا على يقين بأن أفكارنا، أنت وأنا، يمكن أن تتوافق اليوم أيضاً. أنا كذلك فكرت وعانيت، وكانت هناك ملابسات ومؤثرات دفعتني لإعادة التأمل والتفكير في الكثير من الأمور، بل وفوق طاقتي. إنك، وأنت تعرفني حق المعرفة، لا بد أن تقول بأن الحق معي عندما سلكت دوماً ما بدا لي هو الأفضل والأكثر إستقامة، فلم أداهن، بل مارست ما مارسته برغبة وحماس. لا تظن أنني ألمح من خلال هذه الكلمات إلى ما نُفيت بسببه إلى هنا. فأنا أتحدث عما جاء بعد تلك الأحداث، لأن الكلام عن الماضي غير مناسب. ثم إن ذلك جاء من قبيل المصادفات لا أكثر. الأفكار تتبدل والقلب يبقى كما هو. قرأت رسالتك ولم أفهم الأمر الرئيسي. أقصد الوطنية، الفكرة الروسية، الشعور بالواجب

وكرامة الوطن، كل ما تتحدث عنه أنت بكل هذا الإعجاب والحماس. ولكن، يا صديقي، هل يعقل أنك كنت ذات يوم على غير ذلك، من رأي غير هذا؟ أنا دوماً كنت أؤمن بهذه المشاعر والمعتقدات. روسيا الواجب، الشرف؟ نعم. أقول لك بصراحة: أنا دوماً كنت روسياً حقاً وحقيقة. فما الجديد في هذه الحركة الذي اكتشفته حواليك وتكتب عنه وكأنه اتجاه جديد بالفعل؟ أعترف لك بأنني لم أفهمك. قرأت أشعارك ووجدتها رائعة. وأشاطرك تماماً شعورك الوطني بالتحرر الأخلاقي للسلافيين (الصقالبة). هذا هو دور روسيا الشمّاء العظيمة، روسيا الأم المقدسة. وما أروع الخاتمة والسطور الأخيرة في (قصيدتك) «كاتدرائية كليرمونتسكي». من أين أخذت هذه اللغة لتعبّر عن هذه الفكرة الهائلة بمثل هذه الروعة؟ نعم، أشاطرك الفكرة القائلة بأن روسيا ستنهي أوروبا ورسالتها. كان ذلك واضحاً بالنسبة لي من زمان. تقول في رسالتك إن المجتمع كأنما أخذ يصحو من اللاأبالية والخمول. ولكنك تعلم أن التظاهرات لا تحصل في مجتمعنا عموماً. فمن قال استناداً إلى ذلك إن المجتمع يفتقر إلى الطاقات؟ ألقِ الضوء جيداً على الفكرة، وادعُ المجتمع وسيفهمك ذلك المجتمع. والحال كذلك الآن أيضاً: الفكرة أنيرت بشكل رائع، بروح وطنية وفروسية تماماً، وهذا أمر حقيقي لا بد من الاعتراف به، وتبنى الجميع فكرتنا السياسية التي أوصى بها بطرس. ولعلك تشعر بالاستياء، منذ وقت قريب، من غزو الأفكار الفرنسية لذلك الجزء من المجتمع الذي يفكر ويحس ويتدارس. صحيح أن ذلك كان استثناءً، وكل استثناء يولّد ضداً بطبيعته. ولكن ألا توافقني بأن جميع ذوي العقل السليم، أي أولئك الذين يوجهون ويتحكمون بكل شيء، قد نظروا إلى الأفكار الفرنسية من الزاوية العلمية لا أكثر. وأنهم، هم،

حتى وإن كانوا يتقيدون بالاستثناءات، إنما كانوا من الروس. فأين ترى المستجدات؟ أؤكد لك أنني، على سبيل المثال، يعز عليّ كل ما هو روسي. حتى سجناء الأشغال الشاقة لم يثيروا مخاوفي، فهم من أبناء الشعب الروسي وهم إخوتي في المصيبة، وكان يسعدني أن أبحث أكثر من مرة عن سماحة الخلق حتى في جوانح الواحد من قطاع الطرق، ولذا تمكنت في الواقع من فهمه، لأنه كان روسياً. مصيبتي وفّرت لي فرصة الاطلاع عملياً على الكثير من الأمور، ولعل هذه الممارسات أثرت فيّ كثيراً، لكني عرفت عملياً بأنني كنت دوماً روسياً من حيث القلب والفؤاد. يمكن الوقوع في خطأ الفكرة، ولكن لا يجوز الخطأ في القلب وخطأ فقدان الضمير، أي العمل ضد المعتقد الشخصي. ولكن لماذا أكتب لك عن ذلك كله؟ لماذا؟ فأنا أعرف أنني لن أتمكن من التعبير عن شيء في سطور، فما الداعي لكتابة ذلك؟ الأفضل أن أخبرك شيئاً إضافياً عن نفسي. في فترة الأشغال الشاقة لم أقرأ إلا القليل. فلم تكن هناك كتب أبداً. أحياناً كنت أحصل عليها. وعندما وصلت إلى هنا، إلى سيميبالاتينسك، أخذت أقرأ أكثر. ومع ذلك لا توجد كتب، بل حتى الكتب الضرورية غير موجودة. والوقت يمضي. لا أستطيع أن أعبّر لك عن مدى عذابي لأنني لم أتمكن من الكتابة في فترة الأشغال الشاقة. في حين أن العمل كان يغلي في داخلي. وإن النتائج جيدة أحياناً. كنت أتلمس ذلك. لقد ألفت هناك، في الدماغ، قصتي الكبيرة المكتملة. كنت أخشى أن يخفت الحب الأول لنتاجي حين تمر السنين ويحين وقت التجربة، فلا أجد الحب الذي تتعذر الكتابة من دونه. لكنني أخطأت. طباع الشخوص التي أبدعتها وتشكل أساس القصة بمجملها تطلبت عدة سنوات من النضوج والتطوير، وأنا واثق بأنني يمكن أن

أفسد كل شيء فيما لو أخذت أكتب وأكتب من دون تمهيد. ولكنني عندما أنهيت الأشغال الشاقة لم أكتب مع أن كل شيء كان جاهزاً. لم أتمكن من الكتابة. هناك حادثٌ تباطأ كثيراً في حياتي حتى جاءني أخيراً وشغلني عن كل شيء في الدنيا. كنت سعيداً، ولم أستطع أن أعمل. ثم حلت بي الأحزان والمصائب. فقدت ما كان يشكل كل شيء بالنسبة لي. مئات الأميال تفرق بيننا. لا أستطيع أن أوضح لك القضية الآن، ربما سأوضحها في زمن ما. إلا أنني لم أكن عاطلاً عن العمل نهائياً. كنت أعمل، لكنني أرجأت مؤلفي الرئيسي ووضعته جانباً.[2] فهو يحتاج إلى استقرار نفساني أكثر. في معرض المزاح بدأتُ كتابة ملهاة، وبذلك أثرت مازحاً الكثير من المواقف الهزلية ورسمت العديد من الشخوص الفكاهية، حتى أعجبني بطلي لدرجة أني تركت الشكل الفكاهي رغم نجاحه، وذلك للشعور بالارتياح من متابعة مغامراته وقتا أطول والضحك عليه. هذا البطل يشبهني بعض الشيء. باختصار، أنا أكتب رواية هزلية، لكنني لحد الآن كتبت مشاهد منفصلة للمغامرات، كتبت ما يكفيني والآن أعمل على توليفها في رواية متكاملة. هذا هو البلاغ المبين عن مشاغلي. فما كان بوسعي أن لا أحدثك عنها وأتذكر ماضينا يا صديقي الغالي. نعم. كنت سعيداً مراراً معك، فكيف أنساك. كتبت لي شيئاً عن الأدب. خلال العام الحالي لم أقرأ شيئاً تقريباً. وأذكر لك هنا متابعاتي: تورغينيف يعجبني أكثر من الجميع. وللأسف أن فيه القليل من ضبط النفس رغم موهبته الكبيرة. ل.ت.(ليف تولستوي) يعجبني كثيراً. لكنه، باعتقادي، لن يكتب الكثير، وربما أنا مخطئ. أنا لا أعرف أوستروفسكي إطلاقاً، لم أقرأ له على العموم، لكنني قرأت مقتطفات عديدة في الدراسات عنه. وهو ربما يعرف جيداً طبقة معينة من

روسيا، لكني أعتقد أنه ليس فناناً. وإلى ذلك أعتقد أنه شاعر بلا مثال أعلى. فأرجوك أن تغير رأيي، اكتبْ لي باللّه عليك ما هي أفضل مؤلفاته لكي أتعرف عليه ليس من كتابات النقاد فقط. من مؤلفات بيسيمسكي قرأت «الثرثار» و«الخطيب الثري» فقط. وهو يعجبني كثيراً. ذكي، طيب القلب، بل وساذج، ويحكي جيداً. إلا أن المؤسف لديه هو الاستعجال في الكتابة. يكتب كثيراً وبسرعة كبيرة. لا بد من المزيد من حب الذات واحترام الموهبة الشخصية والفن، لا بد من حب الفن أكثر. الأفكار تسيل منذ الفتوة، ولا يجوز تلقف كلاً منها على عجل والتعبير عنها في الحال، والتسرع في ذلك التعبير. الأفضل انتظار المزيد من التراكيب، والمزيد من التفكير، انتظار تجمع الكثير من صغائر الأمور التي تعبّر عن فكرة واحدة في مجموع كبير، في صورة مجسمة كبيرة، وعندذاك يمكن التعبير عنها. الشخوص الهائلة التي ابتدعها كتّاب كثيرون غالباً ما كانت ترسم وتنضج أمداً طويلاً وبصبر وأناة. فلا يصح التعبير عن كل التجارب والعينات والرسومات الأولية. لا أدري هل فهمت ما أقول؟ أما بخصوص بيسيمسكي فهو، باعتقادي، يطلق العنان لريشته. كاتباتنا يؤلفن ككاتبات أنثويات، بمعنى أنهن يكتبن بفطنة وبرقّة ويسرعن كثيراً في الصياغة والتعبير. خبرني لماذا لا تغدو الكاتبة أبداً تقريباً فنانة صارمة؟ حتى الفنانة التي لا جدال في موهبتها، جورج صاند، أساءت إلى نفسها أكثر من مرة بخصالها الأنثوية. قرأت الكثير من أشعارك القصيرة في المجلات طول الوقت. وهي تعجبني كثيراً. فتشجع واعمل. وأقول لك بالسر والكتمان توتشيف شاعر رائع، ولكن كذا وكذا. . . أي توتشيف هذا؟ شاعرنا؟ على فكرة، الكثير من أشعاره في منتهى الروعة. وداعاً، يا صديقي العزيز. لا مؤاخذة على عدم

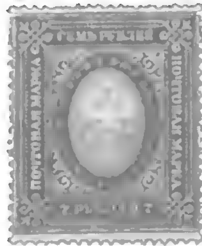
ترابط الرسالة. لا يمكن كتابة شيء في الرسائل. ولذا أنا لا أطيق مدام دي سيفيج، فقد كتبت رسائل في منتهى الروعة. من يدري؟ ربما سأعانقك في زمن ما. يا ليتنا. باللّه عليك لا تخبر أحداً برسالتي هذه. أعانقك.

المخلص د (وستويفسكي)

---

(1) رسالة مايكوف إلى دوستويفسكي مفقودة.

(2) في الخمسينات تحدث دوستويفسكي مراراً عما سمّاه روايته الرئيسية، لكنها لم تر النور.



47. إلى ألكسندر فرانغيل

سيميبالاتينسك، 23 مارس 1856

صديقي الطيب الغالي ألكسندر يغوروفيتش! أين أنت؟ ماذا دهاك؟ هل نسيتني؟ اعتباراً من الاثنين القادم سأظل أنتظر منك بفارغ الصبر الرسالة الموعودة، كما لو كانت هي السعادة بعينها وتحقيق كل أمنياتي الفعلية. تحت هذا المظروف تجد ثلاث رسائل غير مختومة، واحدة لأخي والأخرى للجنرال المرافق إدوارد إيفانوفيتش توتليبين. فلا تدهش. سأوضح لك. والآن أتحدث بالترتيب، وأبدأ الحديث عني. يا ليتك تعرف مدى كآبتي وانكساري وخيبة أملي النهائية تقريباً الآن، في الحال الحاضر، لو عرفت لفهمت حقاً لماذا أتت رسالتك كسفينة النجاة. فهي لا بد أن تحل الكثير، والكثير جداً، في مصيري. لقد وعدتني بأن تكتب بأسرع ما يمكن، حال وصولك إلى بطرسبورغ وتبلغني بكل ما أطمح إليه وما بذلته من جهود أخوية من أجلي طوال عام كامل، بصراحة من دون إخفاء شيء. ومن دون تزويق للحقيقة ومن دون تهدئتي بآمال مهزوزة. أنا أنتظر منك هذه الأخبار كأنفاس الحياة. باللّه عليك لا تعرض رسالتي على أحد. وأحيطك أن أحوالي

كما في حال الطوارئ. السيدة[1] مكتئبة، مخيّبة، متوعكة طول الوقت، أخذت تفقد الأمل في تطلعاتي وفي تأمين مستقبلي، والأسوأ من ذلك أنها محاطة في مدينتها الصغيرة، لم تنتقل إلى بارناول حتى الآن، بأناس يدبرون أموراً غير طيبة إطلاقاً. فهناك من يطلب يدها. ويبذل المتزلفون من أقربائها جهوداً بالغة لإقناعها بالزواج، وإعطاء وعد بالموافقة لخطيب لا أعرف اسمه بعد. وفي انتظار الوعد يتجسّسون عليها ليعرفوا ممّن تأتيها الرسائل؟ وهي لا تزال تنتظر أخباراً من أقاربها الذين ينبغي أن يتولوا هناك، على أطراف الدنيا، البت في مصيرها هنا. بمعنى هل تعود إلى روسيا (الداخل) أم تنتقل إلى بارناول. رسائلها الأخيرة إليّ تغدو طول الوقت أكثر كآبة وحزناً. كتبت لي بتأثير المرض، وأنا أعرف أنها مريضة. وقد حزرت بأنها تخفي عني شيئاً. للأسف أنني لم أحدثك عن ذلك أبداً. فعندما كنتَ تخدم هنا كانت غيرتي عليها تقودها إلى اليأس والقنوط، ولربما هي الآن تخفي عليَّ الكثير بسبب ذلك. وماذا بعد؟ فجأة سمعت بأنها وعدت شخصاً آخر، في كوزنيتسك، بالزواج منه. وصعقت لهذا النبأ. ومن يأسي لم أكن أعرف ماذا أفعل. هل أبدأ بالكتابة إليها؟ لكنني يوم الأحد استلمت منها رسالة رقيقة بديعة كالعادة، لكنها منطوية أكثر من السابق. الكلمات القلبية فيها أقل، وكأنما تخشى أن تكتبها. ولا ذكر لأمانينا المستقبلية وكأن التفكير فيها أرجئ إلى أجل غير مسمّى. ليس هناك أي أثر للإيمان بإمكان التغيير في مصيري قريباً. وأخيراً جاء الخبر كالرعد الهادر: فقد قررت أن ترفع ستارة الكتمان وتسألني بتردد: «بماذا ترد لو طلب يدها رجل ثري متقدم في السن بخصال حميدة ومنصب مرموق؟». إنها تطلب النصح مني. وتقول إن رأسها داخ من التفكير في بقائها وحيدة في أطراف الدنيا،

مع ابنها، ووالدها العجوز الذي يمكن أن يقضي نحبه. فماذا سيحصل لها عندئذٍ؟ وتطلب مناقشة الموضوع ببرود أعصاب، كما هو المتوقع من صديق، وتريد جواباً فورياً. وبالمناسبة كانت في الرسائل السابقة أيضا تأكيدات على الحب. والآن تضيف أنها تحبني، وأن موضوع الزواج مجرد افتراض وحسابات. صعقت للنبأ، فترنحت وهويت وأغمي عليّ، ثم شرعت أبكي طول الليل. والآن أنا راقد في غرفتي. وفي دماغي فكرة متحجرة. وأكاد لا أفهم كيف أعيش ولا أفقه ما يقال لي. آه، أعوذ باللّه من هذا الشعور الفظيع الرهيب. فرحة الحب عظيمة، لكن المعاناة فظيعة، والأفضل للإنسان أن لا يحب أبداً. أقسم لك أنني أصبت باليأس والقنوط. لقد فهمت احتمال شيء غير عادي، ما كان بوسعي أن أقدم عليه مطلقاً في ظروف غير هذه... حررت لها رسالة في ذلك المساء نفسه، رسالة فظيعة مفعمة باليأس. يا لها من مسكينة. ملاكي. إنها مريضة حتى من دوني. فيما رحت أنهشها وأعذبها. ولربما كنت سأقتلها بهذه الرسالة. قلت لها إني سأموت إذا حرمت منها. اجتمعت في الرسالة التهديدات والملاطفات والاستعطاف والمذلة وغيرها كثير. أرجو أن تفهمني، أنت ملاكي وأملي. فلنحكم العقل: ماذا يبقى لها أن تفعل المسكينة المهجورة الوسواسية لحد المرض، وإلى ذلك فقدت ثقتها بانتظام مصيري؟ فهل يجدر بها أن تتزوج جندياً مثلي؟ قرأت كل رسائلها الأخيرة هذا الأسبوع. اللّه يعلم، ربما هي لم تعط وعداً بعد، ويخيل إليَّ أنها مترددة. لكنها تحبني، أنا أعرف ذلك، وأراه من حزنها وكآبتها ومن موجات رسائلها ومن مؤشرات كثيرة أخرى لن أكتب لك عنها. يا صديقي، أنا لم أكن صريحاً معك للنهاية بهذا الخصوص. فماذا عساي أن أفعل الآن؟ أنا لم أتعرض في حياتي أبداً لمثل هذا اليأس

الفتاك. . . كآبة قاتلة تمتص قلبي. في الليل كوابيس، وفي المنام صيحات، وحشرجة في الحنجرة تكاد تخنقني. والدموع تستعصي تارة وتنهمر مدراراً تارة أخرى. أرجوك أن تتفهم موقفي. أنا إنسان نزيه. وأعرف أنها تحبني. ماذا سيحصل لو اعترضتُ على سعادتها؟ ومن جهة أخرى أنا لا أصدق بخطيب من كوزنيتسك. فليس من شأنها، وهي المريضة المنفعلة المحطمة القلب والمثقفة الذكية، أن تستسلم لشخص لا يعرفه إلا اللّه، شخص قد يعتبر حتى الضرب والعراك أمراً مشروعاً في الزواج. إنها طيبة القلب ساذجة سريعة التصديق. . أنا أعرفها جيداً. يمكن جعلها تصدق بأي شيء. وإلى ذلك يضللها الأقارب الملاعين، وكذلك نفق الأوضاع المسدود. سأعرف الجواب الحاسم، أي سأطلع على حقيقة الأمر في الثاني من أبريل. ولكن انصحني، يا صديقي، ماذا عليَّ أن أفعل؟ على فكرة، لماذا أنشد النصح منك؟ أنا لا أستطيع أن أتخلى عنها في أي حال من الأحوال. الحب في مثل سني ليس هبة. وهو مستمر من عامين. هل تسمعني؟ من عامين. وخلال 10 أشهر من الفراق لم يخفت، بل وصل إلى حد اللامعقول. سأهلك إذا فقدتها، ملاكي، فإما الجنون وإما إرطيش.(2) بديهي أنه لو استقامت أموري، بصدور البلاغ (القيصري)، فستكون الأفضلية عندها لي بالمقارنة مع الجميع، ذلك لأنها تحبني، وأنا واثق بحبها. وأقول لك إننا نقصد بلغتنا، معها، من مفردة استقامة مصيري، الانتقال من الخدمة العسكرية إلى المدنية، أي وظيفة براتب من الدرجة 14 على الأقل، أو الأمل القريب فيها، مع إمكانية الحصول على المال لكي نعيش على الأقل حتى يتم ترتيب أموري نهائياً. وغني عن البيان أنها ستعتبر ترك الخدمة العسكرية أو الانتقال إلى الخدمة المدنية، ولو من دون درجة وظيفية ومن دون نقود وفيرة،

أملاً عريضاً يعيد إليها الروح. ومن جهتي أعلن لك عن آمالي التي يجب أن أحققها لأنتزعها ممن يطلبون يدها وأظل في نظرها إنساناً شريفاً، وبعد ذلك سأسألك عما يمكن أن يتحقق أو لا يتحقق من الآمال. ذلك لأنك في بطرسبورغ وتعرف الكثير مما لا أعرفه أنا.

آمالي، يا صديقي الغالي، وربما الوحيد، صاحب القلب النقي الصافي الصادق، كالآتي. فاستمع إليها. ومهما فكرت فيها يخيل إليَّ أنها واضحة تماماً. أولاً- هل يعقل أن المرحمة، أياً كانت، لن تأتي هذا الصيف بمناسبة الصلح[3] أو بمناسبة عيد الجلوس؟ أنتظر منك هذا النبأ بفارغ الصبر وبرجفة في القلب. ثانياً- نترك جانباً ما يخص الأمنيات والآمال. ألا يحق لي أن أتحول من الخدمة العسكرية إلى الخدمة المدنية وأنتقل إلى بارناول إذا لم ينص البلاغ على خلاف ذلك؟ دورف انتقل إلى الخدمة المدنية، أليس كذلك؟ أقول لك إن هذا الانتقال وحده يعيد إليها الروح، فتطرد كل من يطلب يدها، لأنها كتبت في الرسالة الأخيرة والرسالة التي قبلها أنها تحبني حباً جماً، وأن الخطيب (موضوع البحث) مجرد حسابات مصلحية، وترجوني أن لا أشكك في حبها وأن أثق بأن ذلك افتراض لا غير. وأنا أثق بالاحتمال الأخير. فلربما طلبوا يدها وعرضوا عليها وحاولوا إقناعها، لكنها لم تقطع لهم عهداً. وقد استفسرتُ عن الإشاعات وبحثت عن مصادرها واتضح لي أن النميمة والأقاويل فيها كثيرة. وفضلاً عن ذلك، لو أنها عاهدتهم لكتبت لي. فقد طالبتها بالصراحة الكاملة، وبالتالي سأعرف كل النوايا المبيتة. آخ يا صديقي. هل يمكنني أن أتركها أو أتنازل عنها لغيري؟ فلي حق عليها. هل تسمعني، لي حق بها وعليها. هكذا سيعتبر انتقالي إلى الخدمة المدنية أملاً عريضاً وسيحظى بالاستحسان. ثالثاً- هل سيطول بقائي بلا

وظيفة؟ ما رأيك؟ وهل يصدر منع بترقيتي؟ المجرمون من أمثالي استلموا كل المستحقات. أنا لا أصدق. أنا على يقين بأنني سأعود إلى روسيا بعد عامين حتى لو لم أحصل على شيء الآن. بخصوص النقطة الأهم- النقود. لدي عملان سيكونان جاهزين في سبتمبر. أحدهما مقالة[4] والآخر رواية[5] أريد أن أطلب رسمياً نشرهما. فإذا سمحوا لي فسيكون لدي الخبز الكفاف مدى الحياة. أنا حالياً لست كما في الماضي. فما أكثر ما نقحت وخططت وما أقوى طاقتي ورغبتي في الكتابة. آمل أن أكتب بحلول سبتمبر رواية أفضل من «الفقراء». فإذا سمحوا لي بالنشر، وأنا لا أصدق، هل تسمعني؟ لا أصدق بأن ذلك مستحيل إذا بذلت الجهود اللازمة للتشفع لي، فستثار ضجة ويحظى الكتاب بالإقبال وترسل النقود إليّ وتزداد أهميتي وتلتفت الحكومة إليّ، فتأتي العودة أسرع. حاجتي لا تتجاوز 2-3 آلاف روبل ورقي في السنة. وهكذا، هل أن موقفي منها نزيه وشريف أم لا؟ هل أن ذلك قليل للصرف على احتياجاتنا؟ بعد عامين تقريباً نعود إلى روسيا، وهي ستعيش في بحبوحة. بل وربما سندخر مالاً. هل يعقل أنني، ببسالتي وطاقاتي التي قاومت فيها آلاماً لا تطاق طوال ستة أعوام، لن أتمكن من كسب نقود تكفي لإطعامي مع زوجتي؟ كلام فارغ. المهم لا أحد يعرف طاقاتي وعمق موهبتي، في حين أنا أعلق آمالي على هذا الأمر الرئيسي. والاحتمال الأخير، لنفترض، أنهم لن يسمحوا بالنشر عاماً آخر. فأنا حالما يحصل أول تغيير أكتب إلى خالي وأطلب منه 1000 روبل فضي لأباشر العمل على الصعيد الجديد، ناهيك عن الزواج. وأنا واثق بأنه سيعطيني. أليس بإمكاننا أن نعيش بهذا المبلغ عاماً؟ وعند ذاك تستقيم الأمور. ثم إنني أستطيع أن أنشر باسم مستعار وأستلم نقوداً على أية حال. أرجو أن تفهمني.

كل هذه الآمال واردة إذا لم يصدر البلاغ في الصيف الحالي. فماذا لو صدر؟ كلا، أنا لست سافلاً دنيئاً في نظرها. وما دامت تذكر بنفسها أنه يطيب لها أن تترك جميع طالبي يدها من أجلي، وتفعل ذلك بلا أسف، فإنني سأخلصها من المحنة، على أن تستقيم أمورنا. ولكن ماذا أقول؟ القرار نهائي بأنني لن أتركها تهلك من دوني. عزيزي ألكسندر يغوروفيتش! ليتك تعلم كم أنتظر رسالتك. فلعل فيها أخباراً إيجابية. وعندذاك أبعثها إليها نصاً. وإذا تعذر ذلك سأقتطف السطور المتعلقة بالأمل في انتظام مصيري وأرسلها إليها.

ولكن لعلك تفهم المشاغل والهموم التي أنا فيها. ولدي عدة طلبات إليك. أرجوك أن تنفذها لوجه المسيح. الطلب الأول. تجد هنا رسالة إلى إدوارد إيفانوفيتش توتليبين. وإليك فكرتي: كنت في زمن ما على معرفة جيدة بهذا الرجل. وأنا صديق طفولة أخيه. وقبل اعتقالي بعدة أيام التقيته صدفة، وتصافحنا بترحاب من الطرفين. وماذا بعد؟ ربما هو لم ينسني. . إنه إنسان طيب القلب متواضع بأريحية كبيرة، وقد أثبت ذلك شخصياً، إنه من أبطال سيواستوبول الحقيقيين من مقاتلي ناخيموف وكورنيلوف عن جدارة واستحقاق. احملْ له رسالتي. اقرأها في البداية جيداً. أكيد أنك ستلاحظ من لهجة رسالتي إليه أنني كنت متردداً ولا أدري كيف أكتب له. فهو الآن في منزلة رفيعة، وأنا، من أنا؟ وهل سيرغب أن يتذكرني؟ على أية حال كتبت الرسالة على طريقة عسى ولعل. اذهبْ إليه شخصياً، وآمل أن يكون في بطرسبورغ، وسلمه رسالتي على انفراد. وسترى من ملامح وجهه رأساً ردة فعله. فإذا كانت سلبية فلا داعي للقيام بشيء. أوضح له الموقف باختصار واشكره وقدم احتراماتك وانصرف، واطلب منه سلفاً أن يكتم سر هذه القضية. إنه إنسان مؤدب جداً،

طباعه كطباع الفرسان بعض الشيء، سيستقبلك ويودعك ببشاشة حتى وإن لم يعد بما يرام. وإذا رأيت من ملامح وجهه أنه سيهتم بقضيتي ويعبّر عن الكثير من المشاطرة والطيبة، فلك أن تتصارح معه تماماً وتعالج الموضوع بصدق وتحدثه عني وتقول له إن لكلمته الآن أهمية بالغة ويمكنه أن يتشفع لي عند صاحب الجلالة ويتكفل بحسن سلوكي كمواطن جيد، لمعرفته بي. أكيد أنهم لن يرفضوا طلبه. صاحب الجلالة عفا مراراً عن المجرمين البولنديين برجاء من باسكيفيتش. توتليبين الآن في رعاية وحب (من البلاط) بحيث يضاهي رجاؤه رجاء باسكيفيتش. عموماً أنا أعلق آمالي كثيراً عليك. وأنا واثق بأنك ستقول كلمتك المتحمسة. فلا تبخل بها عليّ، باللّه عليك. شدد بخاصة على تركي الخدمة العسكرية. والأمر الرئيسي، إذا أمكن أكثر، هو العفو التام، فلا يغيبن ذلك عن بالك. ألا يجوز، مثلاً، تسريحي من الخدمة العسكرية ومنحي حق التنسيب للخدمة المدنية من المرتبة 14 مع العودة إلى روسيا والسماح بالنشر، وهذا هو الأهم؟ عموماً اقرأ رسالتي إلى توتليبين باهتمام. وهل يمكن الاستفادة من القصيدة؟[6] قرأت في الصحف أن مايكوف تلا شعراً أمام توتليبين في مأدبة غداء. فهل هو على معرفة شخصية به؟ إذا كان كذلك حدّث مايكوف بكل شيء سراً، واطلب منه أن يتشفع لي هو أيضاً عند توتليبين ويرافقك في زيارته. هل يمكنك أن تلتقي أدولف، شقيق توتليبين الأصغر، وهو صديقي. حدثه عني، فيهرع إلى أخيه مستعطفاً أن يتشفع لي. طبيعي أنك ستختم رسالتي إلى توتليبين في مظروف تقدمه له. وأرسلْ لي بأسرع ما يمكن خبراً عن كل هذه الأمور سواء كانت جيدة أو سيئة. والمشكلة أن الرجل يمكن أن يرتحل في تلك الأثناء إلى منطقته. فسيذهب إليها لمدة شهر. أعتقد أنه لن يرتحل

الآن. يخيل إليَّ أنه لن يرتحل. فعجِّل في الجواب إليَّ. إنني أخشى أمراً آخر. فهل تقبَّل الأمير أودويفسكي رسالتي؟ هل أُسقط في يدك؟ وهل أنت متردد في الذهاب إلى توتليبين؟ يا ملاكي، لا تتركني. لا تدفعني إلى اليأس المطبق.

الطلب الثاني. اكتبْ لي بالتفصيل وبسرعة: ما رأيك في أخي؟ بأي حال وجدته؟ ما رأيه في قضيتي؟ في السابق كان يحبني حباً جماً. كان يبكي عندما ودعني. ألم يفتر موقفه مني؟ ألم تتغير طباعه؟ ما أشد حزني لو حصل ذلك؟ ألم يتكالب على كسب المال، فنسي الماضي كله؟ أنا لا أصدق بذلك في كل الأحوال. ولكن كيف نفسر توقفه عن الكتابة لي أحياناً على مدى 7 أو 8 أشهر؟ ثم يكتب ما لم ينزل اللّه به من سلطان. وحتى في الرسائل التي يحملها خومينتوفسكي، خارج مجال الرقابة، لا يجيب عن أسئلتي، ولا أجد فيها إلا القليل من دفء الماضي وأريحيته. لن أنسى أبداً ما قاله لخومينتوفسكي الذي نقل إليه رجائي في التشفع لي من أن الأفضل لي أن أبقى في سيبيريا. في ديسمبر كتبنا، ولعلك تتذكر من خلال أخيك، وطلبت أنا نقوداً ترسل عن طريق لاموت. وأنت تعرف مدى حاجتي. وبالنتيجة لا خبر جاء ولا وحي نزل. أنا أفهم أنه يمكن أن لا يمتلك مالاً نقدياً، فهو يتاجر، ولكن لا بد من إنقاذ الشخص في الملمات. علماً بأنني لن أكون عالة عليهم لأمد طويل، وسأسدد كل المطلوب. ثم إنني أطلب منه نقوداً لأني أتذكر كلماته أثناء توديعي. في رسالتي إليه، المرفقة طياً، أطلب، فضلاً عن الـ 100، مبلغاً أكبر على قدر المستطاع. أنا بحاجة إلى ذلك تحوطاً للاحتمالات. فلو أطلقوا سراحي لسافرت على جناح السرعة إلى كوزنيتسك، ولا يمكنني أن أفعل ذلك من دون نقود. ثم إنها إذا عزمت على المغادرة

إلى بارناول فسأحاول إقناعها بأن تأخذ مني نقوداً. أنا لا أستطيع أن أكتب لك، لكني بأمسّ الحاجة إلى النقود. مرة واحدة في الحياة يصادف أن تكون النقود ضرورية لهذا الحد. 300 روبل فضي من شأنها أن تنقذني، بل وحتى 200 ترضيني، بما فيها الـ 100 التي طلبتها في ديسمبر. بديهي أنني أكتب لك ذلك كصديق، فلا تفكر أن تساعدني بنفسك. أنا أصلاً غدّار ومدين لك بالكثير جداً. على أية حال اقرأ رسالتي لأخي. وما أكتبه لك الآن لا أعرضه عليه. فأنا أحيله إليك لتوضيح الأمور. حدثه بكل شيء. ماذا لو كان هو أيضاً، شأن الأعمام والأقارب في الروايات، مستاءً من حبي لها ويحاول أن يقنعك بعدم مساعدتي؟ أنا في الخامسة والثلاثين. فماذا يظن؟ هل يتصور أنني أحبه من أجل النقود التي يرسلها إليَّ؟ كلام فارغ. لدي شعور بالعزة والكرامة الشخصية. سأقتات على الخبز وحده، وسنهلك أنا وإياها، فلا حاجة لي بالنقود التي يرسلها بدافع من شعور كهذا. أنا لا أريد صدقة. أنا بحاجة إلى أخي وليس إلى نقوده. في زمن ما تشاجرنا، لكننا كنا نحب بعضنا بعضاً حباً جماً. أقسم لك أنني مستعد للتضحية برقبتي من أجله. طباعي ممقوتة، لكنني أقف في صف الأصدقاء عندما يقتضي الأمر. حينما اعتقلونا كان يمكن التفكير في النفس قبل كل شيء في لحظة الفزع الأولى، لكنني كنت أفكر فيه وكيف سيضر الاعتقال بعائلته وبزوجته المسكينة. ورجوت أخانا الثالث[7] الذي اعتُقل عن طريق الخطأ (. . .) بأن يرسل نقوداً إلى أخيه متصوراً بأنه لا يمتلكها. فهل يعقل أنه نسي الماضي كله وشعر بالغيظ لأنني طلبت مبلغاً كبيراً، وفي أي وقت؟ في وقت حرج عصيب للغاية من حياتي. اكتبْ لي كيف استقبلك؟ وما رأيك فيه؟ بصراحة. ارسمْ لي لوحة أفكاره بشان هذه القضية كلها، ولا تنصت إلا لقلبك

الذهبي، يا أطيب صديق. وكن أكثر صراحة مع مايكوف بخصوصي. فهو إنسان رائع، وفضلاً عن ذلك يحبني. وبالطبع اطلبْ منه أن يلتزم الكتمان. الطلب الثالث. باللّه عليك افهمني. ساعدني، ولا تظن أن حبي لها سيضر بمستقبلي، هذا أولاً، وثانياً - لا تظن أنني أعاملها بلا نزاهة وأشغلها عن زواج مصلحي من شخص آخر، انطلاقاً من مصلحتي الأنانية وحدها. كلا، ليس في الزواج من غيري مصلحة، ولا أنانية جبانة في نفسي. لا يجوز الظن هكذا. وإلا فإنني، أقسم لك، مستعد لتقديم روحي قرباناً لها، مستعد للتخلي عن كل آمالي من أجلها. حكّم بنفسك: هي تكتب في كل رسالة من رسائلها، وحتى في الرسالة الأخيرة، أنها تحبني أكثر من أي شيء في الدنيا، وأنها تعتبر مسألة الشخص الذي طلب يدها مجرد حساب مصلحي. وترجوني بخاصة أن أصدق بأن هذه الخطوبة مجرد افتراض آخر. ولا بد لك أن تفهم موقفها أيضاً. إنها تنتظر بفارغ الصبر تغيرات معينة في مصيري. ولا أثر لتلك التغيرات. فيستولي عليها اليأس. ولإدراكها أنها أم لديها طفل صارت تتردد بخصوص إمكانية الزواج من غيري إذا تعثرت قضيتي. وفي البريد ما قبل الأخير كتبت لي، لتخفف من شدة غيرتي عليها، أن أياً من رجال كوزنيتسك لا يساوي خنصري، وأن بودّها أن تقول لي شيئاً، لكنها تخشاني، وأن الذين حواليها كلهم من النمامين الأدنياء، يتصرفون بخشونة وبقلة أدب. وهي تؤكد بالرسالة نفسها أنها تشعر أكثر مما في أي وقت مضى بحاجتها إليّ وبحاجتي إليها، وتقول: «تعال بسرعة لنضحك معاً». نضحك، بالطبع، على تصرفات أقاربها الذين آلوا على أنفسهم إلا أن يزوجوها. بيد أنها، المسكينة المستضعفة، تخشى من كل شيء. فقد يفلحون أخيراً في تضليلها، فتحيد عن الطريق المستقيم. والأدهى من ذالك أنهم

سينهشونها إذا رأوها عصية على أحابيلهم، فتعيش وحيدة بين الأعداء. ليكن واضحاً لك أن زواجها هناك يعني الهلاك والموت بالنسبة لها. وأنا أعرف لو كان هناك أدنى أمل في مصيري لعادت إليها الروح وانتعشت معنوياتها، ولسافرت إلى بارناول أو آستراخان بعد الحصول على رسالة بالموافقة من والدها. أما بخصوصي أنا فبالطبع كنا سنتمتع بالسعادة. وبالزواج مني تكون مدى العمر محاطة بأناس طيبين يكنّون لها احتراماً أكثر مما لو كانت مع ذلك الموظف. وأنا نفسي سأكون موظفاً ربما في القريب العاجل. أنا على يقين بأنني قادر على إعالة الأسرة. فسأعمل، سأكتب. وحتى لو لم تصدر أي مرحمة أو عفو يمكن على أية حال الانتقال إلى الخدمة المدنية والحصول بسرعة على وظيفة من الدرجة 14 واستلام راتب. والأهم أنني أستطيع أن أنشر، حتى ولو باسم مستعار. وستكون عندي نقود. وأخيراً، فإن ذلك كله سيتحقق ليس الآن، وحتى ذلك الحين تستقيم الأمور. هل تعلم بماذا أجبتها وماذا طلبت منها؟ ما دامت لن تتمكن من الزواج قبل انتهاء فترة الحداد، أي قبل سبتمبر، فينبغي لها أن تنتظر ولا تعطي لذاك (الرجل) وعداً قاطعاً. وإذا لم تستقم أموري قبل سبتمبر فيمكنها، على الرحب والسعة، أن تعلن موافقتها. ألا توافقني بأنني حتى لو تصرفت معها بأنانية ودناءة ما كان بوسعي أن ألحق بها ضرراً من خلال طلبي الانتظار حتى سبتمبر؟ زد على ذلك أنها تحبني. مسكينة. إنها تتعذب. فهل يليق بها وبقلبها الضعيف وفطنتها وذكائها أن تعيش حياتها كلها في كوزنيتسك مع شخص لا يعرف أحد حقيقته؟ إنها في وضع مثل بطلة روايتي «الفقراء» التي تزوجت من بيكوف، ويبدو أنني توقعت لنفسي هذا المصير. يا عزيزي، أكتب لك ذلك كله لكي تعمل من صميم القلب والروح لمساعدتي. أملي فيك

كأملي بأخي. وإلا سأقدم على المحذور. فما حاجتي إلى الحياة عندئذٍ؟ أقسم لك أنني سأقدم حينها على فعل جلل. أستعطفك يا ملاكي. إذا كنت ستحتاج إلى شخص يتبعك في السراء والضراء فهذا الشخص جاهز ومستعد. وهو أنا. أنا لا أترك من أحب لا في السراء ولا في الضراء، وقد أثبتُ ذلك، ولذا أقدم الطلب الرابع، وأنت ملاكي. باللّه عليك لا تضيع الوقت واكتبْ لها رسالة على عنوان كوزنيتسك وأوضح لها كل آمالي بمزيد من الدقة والجلاء. وخصوصاً إذا كان هناك شيء إيجابي بشأن تغيير مصيري، فاكتب لها عن ذلك بكل التفاصيل، وعندذاك تنتقل بسرعة من اليأس والقنوط إلى الثقة، فتعود إليها الروح بسبب الآمال. اكتبْ لها الحقيقة، والحقيقة وحدها. المهم أن تكتب بالتفصيل. وهذا شيء يسير. اكتبْ على هذه الصورة: «نقل إليّ فيودور ميخائيلوفيتش تحياتك، فهي تحييك وتتمنى لك السعادة. ولعلمي بأنك تشاطرين فيودور ميخائيلوفيتش مصيره أسارع لأبعث السرور في نفسك، فثمة أخبار وآمال له في كذا وكذا...». وتقول في الختام: «فكرت فيك كثيراً. تعالي إلى بارناول وسيستقبلونك هناك بحفاوة وترحاب»، وما إلى ذلك. بهذه اللهجة اكتبْ لها. ثم أنها قالت لي إنك عندما غادرت كتبت لها. وهي مسرورة جداً وممتنة لأنك لم تنسها، لكنها تقول إنه ليس واضحاً من رسالتك ما إذا كانت سترتاح في بارناول، وإنك لا تكتب عما إذا كانت بارناول موافقة على مجيئي. ولذلك فهي لا تدري هل سيستقبلونها بأسف كمتسولة عندما تصل إلى هناك؟ صحيح. لقد كنتَ مهموماً ومنفعلاً عندما كتبت لها بإيجاز وعلى الماشي. أنا أفهم ذلك ولا أعاتبك عليه. ولكن، باللّه عليك، صحح الموقف هذه المرة. افعل ذلك من أجلي، من أجلي يا ملاكي. يا أخي، يا صديقي.

أنقذني من اليأس القاتل. فأنت يمكن أن تفهمني أكثر من أي إنسان آخر.

وأخيراً، لوجه المسيح، بلّغني عن مجمل سير أموري بأكبر قدر من التفصيل وبأسرع ما يمكن. وأنا أعتمد عليك تماماً في ذلك. أقنع أخي بأن يساعدني، وتعامل معه كأنك تتشفع لي. أوحِ له بأنني سأسعد في الزواج منها، وأننا لسنا بحاجة إلى الكثير لنعيش، وأن لدي من الطاقة والقوة ما يكفي لإعالة الأسرة. ماذا لو سمحوا لي بالكتابة والنشر؟ عندذاك أحصل على طوق النجاة، ولن أكون عالة على أحد ولن أطلب منهم أن يساعدوني. والأهم أنا سأتزوج ليس الآن، بل سأنتظر ما يتوفر من رخاء. وهي ستنتظر بكل سرور، لا يعوزها سوى الأمل في انتظام مصيري. وقل له إنني في الخامسة والثلاثين ولدي من التعقل ما يكفي لعشرة أشخاص. وداعاً يا عزيزي، يا صديقي الغالي. لا مؤاخذة، نسيت. باللّه عليك تحدث مع أخي عن أموري المالية. أقنعه بأن يساعدني للمرة الأخيرة. وأنت تعرف الوضع الذي أنا فيه. لا تتركني. فالملابسات التي أعيشها تصادف مرة واحدة في العمر. ومتى تمتد يد الصديق إن لم يكن في مثل هذا الضيق؟ أعانقك وأقبّلك. عموماً، كيف أحوالك؟ أنا لا أعرف شيئاً عنك. أنتظر رسالة منك بفارغ الصبر. أختتم الرسالة بأسف. وأنا من جديد وحيد مع دموعي وشكوكي وقنوطي.

اكتبْ لي رجاءً: كاترينا أوسيبوفنا هيرنغروس(8) في بطرسبورغ أم لا؟ اسألها عن قضيتي وعن أمور عيسايفا (في بارناول). وداعاً، أعانقك مع قبلاتي مرة أخرى. أنت أملي، أنت منقذي!.

المخلص د (وستويفسكي)

---

(1) عيسايفا.

(2) نهر عظيم في سيبيريا.

(3) في حرب القرم 1853-1856.

(4) عن الحركة الوطنية في روسيا.

(5) المقصود فكرة رواية كوميدية لم يحققها دوستويفسكي.

(6) لمناسبة عيد الجلوس. وتوقيع الصلح. وسبق لدوستويفسكي أن نظم قصيدة في عيد ميلاد الإمبراطورة.

(7) أندريه. وقد بقي رهن التوقيف قرابة أسبوعين (أبريل- مايو 1849).

(8) سبق لهذه السيدة أن ساعدت دوستويفسكي، وهو يأمل الآن في مساعدتها وزوجها.



48. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 24 مارس 1856

أخي وصديقي الطيب ميشا[1] الغالي. هذه الرسالة يسلمك إياها ألكسندر يغوروفيتش فرانغيل. أكتب إليك، وأترك التفاصيل لألكسندر يغوروفيتش الذي ستتعرف عليه جيداً باعتقادي. سطور الرسالة المعدودات لن تتسع لكتابة الكثير، يا صديقي الطيب القلب. وبودّي لو أراك وأتحدث إليك، في مناجاة بين قلبين، عن كل ما يشغل بالي ويعذبني حالياً. أقول لك لم تشهد حياتي مرة مثل هذا القدر من الحزن والكآبة والقنوط. أنا أنشد مساعدتك، فلا تتركني في هذه اللحظة على الأقل. ألكسندر يغوروفيتش سيحدثك الكثير. في الرسالة التي يحملها إليك كتبت عن السيدة التي تعرفت عليها في سيميبالاتينسك، وقد انتقلت مع زوجها إلى كوزنيتسك، وتوفي الزوج هناك. كما كتبت لك عن آمالي وعن حبنا. يا صديقي العزيز، هذا التعلق، هذه العاطفة تجاهها، هما بالنسبة لي كل شيء في الدنيا. أنا أعيش وأتنفس بأنفاسها ومن أجلها وحدها. عندما افترقنا قطعنا

الوعود والعهود على أنفسنا. ووعدتني بأن تكون زوجة لي. وهي تحبني، وقد دللت على حبها بالبرهان. إلا أنها الآن وحيدة من دون معين. والداها بعيدان، وهما يساعدانها بالمال، وعندما رأت أن مصيري لم يتقرر من أمد طويل وليس هناك شيء مما كنا ننتظره أنا وإياها وأن تخفيف مصيري لا يزال موضع شك وارتياب، مع أني متأكد منه، انساقت لليأس والقنوط، وغرقت في الكآبة والأحزان، زد على ذلك أنها مريضة. وتتعرض في تلك المدينة الصغيرة للدسائس والنميمة ولضغوط تدفعها للزواج. الكل هناك صاروا بمثابة كوتشكاريوف.[2] وإذا لم تعط عهداً بالزواج يناصبونها العداء، ويحيدون بها عن الطريق القويم ويشددون على عجزها. . وأخيراً كتبتْ لي عن ذلك بعد أن كانت تخفيه أمداً طويلاً. كتبت تقول إنها تحبني أكثر من أي مخلوق آخر في الدنيا، وإن احتمال الزواج من غيري مجرد افتراض آخر لا أساس له من الصحة، لكنها تسألني: «ما العمل؟» وتستعطفني أن لا أتركها في هذه اللحظة الحرجة من دون نصح أو إرشاد. وقع هذا الخبر عليّ وقع الصاعقة. ونهشتني الآلام. ماذا لو نجحوا في تضليلها؟ ماذا لو أهلكت نفسها بزواجها من عبيط فظ، موظف بليد؟ لن تقوم بذلك إلا من أجل رغيف خبز لها ولابنها. ولكن كيف تبيع نفسها ولديها حب آخر في القلب؟ وكيف سيكون حالي أنا؟ ربما نحن في عشية تحول ما في مصيري وتنظيمه بشكل جديد. ذلك لأنني مؤمل لدرجة لا تجيز لي أن أتخلى عن الأمل. وإذا لم أتمكن الآن فإنني سأحقق في زمن ما تنظيم أموري بالكامل. حالياً القليل يمكن أن ينقذنا كلينا إذا تعذر تحقيق كل المطلوب. وهذا القليل ممكن أصلاً في القريب العاجل. حتى أنني وجدت هنا من هو

على استعداد لتوظيفي، في حين من الممكن دوماً الانتقال من الخدمة العسكرية إلى المدنية. ويمكن أن ينقلوني إلى المرتبة 14. وقد أملوني، على سبيل المثال، بأنهم يمكن أن ينسبوني إلى سلك الضباط في العام القادم. وسأحصل على وظيفة وراتب. وحتى لو لم تصدر مرحمة هذا الصيف وتفشل كل الجهود المبذولة من أجلي فإن مثل هذا الانتقال إلى الخدمة المدنية من شأنه أن يعدل أحوالي نهائياً. ثم إن هناك ما هو بالإمكان. وأخيراً سيكون الراتب بالطبع قليلاً، إلا أنني أستطيع أن أكسب النقود بنفسي، وسأسعى إلى جعلهم يسمحون لي بالنشر. ألم ينشر بوليجايف ومارلينسكي؟! وعندذاك سأكون مؤمَناً، بل وغنياً بمعايير هذه الأنحاء. فأنا أنتظر من الأدب الكثير. تصور أن مؤلفاً رائعاً مثل «الفقراء» سيجلب انتباه الجميع إليّ، بل وأكثر. ثم إذا رفضوا طلبي هذا الشتاء بالسماح بنشر الرواية والمقالة اللتين أعكف عليهما الآن، إذا رفضوا رغم اعتقادي بأنني سأحصل على هذا السماح، فيمكنني في العام الأول من الزواج تأمين حياتي والعيش من دون أن أطلب منك، على سبيل المثال، أن تساعدني، لأنه لو تغير مصيري على نحو ما فأنا أنوي الطلب من خالي أن يساعدني لأبدأ بحياة جديدة، ناهيك عن الزواج. وسيعطيني. أنا واثق بذلك. والآن احكم بنفسك على أوضاعي. لا بد لي أن أعطيها أملاً وأقنعها وأنقذها. أنا بعيد عنها، والأمور لا تسوّى بالرسائل. أرجوك أن تفهم مدى يأسي وقنوطي. أرجوك، يا أخي، لوجه المسيح كن أخاً لي وافهم أن تلك ليست عاطفة ابن العشرين وأنني في الـ 35 تقريباً، وسأموت من الهم والغم إذا فقدتها. كما أرجوك أن تفهم أنني أريد أن أكرس حياتي كلها لجعلها سعيدة. أنا لا أستطيع أن أصف لك

آمالي ولا قنوطي. نحن وإياك لم نلتقِ من ست سنين أو يزيد. فهل سنفهم بعضنا البعض بالشكل المطلوب كأخ يفهم أخاه؟ هل تحبني كما كنتَ في الماضي؟ ألم تتغير؟ أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك. يا صديقي وملاكي. لدي أمل وثقة بأنك أخ لي. فأنقذني. ساعدني. عندي رجاءان إليك. أحدهما تافه، والآخر مهم. ولكنهما كليهما لو نفذا لساعداني ولكان لك فضل عليّ، هل أنت سامع يا أخي؟ فضل عليّ. ها هما الرجاءان. أستعطفك لا تهملهما، بل نفّذهما بأسرع ما يمكن. تذكر ما يمكن أن يحصل، وسأكون نافعاً لك. فأنا لم أنسك في اللحظة الحرجة. وأنت تعرف أني أحبك. فساعدني يا أخي وملاكي. هل يعقل أن الجميع، قاطبة، يتركونني وحدي. الطلب الأول الذي أرجوه منك هو الآتي: عندها ابن، صبي في الثامنة من العمر. وعندما توفي زوجها استولى عليها يأس فظيع وقلق شديد بشأن مصير ابنها، كونها أماً مهجورة في أطراف الدنيا وهي امرأة على أية حال. وقد أعطيتها أنا أملاً. أبوها العجوز كتب لها بأنه لن يترك حفيده، وسيدخله المدرسة ثم الجامعة. وهي تفكر: ماذا سيحصل لو قضى العجوز نحبه؟ فمن يعيل ابنها حينئذٍ؟ ولذا تعتقد أن الأفضل إدخاله مدرسة سلك الضباط التي تتوفر فيها حالياً تربية رائعة والحكومة لا تترك تلاميذها مدى العمر، حتى في أثناء الخدمة، طالما تكفلت برعايتهم. ووفقاً لمنصب أبيه لا يجوز تنسيبه إلا لسلك بافلوفسكي. وأنا موافق على رأيها تماماً، وقد قلت لها إن نسيبنا غولينوفسكي يشغل منصباً كبيراً في هذا السلك ويمكنه أن يرعى الصبي خصيصاً ويهتم بتربيته الأخلاقية، وإنكَ بصفتك شقيقي، لن ترفض طلبي الملح في اصطحاب الصبي إلى بيتك ولو أحياناً في الآحاد.

وبذلك لن يبقى الصغير يتيماً تماماً، وسيتردد على دار محترمة يرى فيها قدوة السلوك، وستكون الأم بالتالي مطمئنة على تربية طباعه وأخلاقه. عندما وعدتني بالزواج أكدتُ لها أنني سأسعى عند أقربائي لرعاية ابنها، وفي حال تمكنها من تنسيبه إلى سلك بافلوفسكي، وستقوم بذلك بنفسها دون أن تثقل على أحد، فإن أقربائي، الذين سيكونون على نحو ما أقرباء لابنها، سيُبدون به اهتماماً أكبر وأكثر دفئاً. وقد شعرتُ بارتياح عميق لهذا الرأي بعد أن كانت، المسكينة، غارقة في الأحزان. وأقول لك، يا عزيزي، إن أملي فيك كان بالفعل قوياً. فماذا سيكلفك أن تأخذ الصبي أحياناً إلى البيت في الآحاد؟ لن ينتزع هذا اليتيم المسكين الطعام من فمك. في حين سيهبك اللّه المزيد من رحمته لرعايتك له. زد على ذلك أن والدَي هذا الصبي أحاطا بالرعاية أخاك عندما كان في المنفى تعيساً مهجوراً في آخر الدنيا وقد تركه الجميع. لقد وفرا له، كفرد من العائلة، الطعام والشراب والعناية التي جعلت أيامه معهما سعيدة. ثم إن انتساب الصبي إلى السلك لن يتم قريباً، ذلك لأنه في الثامنة من العمر فقط. والآن افهمني: أريد أن أطلب منك أن تكتب لها بهذا المعنى. على النحو التالي: «السيدة المحترمة ماريا دميتريفنا! أخي فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي كتب لي مراراً كيف استقبلتِه أنت والمرحوم زوجك في سيميبالاتينسك بذلك الترحاب وتلك المشاعر الحميمة. وتعوزني الكلمات للتعبير عن الامتنان لكم على ما قدمتموه للمنفي المسكين. أنا شقيقه، ولذا أشعر بكل تلك الأحاسيس. كنت من زمان أريد أن أعبّر عن شكري لك. وقد أبلغني أخي أنك تنوين تنسيب ابنك عندما تكتمل سنه إلى فيلق بافلوفسكي. فإذا انتسب إلى

هذا الفيلق وإذا تمكنتُ من تخفيف شعور الصبي بالوحدة حيث يفتقد الأقرباء والمعارف في بطرسبورغ فسيكون من دواعي سروري، صدقيني، أن أخفف عليه وحدته، خاصة وأنني سأستطيع بذلك أن أردّ الجميل وأعبّر لكم عن خالص الامتنان على حفاوة استقبالكم لأخي في منزلكم. صدقيني مرة أخرى أن كل ما كتبه شقيقي عنكم وعن التعرف على عائلتكم بعث الارتياح العميق في نفسي وملأ فؤادي بالمسرة والفرحة لأخي المسكين. لا أمتلك الكلمات الكافية للتعبير عن احترامي العميق لكم. المخلص، وإلى آخره».

في هذا الموضوع أرجو أن تكتب لها باختصار وبصيغة أفضل. أرجو أن تفهم ما تستطيع أن تفعله من أجلي، لا سيما وأن ذلك لن يكلفك شيئاً. وبالتالي ستمنحها أملاً، فترى أنها ليست وحيدة. والأهم أنك ستساعدني أكثر مما تتصور في ترتيب أموري. ذلك لأن ميل أقاربي إليها أمر في منتهى الأهمية حالياً، فقد أبلغتها بأني كتبت لك عن احتمال زواجنا. بديهي أن هذا الزواج يجب أن يبقى طي الكتمان. العنوان كالآتي: جناب السيدة ماريا دميتريفنا عيسايفا، مدينة كوزنيتسك، محافظة تومسك.

لوجه المسيح، قم بذلك، يا أخي، من أجلي. أكرر: إنك تفعل الخير لي. أستعطفك وأركع أمامك. لا تقتلني برفضك. والطلب الثاني مهم. كنت قد كتبت لك، يا صديقي، بأنني في عوز فظيع وطلبت منك 100 روبل فضي. ولكن لا خبر جاء ولا وحي نزل. يا إلهي! هل مللت مني؟ وهل أنت مسرور لتتخلص مني نهائياً، فيما أكتب لك رسالة بهذه الحرارة؟ لكنني أتجرأ على الكتابة مرة أخرى وأطلب منك مساعدة كبيرة. يا صديقي. أنا بحاجة إلى مبلغ كبير أخشى أن أذكره. لكنني أطلب منك للمرة الأخيرة، بعدها لن أزعجك

أبداً مدى العمر، وسأعيد لك المبلغ كاملاً حالما يبتسم لي الحظ.

إضافة إلى تلك الـ 100 التي طلبتها منك، أنا بحاجة إلى 200 روبل. اسمعني يا أخي. هل تتذكر الفترة التي تزوجتَ فيها؟ ألم أتقاسم معك آنذاك بآخر ما عندي؟ أعرف، ولا تلمني على الجحود. لقد أعطيتني الكثير من النقود طوال حياتي. وإن ما أعطيتك إياه لا يساوي شيئاً بالمقارنة مع ما أعطيتنيه. كل شيء جيد في الوقت المناسب. ثم هل يعقل أنك تستطيع أن تمتنع عن مساعدة أخيك في ساعة المحنة؟ افهم الآن: لم أمر في حياتي أبداً بفترة في مثل هذه الفظاعة. هذه النقود من شأنها أن تساعدني في أحرج الملابسات. إذا لم تستطع إرسال 300 أرسلْ 200. أَرسلْها باللّه عليك. لن أزعجك بعد الآن.

أنا آمل في تغير مصيري، ويقيناً أنني سأكسب لقمة عيشي بنفسي قريباً. وأريد أن أقول لك، يا أخي، شيئاً آخر، لكنني في حزن شديد، شديد جداً. هل يعقل أنك، يا أخي، تبدلت عليّ؟ ما هذه البرودة وعدم الرغبة في الكتابة إليّ؟ في 7 أشهر ترسل النقود مرة ورسالة في 3 أسطر. كأنما صدقة. أنا لا أريد صدقة، أريد أخاً. فلا تهنّي يا صديقي. أنا إنسان تعيس، تعيس جداً. أنا هالك الآن، ممزق. روحي تنوح حتى الموت. لقد عانيت طويلاً. 7 سنوات من مرارة وآلام تفوق الوصف. ثم هناك حد للآلام على أية حال. قلبي ليس من حجر. لقد طفحت الكأس. يا ملاكي، إذا كنتُ أهنتك بملامتي، أو تجنّيت عليك، فاغفر لي، أركع أمامك فاغفر لي. لا تزعل مني، أنا لا أكاد أتحمل. لا تشح بوجهك عني، ساعدني واسمع ندائي.

تحيات صادقة وضاءة للأخت إميليا، وللعائلة كلها. أرجوك،

لوجه المسيح، لا تخبر أحداً بنيتي في الزواج. اكتبْ رسالة إلى ماريا دميتريفنا بأسرع ما يمكن، ولا تتماهل. وضمّنها المزيد من الاحترام. فهذه المرأة تستحق الاحترام.

(أخوك)

---

(1) تصغير ميخائيل للتحبيب.

(2) بطل ملهاة غوغول «الخطوبة».



49. إلى إدوارد توتليبين

سيميبالاتينسك، 24 مارس 1856

معالي السيد إدوارد إيفانوفيتش

أستميحكم عذراً على تجرؤي لإشغال بالكم برسالتي. وأخشى أنكم ستلقون نظرة على التوقيع وعلى اسمي المنسي من قبلكم، أغلب الظن، مع أنني تشرفت في الماضي البعيد أن أكون معروفاً لديكم، فتزعلون مني ومن وقاحتي وترمون الرسالة في سلة المهملات دون أن تقرأوها. أستعطفكم أن تتسامحوا معي. ولا تتهموني بأنني لا أفهم البون الشاسع بين مكانتكم ومنزلتكم وبين موقعي. فقد مررت في حياتي بالكثير من التجارب المحزنة، ولا بد لي، والحال هذه، أن أفهم الفارق بيننا. كما أنني أفهم جيداً أنه لا يحق لي مطلقاً أن أذكر الآن بأنكم كنتم تعرفونني في زمن ما، لأتخذ من ذلك مبرراً ولو ضئيلاً لجلب انتباهكم. إلا أنني تعيس لدرجة جعلتني أعوّل عفوياً على الأمل في أنكم لن تسدوا باب قلبكم الكبير أمام منفي هضيم، فتمنحونه ولو دقيقة واحدة من اهتمامكم، لعلكم تنصتون بطيبة خاطر إلى ما يقول.

لقد رجوت البارون ألكسندر يغوروفيتش فرانغيل أن يسلمكم هذه الرسالة. فهو عندما كان هنا، في سيميبالاتينسك، فعل من أجلي ما لا يستطيع الأخ أن يفعله من خير لأخيه. وكنت سعيداً كل السعادة لصداقته. وهو يعرف جميع ملابسات قضيتي. وطلبت منه أن يسلمكم رسالتي شخصياً. وهو يحترم طلبي وإن لم يكن قد تشرف بمعرفتكم، ولا أنا أستطيع أن أؤكد له أنكم ستقبلون رسالتي بتسامح. الشكوك في قلب شخص محكوم بالأشغال الشاقة أمر في طبيعة الأشياء. ولدي رجاء كبير إليكم يحدوني أمل متردد في أنكم ستستمعون إليه.

لعلكم سمعتم باعتقالي ومحاكمتي وبالقرار السامي الذي أعقب الدعوى التي كنت متورطاً فيها عام 1849. ولربما كنتم قد أبديتم بعض الاهتمام بمصيري. وأستند في افتراضي هذا إلى أنني كنت على علاقة صداقة وطيدة مع شقيقكم الأصغر أدولف إيفانوفيتش، وكنت أحبه حباً جماً من سني الطفولة تقريباً. وعلى الرغم من أنني لم ألتقه في الآونة الأخيرة، إلا أنني على ثقة بأنه آسف عليّ، ولربما نقل إليكم قصتي الحزينة. لن آخذ من وقتكم للحديث عن ذلك. كنت مذنباً، وأدرك ذلك تماماً. تم تجريمي بنية العمل ضد الحكومة. بالنية فقط لا أكثر. وحكم عليَّ قانوناً ووفقاً للعدالة. وكانت التجربة المريرة الأليمة الطويلة الأمد قد أعادتني إلى رشدي وغيرت أفكاري بقدر كبير. ولكنني عندما كنت أعمى آمنت بالنظرية الطوباوية. وعندما سفروني إلى سيبيريا ظلت لدي على الأقل وسيلة واحدة لتهدئة النفس، وهي أنني تصرفت أمام المحكمة بنزاهة ولم ألق بجريرتي على غيري، بل ضحيت بمصلحتي عندما رأيت أن إمكانية الاعتراف من شأنها أن تحمي الآخرين من المحنة. إلا أنني ألحقت الضرر بنفسي، فلم أعترف بكل شيء، ولذلك تلقيت عقاباً أشد. كان بوسعي

أن أقدم بعض التبريرات. فقبل الحادث كنت مريضاً لعامين على التوالي. وكان مرضي نفسانياً غريباً. استولت عليَّ السوداوية، وكانت هناك فترات فقدت فيها عقلي. كنت سريع الانفعال والتأثر النفساني المرضي الشديد، حتى كنت أشوِّه أبسط الوقائع وأضخّمها وأبالغ في أحجامها وأضفي عليها مظهراً مغايراً. ورغم أن هذا المرض أثر كثيراً وبصورة سلبية على مصيري، إلا أنني شعرت بأنه سيكون تبريراً سيئاً جداً، بل ومهيناً. علماً بأنني لم أفهم هذا الأمر جيداً آنذاك. لا مؤاخذة على ذكر هذه التفاصيل، فتكرموا عليّ بالتسامح واستمعوا إليّ حتى النهاية.

وحلت الأشغال الشاقة بالنسبة لي. 4 سنوات من الزمن الحزين الفظيع. عشت مع قطاع الطرق، مع أناس يفتقرون إلى المشاعر البشرية، بعاداتهم اللاأخلاقية الممسوخة، ولم أشهد، وما كان بوسعي أن أشهد، خلال هذه السنوات الأربع أي فرحة ما عدا الواقع الأسود الحالك والبشع للغاية. ولم يكن قربي أي كائن حي أتفوَّه أمامه بكلمة روحية واحدة. تحملت الجوع والبرد والمرض والعمل الذي فوق طاقة الإنسان، وصبرت على كراهية زملائي قطاع الطرق الذين ثأروا مني لأنني كنت ضابطاً من فئة النبلاء. ولكن، أقسم لكم أنه لم يكن هناك عذاب أشد من العذاب الذي أصابني عندما فهمت ضلالاتي، وأدركت في الوقت ذاته أنني منقطع عن المجتمع، وأنني منفي ولا أستطيع أن أقدم نفعاً على قدر المستطاع ووفقاً لرغباتي وقابلياتي. أنا أعرف أنني حُكِمتُ بعدل، لكنني عوقبت على الأحلام والأمنيات النظرية. . . .

الأفكار، وحتى المعتقدات، تتغير، ويتغير الإنسان نفسه، فلماذا نعاني الآن بسبب ما لم يعد موجوداً؟ بسبب ما تغير في داخلي إلى

عكسه؟ لماذا نعاني بسبب الضلالات السابقة التي أرى بطلانها بنفسي الآن؟ لماذا نشعر بالقوة والقدرة على القيام بشيء ما من أجل التكفير عن لاجدوى الماضي ونبقى عاطلين بلا نفع ولا فائدة؟

أنا الآن جندي عادي أخدم في سيميبالاتينسك، وقد تمت هذا الصيف ترقيتي إلى ملازم ثان. أنا أعرف أن الكثيرين حاولوا ويحاولون بصدق مشاطرتي في مصيبتي، وقد تشفّعوا لي وترجوا (السلطات). وأملوني ولا يزالون يؤملونني. القيصر رحيم طيب القلب. ثم إنني أعرف أن الشخص الذي عزم على إثبات نزاهته ويريد أن يعمل المعروف يجد صعوبة في جهوده، ولكنه لا بد أن يحقق هدفه في وقت ما. وأنا أيضاً أستطيع أن أفعل شيئاً ما. فلست عديم المواهب، ولدي مشاعر وقواعد! لي رجاء كبير وعظيم إليكم، يا إدوارد إيفانوفيتش. الشيء الوحيد الذي يؤذيني هو أنني لا أملك الحق في إزعاجكم بقضيتي. إلا أنكم بقلب متسامح نبيل. والكلام عن ذلك غير محظور. فقد أثبتم هذا الواقع مؤخراً بكل جدارة، على مرأى من العالم كله.[1] وقد حالفني الحظ من زمان، قبل الآخرين، أن أسمع هذا الرأي من الناس عنكم، فتعلمت احترامكم من وقت طويل. لكلمتكم أهمية كبيرة الآن عند قيصرنا الرحيم الممتن لخدماتكم والمحب لكم شخصياً. تذكروا المنفي المسكين وساعدوه. أنا أريد أن أكون نافعاً. من الصعب تفادي المعاناة من العطالة ما دام في الروح طاقة وعلى الكتفين دماغ. إلا أن الرتبة العسكرية ليست المضمار الذي أطمح إليه. أنا مستعد لبذل قصارى الجهود، لكنني مريض، وإلى ذلك أنا أشعر بأنني أميل إلى مضمار آخر يتناسب أكثر وقابلياتي. كل أحلامي أن أتسرح من الخدمة العسكرية وأنتسب إلى الخدمة المدنية في مكان ما في روسيا، أو حتى هنا وأحصل على

بعض الحرية في اختيار مكان الإقامة. ولكني لا أعتبر الخدمة الهدف الرئيسي لحياتي. في زمن ما انتعشت آمالي باستقبال الجمهور لي وميله إليَّ على صعيد الإبداع الأدبي. بودّي أن أحصل على سماح بالنشر. وثمة أمثلة على ذلك. فالسجناء السياسيون حصلوا، بناء على الاهتمام والرحمة بهم، على سماح بالكتابة والنشر قبلي. إنني أعتبر مهنة الكاتب أكثر المهن نبلاً ومنفعة. وأنا على يقين راسخ بأن هذا هو الطريق الوحيد الذي يمكنني بسلوكه أن أغدو إنساناً نافعاً، وقد أحظى ببعض الاهتمام وأستعيد كرامة اسمي وأؤمن على الأقل تكاليف معيشتي، لأنني لا أملك شيئاً ربما سوى بعض القابليات الأدبية القليلة جداً. ولا أخفي عليكم أنه بالإضافة إلى رغبتي الراهنة في تغيير حالي إلى حال أخرى تستجيب أكثر لطاقاتي ثمة سبب، شخصي صرف، ربما تتوقف عليه سعادة حياتي كلها، دفعني على التجرؤ لتذكيركم بقضيتي. أنا لا أطلب كل شيء دفعة واحدة، بل أقتصر على إمكانية التسريح من الخدمة العسكرية وحق الانتقال إلى الخدمة المدنية.

عندما تقرأون طلبي هذا لا تتهموني بالجبن أو التخاذل. فقد تحملت الكثير من الآلام لدرجة أثبتّ فيها إمكانية تحمُّلها والصبر عليها، بل وحتى بعض الرجولة في ذلك. لكنني الآن منهار المعنويات، وأنا نفسي أتلمس هذا الانهيار. كنت دوماً أعتبر من الجبن أن أشغل بوجودي بال الآخرين، أياً كانوا. ناهيكم عن إشغال بالكم بقضيتي. ولكنني أستعطفكم أن ترحموا حالي وتشفقوا عليّ. لقد تحملت مصيبتي ببسالة لحد الآن. إلا أن الملابسات قهرتني حالياً، ولذا عزمت على المحاولة، مجرد محاولة. أقسم لكم أن فكرة الكتابة إليكم والطلب منكم مساعدتي لم تخطر في بالي سابقاً. فقد

كان من المخجل والصعب، على أية حال، أن أذكركم بقضيتي. وكنت في الآونة الأخيرة أتابع بشعور عظيم من الإيثار والإعجاب مأثرتكم البطولية. يا ليتكم تعلمون مدى اعتزازي بكوني قد تشرفت في حينه بالتعرف عليكم شخصياً. عندما عرف الموجودون هنا بذلك انهالوا عليَّ بالأسئلة، وكنت مسروراً جداً للحديث عنكم. وأنا لا أخشى الكتابة لكم عن هذا. فإن مأثرتكم المجيدة على كل لسان، ولا تعتبر كلمات الحديث عنكم تزلفاً إليكم. حامل رسالتي هذه يمكن أن يشهد على صدق مشاعري الخالصة تجاهكم. ومفهوم تماماً امتنان الروسي للذي وقف في ساعة المحنة للدفاع المهيب عن سيواستوبول مسطراً الأمجاد الأبدية التي لا تذوي. وأكرر هنا: لم يخطر على بالي أن ألهيكم بقضيتي. ولكنني الآن، في اللحظات الكئيبة، ولأني لا أعرف بمن أستعين، تذكرت كم كنتم ترحبون بي دوماً وتعاملونني بلطف وبساطة. وأنا أتذكركم على الدوام إنساناً باسلاً بقلب كبير نزيه، فازداد إيماني بالأمل. وفكرت: من غير المعقول أن تشيحوا عني الآن، حيث ارتقيتم إلى هذه الدرجة الرفيعة السامية وسقطت أنا إلى الحضيض. أستميحكم عذراً على جرأتي، وأرجو المعذرة بخاصة على هذه الرسالة الطويلة المسهبة. وإذا كنتم تستطيعون أن تفعلوا شيئاً من أجلي أستعطفكم أن تفعلوه.

كما لدي رجاء هام آخر أمل أن لا ترفضوه. ذكّروا أخاكم أدولف إيفانوفيتش بي عندما تحين الفرصة وبلغوه بأنني لا أزال أحبه كالسابق وأنني رأيته مراراً في ذكرياتي طوال 4 سنوات من الأشغال الشاقة، حيث كنت أستعيد في الدماغ ذكريات حياتي السابقة يوماً فيوماً، ساعة بساعة... وهو يعرف أنني أحبه. وأتذكر أنه كان مريضاً جداً في الآونة الأخيرة. فهل هو بصحة جيدة الآن؟ هل هو على قيد الحياة؟

وأستميحكم عذراً على هذا الرجاء أيضاً. فأنا لا أعرف من يستطيع أن يوصل له أخباري. ولذا توجهت بطلبي إليكم.

أنا أعرف أنني قمت بمخالفة أخرى لقواعد الخدمة بالكتابة إليكم. (فمن الغريب) أن يكتب جندي عادي لجنرال مرافق. لكن سماحة أخلاقكم شجعتني على ذلك.[2]

مع فائق الاحترام والتقدير وشعور الامتنان الخالص من روسي سيبقى الخادم المطيع لكم يا صاحب المعالي.

فيودور دوستويفسكي

---

(1) دوستويفسكي يقصد خدمات توتليبين في الدفاع عن سيواستوبول عام 1854.

(2) توسط الجنرال توتليبين، وكذلك الجنرال هاسفورت، لدوستويفسكي عند السلطات العليا، فقدما للكاتب مساعدة كبيرة في ترقيته من جندي عادي إلى ملازم ثان، ولم يحاولا طبعاً رفع الرقابة الأمنية عنه.

50. إلى ألكسندر فرانغيل

سيميبالاتينسك، 13 أبريل 1856

أسارع، يا صديقي العزيز، في الجواب على رسالتك[1] الطيبة الرقيقة التي كتبتها لي بتاريخ 12 مارس، وها هي تبعث السرور في نفسي لليوم الثالث. كنت أنتظر أخباراً منك بفارغ الصبر. إلا أنني في الآونة الأخيرة لم أعد آمل بوصول شيء منك قريباً، ذلك لأن ديمتشينسكي الذي وصل من روسيا قبل أسبوعين قال إنك تأخرت في قازان، ثم وصلت رسالة من موسكو إلى سبيريدونوف جاء فيها أنك وصلت إلى هناك قبل يوم أو يومين وتوجهت إلى بطرسبورغ في 9 مارس. وبناء على كل هذه الشائعات كنت أتوقع أن أستلم منك رسالة في عيد الفصح على أبعد تقدير، وها أنا أستلمها قبل ذلك. ربما لا تصدق مدى حاجتي إلى رسالتك وفرحتي بها. ولم يخطر في بالي أن أشك في استلامي لها وفي كونك لن تنساني وستحاول مساعدتي. أنا أعرفك وأعرف أن لديك أطيب قلب نبيل، وليس من قبيل الصدفة أني أودك كثيراً. ولعلك لا تصدق في أي حال كنتُ كل الفترة الأخيرة. . . لكنني سأكتب عن ذلك فيما بعد. وبحسب الترتيب أبدأ

برسالتك يا أطيب الأصدقاء. أنت تستهل الرسالة بقولك إنك لم تستطع أن تنسى محنتك العاطفية رغم وسائل الترفيه الكثيرة. نعم، أصدقك يا عزيزي، فهذه الأمور لا تنسى بسهولة. وأنا الآن صرت أعرف ذلك جيداً. ثم إنني عرفت الكثير مما لم أكن أتصوره في السابق. إلا أنني أعترف لك برغبتي الشديدة في معرفة ما بينكما حالياً. لأنه ليست لدي فكرة عن هذه الأمور منذ وصول رسالتك من يالوتوروفسك. والآن لديك بالطبع رأي حاسم بهذا الخصوص أغلب الظن، لأن هذه الفتاة، كما فهمت منك، قد وصلت إلى بطرسبورغ على الأرجح. على أية حال أنت الآن في أحضان العائلة، ويسرني جداً أنك تتواصل مع والدك بالتوافق. فأرجوك، لوجه المسيح، لا تخالف هذا التوافق. احسبْ حساب المستقبل وخذ بالاعتبار أن الوقت حان لك، في اعتقادي، لتقرير مستقبلك. أنا لا أريد طبعاً أن أقول بأن تتصرف بما يتعارض مع مشاعرك وأفكارك الفعلية. أنت مثلاً تقول إنهم يريدون تزويجك. لحسابات نفعية. فهل المال كل شيء في الحياة؟ هذا شيء معروف من زمان، ولا موجب للكلام عنه. كل شخص يتصرف بما يمليه عليه الضمير. والإنسان الكريم يتصرف ويحسب بما يمليه عليه الضمير. تقول، يا صديقي الطيب الغالي، إنك تتوقع المجيء إلى سيبيريا في يوليو وتمرّ (بمدينة سيميبالاتينسك. يمكنك أن تصدق بمدى فرحتي لأنك لم تغير نواياك وتريد العودة إلى سيبيريا، وبحلول الشتاء تتوقع العمل في بارناول. سأنتظرك انتظاري للشمس. ولكن، يا صديقي، ما صحة الإشاعات التي تنتشر عنك هنا؟ يقال إن آمر الفيلق عيَّنك في دائرته بمدينة أومسك، بصفة موظف للمهمات الخاصة، أي ما لم تكن راغباً فيه، وإنه استغرب كثيراً عدم مرورك بأومسك. ولذلك، ولكي تتحاشى هذا

التعيين، وإذا لم يتغير هذا القرار، ستبقى في بطرسبورغ ولا تأتي إلى هنا. على فكرة، إنك الآن تعرف ذلك. فقد كتبوا لك من هنا أليس كذلك؟ باللّه عليك، يا صديقي، لوجه المسيح بلّغني بالتأكيد إن أمكن. هل ستأتي أم لا؟ متى وإلى أين وبأي منصب تأتي إلى هنا؟ وكيف تنوي ترتيب أمورك في بطرسبورغ؟ ثم لماذا أنا أتلهف إلى رؤيتك؟ ذلك لأنني الآن أحوج ما أكون إليك، كحاجتي إلى الهواء، وقد كنتُ دوماً بحاجة إليك، أنا أتذكر ذلك. أنت قد لا تصدق مدى فرحتي لأن أخي أعجبك وأنك ستتواصل معه على ما أظن. تواصل باللّه عليك، ولن تأسف. وكم أنا مسرور لأنه لا يزال يحبني. لقد كتبت لك الكثير في رسالتي السابقة عن شكوكي حتى بشأنه. ولكن ليتك تعلم بأي حال كنتُ من الحزن والفزع. وها أنا أعرب عن أسفي على سوء ظني بأخي. قل له إني أقبّله، ولا أكتب له لأن الوقت لا يكاد يكفيني حتى للإجابة على رسائلك. سأبعث له قريباً رسالة رسمية أذكر فيها أنني حي أرزق وبصحة جيدة لا أكثر. فعماذا يمكن الكتابة في رسالة رسمية غير ذلك؟ ومع الرسالة القادمة إليك سأكتب له أيضاً. في الرسالة السابقة طلبت منه 100 روبل أخرى. ليس من أجلي، يا صديقي، بل لمن أعتبره أثمن وأعز ما في حياتي، والأهم تحوطاً للطوارئ. إذا كان يستطيع تلبية طلبي فليفعل، واللّه سيجزيه خيراً. وهو يمكن أن يسعدني بذلك ويخلصني من اليأس والقنوط. من يدري ماذا سيحصل؟ زد على ذلك أنهم إذا سمحوا لي بالنشر فستكون لدي نقودي وأبدأ حياة جديدة، ولن أزعج أخي، ولن أشعر بألم في القلب بسبب ذلك، لأن أخي نفسه يكسب لقمة العيش بجهوده. وقد كتبت لك، يا صديقي، أن تذهب إلى توتليبين وتسلمه رسالتي. وقد فعلتَ ذلك أغلب الظن. أنت لا تتصور ولا تسمع

وجيب قلبي وأنا أنتظر بفارغ الصبر ردك بهذا الخصوص. أشكرك سلفاً على كل ما تفعله من أجلي. ولكن، بالله عليك، لا تؤملني عبثاً من أجل تهدئة أعصابي. لا تكتب لي إلا الحقيقة، الحقيقة وحدها.

وقد طلبت منك ومن أخي أن تكتبا إلى ماريا دميتريفنا وبسرعة إن أمكن. وأكرر طلبي، راسلها لوجه الله. كتبتَ تقول إن هنالك نية لإصدار مرحمة لنا. ولكن ماذا على وجه التحديد؟ هذا سر من الأسرار. اعملْ معروفاً يا صديقي الغالي. ألا يمكن أن تعرف شيئاً بخصوصي سلفاً؟ فأنا بحاجة ماسّة إلى ذلك. إذا عرفت بلّغني في الحال. أنا لا أفكر في القوقاز، ولا في كتيبة بارناول. كل ذلك لم تعد له أهمية الآن. كتبتَ تقول إن الجميع يحبون القيصر. أنا نفسي معجب به أشد الإعجاب. وأعترف لك أن ترقيتي ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي شخصياً. ولكن إذا كنت سأنتظر سلك الضباط فسيطول الإنتظار. حبذا لو حصلت على شيء ما الآن في عيد الجلوس. ولعل أفضل إجراء سليم هو التشفع كي يسمحوا لي بالنشر. وأنا أفكر أن أزودك شخصياً في القريب العاجل بأشعار عن عيد الجلوس. كما سأرسلها بصورة رسمية أيضاً. ولعلك ستلتقي هاسفورت، فهو سيحضر احتفال الجلوس. ألا يمكنك أن تتكلم معه لكي يقدم قصيدتي بنفسه؟ هل يمكن القيام بذلك؟ أخبرني أيضاً لأي وقت يمكنني الكتابة إليك، لأنك إذا غادرت بطرسبورغ فليس من الحكمة أن تضيع الرسائل. لقد حدثتك عن مقالتي بخصوص روسيا. لقد باتت أشبه ببيان سياسي. ولم أكن أرغب في حذف ولا مفردة واحدة منها. من المستبعد أن يسمحوا لي ببدء النشر بمقالة هجائية، على الرغم من وطنية الأفكار الواردة فيها. لقد جاءت المقالة كالمطلوب، وكنت راضياً عنها. وكنتُ أبديت اهتماماً كبيراً بهذه المقالة، إلا أنني

تركتها. فمن المحتمل أن يمنعوا نشرها. وما الداعي لتبديد جهودي؟ الوقت صار ثميناً بالنسبة لي ولا يجوز أن أضيعه جزافاً بأن أكتب لنفسي وأرتاح لما أكتب. ثم إن الملابسات السياسية تبدلت.[2] ولذا شرعت بكتابة مقالة أخرى بعنوان «رسائل في الفن». صاحبة السعادة ماريا نيكولايفنا رئيسة الأكاديمية. وأريد أن أطلب سماحاً بتكريس مقالتي لها ونشرها مهملة من أسم الكاتب. مقالتي هذه ثمرة تأمل استغرق عشر سنوات. وقد فكرت في كتابتها منذ أن كنت في أومسك. ستتضمن الكثير من الأمور الأصيلة والساخنة. وأنا أتكفل بالصياغة الجيدة. ولربما لن يوافقني الكثيرون على بعض الأفكار. لكنني أثق بأفكاري. وهذا بحد ذاته يكفي. أريد أن أطلب من أبولون مايكوف أن يقرأ المقالة سلفاً. وستتضمن في بعض صفحاتها مقتطفات كاملة من المقالة الهجائية (الانتقادية المذكورة أعلاه). وسيكون موضوعها رسالة المسيحية في الفن. لكن المشكلة أين ستنشر؟ إذا طُبعت على انفراد لن يشتريها أكثر من 100 شخص. فهي ليست رواية. وفي مقابل نشرها في المجلات يدفعون نقوداً. إلا أن «المعاصر» كانت دوماً معادية لي. ومجلة «الموسقوفي» أيضاً. و«البشير» نشرت مقدمة لمقالة كاتكوف عن مؤلفات بوشكين تضمنت أفكاراً على طرفي نقيض مع أفكاري. ولا تبقى سوى «مذكرات الوطن»، ولكنني الآن لا أعرف ما يحصل «لمذكرات الوطن». ولذا أرجو أن تستفسر من مايكوف ومن أخي هل يمكن نشر المقالة مقابل أجور؟ ولكن تحدث معهما عنها بصفة مشروع لا أكثر. وبلّغني بجوابهما. والأهم أنني أعكف على كتابة رواية، وهي مبعث ارتياحي.[3] عن هذا الطريق فقط أستطيع أن أخلق لنفسي اسماً وأجلب الانتباه إليه. والأفضل بالطبع أن أبدأ بالمقالة الجدية عن الفن

وأطلب، بالاستناد إليها، سماحاً بالنشر، ذلك لأنهم لا يزالون يعتبرون الرواية شيئاً لا قيمة له. ويخيل إليَّ أنه إذا توفرت الفرصة للتوسط والتشفع بشأن نقلي إلى الخدمة المدنية، في بارناول تحديداً، فخير على خير، انتهز الفرصة وإذا أمكن الكلام بهذا الخصوص مع هاسفورت فيا ليتك تتكلم. وإذا أمكن الفعل وليس القول فقط فلا تفوت الفرصة وتشفع لي بالانتقال إلى الخدمة المدنية في بارناول. هذه أقرب وأصح خطوة بالنسبة لي. على فكرة، أنا أتفق معك تماماً بشأن ضرورة انتظار عيد الجلوس. اللّه أعلم، فلربما تكون النتيجة أكبر مما نتوقع. الموعد قريب، لكن اللّه يعلم كم من الأحداث قد تجري خلال هذه الفترة. أنا أقصد ملابسات حياتي التي تعرفها أنت.

يا ملاكي، كنتُ مغتماً ومنفعلاً، كنت أعاني من الحمى، عندما كتبت لك ولأخي في المرة السابقة. إليك ما كان في واقع الأمر، بعد أن اتضحت المسألة في العديد من جوانبها. وأظن أني كان يجب أن أكتب ذلك كله بعد ما كتبته في الرسالة السابقة. في عيد المرافع حضرتُ أمسيات وولائم، بل ورقصت فيها. وكان هناك سلوتسكي الذي لي معرفة به، وقد التقيته مراراً. وكتبتُ إلى ماريا دميتريفنا عن ذلك كله وعن رقصتي وعن بعض سيدات المنطقة. فتصورتْ أني أخذت أنساها وأهتم بالأخريات. وفيما بعد، حينما جاء وقت التوضيحات، كتبتْ لي أنها تعذبت لفكرة كون صديقها المخلص الأخير أخذ ينساها. كتبت تقول إنها تعذبت وتألمت، لكنها ما كانت تريد أن تبوح لي بأحزانها وشكوكها «حتى الممات». وأنا أفهم ذلك. فهي بقلب نبيل أنوف. ولذا كتبت تقول: «لقد فترت لهجتي عفوياً في رسائلي إليك. وصرت واثقة تقريباً بأنني أكتب ليس للشخص المطلوب الذي كان حتى الآونة الأخيرة يحبني وحدي». ولقد

لاحظتُ هذا البرود في رسائلها وتألمتُ كثيراً بسببه. وفجأة قيل لي إنها ستتزوج. يا ليتك تعلم ما جرى لي آنذاك. نهشني الألم. قرأت رسائلها الأخيرة وقادني برودها عفوياً إلى الشكوك، ثم إلى اليأس. وقبل أن يتسنى لي كتابة شيء لها عن ذلك استلمتُ الرسالة التي كتبتُ لك عنها في المرة السابقة، حيث تتحدث عن عجزها وعن وضعها المزري الغامض، وتطلب مني النصح عما ينبغي أن تفعله لو تقدم لطلب يدها شخص يتحلى بخصال حميدة. وبعد هذا التأكيد المباشر لجميع شكوكي لم يبق لي أن أشك أكثر. كل شيء واضح. والإشاعات عن زواجها صحيحة. فكانت تخفي الأمر عليَّ كيلا أتعذب. بقيت أسبوعين في لجة الآلام، في جحيم اللوعة، في اضطراب الأفكار وسخونة الدم لدرجة يصعب عليَّ حتى اليوم أن أتذكر ذلك الكابوس. أردت، والله، أن أفر إلى هناك لكي ألتقيها ولو لساعة واحدة، ولا قيمة لمصيري بعد ذلك. إلا أن ظل الأمل أوقفني. انتظرت ردها. فأنقذني هذا الأمل. وإليك ما حصل فيما بعد. فهي، المعذبة بالغيرة والأحزان بسبب الصديق الذي (خيل إليها أنها) فقدته، وفي جو الوحدة المطوقة بالأوغاد والحقراء، في جو المرض والوساوس والبعد عن الأهل دون أمل في أية مساعدة، قررت أن تتيقن من موقفي إزاءها، هل بدأتُ أنساها، أم بقيت كما كنت في الماضي؟ ولهذا الغرض كتبت لي متسائلة، بالاعتماد على بعض مما حصل في الواقع، بماذا ينبغي لها أن تجيب إذا طلب يدها شخص ما؟ ولو كنت قد أجبتها بلامبالاة لاتخذتْ من ذلك دليلاً على أنني نسيتها بالفعل. عندما استلمت رسالتها حررت لها رسالة يائسة رهيبة عذبتها أشد عذاب، وأتبعتها برسالة أخرى في البريد التالي.[4] كانت مريضة طول الوقت في الآونة الأخيرة، وقد زادت رسالتي في عذابها.

ولكنها على ما يبدو، مسرورة لكآبتي مع أنها متألمة عليّ. والأهم أنها تيقنت من رسالتي بأنني لا أزال أحبها بلا حدود. بعد ذلك عزمتْ على توضيح الأمور لي، بما في ذلك شكوكها وغيرتها ووساوسها، وبينتْ في الأخير أنها اختلقت فكرة الزواج لتتثبت من عواطفي تجاهها. ورغم ذلك لم يكن موضوع الزواج بلا أساس. أحد الأشخاص في تومسك كان بحاجة إلى زوجة، وعندما عرف بوجود أرملة لا تزال شابة نسبياً ومليحة برأي البعض في كوزنيتسك طلب يدها بجهود معارف سفلة كانوا يسيئون إليها طول الوقت. فقهقهتْ وأجابت الخطابة من كوزنيتسك إنها لن تتزوج من أحد هنا ولا موجب لإزعاجها بعد الآن. إلا أن أولئك لم يتراجعوا. فبدأت الغيبة والنميمة والإشاعات والتلميحات والتساؤلات: من هذا الذي تتراسل معه كثيراً؟ لديها هناك عائلة موظفين متواضعة وطيبة، وهي تحبهم. وقد قالت للموظفة إنها إذا أرادت أن تتزوج فلديها شخص تحترمه وقد طلب يدها تقريباً. كانت تقصدني لكنها لم تذكر اسمي. أعلنتْ ذلك وهي تعلم أن هؤلاء الناس، رغم طيبتهم، لن يصبروا على كتمان الخبر، ولا بد أن يعلنوه في كل مكان، وبالتالي عندما يعرف الآخرون بوجود خطيب يتركونها لحالها ويكفّون عن اقتراح غيره. ولا أدري هل هذه الحسابات صحيحة. فإن ابن بيشيخونوف الذي يخدم هناك كتب لوالده على أية حال أن ماريا دميتريفنا ستتزوج. فأشاع الأب الخبر في سيميبالاتينسك، ولذا كنتُ على يقين لبعض الوقت أن كل شيء انتهى بالنسبة لي. ولكن يا صديقي العزيز، ليتك تعرف مدى حزني الآن. أولاً، هي مريضة وأوغاد كوزنيتسك يعذبونها، وهي وسواسية تخشى كل شيء. أنا أغار عليها من أي اسم تذكره في رسالتها، وهي تخشى السفر إلى بارناول، فقد يعتبرونها هناك كالمتسولة ولا يرحبون بها،

بل يتكبرون عليها. وقد حاولتُ إقناعها بالعكس. وهي تقول إن الرحلة مكلفة، وإنها بحاجة إلى أثاث جديد في بارناول. هذا صحيح. أنا أكتب لها أني سأتقاسم كل النقود معها. وهي ترجوني بكل ما هو قدسي أن لا أفعل ذلك. وتنتظر جواباً من آستراخان حيث سيقرر والدها ماذا يجب عليها أن تفعل: هل تبقى في بارناول أو ترتحل إلى آستراخان. وتقول: إذا طلب أبوها أن تسافر إليه فستفعل. وتضيف في الحال: هل أكتب لوالدي أنك طلبت يدي وأخفي عليه ملابساتك؟ بالنسبة لي تلك هي الكآبة القاتلة، الجحيم بعينها. يا ليت عيد الجلوس يحل بسرعة ويحصل شيء أكيد وعاجل في مصيري. فعند ذاك سيعود الهدوء إليها. هل تفهم والحال هذه موقفي وأوضاعي، يا صديقي الطيب. يا ليت هيرنغروس يساهم في مساعدتي. الحقيقة أنا أظن أحياناً أنني سأجن.

(المخلص د.)

---

(1) رسالة فرانغيل إلى دوستويفسكي هذه مفقودة.

(2) الحماسة المتفائلة في مقالة دوستويفسكي لم تعد تتناسب وصلح باريس المهين الذي وقعته روسيا بعد حرب القرم.

(3) لعل دوستويفسكي يقصد «الرواية الفكاهية» المفترضة التي سبق أن كتب عنها إلى مايكوف.

(4) الرسائل المتبادلة بين دوستويفسكي وعيسايفا في عام 1856 مفقودة.

51. إلى ألكسندر فرانغيل

سيميبالاتينسك، 23 مايو 1856

صديقي الطيب الغالي ألكسندر يغوروفيتش. أنا مسرع، بكل معنى الكلمة، للرد على رسالتك.[1] ولذا لا تلمني إذا جاءت رسالتي مرتبكة ومشوشة. وسأوضح المسألة فيما بعد.

أولاً- أشكرك على كل ما فعلته من أجلي، على كل جهودك لصالحي. أنت أخي الثاني، العزيز المحبوب. توتليبين من أنبل الناس، وقد كنتُ واثقاً بذلك دوماً. إنه بروحية الفرسان النبيلة السامية. وأخوه مثله من حيث الطباع. لوجه المسيح بلّغ إرنست[2] أنني لم أستطع أن أقرأ رسالته دون أن تسيل دموعي، ولا أدري هل هناك كلمات تصلح للتعبير عن مشاعري تجاهه. وقبّل أدولف نيابة عني. سيتحقق شيء ما. فالقضية، كما أفهمها، تسير في طريق جيد. فلينعم اللّه بالسعادة على القيصر الرحيم. وكل ما تحدث به الناس دوماً عن حب الجميع الخالص له صحيح. وهذا ما يفرحني كثيراً. مزيداً من الإيمان، مزيداً من الوحدة. وإذا توفر حب الإيمان والوحدة يتحقق كل شيء. فكيف ستكون حال من يتخلف عن

الركب؟ ولا ينخرط في صفوف الحركة العامة ولا يسهم بقسطه فيها؟ آه! يا ليت مصيري يستقيم في القريب العاجل إن شاء اللّه. كتبتَ تقول أن أبعث لك شيئاً. ها أنا أرسل قصيدة لمناسبة عيد الجلوس وتوقيع الصلح. ولا أدري إن كانت جيدة أو رديئة، إلا أنني وزعتها على الإدارة هنا مع طلب السماح لي بنشر كتاباتي. بمعنى أن بيوتر ميخائيلوفيتش[3] رفع الطلب إلى هاسفورت تواً. وأعتقد أنه ليس من المناسب تقديم طلب رسمي، عريضة، من دون دعمه بمؤلفات فعلية في الوقت ذاته. ولذا بدأت من القصيدة. اقرأها، واستنسخها وحاول أن تعمل من أجل وصولها إلى القيصر. إلا أن القضية تكمن في عدم جواز تخطي هاسفورت (تحدي مرجع). فلربما سأضطر إلى الخدمة هنا. هاسفورت يسافر إلى بطرسبورغ في 10 يونيو. وسيمثل أمام القيصر بالطبع. وسيحمل قصيدتي، ولا بد من توصيته وحثه على موقف أفضل تجاهي. فهل ستكون أنت في بطرسبورغ أثناء مجيء هاسفورت؟ هل ستلتقيه؟ إذا التقيته أرجوك لا تحدثه عن توتليبين. فسيتحمس أكثر إذا نسب نجاح القضية له شخصياً. والأروع من ذلك إذا التقاه توتليبين في مكان ما أو قام بزيارته، وهو أمر يبعث السرور العميق في نفس هذا الأخير، ولكنني لا آمل بمثل هذه الالتفاتة من توتليبين. على أية حال يمكن أن نطلب منه أن يقدم قصيدتي إلى القيصر مع طلب السماح بالنشر وتزكيتي، فيذكرني بكلمة طيبة إذا سألوه عني، فيقول إني أستحق الترقية. ألن تسير القضية عندئذٍ بشكل جيد؟ وهكذا يا صديقي، هل ستكون في بطرسبورغ أثناء وصول هاسفورت إليها أم لا؟ انقلْ هذه الفكرة إلى توتليبين بحذر، فأنا أطلب الكثير، وإذا رأيتَ أنه يستحسنها أوضح له كل شيء. أنت لا تتصور مدى تشجيعك لي بهذه الأخبار! أنتظر لقاءك

بفارغ الصبر. حبذا لو رأيتك بأسرع ما يمكن. فما أكثر ما أريد أن أقوله لك!

خ (ي).[4] غادرت بارناول في مطلع مايو، وأظن أنكما التقيتما من زمان وتنعمان بالسعادة. فليمنحكما اللّه المزيد من السعادة، وليس الكوابيس التي يمكن أن تحصل أحياناً. أقول ذلك انطلاقاً من تجربتي الشخصية. ولكن لا تطل البقاء في بطرسبورغ. تعال، باللّه عليك، تعال. وقل لأخي إنني أعانقه وأعتذر منه على كل المصائب التي سببتها له. إنني أركع أمامه معتذراً. أموري سيئة للغاية. وأنا في يأس مطبق تقريباً. من الصعب على الإنسان أن يتحمل قدر ما تحملت. على أية حال لن أثقل عليك، لا سيما وأنني لا أستطيع أن أنقل لك كل شيء، ولذا أجد نفسي وحيداً مع كآبتي القاتلة. آه، لو كنتَ هنا. لما حصل ذلك. المشكلة أنها ترفض رسميا الآن الرحيل إلى بارناول. وليس في ذلك محذور. إلا أنها في جميع الرسائل الأخيرة التي تلوح فيها مع ذلك الرقة والحنان والتعلق، بل وأكثر من ذلك، تلمح لي أنها لن تبني سعادتي، وأننا كلانا تعيسان و(لعل) الأفضل لنا لو. . . (افترقنا). وتطلب مني أن أساعد (ابنها) بافل في دخول السلك السيبيري، وترجوك أنت أيضاً أن تتوسط له عند هاسفورت، لعله يقبله هذا العام ولو في قسم القاصرين. بافل الآن في عامه التاسع. ووعدتها ببذل الجهود قدر المستطاع، لذا أستعطفك أن تفعل ما تستطيع. كما أرجوك لوجه اللّه أن تقنع أخي بأن يستفسر بالتفصيل وبدقة عما إذا كان بالإمكان قبول بافل في فيلق بافلوفسكي في العام القادم إن لم يكن الآن. وأن يكتب أخي في أقرب وقت، إن أمكن، إلى ماريا دميتريفنا عن كل التفاصيل ويغرس الأمل الأكيد في نفسها. وأنت، يا ألكسندر يغوروفيتش، لوجه المسيح ومن أجلي اغرس

الأمل فيها بأن الفرصة ربما تحين لإرسال بافل إلى بطرسبورغ وأنها لن تحتاج إلى التحرك من مكانها لتوصيله إلى هناك، فالآخرون سيوصلونه، وسيجد في بطرسبورغ أصدقاء. أقنِعها، هدئ أعصابها. وأنا أرجو من أخي بخاصة أن يفعل ذلك[5]... أنا لم أخبر بيليخوف بأني مسافر إلى كوزنيتسك. لكنني سأقضي هناك ولو بضع ساعات. لم أخبره لأنه كان متردداً في الآونة الأخيرة، لكنه موافق. سأسافر بالتأكيد تقريباً إذا لم يغير بيليخوف رأيه غداً. أسافر على حسابي. لا تتهمني بأني أنفق النقود عبثاً. لكنني مستعد لعقوبة الجزاء (على المخالفة)، ولا أريد أكثر من رؤيتها. أنا في موقف حرج للغاية. فمن الضروري أن أتحدث معها ونقرر كل الأمور رأساً. لا تقلق عليَّ. فلن يحصل لي شيء في الطريق. ذلك لأنني حذر. سأعود بعد 10 أيام. لكنني سأراها. وأنا أتكتم على سفري إلى كوزنيتسك. وأنت أيضاً، باللّه عليك، لا تخبر أحداً ما عدا أخي (ميخائيل). يا صديقي، أنا مضطرب جداً. كتبتَ أنك تسعى لنقلي إلى كتيبة بارناول. رجائي إليك، بحق كل ما هو مقدس لديك، لا تنقلوني قبل الترقية إلى سلك الضباط، إذا وهبني اللّه إياها. فذلك سيكون بمثابة الموت بالنسبة لي. أولاً- هي لن تكون هناك. ثانياً- ما أصعب التعود على أشخاص آخرين وعلى إدارة جديدة. هنا أنا في مأمن من الخفراء والحراس، وهناك لن أكون في مأمن. آمرية الكتيبة سيئة. ثم لماذا؟ لأي غرض؟ لنعيش معاً؟ بينما هي ربما ستكون في أومسك. باللّه عليك، اترك هذه الفكرة. فهي تولد اليأس في نفسي.

ديمتشينسكي لا يميل تماماً إليك. وهو في علاقة ودية معي. لاموت إنسان رائع. الجميع هنا مستغربون من كثرة ما عرض عليك، كما جاء في رسائلك، بينما ترتحل أنت إلى الأماكن التي كنت تمل

منها، فلأي غرض وبأي سبب؟ قلتُ للاموت بالسر إن ذلك بسبب علاقاتك العائلية مع أهلك، واختلقت حكاية مناسبة، فليعمل لاموت على نشرها (. . .) أنا مسافر لعشرة أيام تقريباً.

وداعاً يا صديقي. في أمان اللّه وحفظه. أنتظرك كملاك من السماء. أنت بالنسبة لي أكثر من صديق وأخ. اللّه أرسلك إليّ.

(المخلص د.)

---

(1) رسالة فرانغيل التي يردّ عليها دوستويفسكي هنا مفقودة.
(2) المقصود الجنرال توتليبين، واسمه الأول إدوارد. يبدو أن الأمر اختلط على دوستويفسكي فسمّاه إرنست.
(3) المقدم ب. م. سبيريدونوف القائم بأعمال الحاكم العسكري لمحافظة سيميبالاتينسك.
(4) يكاترينا هيرنغروس.
(5) ميخائيل دوستويفسكي كتب إلى عيسايفا يهدئها.

52. إلى ألكسندر فرانغيل

سيميبالاتينسك، 14 يوليو 1856

أبعث إليك الجواب، يا صديقي الطيب الغالي ألكسندر يغوروفيتش، مع أول بريد. وكنتُ انتظرت طويلاً استلام ولو سطر واحد منك. أنا لا ألومك. فقد كنتَ أخاً لي على الدوام. أنا أتلمس ذلك وأعرفه. ولكن، يا ليتك تعلم مدى حاجتي إلى مشاطرتك الأخوية وتذكرك إياي طول هذه الفترة. ألف مرة هممت أن أكتب لك بنفسي، لكنني كنت أخشى أن تشد الرحال إلينا في تلك الأثناء، ولن تصلك رسالتي. على أية حال، ماذا كنت سأكتب لك؟ لن تتسع الرسالة لما أريد أن أقول. والآن أيضاً، أشكرك مئة مرة أخرى على كل الجهود التي تبذلها من أجلي. أرجو أن تنقل تشكراتي (للأخوين) توتلبين. ولعلك لا تتصور مدى الإعجاب الذي أتطلع به إلى نفوس طيبة مثلك ومثلهما وإلى جهودكم من أجلي. فما الذي قدمته لك ويستحق أن تحبني بهذا القدر؟ وما الذي قدمتُه لهذين النبيلين؟ بارك اللّه فيكم جميعاً. وهكذا يمكنني الآن أن آمل بقوة، ولكن... بعد فوات الأوان. لقد كنت هناك، يا صديقي الطيب، ورأيتها. ولا أفهم

حتى الآن كيف حصل ذلك؟ كان لدي ترخيص إلى بارناول، إلا أنني جازفت بالذهاب إلى كوزنيتسك. ولكن ماذا أكتب لك؟ وأكرر من جديد هل يمكن الكتابة عن شيء ما في قصاصة ورق؟ رأيتها. ما أكثر نبل هذه الروح الملائكية! بكت وقبَّلت يديّ، لكنها تحب شخصاً آخر. أمضيت هناك يومين. تذكرَت الماضي في هذين اليومين، فمال قلبها إليّ من جديد. ولا أدري هل أنا على حق أم لا عندما أقول هذا الكلام. وقالت لي: «لا تبك ولا تحزن، لم يتقرر كل شيء نهائياً بعد، أنا وأنت ولا أحد غيرنا». هذه كلمة إيجابية منها. أمضيت يومين لا أدري كيف. ملؤهما الغبطة والسعادة وعذاب لا يطاق. في نهاية اليوم الثاني غادرت بمنتهى الأمل. ولكن من المحتمل تماماً أن يقع الذنب دوماً على الغائب. (عليّ أنا) وهكذا حصل. في رسائلها المتواترة لاحظت من جديد أنها مكتئبة تبكي، وتحبه مجدداً أكثر مني. لن أقول اللّه معها، فأنا لا أدري ماذا سيحصل لي من دونها. لقد هلكتُ، وهي أيضاً هلكتْ. فهل تتصور، يا صديقي الأخير الغالي، ماذا تفعل وماذا تقرر بعقلها السليم الراجح بلا حدود؟ إنها في التاسعة والعشرين. مثقفة ذكية شاهدَت المجتمع وتعرف الناس، وقد تألمتْ وتعذبت، وأصابها المرض بسبب السنوات الأخيرة من حياتها في سيبيريا، وتبحث عن السعادة، وهي قوية العزيمة حرة طليقة، وتنوي حالياً الزواج من شاب في الرابعة والعشرين من أبناء سيبيريا، لم ير شيئاً في حياته ولا يعرف شيئاً، متعلم قليلاً، بدأ يأخذ فكرته الأولى عن حياته، فيما تعيش هي، ربما فكرتها الأخيرة، (وهو يحيا) من دون معنى، من دون عمل، من دون أي شيء، معلماً في مدرسة هامشية ينتظر في القريب العاجل راتباً قدره 900 روبل ورقية. قل لي، يا ألكسندر

يغوروفيتش، ألا تُهلك نفسها مرة أخرى بذلك؟ فكيف يتم في الحياة المعيشية التقاء شخصين مثلهما مختلفي الطباع والآراء والمتطلبات؟ ألن يهجرها فيما بعد، بمرور بضع سنين، (. . .) ألن يتسبب في موتها؟ ماذا سيحصل لها في ظروف الفقر مع جمع من الأطفال في كوزنيتسك؟ من يدري إلى ماذا ستقودها الخلافات التي أتوقعها في المستقبل؟ فحتى لو كان شاباً مثالياً جداً فهو لا يقف بعد على قدمين ثابتتين. والحال فهو ليس مثالياً، بل. . . كل شيء متوقع فيما بعد. ماذا لو أهانها بملامة دنيئة؟ (. . .) من يدري؟ ألن يحدث ذلك؟ أكيد سيحدث شيء من هذا القبيل. وماذا عن كوزنيتسك. والغدر فيها؟ يا إلهي! قلبي يتفطر. أنا أتوق إلى سعادتها أكثر من سعادتي. تكلمت معها عن كل هذه الأمور. بل ليس كلها. ربما عشرها، فلا يمكن الكلام عن كل شيء. استمعتْ إليّ مندهشة. إلا أن عواطف النساء تعلو حتى على العقل السليم، الواضح في منطقيته. المعقوليات تهاوت أمام فكرة كوني أتجنى عليه وأبحث عن نواقصه، اللّه يسامحها، فراحت تدافع عنه، مدعية أنه مستحيل أن يكون على الصورة التي أرسمها له. ولم أتمكن من إقناعها بشيء. لكنني تركت شكوكاً في نفسها، فكانت تبكي متألمة. وشعرت بالإشفاق عليها. وعندما مالت إليّ أشفقت عليها أكثر. يا ليتك تعلم، يا صديقي، أي ملاك هذا. أنت لم تكن تعرفها على حقيقتها. ففي كل لحظة تأتيك بشيء متميز معقول، ذكي، لكنه محير عجيب، في منتهى الطيبة والنبل. قلبها بشهامة الفرسان، وستقود نفسها إلى الهلاك. إنها لا تعرف ذاتها، أنا أعرفها. وبإيعاز منها قررتُ أن أكتب له كل شيء. مجمل نظرتي إلى الأشياء. ذلك لأنها عادت إليّ بكامل فؤادها أثناء انصرافي. التقيته، فبكى أمامي، وهو لا يعرف غير البكاء. وأنا

أعرف موقفي المهزوز. فحالما أنصحهما بالعدول عما عزما عليه وأرسم لهما المستقبل يتصور أنني أفعل ذلك بدافع من مصلحتي الشخصية، فيهوّل الأمور عمداً. لا سيما وأنه متواجد معها، وأنا بعيد. نعم، هذا ما حصل. كتبتُ لهما معاً رسالة مطولة. صورت كل ما يمكن أن يحدث في الزواج غير المتكافئ. (. . .) وأجابتني وهي تدافع عنه بحرارة وكأنني أتجنى عليه. بينما هو يعتبر نفسه بصدق، على الطريقة المتبعة في كوزنيتسك، وبغباء، شخصية (بارزة)، كما أنه اعتبر رجائي الودي الأخوي إهانة، رغم أنه نفسه طلب صداقتي ومودتي، حيث رجوته أن يفكر جيداً فيما يريد، وما إذا كان سيُهلك امرأة من أجل سعادته، ذلك لأنه في الرابعة والعشرين وهي تكبره بخمس سنوات. وإلى ذلك هو لا يملك مالاً ولا مستقبلاً واضحاً، ما عدا البقاء في كوزنيتسك إلى الأبد. تصور كيف زعل مني بسبب ما قلت. وفضلاً عن ذلك ألّبها ضدي بعد أن قرأ لها فكرتي بالمقلوب وأقنعها بأن تلك إهانة له. كتب لي جواباً وبّخني فيه. فقلبه مليء بالضغينة على ما أعتقد. أما هي فقد أرادت بعد الانفجارات الأولى أن تتصالح معي. فكتبت لي برقّة ولطف كالسابق، قبل أن أبرر تصرفي أمامها. ولا أدري إلى ماذا سينتهي ذلك. لكنها تقود نفسها إلى التهلكة، فيتوقف قلبي عن الوجيب. قد تصدق، يا ألكسندر يغوروفيتش، أو لا تصدق أنا أتكلم معك، واللّه شاهد على ما أقول. سعادتها، بالنسبة لي، أغلى من سعادتي. أنا طوال هذه الفترة ممسوس بكل معنى الكلمة. كان عندنا استعراض وكنت أجوب المنطقة كظل شخص معذب نفسانياً وبدنياً. لا ولن تلتئم جراح روحي. ظننت أني سأستلم منك ولو سطراً واحداً، ولا أحد معي، فيما لزمت أنت الصمت. والآن لا يعلم إلا اللّه هل

سنلتقي أم لا. باللّه عليك لا تتركني. هل يكلفك تحبير سطرين أو ثلاثة كثيراً؟ اكتبْ لي عن طريق البريد. أرجوك. ألست صديقي وأخي؟ لا أدري إلى ماذا ستؤول الأمور. ليتني أنتزع قلبي وأدفنه، ومعه كل (الآلام). باللّه عليك اكتبْ لي سريعاً عن نفسك: هل ستأتي أم لا؟ لا يمكنني أن أنصحك بشيء، فأنت أعرف. ولكن خبرني بسرعة، لوجه المسيح. كتبتَ عن المركيز (دي ترافيرسيه) وتطلب النصح. فماذا عساي أن أقول؟ لا أعرف. أنت تقول إن (يكاترينا هيرنغروس) تكرهه. ذلك مؤشر سيئ. الأفضل لو كانت لاأبالية تجاهه. سمعت من ديمتشينسكي أن أندريه روديونوفيتش كأنما قال له إن «خ» (هيرنغروس) تريد أن تسافر إلى الخارج في الشتاء. هل هذا صحيح؟ وماذا ستفعل أنت عندئذٍ؟

اكتبْ إلى ماريا دميتريفنا ماذا تريد. يا ليتك تعلم مدى التعاطف والاحترام اللذين تتحدث بهما عنك. لكنك لم تقابلها أبداً. بخصوص بافل طلبت من سلوتسكي والآخرين أن يتوسطوا له في أومسك. ولا ينسوا المعاش. والدها أيضاً يساعدها ولا ينساها. المعاش بات يحتل مرتبة أمامية. سلوتسكي إذا وعد فعل. وقد أجابني بتأدب منقطع النظير. وقام بكل ما يستطيع. لكنه كتب بخصوص بافل مؤكداً عدم وجود شاغر. ولا يقر القبول الإضافي أحد سوى القيصر. إلا أنهم سيسجلونه مرشحاً للقبول. توسطْ لدى هاسفورت، باللّه عليك، فلربما هناك أمل في قبوله هذا العام. ولدي رجاء ملح آخر إليك. باللّه عليك، من أجل نور السماوات، لا ترفض هذا الطلب. فهي لا ينبغي أن تعاني. إذا كانت ستتزوج منه لا محالة، فلتكن لديه نقود على الأقل. ولهذا الغرض لا بد من تعيينه في وظيفة أفضل. حالياً هو يستلم 400 روبل ورقي، ويسعى لأداء امتحان تعيين

المعلمين بمرتبة أعلى، في كوزنيتسك نفسها. عندذاك يستلم 900 روبل. (. . .) فأرجوك أن تتكلم مع هاسفورت بخصوصه كشاب رائع موهوب عن جدارة واستحقاق. وامدحه قدر ما تستطيع، وقل إنك تعرفه شخصياً، وحبذا لو حصل على ترقية. (. . .) واكتب إلى (الجنرال) هيرنغروس عنه. (. . .) اسمه الثلاثي نيكولاي بوريسوفيتش فيرغونوف. وهو من تومسك. أنا أرجوك من أجلها وحدها، كيلا تعيش في فاقة على الأقل. لا أدري، واللّه، من نشر الإشاعات حولك في أومسك. الجميع هنا كانوا يتكلمون عنك، إلا أن أحداً لا يعرف الأمر على وجه التحديد. قبل شهر سرت إشاعة تقول إنه تم تعيينك مستشاراً في بارناول. والاحتمال وارد تماماً حسب الظاهر. فهل هذا صحيح؟ اكتبْ لي سريعاً باللّه عليك. أنت تكتب للآخرين كثيراً أنك تتلقى عروضاً لوظائف معينة وأنك تتعرف (على المسؤولين) وما إلى ذلك. الجميع هنا، على ما أعتقد، ينظرون بتهكم إلى هذه الأمور، ولذا أحذرك، لا تكتب لهم بهذا المعنى. الجميع مندهشون لأنك تسافر إلى سيبيريا، بينما لديك وعود بالكثير في بطرسبورغ، ويظنون، لعدم فهم أسبابك، أنك تتباهى. حتى أن لاموت يبتسم ساخراً عندما يتحدث عنك، فيما يقول ديمتشينسكي أن قراءة رسائلك تقتضي ارتداء البزة العسكرية. لا تعبأ بشيء. اكتب لهم، ولكن لا تُهن (كرامتهم) واعتزازهم بنفوسهم الصغيرة. (. . .). إذا وافقوا على ترقيتي أفضِّل أن أنتقل إلى بارناول. وبخلاف ذلك أفضل روسيا، فلا تنسني لوجه المسيح.

ولديَّ، يا صديقي، طلب عاجل آخر. إذا استطعتَ نفّذه، وإلا فحسبي اللّه ونعم الوكيل. إذا حصلتُ على الترقية، وعموماً في شهر أغسطس، سأكون بحاجة إلى نقود. بحاجة ماسة لا فكاك منها. أنت

لا تصدق كم كلفتني رحلاتي. ومع ذلك أجازف برحلة أخرى. ديوني 100 روبل فضي. وأنا أعيش في بؤس، لكن المصروفات استثنائية.

أشعر بأنني في حاجة ماسة جداً إلى النقود، فيما لو طرأ طارئ. وهي حالياً ضرورية لأقصى حد. استعطفْ أخي، وقبّله بلا نهاية، أن يبعث نقوداً على جناح السرعة إذا استطاع. أما أنت فأرجوك، باللّه عليك، أن تقترض لي حتى يناير 300 روبل فضي، لعلمي بأنك لا تمتلك فائضاً. هذا في حال ما إذا كنتَ متيقناً وتأمل فعلاً بأنهم سيسمحون لي بالنشر. في هذه الحالة فقط أرجو أن تقترض لي. وإذا سمحوا لي بالنشر فسأستطيع أن أدفع مبلغاً أكثر من هذا بكثير في يناير. ولن أسيء إلى سمعتك. اقترض لي إذا كان لديك من تقترض منه. وإذا صعب عليك ذلك لا تحاول، لأن الاقتراض شيء بغيض. لا تقترض من «خ»، أرجوك، فتلك ستكون تضحية كبيرة جداً من جانبكما لي. إذا اقترضتَ أرسِل المبلغ رأساً على عنوان لاموت. معذرة على مثل هذه الطلبات. فأنا لا أعرف ظروفك من هذه الناحية. هذا أولاً، وثانياً، أنا نفسي كالمجنون. باللّه عليك لا تظن بي الظنون. وداعاً. سأكتب لك قريباً مرة أخرى. اكتبْ لي رجاءً عن كل شيء. ولا تنسني.

المخلص ف. دوستويفسكي

أعانقك مع أخي وأقبّلكما بلا حساب. تحياتي للباقين. لا تُخفِ عليّ شيئاً.

53. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 9 نوفمبر 1856

أخي الطيب وصديقي المخلص الغالي. هذه الرسالة تصلك بيد ألكسندر يغوروفيتش الذي له فضل كبير عليّ. استلمت رسالتك مع البريد الفائت. ويدهشني أنك عرفت متأخراً لهذا الحد بترفيعي. أنا عرفت بذلك في 30 أكتوبر. قدم تشكراتي إلى ك. إيفانوف وأولغا إيفانوفا، فهما أرسلا لي مرسوم الترفيع. وإلى ذلك وصل إلى الحاكم العسكري (سبيريدونوف) في 30 أكتوبر نفسه كتاب ترفيعي. أكرر معك: السعادة والحكم المديد لملاكنا القيصر. تعجز الكلمات عن التعبير عن امتناني له. أعانقك من صميم القلب وأشكرك على التهنئة. انتظرت رسالتك زمناً لا نهاية له. فاترك طريقتك هذه يا صديقي. وبلّغني عن أحوالك ولو قليلاً، ولكن في فترات متقاربة. أحياناً ليس لديك ما ترسله إليّ، أنا أعرف ذلك، ثم ماذا؟ اكتبْ لي على أية حال. أنت تعدني، يا صديقي، بإرسال نقود مع البريد القادم وتؤكد لأخواتنا الطيبات ولزوجة خالنا بخصوص المساعدة. يا صديقي الطيب، ليتك تعلم مدى حاجتي إلى هذه النقود. ستأتي هذه المساعدة

في الوقت المناسب تماماً. وإلا فلا أعرف كيف أشتري البزة الجديدة. الثياب هنا أغلى بكثير، بخمسين في المئة، مما في بطرسبورغ. اشتريت ما هو ضروري من الحوانيت بالآجل. ولكن بقيت حاجيات كثيرة لا بد من شرائها. على فكرة، فأنا ليست لدي ملابس داخلية ولا بياضات. والآن أنا أستلم راتباً. إلا أنه قليل في بادئ الأمر بعد مختلف الاستقطاعات. زد على ذلك أنا مدين، وإنْ لأشخاص يصبرون عليَّ بالطبع، لكن التسديد واجب. أكتب ذلك لك، يا صديقي، لا لأني لم أجد ما هو أهم من الكلام عن النقود وطلب إرسالها. كلا. ثم إنك نفسك، وأنا على يقين، لا تعتبرني من هذا النوع. فلماذا إذن؟ لكي أبرئ نفسي قليلاً أمامك، ذلك لأني مذنب كثيراً بحقك عندما عولت على نقودك وأنفقت أكثر مما يجوز لي أن أنفق. ولكن، يا أخي الحبيب، إذا كانت هناك نفقات طارئة كيف أتفاداها؟ تلك التي أحببتها لا أزال أعبدها حتى الآن. ولا أدري كيف سينتهي ذلك. كنت سأصاب بالجنون أو ما هو أسوأ من الجنون لو أني لم أرها. كل ذلك شوش أموري. لا تتصور أنني أتقاسم معها النقود وأعطيها، فهي ليست من هذا النوع من النساء. إنها تفضل أن تعيش على الفلس الواحد ولا تقبل بالعطايا. إنها واحد من ملائكة السموات التقاني في الطريق وربطني بوثاق الآلام. من دونها كنت من زمان سأفقد معنوياتي. فليكن ما يكون. أنت كنت قلقاً كثيراً من احتمال زواجنا. يا صديقي العزيز، يخيل إليَّ أن ذلك لن يحصل أبداً مع أنها تحبني. أنا أعرف ذلك. ولكن فليكن ما يكون. إنها ترجوك أن تسامحها على عدم جوابها لك. كانت آنذاك في ظروف رديئة للغاية. وبعد التباطؤ الطويل خيل إليها أن الجواب سيكون مخجلاً. رسالتك أعجبتها كل الإعجاب. ولكن يكفي، فلنصرف النظر عن ذلك.

من الآن أبدأ حياة جديدة! أالكسندر يغوروفيتش يسألني: عمَ أطلب أيضاً، وماذا أريد؟ إنه مخلص لي كأخ لم تلده أمي. أنا نفسي لا أدري ماذا أبتغي الآن. لأن العودة إلى روسيا ستتم قريباً حتى من دون الترقية في الجيش. وإذا كنت أريد العودة إلى روسيا سريعاً فلأجل أن أعانقكم وأستشير الأطباء المختصبن بشأن مرضي، الصرع. أكثر ما أتمناه هو التسريح العاجل، ولذا أرجو من ألكسندر يغوروفيتش أن يكتب لي بأسرع ما يمكن ويؤكد هل أستطيع أن آمل بطلب التسريح نظراً لتدهور صحتي؟ فهو من شأنه أن ينفعني 1) لتحسين صحتي، و2) تأمين الحرية وتيسير إمكانية ممارسة الأدب، وأخيراً يوفّر لي نقوداً أكثر. ذلك لأنني حتى هنا تلقيت مرتين عرضاً بعمل يمكن أن يسد احتياجاتي بالتمام والكمال على أمل أن يطلقوا سراحي بمرسوم العفو في القريب العاجل. إلا أنني أتوقع وآمل وأنتظر السماح بالنشر الذي بالغت في انتظاره العاجل، فاستدنت من دون تفكير مؤملاً في «حكاية الأطفال» التي فكرتم في نشرها. فلماذا لم تنشروها؟ وهل حاولتم؟ إذا كانت هناك محاولة منكم فبمَ أجابوكم؟ اكتبْ عن ذلك باللّه عليك[1]. لقد كنتُ، يا صديقي، في حالة من القلق خلال العام الأخير، ومن الكآبة والعذاب، لدرجة لم أتمكن فيها أن أعمل كثيراً. تركت كل ما بدأت بكتابته بين فترة وأخرى. إلا أن في ذلك فائدة. فقد اختمرت الأفكار على مهل، وكانت النتيجة أفضل. أجل، يا صديقي، أنا أعرف أني سأشق طريقي، وأشغل مرتبة جيدة في الأدب. وإلى ذلك أظن أنني، من خلال الأدب، وعندما يلتفت الجمهور إليَّ، أتخلص من آخر الصعوبات المتبقية في مصيري التعيس. تعذبني كثيراً وفرة المواد

للكتابة. كما تعذبني نتاجات من نوع آخر غير الروايات. أعتقد أنني أستطيع أن أقول شيئاً، بل وشيئاً رائعاً، عن الفن. مقالة كاملة في دماغي، وعلى الورق بشكل رؤوس أقلام. إلا أن روايتي شغلتني عن غيرها. وهي رواية فكاهية ضخمة، بدأت من مزحة وتراكمت حتى صرت راضياً عنها. وستكون فيها أشياء (أو مشاهد) جيدة للغاية. باللّه عليك لا تعتبرني متباهياً. فما من إنسان أكثر مني إنصافاً وتشدداً تجاه نفسه من هذه الناحية. يا ليت نقّادي السابقين يعرفون ذلك. بودّي أن أنشر الآن مقتطفات ومشاهد مكتملة من هذه الرواية الكبيرة. فهذا من شأنه أن يمنحني الشهرة والنقود. لوجه المسيح استفسِر عن هذه الإمكانية وأخبِرني هل هي متوفرة أم لا.

يا ملاكي، كنت أخشى عليك كثيراً. سيجارك الذي قرأت عنه في رسالتك، ثم في الصحف، أرعبني. خفتُ عليك من المجازفة بكل ما تملك في هذا العمل غير المأمون. يعني أنك تلعب بالنار. مرة حالفك الحظ بالسجائر، إلا أن المجازفة بها مرة ثانية وتحدي المصير غير مأمونة العواقب. كنت أخشى عليك طول الصيف. عسى أن يوفقك اللّه. على أية حال أنا أتكلم عن مسألة لا أعرف عنها الكثير.

صديقي العزيز، أنت تكتب عن أخواتنا. إنهن ملائكة. فما أروع عائلتنا. وما أفضل الناس فيها. أين أخي أندريه، وكيف حاله؟ لم أسمع أخباره من زمان. سأكتب له حتماً. أكتب لك هذه الرسالة على عجل، لمجرد أن أرد على رسالتك. لكنني سأحرر قريباً رسالة إلى ألكسندر يغوروفيتش، فأكتب لك من جديد بمزيد من التفصيل، لأنني حينئذٍ سأعرف عن نفسي أكثر. وقد جاء دور أخواتي وخالي لأكتب له ولهن. ولكنني سأنتظر رسائل من أخواتنا في البريد الأخير. باربارة

أرادت أن ترسل لي بياضات، وقد تهرأت ثيابي، ورغم الغلاء الفاحش اضطررت إلى الاستدانة لأقتني بعض الملابس الداخلية. وهي تسأل على أي عنوان ترسلها. لكنني لم أفهم سؤالها حتى الآن. على العنوان نفسه الذي تبعث الرسائل عليه. إذا التقيتها قبّلها بدلاً مني، وإلا فاكتبْ لها أنني أقبّلهن جميعاً. باريارة الطيبة القلب بعثت لي 25 روبلاً استلمتها من رسول في أغسطس، واللّه يشهد كيف ساعدتني تلك النقود!

استأجرتُ شقة مع خادم وتدفئة ووجبة طعام بـ 8 روبلات في الشهر. باختصار أعيش مثل يهودي مقتر. باللّه عليك، يا أخي، (حاول). هل يعقل أنك حتى الآن لا تستطيع أن تعنون رسائلك إليّ مباشرة، ولا ترسلها عن طريق الإدارة؟ فأنا على يقين بأنك معفو من آخر رقابة حتى بالمرسوم (القيصري).. اكتبْ لي مباشرة، باللّه عليك. فالقيصر هو الطيبة الملائكية بعينها! أنا مسرع لإنهاء رسالتي إليك. صحتي كالمعتاد، لكنني مرضت بعض الشيء في الخريف. نوبات الصرع لا تفارقني على أية حال. إنها تلاحقني بين فترة وأخرى.[2] كل مرة بعد تلك النوبات تنهار معنوياتي وأشعر أني أفقد ذاكرتي وقابلياتي (الذهنية) بسببها. نوبات الصرع تولد في نفسي الاكتئاب والمهانة المعنوية. هل أنت في صحة جيدة؟ وأفراد عائلتك هل هم بخير؟ كيف حال إميليا فيودوروفنا؟ تحياتي لها وقبلاتي للأطفال. قبّلهم بدلاً عني. اكتبْ لي حالاً وبالتأكيد. وإذا لم يكن لديك ما ترسله ابعثْ رسالة فارغة. يا ملاكي، رسالتك بالنسبة لي أثمن من النقود. فأنا وحيد، في وحدة قاتلة، وأنت لا تعرف شيئاً عن أحوالي. ثم، ماذا يمكن أن أكتب في رسالة من أربع صفحات بينما

يحتاج كل ما ينبغي أن نقوله لأحدنا الآخر إلى سنوات؟ آه، يا ليتنا نلتقي. وداعاً يا ملاكي، لوقت قصير، فسأكتب لك قريباً من جديد. ولكن اكتبْ أنت أيضاً بأكثر ما يمكن. أعانقك.

المخلص ف. دوستـ (ويفسكي)

ملحوظة: خذ بالك! اكتبْ!

---

(1) «حكاية الأطفال» التي كتبها دوستويفسكي في سجن القلعة عام 1849 نشرها أخوه ميخائيل في «مذكرات الوطن» عام 1857 باسم مستعار وبعنوان «البطل الصغير».

(2) كتب أحد الباحثين استناداً إلى ذكريات أشخاص من معارف دوستويفسكي في سيميبالاتينسك «أن نوبات الصرع عند الكاتب متكررة كثيراً في العادة، وهي غالباً ما تحصل أثناء الليل ولا تستمر طويلاً».



54. إلى تشيكان ولي خانوف[1]

سيميبالاتينسك، 14 ديسمبر 1856

استلمت رسالتك، يا صديقي الطيب، من ألكسندر نيكولايفيتش (تسوريكوف)، وأنت تكتب بلهجة ترحيب ولطف وكأنني أراك أمامي من جديد. تقول إنك تودّني، وأنا أعلن من دون رسميات أنني أودك وأحبك. لم أكن أبداً أشعر بمثل هذه العاطفة تجاه أي شخص سواك، حتى تجاه شقيقي. واللّه وحده يعلم كيف حصل ذلك. يمكن قول الكثير في تفسير هذه الظاهرة، ولكن ما الداعي إلى الثناء على خصالك؟ فأنت أكيد واثق من صدقي بلا أدلة يا عزيزي ولي خان. وإذا حررنا في هذا الموضوع عشرة كتب لن نفيه حقه. فالمشاعر والعواطف أمر غير قابل للتفسير. عندما ودعناك من العربة انتابنا الحزن جميعاً طول الوقت. وكنا نتذكرك على امتداد الطريق ونمتدحك أيما مديح. كانت الفرحة ستتم بأعجوبة لو استطعت أن ترحل معنا. ولكان لك في بارناول تأثير كبير. في كوزنيتسك التي زرتها وحدي خفية تحدثت عنك كثيراً مع سيدة ذكية مليحة بروح سمحاء وقلب كبير، وهي أفضل صديقة لي.[2] حدثتها كثيراً عنك حتى أنها أحبتك

من كلامي دون أن تراك أبداً، وقد أوضحت لي أنني صوّرتك بأبهى الألوان. ولعلك ترى يوماً هذه المرأة الرائعة وتكون من بين أصدقائها، الأمر الذي أتمناه لك. ولذا أكتب لك عنه. أنا لم أبق في بارناول وقتاً يستحق الذكر. إلا أنني حضرت هناك حفلة راقصة وتعرفت على الجميع تقريباً. وقد أمضيت في كوزنيتسك وقتاً أطول، 5 أيام. ثم كنت في (مدينة) زمييف و(على نهر) لوكتا. وكان ديمتشينسكي على عادته في المزاح والتنكيت طول الوقت. سيميونوف إنسان رائع. وقد سبرت أغواره بشكل أفضل هذه المرة. يمكن الحديث إليك عن الكثير مما لا تستوعبه هذه الرسالة. ولكنك ستعرف في زمن ما بعض الأمور. أما الآن، حيث تراكم في نفسي، فجأة، ما كنت أتوقعه ولا أتوقعه، من مصائب وهموم ومخاوف على من هي أعز كائن لدي في الدنيا، وحيث أنا وحيد تماماً في وقت يتعين فيه العمل، أعترف تائباً بأني كان يجب أن أكشف لك عن أكبر همومي وأهدافي، وعن كل ما يثقل على فؤادي لحد الموت من عامين أو يزيد ! كنت سأبقى سعيداً، يا صديقي العزيز الغالي تشيكان تنغيزوفيتش. أنا أكتب لك الآن ألغازاً لا تحاول أن تفك رموزها. وأرجو أن تتمنى لي النجاح. لعلك ستسمع قريباً عن كل شيء مني شخصياً. تعال إلينا سريعاً إنْ أمكن، وفي أبريل تعال حتماً. لا تغير نواياك. فما أشد رغبتي في رؤيتك، وأعتقد أنك لن تشعر بالملل عندنا. كتبت تقول إنك تشعر بالملل في أومسك. كيف لا؟ وتطلب النصح: كيف تتصرف وأنت في خدمتك، وفي ظروفك على العموم؟ أعتقد ينبغي أن لا تترك العمل. فلديك مواد كثيرة. اكتبْ مقالة عن السهوب (القرغيزية). وسينشرونها. هل تتذكر؟ لقد تحدثنا عن ذلك. والأفضل لو تمكنت من كتابة شيء، على غرار «مذكرات»[3] عن المعيشة في

السهوب، تتناول فيه ترعرعك وفتوتك وما إلى ذلك. وسيكون ذلك ظاهرة يهتم بها الجميع. سيكون من المستجدات، لا سيما وأنك تعرف ما ينبغي أن يكتب، كما في مؤلف «جون تينير» بترجمة بوشكين، إذا تتذكر. وسيجلب ذلك إليك الانتباه في أومسك وفي بطرسبورغ. كما أن المواد الموجودة لديك من شأنها أن تثير انتباه الجمعية الجغرافية. باختصار، الجمهور في أومسك، والحال هذه، سينظر إليك نظرة أخرى. وعندها ستثير حتى اهتمام أهلك بإمكان سلوك طريق جديد. وإذا أردت أن تقضي الصيف القادم في السهوب فإن انتظار ذلك الحين لا يزال طويلاً. ولكنك تستطيع منذ الأول من سبتمبر العام القادم أن تطلب إجازة سنوية تقضيها في روسيا (الداخل) وإذا عشت عاما واحداً هناك ستعرف ماذا عليك أن تفعل. ففي عام واحد يمكن أن يكون لديك مال. صدقني لا داعي للكثير من المال. المهم أن تحسب الحساب للعيش ولنظرتك إلى الأمور. كل شيء نسبي واصطلاحي. خلال العام المذكور يمكنك أن تشد العزم على الخطوة التالية في حياتك. وسيكون باستطاعتك أن تستشف النتيجة بنفسك، أي تقرر ما ستفعله لاحقاً. فإذا عدت إلى سيبيريا يمكنك أن تتصور أية منافع أو اعتبارات، فما أكثر ما يستطيع المرء أن يتصوره ويصوره، من شأنها أن تقنع أهلك حتى بالسماح لك بالسفر إلى الخارج، أي بالتجول سنتين، مثلاً، في أوروبا. وبعد 7-8 سنوات ستتمكن من تدبير مصيرك بحيث تكون نافعاً لوطنك أكبر النفع. أليس هدفاً عظيماً، على سبيل المثال، أليس أمراً مقدساً أن تكون من أوائل أبناء جلدتك الذي يوضح لروسيا ما هي السهوب ومدى أهميتها، وموقف شعبك تجاه روسيا، وتخدم وطنك في الوقت ذاته بالسعي المتنور لصالحه عند الروس. تذكر أنك أول قرغيزي متعلم تماماً على

الطريقة الأوروبية. وفوق ذلك جعلك المصير إنساناً رائعاً. فمنحك روحاً سمحاء وقلباً كبيراً. لا يجوز التأخر، لا يجوز التخلف عن الركب. حاول بإصرار، بل وبتحايل إنْ أمكن. وكن على ثقة بأن كل شيء ممكن. ولا تسخر من تصوراتي الطوباوية وحدسي بشأن مستقبلك، يا عزيزي ولي- خان. أنا أحبك لدرجة جعلتني أفكر فيك وفي مصيرك أياماً بلياليها. بالطبع في الأمنيات بنيتَ مستقبلك ورعيته. إلا أن بين الأمنيات واحدة فعلية واقعية، هي أنك أول شخص من قبيلتك بلغ المستوى التعليمي الأوروبي. هذا الأمر وحده مثير للدهشة. وإدراكه يلقي عليك عفوياً واجبات معينة. ومن الصعب عليك أن تحدد الخطوة الأولى التي ينبغي القيام بها. وإليك نصيحة أخرى على العموم. حاول أن تقلل من الحدس والأمنيات، وتزيد من العمل والبدء، على الأقل، بأي شيء كان لتوسيع ما أنت فيه. البدء بشيء، مهما كان، أفضل، على أية حال، من لا شيء. فليمنحك اللّه السعادة.

وداعاً يا عزيزي، واسمح لي أن أعانقك وأقبّلك 10 مرات. تذكّرني واكتبْ لي أكثر. تسوريكوف يعجبني، فهو صريح، لكنني لا أزال قليل المعرفة به. هل ستسافر مع سيميونوف وهل ستكونان معاً في سيميبالاتينسك؟ عندذاك ستكبر شلتنا. ولربما ستتغير آنذاك أمور كثيرة في مصيري. إن شاء الله. يا ليت. ديمتشينسكي يسلم عليك، أكتبُ لك من شقته، من الطاولة نفسها التي كنا نتناول عليها فطورنا عادة أو نحتسي الشاي في انتظار اليتامى المساكين.[4]

قبالتي يجلس تسوزريكوف ويكتب لك هو أيضاً. أما ديمتشينسكي فهو نائم يشخر. الساعة الآن العاشرة مساءً. ولا أعرف سبب تعبي الشديد. كان بودّي أن أكتب لك شيئاً عن سيميبالاتينسك، فهناك أمور

مضحكة جداً. ولن أتمكن من كتابة عشر معشار ما ينبغي الكتابة عنه. وداعاً يا صديقي الطيب. اكتبْ لي أكثر. وسأرد على رسائلك دوماً. ولربما سأجازف في مرة أخرى بالكتابة عن أحوالي. بلّغ تحياتي إلى د. (دوروف) وتمنياتي له بكل خير. أكد له أنني أحبه وأنني مخلص له من صميم القلب.

وداعاً![5]

ملحوظة: س.[6] تبلغك تحياتها. أخبرتني كيف أغويتها لتسافر معك إلى أومسك. وهي تتذكرك وتبدي اهتماماً كبيراً بك.

(دوستويفسكي)

---

(1) تلميذ قرغيزي في سلك الكاديت الروسي.
(2) المقصود عيسايفا التي سافر دوستويفسكي آنذاك سراً لزيارتها في كوزنيتسك.
(3) للكاتب الأميركي جون تينير عن حياة الهنود الحمر. ترجم الكتاب إلى الروسية عن الترجمة الفرنسية ألكسندر بوشكين عام 1836.
(4) لا أحد يعرف من المقصود باليتامى.
(5) في الأصل بالإيطالية.
(6) فتاة ولي خانوف.

55. إلى ألكسندر فرانغيل

سيميبالاتينسك، 21 ديسمبر 1856

يا أطيب الأصدقاء ويا أخي الغالي ألكسندر يغوروفيتش. أنتظر من وقت طويل رسالة منك، ولم أستلم شيئاً. فهل استلمت رسالتي التي أبلغتك فيها أني أريد أن أغادر سيميبالاتينسك لأسبوعين تقريباً؟ وإذا كنت قد استلمتها فإن جوابك، بالطبع، ما كان ليصل بهذه السرعة. لكنني أقصد رسالتك التي وعدتني بكتابتها قبل أن يصلك جوابي. فقد أردتَ أن ترسل إليّ حاجيات رسمية. وقد طلبت منك، يا صديقي الطيب، أن لا تنفق النقود عبثاً من أجلي، وأنني لست بحاجة إلى كل مستلزمات البزة، فإنها على أية حال ستصل متأخرة، وأن بعض الأشياء التي أنا حقاً بحاجة ماسّة إليها هي، على سبيل المثال، قبعة عالية مزينة بريشة وكتافيات رسمية وأزرار مرقمة وما إلى ذلك، بسبب عدم توفرها هنا، ولا بد من تقديم حجز عليها. ولهذا السبب وحده أبلغتك بأنني سأقبل منك شاكراً هذه الحاجيات الطفيفة. وإذا كان إعداد وشراء هذه الحاجيات سبباً في تأخيرك عن الكتابة لي في انتظار إنجاز هذه المشتريات، فذلك شيء مؤسف، بالطبع.

يا صديقي العزيز الغالي، وأنا مدين لك بالكثير أصلاً، هل يعقل أن مثل هذه الحاجيات البسيطة يمكن أن تمنعك من الكتابة إليّ؟ أم أن الزمن، وربما أنا مخطئ، أخذ يمحو ذكراي في نفسك ولم تعد تحبني كما كنت سابقاً؟ من يدري. كلا. إنها لخطيئة مني أن أتكلم بهذه الصورة. فما أكثر ما فعلته من أجلي. والشكوك التي يمكن أن تدب في فؤادي لنكران فضلك إنما هي الجحود بعينه. أنا لا أريد هذه الشكوك. أنا أطردها، وأعانقك من صميم القلب، وأريد أن أتكلم معك كما في السابق، في سيميبالاتينسك، عندما كنتَ بالنسبة لي الصديق الصدوق والأخ الشقيق معاً، وعندما كنا نتقاسم همومنا... العاطفية.

أولاً- هل رأيت توتليبين من زمان؟ هل هو في بطرسبورغ؟ إذا كان هناك هل نقلت إليه تشكراتي؟ قل له، يا صديقي، إنني لا أمتلك الكلمات للتعبير عن امتناني، وسأبقى إلى الأبد شاكراً له، طول عمري، ولن أنسى أبداً ما قام به من أجلي. باللّه عليك، يا صديقي، اكتبْ لي عن ذلك بأسرع ما يمكن. لقد وعدتك برسالة مطولة، لكنني أكتب لك في نصف صفحة. والسبب أنني لا أدري هل ستصلك رسالتي في بطرسبورغ؟ فقد كتبت لي أنك تريد أن تسافر إلى إربيت[1]، ومن يدري ربما ستفكر في الوصول إلى بارناول. وفي هذه الحالة لا أدري هل ستبقى رسالتي حتى عودتك. أم أنهم سيرسلونها لك من بطرسبورغ إلى المكان الذي ستتواجد فيه؟ ولذا أكتب إليك بإيجاز عما يمكن أن أكتب عنه بإسهاب. وثمة سبب آخر تفهمه من الكلمات التالية: «اللّه يعلم كم أريد الكلام معك وجهاً لوجه وليس عبر الرسائل». لو استطعت أن أراك لنقلت لك شيئاً لا أستطيع أن أخبرك به الآن. وأقتصر على ما يلي: سافرت إلى بارناول

وكوزنيتسك مع ديمتشينسكي وعضو الجمعية الجغرافية سيميونوف. وصلنا إلى بارناول في 24 ديسمبر، في عيد ميلاد «خ». ومن خلال سيميونوف دعانا (والدها) هيرنغروس، قبل أن يرانا، لحضور الحفلة الراقصة (بهذه المناسبة). وقد أعجبني كثيراً. ولا أدري لماذا ظهرت لديه فجأة بعض التحفظات عليك. ذكرها لي صراحة. كما أنها هي أيضاً أعجبتني من جميع الجوانب، ولكنها عبثاً ابتعدت عني بشكل ملحوظ. كانت تتحدث معي برقّة ولياقة، وكان كل شيء على ما يرام حسب الظاهر، إلا أنها لم تكن تثق بي على ما يبدو. وحتى لو كانت تخمن أني أعرف قصة غرامكما، فهل يعقل أنها تعتبرني إنساناً خسيساً؟ وأشير إلى أنها حاولت أن تتكلم عنك بأكبر قدر ممكن من البرود، بل وبتهكم خفيف. ولا أدري لماذا أعجبني ذلك، أعني التكتيك وليس التهكم. إنها ذكية جداً. وأنا واثق بأنها فاتنة يمكنها أن تغوي من تشاء. وتمنيت من صميم القلب أن تتناسب خصال فؤادها مع باقي خصالها. إلا أنها خبأته بعيداً عن أنظار المتطفلين. التقيتها في صالة الرقص وتحدثنا ربما أربع مرات. وأنا لم أرقص عمداً، لكي أنتهز الفرصة وأتحدث معها.

أنا لا أكتب لك عن أهالي بارناول. تعرفت على الكثيرين منهم. المدينة مشغولة البال بالوشايات، وفيها الكثير من أمثال تاليران[2] المحليين. أمضيت في بارناول يوماً بليلة، ثم توجهت إلى كوزنيتسك وحدي. وهناك بقيت خمسة أيام. وفي طريق العودة مكثت يوماً آخر في بارناول. تناولت طعام الغداء عند هيرنغروس وبقيت معه حتى المساء. وكانت معاملته لي على أحسن وجه. وقد بدر مني على المائدة تصرف غير لائق. ابنهم الصغير في الثامنة من العمر أعجبني كثيراً، وهو يشبه أمه كل الشبه. قلت لها ذلك، فاعترضت مؤكدة عدم

وجود تشابه بينهما. فأخذت أخوض في تفاصيل هذا الشبه. تصور: أنهم يعتبرون الصبي، كما عرفت فيما بعد، بشعاً تقريباً! فما أغرب تورطي بثنائي عليه.

يا صديقي، يخيل إليَّ أنك كنت صريحاً جداً مع «خ» في بطرسبورغ. وعرضت عليها رسائلي. فهل هذا صحيح؟ على أية حال عندما سافرتُ إلى كوزنيتسك قالت لسيميونوف الذي تواصلتُ معه بأروع صورة إني ذهبت إلى هناك لأتزوج، وإن هناك امرأة أحبها، وإنها عرفت ذلك عن طريقك.

استلمت صورتك النصفية، فشكراً لك، يا صديقي، شكراً. الحقيبة التي أهديتني إياها لم أستلمها. هيرنغروس لم يقل لي شيئاً عنها. ولم يكن مناسباً أن أسأله. لقد نسي بالطبع، ولكن لا فرق، لأن الحقيبة قد تكون عند أوسترميئير. وسأستلمها فيما بعد إذا كانت عنده. كتبك وأحجارك الطبيعية، على الأرجح، عند أوسترميئير في (مدينة) زمييف. في الصناديق الأربعة نفسها التي أرسلت إليه في الصيف. في طريق العودة وصلنا إلى زمييف ليلاً. وما كنت أستطيع زيارة الرجل. ولكن كن على ثقة بأنها ستبقى سليمة وترسل إليك. أنا لا أزال أفكر في السفر إلى زمييف.

والآن، يا صديقي، أريد أن أخبرك بقضية هامة بالنسبة لي. ولا بد أن أكشفها لك باعتبارك صديقي. باختصار ووضوح: سأتزوج قبل عيد المرافع، إذا لم يمنعني سبب واحد[3]. وأنت تعرف من سأتزوج[4]. فلا أحد غير هذه المرأة يمكن أن يبني سعادتي. وهي تحبني لحد الآن. وأنا أنزل عند رغبتها. فقد قالت لي بنفسها: «نعم». وما كتبته لك عنها في الصيف لم يكن له تأثير يذكر عليها. فهي تحبني. أنا أعرف ذلك بكل تأكيد. وكنت أعرف ذلك حتى عندما

كتبت لك رسالتي تلك في الصيف. فسرعان ما فقدتْ ثقتها بغرامها الجديد[5]. وكنت أعرف ذلك من رسائلها في الصيف. كل شيء كان مكشوفاً أمامي. فلم تكن تخفي سراً عليّ. ليتك تعرف حقيقة هذه المرأة!

أكتب لك أنني ربما أتزوج. إلا أن ثمة سبباً يطول الحديث عنه يمكن أن يرجئ زواجنا إلى أجل غير مسمى. وهذا السبب لا علاقة له بالموضوع إطلاقاً. إلا أن كل الدلائل تجعلني أتصور بأنه سينتفي. وإذا انتفى فسوف تستلم الرسالة التالية مني وقد تم كل شيء.

ليس لدي نقود، ولا فلس واحد. وأكثر الحسابات تواضعاً وتقتيراً تفيد بأنني أحتاج إلى 600 روبل فضي لتغطية المطلوب. أنا أنوي اقتراضها من كوفريغين. وهو في أومسك وسيصل قريباً. ففي الآونة الأخيرة قامت بيننا علاقات جيدة جداً. وآمل أنه سيعطيني. وإذا لم يعطني فكل شيء سيتقوض لأجل غير مسمى في أقل تقدير. سأستدين من كوفريغين لفترة بعيدة، لسنة على الأقل. ولكنني سأكتب مع البريد القادم إلى خالي في موسكو، وهو ثري ساعد عائلتنا مراراً، وأطلب منه 600 روبل فضي. فإذا أعطاني المبلغ أسلمه رأساً إلى كوفريغين. وإذا لم يعطني يتعين عليَّ أن أهيئ النقود بنفسي، لأن هذا الدين مقدس ولا بد من تسديده بأسرع ما يمكن.

أنا لا أستطيع الأمل في أخي. فلو كانت لديه نقود لأعطاني إياها. لكنه يكتب أن أموره متردية، حالياً على الأقل. ولذا كل الأمل في تسديد الدين وفي كسب المال لأجل حياتي المرتقبة. هذا إذا سمحوا لي بالنشر: فلا تدهش، يا صديقي، لأنني أقترض مبلغاً ضخماً بـ 600 روبل فضي دون أن أملك شيئاً. إلا أن لدي من أجل النشر ما قيمته 1000 روبل أو يزيد. وبالتالي سيكون لدي ما أسدد

به، إذا سمحوا لي بالنشر وإذا لم يرسل خالي المبلغ المطلوب. ولكنهم إذا لم يسمحوا لي بالنشر عاماً آخر فسأقع في داهية. والموت أفضل حينئذٍ. أنا لم أشهد في حياتي أبداً لحظات حرجة كهذه. ولذا أرجو أن تفهم، يا صديقي الغالي، مدى أهمية أي خبر عن السماح بالنشر. ولهذا السبب أبتهل إليك، كما أبتهل إلى اللّه، أن تبلغني فوراً إذا استطعت أن تعرف شيئاً عن الموضوع. وقد طلبت منك ذلك في الرسالة السابقة. أنا أستعطفك (مرة أخرى) وإذا كانت باقية في نفسك مشاعرك السابقة تجاهي فستقبل رجائي وتنفذه. فهل أنا على ضلال أم لا، يا صديقي؟ لماذا لم تنشر قصتي «حكاية الأطفال» التي كتبت لي عنها؟ هل رفضوها؟ من المهم جداً أن أعرف ذلك. بديهي أنني مستعد للنشر مدى الحياة من دون اسم أو باسم مستعار. وإذا أقرضني كوفريغين فسأحاول السفر ما بين 20 و25 يناير وأعود بعد 20 يوماً إلى سيميبالاتينسك مع زوجتي. البعض في بارناول يأملون، ولا أعرف السبب، بأنك ستكون هناك. ألن نلتقي فيها؟

هل ترى أخي؟ باللّه عليك التقِ معه وتحدث وإياه في صالحي. أنا لا أطلب منه نقوداً، فهو لا يملكها. لكنني أرجوه أن يبعث لي بعض الحاجيات إذا كان ذلك بمقدوره. فأنا راغب جداً في حيازتها. وقل لأخي أيضاً أن يكتب لي عن كل ما يعرفه عن جميع أسرار كواليس الأدب المعاصر. فهذا مهم جداً بالنسبة لي.

وقبل أن أودعك في هذه الرسالة لدي رجاء بخصوصها أستعطفك أن تنفذه. هل تتذكر أني كتبت لك في الصيف عن فيرغونوف وطلبت منك أن تتوسط له عند هاسفورت؟ الآن هو عندي أعز من أخي وشقيقي. الحديث عن علاقاتي معه يطول. ولكن القضية أن أمله الأخير في بناء مستقبله هو أداء الامتحان في تومسك لكي يحق له

التعيين في وظيفة براتب 1000 روبل ورقي. سيعينونه إذا نجح في الامتحان. لكنه لن ينجح من دون (واسطة) أو تزكية. والمسألة كلها تتوقف على مدير ثانوية تومسك المستشار المدني فيودور سيميونوفيتش ميشيرين. حبذا لو كتب أحد المسؤولين المتنفذين إلى ميشيرين رسالة عن فيرغونوف يذكر فيها ضرورة الالتفات إليه عندما يؤدي الامتحان. وفي هذه الحالة يساعده ميشيرين. وليس عيباً أن نطلب التوسط لفيرغونوف. فهو يستحق ذلك. ولذا أرجوك إذا كان لديك أحد في وظيفة هامة بوزارة التربية والتعليم من أقاربك أو معارفك أن تطلب منه الكتابة إلى ميشيرين عن فيرغونوف. هل تلتقي أبولون مايكوف؟ إنه على معرفة بفيازيمسكي. حبذا لو كتب فيازيمسكي الرسالة. باللّه عليك، حاول أن تفعل شيئاً. فكر في الموضوع وأنت أخي العزيز.

وداعاً يا صديقي الغالي. أعانقك. اكتبْ لي بسرعة وأطلعني على كل شيء، لوجه المسيح، وداعاً.

المخلص د (وستويفسكي)

ملحوظة: لا تخبر «خ» بما كتبته لك عنها. لا تفضحني. من يدري؟ ربما لا يعجبها (ما قلت)...

---

(1) بلدة في الأورال.

(2) وزير الخارجية الفرنسي المخضرم.

(3) لعل المقصود عدم توفر المال اللازم للزواج.

(4) تم عقد قران فيودور دوستويفسكي وماريا عيسايفا في 6 فبراير 1857.

(5) المقصود فيرغونوف

56. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 22 ديسمبر 1856

مرحباً، صديقي الطيب. ما أطول الفترة التي أنتظر فيها الرسالة الموعودة التي قلت إنك ستبعثها إليّ مع أول بريد في أعقاب رسالتك المؤرخة في 15 أكتوبر. لا أدري ما الذي أخّرك. أقسم لك، يا أخي العزيز، أنني لا أستطيع أن أتقبل أعذارك التي تتحجج بها لتوضيح طول الفترة بين رسالة وأخرى. فمهما كان الشخص مشغولاً إنما يجد دوماً 5 دقائق لكتابة بضعة سطور لشقيقه. لكنني أفهم أن أهلنا في موسكو أخبروك بأنهم أرسلوا لي نقوداً من هناك. وأنت في رسالتك المذكورة أعلاه وعدتني بإرسال بعض النقود مع البريد التالي. ويبدو أنك فكرت: «استلم نقوداً، فهو بالتالي ليس في حاجة، ولا موجب لكتابة رسالة». طيب. ولكنْ ألم أقل لك، يا صديقي، ألم أكتب أن ما أريده منك ليس النقود، بل ذكرى الأخوة والاهتمام الأخوي. كتبت لي أن أحوالك متدهورة، وأنك لا تملك مالاً. هل يعقل أنني لا أستطيع أن أتفهم بأنك شخص معيل ومثقل بالالتزامات، ويمكن أن لا تتوفر عندك نقود لأجلي؟ وبأي حق ألومك على عدم إرسال

النقود في حين أنك الوحيد الذي ساعدني وأسندني حتى الآن؟ أفلا أعرف ولا أفهم عبء همومك من خلال رسائلك؟ ولذا افهم أنني أقرّعك ليس لأنك وعدتني بإرسال النقود ولم ترسلها، فأنا أعرف أنها غير موجودة طالما لم ترسلها، كما أنني لا أشك في طيبة قلبك. ولكن اعلمْ، يا صديقي، بأنه يؤلمني ويحز في نفسي أنك، على ما يبدو، لا ترى ضرورة لأية علاقات معي ما عدا إرسال النقود. ولعلك تقول إنه ليس لديك ما يستحق أن تكتب لي عنه. حكّم عقلك من دون تحيز. في الرسالة السابقة كتبت لي أن أحوالك متدهورة. ووعدت بأنك ستبعث لي رسالة أخرى في القريب العاجل، وفجأة صمت مطبق، ولا سطر واحداً. فأي استنتاج ينبغي أن أخرج به؟ أمورك تدهورت وساءت أكثر حتى أثرت على مراسلاتنا، وأنك ربما مرضت أو في وضع محرج للغاية. وإذا كان الأمر كذلك فهل يعقل أنك تظن أني لا أبالي بذلك أبداً؟ كلا، أنا تعذبت من القلق عليك، وأخذت أضرب أخماساً في أسداس بشأن أحوالك، وكان من الصعب عليَّ أن أسمع بأنك تواجه الإخفاق، فصرت أتشوق إلى الحصول على خبر مهما كان عنك. إنك عندما تفترض بأني لاأبالي إنما تهينني. اقطع حبل الصمت أخيراً، يا صديقي، وأجبني واكتب، أجبني سريعاً على هذه الرسالة بخاصة. وسترى بنفسك أن هذه الرسالة مهمة، بالنسبة لي على الأقل.

ولعلك رأيت من رسائلي السابقة خلال العامين الأخيرين ومن تلميحاتي المتكررة أنني أحب امرأة اسمها ماريا دميتريفنا عيسايفا. كانت زوجة لأعز أصدقائي الذي أحببته كأخ لي لم تلده أمي. وبالطبع كان حبي لها خفياً وميئوساً منه. كان زوجها عاطلاً بلا وظيفة، إلى أن عيّنوه أخيراً، وبعد انتظار طويل، في مدينة كوزنيتسك التابعة لمحافظة

تومسك. وعندما ارتحل إلى هناك توفي بعد شهرين. واستولى عليَّ اليأس والقنوط حينما فارقتها. فتصور كم ازداد يأسي عندما علمت بوفاة زوجها. لقد بقيت وحيدة مع طفلها في أطراف سيبيريا بلا رعاية ولا عون. فقدتُ رشدي، فاقترضت نقوداً أرسلتها إليها. وكنت سعيداً جداً لأنها قبلت تلك النقود مني. ولم أكن أفكر كيف كبلتُ نفسي بالديون. وأخيراً تراسلت مع أهلها، مع والدها في آستراخان. ومن ذلك الحين دأب على مساعدتها. فعاشت على أية حال. ودعاها والدها إليهم، وكانت تريد أن ترتحل لولا أنها فكرت أولاً في تنسيب ابنها إلى سلك الكاديت السيبيري. أما في آستراخان فما كان بالإمكان توفير التعليم له، لأن ذلك يكلف مالاً. وكانت تخشى أن تثقل على والدها وتخشى ملامة أخواتها، حيث ستكون عالة عليهن. بينما يوفر سلك الكاديت السيبيري تربية ممتازة، والخريجون ملزمون بالخدمة في سيبيريا ثلاث سنوات لا غير. واستطالت المراسلات بيننا. كنت واثقاً بأنها، على الأقل، فهمت أنني أحبها. ولكنني كنت جندياً عادياً ولا أستطيع أن أطلب يدها. فبأي مال كنا سنعيش والحال هذه؟ وكيف تشاطرني مصيراً كهذا؟ أما الآن وبعد ترقيتي مباشرة سألتها: هل ترغب في الزواج مني؟ وأوضحتُ لها ظروفي بصراحة. فوافقت وأجابت: «نعم». ولذا سيعقد قراننا من كل بد. هناك سبب واحد يمكن أن يفسده، أو يرجئه على الأقل إلى أجل غير مسمى. إلا أن هذا السبب سينتفي في احتمال 90 بالمئة، على الرغم من ضرورة التحوط لكل الاحتمالات. لن أكتب لك عن هذا السبب، لأن الحديث عنه يستغرق وقتاً. وستعرف كل شيء فيما بعد. أستطيع أن أقول الآن إنني سأتزوجها بالتأكيد تقريباً. وإذا كنت سأتزوج فالزفاف سيتم قبل منتصف فبراير. أي قبل عيد المرافع. هكذا قررنا إذا وفقنا

في تدبير الأمور. ولذا، يا صديقي الغالي، يا أخي الحبيب، أرجوك وأستعطفك أن لا تكتئب من أجلي، ولا تشك فيّ، والمهم أن لا تحاول إقناعي بالعدول عما نويت عليه. فستكون تلك المحاولة متأخرة. قراري لا رجعة فيه. ثم إن جوابك ربما يصل بعد فوات الأوان. إنني أعرف مغزى كل اعتراضاتك وتصوراتك ونصائحك. كلها رائعة، وأنا واثق بطيبة قلبك وحبك. إلا أن كل نصائحك لن تجدي نفعاً رغم منطقها السليم. أنا واثق بأنك ستقول: البدن في الـ 36 عاماً يتوق إلى الهدوء، ويصعب أن تفرض عليه عبئاً ثقيلاً. لن أجيبك بشيء على ذلك. وستقول: «بأي مال سأعيش؟». سؤال معقول. لأن من المخجل طبعاً، بل ولا يجوز للمتزوج أن يعوّل، مثلاً، على مساعدتك في إعالتي مع زوجتي. ولكن، اعلم يا صديقي الغالي، أنني بحاجة إلى القليل، القليل جداً، لأعيش مع زوجتي. أنا لا أكتب لك عن ماريا دميتريفنا. إنها امرأة لن تجد مثلها بين 1000 من النساء من حيث الطباع والذكاء وطيبة القلب. وهي تعرف أن ما أستطيع أن أقدمه لها قليل، لكنها تعرف أيضاً أننا لن نعيش في فقر أبداً. وتعرف أنني إنسان نزيه وسأبني سعادتها. أنا بحاجة إلى 600 روبل فقط في العام. وللحصول على هذا المبلغ سنوياً آمل في شيء واحد، آمل في مرحمة القيصر، مرحمة الكائن المحبوب الذي يحكمنا. أنا آمل في السماح لي بالنشر. وأنا أداري في دخيلة نفسي الثقة بأن أملي ليس وهمياً باطلاً. وآمل أن قيصرنا الحكيم ذا القلب الملائكي الكبير سيلتفت إليّ أنا أيضاً ويسمح لي بأن أكون نافعاً على قدر الإمكان. وأنا واثق بطاقاتي فيما إذا استلمت السماح. يا أخي الغالي، لا تعتبر قولي تباهياً من جانبي، ولكن (. . .) كن واثقاً أن اسمي في الأدب لن يضيع. فخلال 7 سنوات جمعت مادة وفيرة،

وقد صفت أفكاري واتضحت، والآن حيث يساهم كل فرد بقسطه في الصالح العام لن يرفضوا أن أكون أنا أيضاً نافعاً (للمجتمع). أنا أثق وآمل في قرار القيصر بكل تبجيل. وإذا سمحوا لي بالنشر فأنا واثق بأنني سأكسب 600 روبل في العام. ولا يزال الوقت مبكراً للتفكير في إنجاب الأطفال. وإذا ولدوا فسيتربون (كما ينبغي). كن واثقاً. وقد تقول إن الهموم الطفيفة ربما ستثقل عليّ. فهل أنا دنيء حتى أتخلى عن سعادة العيش مع زوجة هي أعز ما عندي في الدنيا، وأرفض الأمل في بناء سعادتها، وأتجاهل مصائبها وآلامها وهمومها وعجزها، وأتركها وأنساها، لمجرد أن أعيش في بطرٍ وكسلٍ من دون هموم، ولأن بعض المشاغل قد تشوش على وجودي الثمين في وقت ما؟ فلننتهِ من التبريرات. اعترفْ بالواقع واسكت عليه، يا صديقي. فلا رجعة فيه إن شاء اللّه، وأكثر الحجج عقلانية (بهذا الخصوص لن يكون لها معنى. . .). يا صديقي الغالي وأخي الحبيب، لا تعترض علي، بل ساعدني، وستكون أكثر معزة عندي كصديق وشقيق مما في أي وقت مضى. ولذا أرى من الضروري إبلاغك بالتدابير التي أنوي اتخاذها لأبلغ هدفي، وإطلاعك على بعض ملابسات القضية. ليس عندي ولا فلس واحد. بينما تحتل النقود المرتبة الأولى في هذه المسألة. ولذلك قررت أن أقترض. أنا أعرف هنا شخصاً ثرياً وطيباً يميل إليّ. وسأستدين منه. أنا بحاجة إلى مبلغ غير قليل. فلا بد من بعض الاستعدادات واستئجار شقة من ثلاث غرف على الأقل وشراء الأثاث الأكثر ضرورة. ولا بد لي من ثياب، كما ينبغي مساعدتها هي أيضاً. لا بد من 100 حاجة من الضروريات، لكنها تكلف مالاً. ولا بد من إرسال عربة مسقوفة لجلبها، تجرها ثلاثة أحصنة لمسافة 1500 كيلومتر ذهاباً وإياباً. (. . .) ولا بد من دفع تكاليف الزفاف. أنا

نفسي لم أستطع حتى الآن أن أستكمل مستلزمات بزة الضباط. راتبي يكفي للمعيشة. ولكن شراء كل ما هو مطلوب دفعة واحدة أمر صعب. استلمت 200 روبل أنفقت بعضها على تسديد الديون، والبعض الآخر على شراء البياضات اللازمة، لأن أختي أرسلت لي قمصاناً فقط، وعلى الكثير من الحاجيات البسيطة الضرورية جداً، والمكلفة أيضاً. وأخيراً ما دمتُ ضابطاً ميدانياً فلا بد أن تكون عندي الآن، وفي الحال، بزتان في أقل تقدير، إحداهما للخدمة والتدريبات والخفارة، والأخرى للاستعراضات. وأنا بحاجة إلى معطف عسكري ومستلزمات أخرى للضباط كالخوذة والسيف والإشارب وإنشوط مقبض السيف وهلمجرا. وأنا بحاجة إلى جزمة. كل ذلك مكلف، ولم تكن الـ 200 روبل كافية لتلك الحاجيات وللمصروفات النثرية الضرورية الأخرى.

وأخيراً لا بد من النقود لكي نعيش بعد الزواج إلى أن تتضح آخر مسألة في مصيري، ألا وهي إمكانية النشر. ولذا أنوي أن أقترض 600 روبل فضي. وهذا المبلغ قد يكفي. أنا أستطيع أن أقترض هذا المبلغ (الكبير) لأن لدي مخطوطات جاهزة للطبع بـ 1000 روبل فضي أو يزيد. أنا لا أخادع عندما أقترض، لا سيما وأني أقترض لمدة طويلة، وأوضح ظروفي بصراحة لهذا الشخص دون أن أخفي عليه شيئاً. مع البريد الحالي سأكتب لأختي بربارة وأبلغها بكل شيء على قدر الإمكان. وسأخبرها في الرسالة بأنني سأكتب إلى خالي مع البريد القادم. وسأطلب منه 600 روبل فضي. كن واثقاً بأن رسالتي إلى خالي ستكون عقلانية تماماً. وسأطلب من بربارة أن لا تدهش ولا تتأوه، ولا تنصحني بالعدول عما نويت عليه، بل تقنع زوجة خالي أن تسلمه رسالتي في وقت مناسب، عندما تأتي بربارة إليه. أنا لن أخفي

شيئاً عن خالي. وإذا أعطاني أسدد الدين هنا في الحال. وإذا لم يعطني، لا يبقى لي سوى الأمل في إمكانياتي الخاصة وفي الخالق وملاكه قيصرنا. أما أنت، يا ميشا الطيب، فأرجوك حالما تفرغ من قراءة هذه الرسالة أن تكتب إلى أختنا في موسكو وتنصحها بأن تسلم مع زوجة خالي رسالتي إليه بكل تأكيد. لأنهما يمكن أن لا يسلما الرسالة خوفاً منه. وسأكتب لخالي بالبريد أيضاً، بالبريد التالي. باللّه عليك يا أخي قم بذلك من أجلي. والآن أعرض عليك طلباً آخر، لك شخصياً. يا أخي وملاكي، ساعدني لآخر مرة. أنا أعرف أنه ليس لديك نقود. ولكنني بحاجة إلى بعض الأشياء من أجلها تحديداً. أريد أن أهديها لها. شراؤها هنا غير ممكن. سعرها مضاعف. لو كانت عندي نقود لبعثتها إليك، لكنها ليست متوفرة لدي. ولذا أرجوك لا ترفض معونتي للمرة الأخيرة. كما أرجوك، لوجه المسيح، أن لا تعذب نفسك ولا تبعث شيئاً إذا كان الأمر صعباً عليك. بمعنى أنك لا تملك نقوداً. وأنا واثق برغبتك في إقراضي. لا تبعث وسأفهمك. فأنا أخوك، وقد كان لدي الكثير من الدلائل على تعلقك بي لدرجة لا تسمح لي بالشك فيك.

إليك الحاجيات التي أرغب في اقتنائها. وهي ضرورية تقريباً.

1) قبعة (نسائية) لمناسبة عيد الفصح. عندنا لا توجد قبعات أصلاً. وبالطبع ربيعية.

2) قطعة قماش لفستان من الحرير غير الصقيل بلون شائع. وهي شقراء، بقامة أطول من المتوسط، وخصر رائع، تشبه (زوجتك) إميليا من حيث القوام، على ما أتذكر.

طرحة مخملية أو غيرها حسب ذوقك.

نصف دزينة من المناديل النسائية الهولندية الخفيفة.

قلنسوتان خفيفتان مؤطرتان بشريط، أزرق إنْ أمكن، جيدتان ورخيصتان في الوقت ذاته.

خمار صوفي مخرم، إذا كان رخيصاً.

ملاحظة: إذا رأيت أن هذه الطلبات قسرية، وإذا أردت أن تضحك وأنت تقرأ هذه القائمة لأنني أطلب حاجيات تكاد قيمتها تبلغ 100 روبل فضي فاضحك وارفض. وإذا فهمت رغبتي في تقديم هذه الهدية لها وكوني لم أتحمل فكتبت إليك عنها فلن تضحك عليّ، بل تسامحني. على كل حال، وداعاً. أقبّلك من صميم القلب. تمنَّ لي السعادة يا صديقي الطيب. أعانقك، وتحياتي إلى إميليا، وقبّل الأطفال، ولوجه المسيح أجب على هذه الرسالة فوراً.

أخوك ف. دوستويفسكي

أهنئك بحلول العام الجديد متمنياً لك المزيد من التوفيق.

57. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 9 مارس 1857

منذ أسبوعين، يا صديقي العزيز الغالي، عدت مع زوجتي من كوزنيتسك، ولم أجد إلا الآن وقتاً للكتابة إليك. يا عزيزي ويا حبيبي، باللّه عليك لا تزعل مني لأني لم أكتب لك مع أول بريد حالما وصلنا. فأنت دوماً في ذهني وفي فؤادي. أنا أحبك بكل قابلية الإنسان على الحب. وأنت لمعرفتك بالحياة ستصدقني طبعاً عندما أقول إن نظام الأشياء الجديد ولّد لي مشاغل وهموماً لا أدري كيف يتحملها دماغي دون أن ينفجر. إلا أنه تيسر لي مع ذلك أن أكتب إلى خالي، وإلى أختي فوراً وبناءً على طلبها. خالي ساعدني، فلم أعد في حاجة حالياً. وفيما عدا ذلك أعقد آمالي على المشيئة الإلهية. لكنني لن أتهاون، بل سأعمل بحماس أشد. إلا أنك، على الأرجح، ستطالبني بشرح أكثر تفصيلاً عن سير أموري الموفق. لن أدخل في تفاصيل كثيرة، وأكتفي عموماً بالقول إن كل شيء انتهى على ما يرام. صاحبي الطيب الذي عقدت عليه آمالي في انتظار وصول النجدة من خالي ساعدني وأعطاني 600 روبل فضي لمدة عام أو حتى أكثر.



زوجة دوستويفسكي (ماريا عيسايفا)

وأقول لك، على العموم، يا صديقي، إن هذا الشخص لم يكن الوحيد الذي ساعدني، فالكثيرون غيره شاطروني متاعبي بإخلاص. شخصان آخران، على سبيل المثال، أصرا على أن آخذ منهما نقوداً من دون تحديد أي مدة زمنية. وأرادا أن يتخاصما معي إنْ أنا رفضت مساعدتهما الأخوية. واضطررت إلى استدانة 200 روبل فضي، فضلاً عن الـ 600. وبعد العودة إلى سيميبالاتينسك أنفقت كل الـ 800 روبل تقريباً، حيث صرفت 700 روبل بالتمام والكمال في نهاية الأمر. ولربما ستدهش، يا أخي، على ماذا صرفتُ هذا المبلغ الكبير. أنا نفسي ما كنت أتوقع أن أصرف بهذا القدر. ولم تكن هناك أية إمكانية للتقتير. احتياجات الطريق، وطقم الثياب لي ولها، فلم يكن لديها الكثير من الضروريات، الثياب اللازمة متواضعة، بل ويمكن القول بائسة. والرحلة لمسافة 1500 كيلومتر في العربة المسقوفة، فإن صحتها المتدهورة والصقيع ومطبات الطرق لا تحتمل عربة مكشوفة،

هذه الرحلة كلفتني مبلغاً كبيراً كأجر مقابل أربعة جياد، ثم الزفاف في كوزنيتسك رغم تواضعه المطلق، واستئجار الشقة وفرشها بأثاث ما، وتوفير الأواني في المطبخ - كل ذلك كلف نفقات يصعب فهم مقاديرها. وأنا لا أعرف أحدا تقريباً في كوزنيتسك. إلا أنها عرّفتني على أفضل الناس ممن كانوا يحترمونها. وكان القائم مقام والدي (أثناء الزفاف) هو مدير الشرطة المحلي مع زوجته. كما أن الإشبينَين الأول والثاني رجلان بسيطان طيبان، وإذا أضفنا إلى هؤلاء القسيس وعائلتين من المعارف يكون ذلك هو مجموع ضيوف حفلة الزفاف. وفي طريق العودة توقفت في بارناول عند أحد معارفي الطيبين. وهنا حدثت المصيبة. فقد داهمني الصرع بصورة مفاجئة تماماً. ارتعبت زوجتي إلى أقصى حد، واستولت عليّ الكآبة والأحزان. وقال لي الطبيب، وهو عالم ممارس، خلافاً لباقي الأطباء السابقين، إنني مصاب بصرع حقيقي، وإنني قد أموت في إحدى هذه النوبات مختنقاً بتشنج الحنجرة. وكنت طلبت بنفسي من الطبيب الصراحة المفصلة مشيراً إلى نزاهته كإنسان. وقد نصحني عموماً أن أحذر أوقات استدارة البدر. الاستدارة تقترب، وأنا أتوقع نوبة من الصرع.[1] وعليك أن تفهم الآن، يا صديقي، أية أفكار يائسة تجول في دماغي. وما فائدة الكلام عن ذلك؟ ثم ربما من غير الصحيح أنني مصاب بالصرع الحقيقي. فعندما تزوجت كنت أثق تماماً بالأطباء الذين أكدوا أن تلك مجرد نوبات عصبية يمكن أن تزول مع تغير نمط الحياة. ولو كنت أعلم علم اليقين بأني مصاب بالصرع الحقيقي لما تزوجت. ومن أجل استقراري وتهدئة أعصابي واستشارة الأطباء الحقيقيين واتخاذ التدابير اللازمة يجب أن أستقيل بأسرع ما يمكن وأرحل إلى روسيا. ولكن كيف أقوم بذلك؟ الأمل الوحيد هو احتمال السماح لي بالنشر،

فأحصل على نقود وأرتحل عندئذٍ. وإلى ذلك يخيفني أن تحدث نوبة الصرع أثناء الخدمة. فأثناء الخفارة، مثلاً، وأنا مشدود في البزة الضيقة، سأختنق حتماً، كما يقول الذين شاهدوا نوبات الصرع. فماذا سيحصل لصدري وجهازي التنفسي؟ اللّه رحيم، لكنني أكرر لك للمرة العاشرة: هل تفهم مدى أهمية إمكانية النشر بالنسبة لي؟ جئت بزوجتي إلى سيميبالاتينسك مريضة. ومع أنني أعددت كل شيء عندما ارتحلنا، إلا أن نصف ما كان ضرورياً لم ينجز بسبب قلة خبرتي، فواجهنا أسبوعين من المشاغل والإشكالات المتواصلة. في هذه المرة وصل آمر اللواء لتفتيش الاستعراض والخدمة، باختصار، لقد انشغلت كثيراً، فاعذرني لأنني لم أكتب لك فور وصولنا. زوجتي تتعافى الآن. وهي ترجوك أن تسامحها لأنها لا تكتب إليك حالياً. ستكتب لك في القريب العاجل. وتؤكد لي أنها لم تكن مستعدة. إنها تحبكم جميعاً حباً جماً. وقد كانت تحبكم جميعاً في السابق أيضاً، عندما كنت أنا في عام 54 أقرأ عليها كل رسالة تصل منكم، وهي تعرف عنكم كل التفاصيل. وبناء على أحاديثي تكنّ لك أعمق الاحترام وكل مرة تدعوني إلى الاقتداء بك. إنها امرأة رقيقة طيبة القلب، وهي متسرعة بعض الشيء وشديدة التأثر، فالحياة السابقة تركت في نفسها آثاراً أليمة. التحولات في مشاعرها سريعة للغاية، لكنها لا تتخلى عن طيبتها ونبلها لحظة. أنا أحبها، وهي تحبني، والأمور لحد الآن تسير على ما يرام. عندما استلمت النقود من خالي، وأنا شاكر له من صميم القلب، سددت قسماً من الدين، ولدي الآن في صيوان الثياب 250 روبلاً فضياً. فلا بد أن نعيش على الأقل إلى أن أستلم السماح بالنشر، ولذا أنا مسرور لأن لدي شيئاً من المال لهذه الفترة في أقل تقدير. وأنا أصدق المستقبل كالأعمى. ولا أريد من اللّه سوى

الصحة. والمدهش أنني خرجت من المصيبة العسيرة ومن التجربة بقدرة غير معتادة وثقة بالنفس. ربما في ذلك ضرر. فيا ليت اللّه يمنحني التعقل والتفكير السليم كيلا أبالغ في الاعتداد بالنفس. ولكن لا تقلق ولا تحزن بشأني. كل شيء سيكون على مايرام. إلا أنني أحن إليك كثيراً، يا صديقي العزيز الغالي وأخي الطيب الشهم. استلمت رسالتك، وأشكرك على الطرود، لم تصلني بعد، ولكن، يا صديقي، كان صعباً عليَّ أن أقرأ عن إشكالات وضعك، كونك أنفقت علينا الكثير.[2]

أشكرك ألف مرة، وزوجتي تعوزها الكلمات للتعبير عن امتنانها لك. ولكن يا ملاكي أمورك لم تستقم حتى الآن. وهذا ما يخيفني جداً. أنت تعقد الآمال على السيجار، ماذا لو أنها لم تحصل على رواج؟ وهذا أمر قد يكون متوقعاً. وبسهولة. يخيل إليَّ أن الشيء غير المريح هو ارتفاع أسعار سيجارك. إلا أنني لا أفقه في هذه الأمور. فليكن اللّه في عونك، وليوفقك. تجاوز هذه الأزمة، وأرجوك، لوجه المسيح، لا تجازف مرة أخرى. لا تطمع في الكثير، فالقليل أمتن وأقوى. وكيف حال شقيقتنا ساشا؟[3] لماذا تجعلنا جميعاً نشعر بالخجل؟ لحد احتقان الوجنتين. الجميع في أسرتنا بأخلاق نبيلة سمحاء. فما الذي يجعلها فظة غليظة لهذا الحد؟ أنا من زمان أدهش لأنها، وهي الأخت الصغرى، لا تريد أن تكتب لي ولا سطراً واحداً. هل يكمن السبب في كونها عقيداً عسكرياً؟ تلك حماقة ومدعاة للضحك. اكتبْ لي عنها بتفصيل أكثر، باللّه عليك. يؤسفني أنني مستعجل، وإلا لكتبت لك أكثر وبكل التفاصيل. والآن أطرح عليك سؤالاً. كنتُ، يا عزيزي، قد سألتك عن مصير «حكاية الأطفال». قل لي بصراحة، أرجوك، هل يريدون حقاً نشرها؟ إذا

كانوا يريدون هل حاولوا أم لا؟ وإذا لم يكونوا قد حاولوا فما السبب تحديداً؟ اكتبْ عن ذلك تفصيلاً، باللّه عليك. وسيكون طلبي هذا رداً على افتراضك بأنهم لم يمنعوا النشر عليّ. ألا توافقني بأن مصير «حكاية الأطفال» يتسم بأهمية بالنسبة لي من عدة وجوه؟ يا صديقي، كم أنا متألم (للكاتب) بوتكوف المسكين. كيف يموت هذه الميتة؟ كيف حصل وفاتكم أنه توفي (منسياً) في المستشفى؟ ما أشد حزني عليه. وداعاً، يا ملاكي. بلّغ تحياتي لكل من يتذكرني. أنا أتذكر الجميع، ومن كنت أحبه لا أزال أحبه كالسابق. أنا مذنب بحق فيرا وزوجها، لم أكتب لهما من زمان. سأكتب قريباً للجميع. قبّل الأطفال، وذكّر إميليا بي خصوصاً. فليمنحها اللّه كل السعادة!

زوجتي لم تكتب لك سطراً في رسالتي. وعندما طلبت منها ذلك أجابتني بأنها ستكتب لك رسالة خصيصاً، وكذلك لبربارة. لكنها طلبت أن أبلغك وإميليا خالص تحياتها وتمنياتها بكل خير. وأنا شاهد على أن ذلك من صميم القلب. وداعاً.

أخوك ف. دوست (ويفسكي)

---

(1) يشير دوستويفسكي في «دفاتر اليوميات» إلى أن نوبات الصرع عنده غالباً ما تتوافق مع بزوغ الهلال واكتمال القمر.

(2) ميخائيل بعث هدايا إلى عيسايفا بناءً على طلب أخيه.

(3) تصغير ألكساندرا للتحبيب.

58. إلى يفغيني ياكوشكين

سيميبالاتينسك، 1 يونيو 1857

حضرة السيد الكريم يفغيني إيفانوفيتش!

نقل لي ألكسندر بافلوفيتش[1] كل ما كلفته بأن ينقله لي. ولا أدري كيف وبماذا استحققت ميلك إليّ، وبماذا يمكنني أن أرد الجميل في وقت ما. بودّي أن أراك وأتشرف بمعرفتك عن قرب. وبهدف الإيجاز لن أكتب لك شيئاً عني وعن ظروفي وأمنياتي. فسيتفضل ألكسندر بافلوفيتش وينقل إليك كل ما أطمح إلى تحقيقه في وقت غير بعيد، وكذلك أملي في التواجد في موسكو. إلا أننا ندخل الآن مباشرة في صلب الموضوع الذي يهمني أكثر من أي شيء آخر تقريباً، وتكمن فيه كل آمالي المستقبلية في الحياة، وأعني دخول محراب الأدب من جديد.

ألكسندر بافلوفيتش بعث لي باسمك 100 روبل فضي. خبرني، يا يفغيني إيفانوفيتش الطيب، بأسرع ما تتمكن: ما هذه الـ 100 روبل ومن أين هي ولأي غرض؟ الأرجح أنها نقودك، أي أنك ترسلها لي، مدفوعاً بشعور المشاطرة الأخوية، على أمل أن تحفزني لممارسة

النشاط الأدبي، وذلك رغبة منك في مساعدتي بضعفين. كتب لي ألكسندر بافلوفيتش أنك ستسعى لطبع مؤلفاتي وتأمل في بيعها والحصول على عائدات كبيرة من أجلي. بالطبع سأكون أذناً صاغية لندائك، ولكنني لا أعرف كيف أشكرك على اهتمامك بي. لحد الآن كنت أمتنع عن الطباعة رغم رغبتي فيها. فقد كان يخيل إليَّ طول الوقت أنه لا يحق لي (أن أنشر). إلا أن مخاوفي، على ما أعتقد، لا أساس لها من الصحة. الكثيرون استعجلوني في الطباعة والنشر. وكنت من زمان قررت أن أبدأ، لكنني ما كنت أعرف كيف أدبر الأمور. أولاً- لم أكن أعرف لمن أبعث (المخطوطات). فهيئات تحرير المجلات بمعظمها غير معروفة لدي. وكنت، ولا أزال، أريد النشر حتماً ليس باسمي. وفي الآونة الأخيرة فكرت في «البشير الروسي». وقد أبلغني صديقي بليشييف، وهو الآن في أورينبورغ، أنه كتب بشأني إلى كاتكوف. ولذا حبذا لو بدأت من «البشير الروسي». والمشكلة ماذا أعرض على «البشير»؟ أقول لك بلا تردد ولا مواربة إنني قررت من زمان من أين أبدأ. ولن أبدأ من غير ما قررت، رغم وجود عروض أخرى. كما أنني لن أبدأ النشر إلا برواية أو قصة طويلة.

في الآونة الأخيرة، أي قبل عام ونصف عكفت على كتابة رواية، إلا أنها من سوء الحظ كبيرة جداً. أقول من سوء الحظ، بمعنى هل سترغب «البشير» في نشر رواية بحجم روايات ديكنز؟ هذا هو الأهم. وثانياً- ما أريد أن أعرفه هل أنك تقصد ناشرين بعينهم أم تقصد مجلة ترغب في نشر نتاجي فيها؟ وثالثاً- أين الوسيلة الأفضل والأنفع للنشر، بمعنى أي مجلة في الحال الحاضر يمكن تفضيلها من هذه الناحية؟ أوضح لك ما أكتبه الآن تحديداً، ولكن من دون عرض

المضمون طبعاً. أكتب رواية مطولة عن مغامرات أحد الأشخاص. وهي مغامرات متكاملة مترابطة، إلا أنها تتكون من مشاهد مستقلة مكتملة ومنفصلة بعضها عن بعض تماماً. كل مشهد يشكل جزءاً من الرواية. ولذا أستطيع تماماً أن أنشرها، مثلاً، بشكل مشاهد على حدة. ويمثل المشهد الواحد مغامرة مستقلة أو قصة منفردة. بديهي أن بودّي أن أنشر كل المشاهد بالتسلسل. وأذكر لك أيضاً أن الرواية تتكون من 3 كتب في كل منها قرابة 20 ملزمة (320 صفحة) ومن عدة أجزاء. فرغت من تأليف الكتاب الأول بخمسة أجزاء. أما الكتابان المتبقيان فسأنجزهما ليس الآن، وإنما في وقت آخر. ذلك، أولاً، لأنهما استمرار لمغامرات الشخص نفسه، ولكن بشكل آخر وطباع أخرى بعد مضي عدة سنوات. أما الكتاب الأول فهو بحد ذاته رواية منفصلة ناجزة تماماً بخمسة أجزاء. فرغت من كتابتها عموماً وبقي التنقيح فقط. ولذا سأنقحها بالتعاقب جزءاً جزءاً وأسلمها لك بالطريقة نفسها. حالما أستلم جوابك أرسل لك الجزء الأول من الكتاب الأول، وهو يمثل قصة طويلة مكتملة ومستقلة تماماً.[2] وأرجوك كل الرجاء أن ترد على تساؤلاتي المذكورة أعلاه. تكلم مع رؤساء التحرير، إذا كانت لك معرفة بهم، واعرض عليهم (الكتاب). فماذا سيقولون وكم يدفعون على الملزمة؟ وما عدا هذه الرواية أنا لا أقوم الآن بأي عمل أدبي، ذلك لأني معجب بها كثيراً.

لا مؤاخذة، يا يفغيني إيفانوفيتش على هذه التفاصيل، لكنني راغب تماماً في الاستفادة من اقتراحك الوجيه. أشكرك على كل شيء مجدداً، وأشد على يدك. إنك تأخذ بيدي إلى الطريق القويم وتساعدني في أهم عمل بالنسبة لي. وداعاً، وأملي كله في اللقاء!

المخلص ف. دوستويفسكي

(1) ألكسندر بافلوفيتش إيفانوف، صهر دوستويفسكي، كان موظفاً عند ياكوشكين.

(2) دوستويفسكي لم ينجز هذا المشروع.. يبدو أنه صرف النظر عنه بعد الجزء الأول من الكتاب الأول الذي شكل فيما بعد، على الأرجح، مضمون قصته «قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها».



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

59. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 3 نوفمبر 1857

صديقي وأخي الحبيب. استلمت رسالتك الموجزة التي أبلغتني فيها بسفرتك إلى الخارج، أو على الأصح قفزتك إلى أوروبا، ولم أردّ عليك رأساً في انتظار وصول السيجار التي وعدتني بها مع البريد التالي حتى أجيبك على الرسالتين دفعة واحدة. ولكني لم أستلم لا السيجار ولا الرسالة، ولذا أكتب لك دون أن أنتظر، وذلك، أولاً، لأتحدث إليك بأسرع ما يمكن، وثانياً، لأعرض عليك بعضاً من ملابسات حياتي الحالية. في البداية: عن حياتي الشخصية. نعيش بين بين، لا في فقر ولا في غنى. أنا أواصل الخدمة مع أني سأطلب الاستقالة في القريب العاجل، لأنني أعتبر إهمال مرضي من دون علاج خطيئة. ثم إن ضميري يقول لي: هل هذه خدمة؟ إذا كنت أشعر وأدرك أنني لمرضي لا أكاد أستطيع أداء أبسط الواجبات؟ الأفضل الابتعاد وفسح المجال لشخص آخر. وأنا في حال الاستقالة والمرض سأجد السبيل لأكون مفيداً من خلال النشاط الأدبي. فكل وضع شاذ وغير طبيعي يثأر لنفسه في آخر المطاف. وأكرر أن العيش بإصرار في

سيميبالاتينسك وإهمال المرض حتى يتفاقم ويشتدّ إثمٌ وخطيئة في اعتقادي.

أنا أعقد الآمال على المرحمة السامية من قيصرنا الرائع الذي منحني الكثير. إنه سيرعاني أنا المريض التعيس، وربما يسمح لي بالعودة إلى موسكو لاستشارة الأطباء وعلاج مرضي. ثم أين أستطيع أن أكسب قوت يومي إنْ لم يكن في موسكو التي فيها الآن الكثير من المجلات حيث سيقبلونني موظفاً بالتأكيد. هل تفهم، يا أخي، معنى التواصل والمحادثة عن الشؤون الأدبية على الأقل، والكتابة الغيابية دون توفر حتى الكتب والمجلات الضرورية؟ بودّي أن أبدأ في ركن «رسائل من الأرياف» بنشر عدة دراسات عن الأدب المعاصر. ولدي الكثير من المواد المختمرة والمكتوبة بهذا الخصوص. أنا أعرف أنني سأجلب الأنظار بذلك. وماذا بعد؟ بسبب قلة المجلات في السنوات العشر الأخيرة توقفت. بهذه الصورة يهلك كل شيء: أفكاري الأدبية ومنزلتي في مضمار الأدب.

كتبت لي، يا صديقي، عن روايتي وتطلب مني أن أرسلها إليك مباشرة، فماذا أجيبك على ذلك؟ تلقيت من زمان دعوة من «البشير الروسي» التي هي بلا جدال المجلة الأولى في روسيا حالياً. وقد بدأت بالمراسلة مع موسكو من خلال معارفي الرائعين، من خلال بليشييف الذي هو الآن في أورينبورغ ويعمل من عام لمجلة «البشير».

أما بخصوص روايتي فقد حصل لي ولها حادث مزعج. والسبب هو الآتي: لقد أقسمت أنني لن أنشر شيئاً فجاً هزيلاً غير متوازن ومشروطاً بمواعيد محددة كما في السابق من أجل النقود. فلا يجوز المراهنة على النتاج الأدبي، ولا بد من العمل بنزاهة وإخلاص، وإذا كنت قد كتبت شيئاً رديئاً، وهذا ما حدث ربما عدة مرات، فذلك

لغياب الموهبة وليس بسبب الاستهانة أو التهاون. ولذا أخذت أتأمل عندما رأيت روايتي تتخذ أحجاماً هائلة، وأنها مبنية بشكل رائع، ولا بد من الإسراع في إكمالها من أجل النقود. وليس ما هو أكثر كآبة من هذا التأمل أثناء العمل. فالرغبة والإرادة والطاقات كلها تخفت عندذاك. ورأيت نفسي أمام لزوم إتلاف الفكرة التي حكتها طوال ثلاثة أعوام، وجمعت لها الكثير من المواد التي لن أستوعبها لكثرتها، الفكرة التي نفذتها جزئياً عندما كتبت الكثير من المشاهد والفصول. أكثر من نصف العمل جاهز كمسودة. ولكنني رأيت أنني لن أتمكن من إنجاز نصف الرواية في الموعد الذي أكون فيه بحاجة ماسّة إلى النقود. شرعت أفكر، وأقنع نفسي، أن بالإمكان الكتابة والنشر على وجبات، جزءاً جزءاً. ذلك لأن كل جزء كان مستقلاً. إلا أن الشكوك عذبتني، وأمعنت في تعذيبي. لقد اتخذت من زمان قاعدة أن أترك العمل إذا دبت في نفسي شكوك بشأنه، لأن النتاج بعد الشكوك لا خير فيه. ولكن تركه يؤسفني. رسالتك التي تقول فيها إن أحداً من الناشرين لن يوافق على نشر الرواية جزءاً جزءاً جعلتني أترك العمل فيها نهائياً. وسبب ذلك اثنان من الاعتبارات. فقد فكرت: «ما الذي سيحصل؟ إما أن أكتب جيداً وعندها لن أستلم النقود حتى بعد عام، ولذا لا فائدة من عملي، وإما أن أسرع على نحو ما وأفسد كل شيء، أي أتصرف بلا نزاهة، بل إني لم أكن أقوى على مثل هذا التصرف». ولذا وضعت الرواية كلها والمواد المتعلقة بها في صندوق واحد. وشرعت بكتابة قصة طويلة، متوسطة الحجم، في حوالي 6 ملازم طباعية.[1] وعندما أنتهي منها سأكتب رواية[2] عن الحياة المعيشية في بطرسبورغ على غرار «الفقراء»، وفكرتها أفضل من فكرة «الفقراء». وكنت قد بدأت من زمان بكتابة هذين المؤلفين، وقسم منهما جاهز،

وليست هناك صعوبات. العمل يجري بأروع صورة. وفي 15 ديسمبر سأرسل قصتي الأولى[3] إلى «البشير». وسيدفعون مقدماً، والمبلغ ليس بقليل. إذن، ستكون لدي نقود. إلا أن المشكلة أنني سأبقى من دون نقود قبيل الأول من يناير. وطالما قررت عندما بدأت بكتابة هذه الرسالة أن أوضح لك كل ظروفي وأطلب منك شيئاً ما، فإني أشرع بهذا التوضيح.

في فبراير، عندما تزوجت، اقترضت هنا 650 روبلاً فضياً. اقترضت من سيد عفيف للغاية، لكنه غريب الأطوار. وكنت في علاقات وثيقة معه. وهو ثري في حوالي الخمسين من العمر. عندما أعطاني النقود قال: «ليس لسنة، بل حتى سنتين، لا تضيق على نفسك، لدي ما لدي، ويسرني أن أساعدك». ولم يطلب مني إيصالاً بالقرض. ثم، عندما عدت من كوزنيتسك، استلمت من خالي في موسكو 600 روبل فضي، وبعدها مئة روبل أخرى. ولم يكن عندي من «الممتلكات» سوى الحشية والوسادة، بالإضافة إلى البزة العسكرية. كان من اللازم شراء كل الحاجيات، حتى أصغرها. وإلى ذلك سافرت خلال العام أربع مرات إلى كوزنيتسك ذهاباً وإياباً، وأنفقت الكثير على أمور زوجتي، خطيبتي آنذاك، وسددت الديون المستحقة خلال ثلاثة أعوام إلى خومينتوفسكي وغيره بما مقداره 300 روبل فضي، حيث كنت بحاجة إلى النقود عندما توفي زوجها، وهلمجرا. سيميبالاتينسك أغلى مدينة في العالم. فهي كالجزيرة غير المأهولة التي عثر فيها روبنسون (كروزو) على عِرق ذهبي ولم يستطع أن يشتري أية حاجة. ارتفعت كل الأسعار هنا بفتح أبواب المحافظة. أنا، على سبيل المثال، أدفع 8 روبلات فضية في الشهر كأجر للشقة من دون حطب ولا إسالة مياه. بحثت عن شقة أصغر وأرخص فلم

أجد. لأن كل الشقق مشغولة. قبل ثلاثة أعوام وصل إلى هنا قرابة 100 موظف لم يبنِ أحد منهم بيتاً حتى الآن. وحسب العادات المحلية لا بد من تقديم الطعام لكل من يأتي إليك، علماً بأن أوقية أسوأ أنواع الجبن الروسي تكلف روبلاً فضياً. ويوجد هنا 150 تاجراً. إلا أن التجارة آسيوية. أما البضائع الأوروبية، البولندية، فلا يتداولها سوى ثلاثة أو أربعة تجار. ويأتون بالسلع التالفة من معامل موسكو ويبيعونها بأسعار خيالية، بأسعار لا يطالب بها إلا من هو في هياج الهذيان أو الجنون. وإذا حاولت أن تخيط بزة أو بنطالاً فهم يأخذون على الجوخ البالغ سعره في موسكو روبلين فضيين قرابة 5 روبلات. باختصار. هذه أغلى مدينة في العالم. ولذا لا يثير الاستغراب أن تلتهم كلَّ نقودنا تكاليفُ السفر والزفاف وتسديد الديون وشراء ما هو ضروري لتدبير أمور المعيشة في المرحلة الأولى. وحتى مطلع ديسمبر لم يبق عندي ولا روبل واحد. فيما أخذ السيد الذي أقرضني يذكّرني بتسديد الدين بعد ثلاثة أشهر فقط من الزفاف. وقد أدهشني هذا التصرف. كنت قلت له: «إذا تستطيع أن تصبر عليّ عاماً أعطني النقود، وإلا فلا تكلف نفسك». ورد عليّ قائلاً: «ولو عامين». فتسرعت وأعطيته إيصال القرض لموعد أقصاه الأول من يناير العام الجديد. كنت آمل في الحصول على نقود مقابل الرواية. أما الآن فقد تهاوت كل الآمال. تهاوت في أقل تقدير لموعد الأول من يناير. وبالمناسبة هذا السيد تزوج ولا أدري لماذا هو زعلان مني. ثم بدأ ما جعلني غير سعيد للتورط معه. كل شيء يجري بلياقة وأدب، لكنني متيقن أنه سيشتكي عليَّ في الأول من يناير.. أنا لا أكتب لك كل شيء، إلا أن موقفي عصيب جداً. باختصار، عليَّ أن أسدد في الأول من يناير مهما كلف الأمر. وبالمناسبة وصلتني مساعدة غير

متوقعة سيكون لها تأثير على مصيري أيضاً. المساعدة متمثلة في بليشييف.[4] أنا أتراسل معه من زمان. وقد بقي على أريحيته النبيلة وشهامته ورقَّته السابقة. وهو الآن في الخدمة المدنية في أورينبورغ. ولا يرحل إلى روسيا لأنه أحب ويريد أن يتزوج من فتاة في السادسة عشرة من العمر فقيرة، لكنها متعلمة. ولعله تزوج الآن. أنا أنتظر منه رسالة، ونحن نتراسل كثيراً. قبل شهرين تقريباً أبلغني بأن تركة جاءته من قريب توفي في موسكو لم يكن يفكر فيه. الورثة كثيرون، إلا أن حصته بموجب الوصية 50000 روبل فضي. وقد كتب لي بليشييف في الحال إذا كنت محتاجاً إلى نقود فهو مستعد لإعطائي قدر ما أريد، لحد خمسة آلاف روبل فضي. لكنه لن يستلم التركة قبل أبريل من العام القادم، 1858. ويقول إذا تسنى لنا أن نلتقي في موسكو فلن نفترق، ويؤكد أنه مستعد لتوظيف رأس المال في مؤسسة ثقافية سليمة، ويضيف أنني أنا سأكون الشخص الأول في هذه المؤسسة. وأجبته بأنني سآخذ منه 1000 روبل فضي، وهذا المبلغ مع ما سأستلمه مقابل قصتين لي سيساعدني في تسديد ديوني وإحالة نفسي على التقاعد والعودة إلى روسيا في يونيو من عام 58. عائد القصة الأولى الذي سيبلغ 500 روبل فضي إذا حسبنا الملزمة بـ 75 روبلاً سأستلمه في حدود فبراير. ولكنني سأطلب مقدماً حوالى 300 روبل، وبذلك أحصل على ما يقارب 800 روبل فضي. وسيبلغ إيراد القصتين ما يقارب 1000 روبل. وهكذا سأستلم نقوداً في فبراير على الأرجح، كما أتوقع أن أستلم من بليشييف في أبريل، ولكن ماذا سأفعل في الأول من يناير 58؟ والأدهى من ذلك ماذا سأفعل في ديسمبر من العام الحالي؟ في الأول من ديسمبر لن يبقى عندي آخر روبل، فكيف نعيش؟ ولا أحد أستطيع أن أقترض منه. لم يعد هناك

من أتجرأ على الاقتراض منه. وليس عندي ما يمكن أن أبيعه. ولا أستطيع استلام الراتب مقدماً. فلدينا آمر جديد، ثم إن استلام المبلغ قبل الأوان من الصعوبة بمكان. وأخيراً هذا الدين الذي ينهشني ويعذبني. ولذا أتوجه إليك، يا صديقي الكريم، للمرة الأخيرة: ساعدني للمرة الأخيرة! ابعثْ لي 650 روبلاً فضياً إنْ استطعت، لمدة ثلاثة أشهر لا أكثر. ولك مني ضمانتان بأن أسدد حتماً. وإذا كنت لا تصدق بأني سأستلم في فبراير نقوداً مقابل عملي، ففي أبريل سأستلم من بليشييف بالتأكيد. في فبراير سأبعث لك المبلغ رأساً، وستستلمه في مارس. أقسم لك باللّه. وبالتالي إذا كنت تستطيع أن تضحي بـ 650 روبلاً لمدة ثلاثة أشهر فأنقذني لآخر مرة، كما أنقذتني ألف مرة. تفضل عليَّ مرة أخرى، وصدقني، يا صديقي، بأنني لن أتجرأ مقابل أي شيء في العالم أن أستخدم ثقتك لأغراض شريرة. ففي مارس تستلم، أقسم لك بقدس الأقداس. ساعدني يا أخي وصديقي. فهذا الدين يعذبني معنوياً لدرجة لم أكن فيها يوماً بمثل هذا الموقف المحير العصيب. لن أتمكن من كتابة كل شيء إليك. إلا أن مشهداً من الرواية عن أموري الشخصية هذه سيكون رائعاً. وداعاً يا أخي العزيز، واعلم بأن كل أملي معقود عليك. كان يمكن أن أطلب من بليشييف، ولكن ليس لديه الآن نقود، وإلى ذلك هو قادم على الزواج. أرجوك وأستعطفك لا تؤخر الرد، أجبني فوراً، حال استلامك رسالتي، لأنني أنتظره بفارغ الصبر والاكتئاب.

زوجتي تبلغك تحياتها، وقد كتبت لبربارة وفيرا ولم يردا عليها. وهي تشعر بالمرارة لذلك. وتقول إنكم جميعاً زعلانون منها، ولا تريدون انضمامها إلى أسرتكم. وأنا أحاول عبثاً إقناعها بالعكس. إنها لا تعرف أحداً منكم شخصياً، وهي حزينة جداً. ربيبي بافل قُبِل في

فيلق الكاديت في أومسك بناءً على الالتماس الذي قدمته أمه قبل عام ونصف. وقد أرسلناه إلى هناك. الفيلق ممتاز، والمفتش إنسان بكل معنى الكلمة. أنا أعرفه شخصياً. ولكنني أشفق على الصبي الصغير. فهو لا يزال في العاشرة من العمر، وقد أحببته حباً جماً. قبلوه، ولم يكن بالإمكان الرفض، بل من الحماقة الرفض.

باللّه عليك، يا أخي، أجبني فوراً، ولا تؤخر الرد. وافهمْ مدى أهمية ذلك بالنسبة لي.

(أخوك ف. دوستويفسكي)

---

(1) «قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها»

(2) يبدو أن تلك إشارة إلى رواية «مذلون مهانون »

(3) «قرية ستيبانتشيكوفو»، وقد استطال العمل فيها إلى أبعد من الموعد المذكور أعلاه.

(4) ألكسي بليشييف (1825-1893) شاعر متعدد المواهب من جماعة بتراشيفسكي.

60. إلى ميخائيل كاتكوف

سيميبالاتينسك، 11 يناير 1858

حضرة السيد الكريم!

في شهر أغسطس استلمتُ من ألكسي بليشييف، الموظف عندكم، إشعاراً بأنكم لا تمانعون من نشر شيء ما من نتاجي في «البشير الروسي». وكنت من زمان أرغب في أن أقترح عليكم نشر الرواية التي أعكف على تأليفها حالياً. ولكن طالما أنها غير منتهية، فلم يكن هناك ما أعرضه عليكم. وقد كنت أريد تحديداً أن تقرأوا روايتي في البداية وبعد ذلك يتوفر الوقت للدخول في محادثات بشأنها. فقد حصل وكتبت قبل تسع سنوات الكثير من النتاجات الغثة، ولا أريد العمل الآن مكرهاً وبصورة غيابية. إلا أن ظروفي تبدلت، وأنا مضطر للعمل ليس كما توقعت في البداية. فاسمحوا لي بالتوضيح.

فكرت في مخطط روايتي أثناء الاستراحة خلال تواجدي بمدينة أومسك. عندما غادرت المدينة قبل ثلاث سنوات استطعت أن أحصل على ورق وريشة، وبدأت العمل. لكنني لم أستعجل، فكان يسرني أن أفكر في كل شيء، حتى آخر التفاصيل، وأن أخطط وأقيس الأجزاء



ميخائيل كاتكوف

وأسجل مشاهد منفصلة بكاملها، والأهم أن أجمع المواد. وعلى مدار ثلاث سنوات في هذا العمل لم أتعرض للفتور والتهاون، بل على العكس انهمكت فيه. إلا أن الظروف لم تسمح لي بالمواظبة على العمل المنتظم. وفي مايو من العام الفائت شرعت أعمل على بياض. وكانت جاهزة مسودة الكتاب الأول وجزء من الكتاب الثاني. ومع ذلك لم يتسنَّ لي حتى الآن أن أنهي الكتاب الأول رغم أن العمل فيه مستمر بلا انقطاع. روايتي مقسمة إلى ثلاثة كتب، وكل كتاب منها مستقل بذاته تماماً رغم أنه يمكن أن ينقسم إلى أجزاء، لكنني أشير إلى الفصول فقط. ولذا أردت أن أعرض عليكم في البداية كتاباً واحداً. ولا أستطيع أن أقدم الكتاب الثاني، بل ولا أريد نشر الكتاب الثالث في السنة نفسها. ولكن الكتب الثلاثة يمكن أن تنشر جميعها في ثلاث سنوات.(1) عندما ستقرأون الكتاب الأول سترون أن هذا التقسيم وارد تماماً. ظروفي هذا العام جعلتني بحاجة ماسّة إلى النقود بعد تبدل نمط حياتي. وأنا، إذ أقدم لكم مخطوطة الكتاب الأول من روايتي، أطمح أن أطلب منكم نقوداً قبل النشر، ولعلكم تحترمون رجائي هذا. ولذا

أسرعت في إنجازه. إلا أن العمل من أجل المال والعمل من أجل الفن شيئان لا يلتقيان بالنسبة لي. طوال الأعوام الثلاثة من نشاطي الأدبي القديم في بطرسبورغ كنت أعاني لهذا السبب. أنا لم أكن أريد الابتذال لأفضل أفكاري وأفضل مخططاتي للقصص والروايات من خلال التسرع في العمل والتسليم في الموعد. فأنا أحبها وأرغب في تأليفها بجد وليس بهذه العجالة لدرجة يخيل إليّ فيها أن الموت أفضل من التصرف غير النزيه مع أفضل أفكاري. ولكن طالما كنت على الدوام مديناً إلى كرايفسكي الذي لم يكن، بالمناسبة، ينتزع مني مؤلفاتي بل يعطيني دوماً الوقت الكافي، فقد كنت أنا نفسي مقيداً من جميع الوجوه. وعندما أعلم أنه ليس لديه ما يسد به فراغ المجلة أرغم نفسي أحياناً، في 26 من الشهر، أي قبل صدورها بـ 4 أيام، على ابتداع قصة ما، ولا يندر أن كنت أبتدعها وأكتبها في 4 أيام[2]. أحياناً تأتي الرواية غثة، وأحياناً بسمنة لا بأس بها، إذا حكمنا عليها من تعليقات المجلات الأخرى على كل حال. بديهي أنه كثيراً ما توفرت لدي عدة أشهر لكي أعد شيئاً ما أفضل. إلا أن المشكلة هي أنني نفسي ما كنت أدري أبداً أن تلك الأشهر أمامي، لأنني كنت دوماً أضع نصب عينيّ موعداً لا يتجاوز الشهر الواحد لعلمي بضرورة مساعدة السيد كرايفسكي للشهر القادم. إلا أن الشهر ينقضي، وتنقضي خمسة شهور وأنا أتعذب في ابتداع قصة أفضل، لأنني لم أكن أرغب في نشر شيء رديء. ثم إن ذلك كان سيبعدني عن النزاهة بحق السيد كرايفسكي. وإلى ذلك كنت آنذاك مصاباً بالسوداوية، في أشد درجاتها أحياناً. الفتوة وحدها أنقذتني من التفكك، وحالت دون برود الحماس في نفسي وحب الأدب. وبالإضافة إلى الفتوة كان هناك حب الأفكار الصافية والصادقة في الروايات التي انتظرت الوقت لكي أبدأها

وأنهيها. تلك السنوات تركت في نفسي انطباعاً ثقيلاً لدرجة أني لم أعد تقريباً أتحمل فكرة الاستعجال في إنهاء الكتاب الأول من روايتي لأستلم النقود بأسرع وقت. ولذا لم أستعجل. زد على ذلك أن مختلف المشاغل والهموم والمرض أخّرتني لحد ما. ورغم ذلك أردت أن أبعث لكم في يناير، أي الآن، نصف الكتاب الأول، على أن أبعث النصف الثاني في وقت لا يتجاوز الشهر بحيث تكون الرواية كلها، أقصد الكتاب الأول كاملاً، بين يديكم في مارس. إلا أن ملابسات غير متوقعة أعاقتني هذه المرة أيضاً. على فكرة، ربما ستدهشون أو تبتسمون لدى قراءة رسالتي هذه وتتساءلون: «لماذا لجأ إلى هذه التفاصيل؟». ولكن اعملوا معروفاً واقرأوا ما كتبت حتى النهاية. ذلك لأن لدي رجاءً كبيراً عندكم يبرر ذكر كل هذه التفاصيل. الملابسات التي أوقفت روايتي في الحال الحاضر هي كالتالي: في العام الفائت كنت في أمسّ الحاجة إلى النقود، ولذا تكبلت بالديون. ولغرض تسديدها والصرف على حياتي المعيشية كنت بحاجة ماسّة إلى 1000 روبل فضي في مطلع شهر يناير الحالي. وقد كتبت عن هذا المبلغ إلى شقيقي في بطرسبورغ. وقبل أسبوعين استلمت منه رسالة أكد فيها أنه استحصل لي 500 روبل فقط، بعد أن أخذ على نفسه، نيابة عني، بعض الالتزامات الأدبية، حيث إن الكونت كوشيليف ينوي إصدار مجلة بعنوان «الكلمة الروسية» اعتباراً من العام المقبل، وقد جاء وكيله المخول، المدعو مولر، إلى أخي طالباً من خلاله التعاون معي. ولعلم أخي بأنني محتاج إلى المال وأنني أكتب رواية[3] فقد باع تلك الرواية إلى مجلة «الكلمة الروسية» المرتقبة دون أن يعلم بنواياي الفعلية في شأنها. وتسلم مقدماً سلفة بمبلغ 500 روبل فضي بعد تحرير الشروط وتوقيعها من قبل الطرفين. فماذا عليّ أن أفعل الآن؟

سأستلم المبلغ مع البريد القادم. وأرى أن من الضروري إسناد شقيقي الذي وقَّع الشروط. كانت لدي رواية واحدة خططت لها من زمان وأنا أحبها كثيراً، بل وشرعت بكتابتها. حالياً أخرجتها من الصندوق وقررت أن أواصل كتابتها وإكمالها حتى أرسلها فورا إلى أخي. الرواية ليست طويلة، وبعد شهرين، أو على الأكثر شهرين ونصف، سأفرغ من كتابتها، وأرسلها، وعندذاك أعود إلى عملي السابق. ولكنْ، ما دمتُ حصلت على 500 روبل فقط، وليس 1000، ولا أستطيع بهذا المبلغ أن أسدد الديون نهائياً وأصرف على معيشتي فقد عزمت على آخر إجراء، هو أن أترجاكم وأعرض عليكم روايتي إذا كان من مصلحتكم أن تنشروها هذا العام، أفلا تستطيعون أن تبعثوا لي الآن سلفة على الرواية بمبلغ الـ 500 روبل الفضي الذي أنا بأمسّ الحاجة إليه. أنا أعرف أن طلبي غير معتاد تماماً. إلا أن القضية تتوقف على كيفية تقبلكم له. الشيء الوحيد الذي لا أرغب فيه هو أن تظنوا أنني أقدر موهبتي بهذا التقدير العالي وأن من السهل عليَّ أن أتقدم بعروض من هذ ا النوع. صدقوني أن الحاجة القصوى هي التي دفعتني إلى ذلك. وفي مقابل هذه الـ 500 روبل، إذا أرسلتموها إليّ، أتعهد بأن أبعث إليكم الكتاب الأول من روايتي كاملاً في غضون الصيف. ولذا يمكنكم أن تنشروه في سبتمبر إذا شئتم. حجمه في حدود أربع عشرة أو خمس عشرة ملزمة، وبذا ستكون قيمته أغلى من 500 روبل فضي، وحالما تستلمون المخطوطة تستعيدون دفعة واحدة الجزء الذي ستبعثونه لي الآن من الأجر. أنا أتعهد بإرسال الرواية في الموعد المقرر، وقد أخذت عمداً موعداً أبعد. وفوق ذلك، ما دمتم تخصصون لي النقود سلفاً، إذا فعلتم، وقبل أن تلقوا نظرة على المخطوطة فأنا من جهتي أتعهد بسحبها إذا لم تعجبكم، وبكتابة رواية

أخرى بأسرع ما يمكن. فقد جصل في وقت ما أن ألفت أشياء مقبولة بين الكتابات الغثة. وقد أوفق هذه المرة أيضاً. وسنتفق على سعر الملزمة عندما تقرأون المخطوطة. على فكرة، هذا السعر تحددونه أنتم، وأنا أعوّل على قراركم. وما عدا هذه التأكيدات، أي ما عدا كلمة الشرف، لا أستطيع أن أقدم لكم أية ضمانات، حالياً على الأقل. على فكرة، إذا كنتم ترغبون في ضمانات أخرى فأنا مستعد. وأخيراً أقول، لمزيد من التأكيد، إن الرواية التي أعدكم بها هي من زمان الرواية الأكثر صفاءً.[4] وأنا، بالمناسبة، أفهم أن هذه ضمانة ليست كبيرة، ويحصل أن يكون النتاج المفضل عند الكاتب رديئاً أحياناً لأسباب معينة. على أية حال أعاهدكم بأن أكتب أفضل على قدر المستطاع.

آمل أن طيبتكم ستشرفني، على أية حال، ولو بإرسال تبليغ ما. أنا الآن أسعى لتقديم استقالتي، وآمل أن أحصل في نهاية الصيف على ترخيص بالإقامة في موسكو[5]. وعندها سيكون من دواعي سروري أن آتي إليكم شخصياً. والآن هذا عنواني: مدينة سيميبالاتينسك في سيبيريا الغربية، فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي.

لا مؤاخذة على الإهمال الظاهري في رسالتي وعلى الطوابع وغيرها، وأرجو أن لا تعتبروا ذلك من قلة الاحترام. فأنا، واللّه العظيم، لا أجيد الكتابة أفضل. ولغرض التيقن أسجل على الرسالة عنوانين إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» وإلى مطبعتكم.

تقبلوا، يا سيدي، آيات التقدير والاحترام.

خادمكم المطيع

ف. دوستويفسكي

ملحوظة: لعلكم تتساءلون لماذا لا أسلم إلى «الكلمة الروسية» الرواية التي أكتبها لأجل «البشير الروسي»؟ أولاً، أنا لا أعرف كيف ستكون «الكلمة الروسية»، لا أعرف هيئة تحريرها ولا توجهاتها، لا أعرف شيئاً عنها. ثانياً، في مقابل النقود التي بعثوها، 500 روبل، ينبغي أن أبعث لهم مقالة بأسرع ما يمكن. أما الرواية غير المطولة التي سأخصصها لهم فستنتهي طبعاً بأسرع من الرواية المطولة التي أعدها «للبشير الروسي». يبدو أن مصيري هو العمل من أجل النقود بالمعنى المخجل جداً للكلمة.

د (وستويفسكي)

---

(1) كل هذا مجرد أفكار أراد دوستويفسكي أن يثير بها اهتمام كاتكوف ويحصل منه على سلفة. فقد توقف عن كتابة تلك «الرواية» الضخمة واستخدم بعض حبكاتها في قصتيه «قرية ستيبانتشيكوفو» و«حلم العم» اللتين صدرتا فيما بعد.

(2) أبلغ دوستويفسكي أخاه ميخائيل في نوفمبر 1845 أنه كتب «رواية في تسع رسائل» بليلة واحدة.

(3) «حلم العم».

(4) دوستويفسكي يقصد «قرية ستيبانتشيكوفو» التي عرضها للنشر في مجلة كاتكوف «البشير الروسي»

(5) تم تسريح دوستويفسكي في 18 مارس 1859، ولم يسمح له بالإقامة في موسكو ولا في بطرسبورغ.

61. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 18 يناير 1858

استلمت منك، يا صديقي العزيز، ثلاث رسائل، إحداها مؤرخة في 25 نوفمبر والأخريان في 17 و19 ديسمبر. أردت أن أجيبك رأساً على الرسالة الأولى ولكنني لم أتمكن. كتبتَ عن الاتصالات مع «الكلمة الروسية»، وقلت إنك سترسل النقود. ما كنت أعرف هل سترسلها، ولذا لم أستطع أن أكتب لك بالإيجاب. ولذا انتظرت حتى استلام النقود. والآن أجيبك على كل شيء. ولكن اسمح لي، بدايةً، أن أشكرك من صميم القلب على إرسال المبلغ. فقد أنقذتني، وأنا الآن في قدر من الاكتفاء. ومن دون تلك النقود كنت سأهلك، ولم تكن هناك أية وسيلة للتملص.

أبدأ بالإجابة على رسائلك حسب الدور. بالترتيب الذي كتبتَ فيه.

استلمت علبة السيجار، ولا أتذكر هل كتبت لكَ عن ذلك أم لا؟ إلا أن السيد الذي طلبتها من أجله امتنع عن اقتنائها لسبب وجيه تماماً بالنسبة له. فهي خفيفة جداً. وقد أعطاني من سيجاره. (شركة تبوغ)

تين غيت تخدعه، لكنها تزوده بسيجار قوية جداً، وهذا ما يريده. سيجارك دخنتها أنا نفسي. وأبقى مديناً لك بالمقابل. سنتحاسب. وأقول أيضاً إن سيجارك رائعة، إلا أنها دعكت كثيراً في البريد. على أية حال يدهشني أنها لم تحظ برواج عندكم. ثم إنك تكتب عن «الكلمة الروسية». لنفترض أن فكرة السيد جيدة وأن الرأسمال الاحتياطي يتراكم. ولكن هل يعقل أن بإمكان النقود أن تبني هيئة تحرير؟ في حين أن المجلة من دون هيئة تحرير ومن دون أصالة هذر. ولا أدري إلى من سيعهد (الكونت) بمهمة المحررين؟ أنا لا أثق كثيراً بنجاح «الكلمة الروسية». وهي كمجلة دورية قد تكون جيدة لبعض الوقت.

على فكرة، ما شأني وهذه المجلة الآن؟ اللّه يوفقهم.

أشكرك يا صديقي ميشا، يا صديقي الصدوق، على العلاقة التي أقمتها مع «الكلمة الروسية» ورتبت الأمور بكل مهارة. أما الآن فاستمع إلى ما أقوله عن ظروفي أنا. الرواية الكبيرة صرفت النظر عنها لبعض الوقت. لا أستطيع إنجازها مقيداً بالموعد. ففي هذه الحالة ستعذبني لا أكثر. أتركها إلى حين استقرار حياتي وانتظامها. الرواية عزيزة عليَّ لدرجة أنها التحمت بكياني، ولن أتركها أبداً دون أن تكتمل. بالعكس أنا أنوي أن أجعل منها تحفة مؤلفاتي. فالفكرة رائعة وقد كلفتني كثيراً، ولا يجوز تركها نهائياً. بهذا الصدد نشأت لدي قبل ثماني سنوات فكرة رواية غير مطولة بحجم «الفقراء». وفي الآونة الأخيرة تذكرتها، وكأنني أعلم، ووضعت مخططها من جديد. فبات نافعاً الآن. وسأعكف على كتابة هذه الرواية. آمل أن أنهيها في قرابة شهرين. وإلى ذلك تتضمن روايتي الكبيرة مشهداً مكتملاً تماماً وهو بحد ذاته جيد، لكنه يشوش على المجموع. أريد أن أقتطعه من

الرواية. وهو أيضاً بحجم «الفقراء»، إلا أن مضمونه فكاهي. وفيه شخوص مستحدثة. في «الكلمة الروسية» يحددون موعد التسليم بسنة واحدة. وإليك طلبي: أرجوك أن تكتب لي فوراً إذا أرسلت لك الرواية، مثلاً، في أبريل لأجل «الكلمة الروسية» وفيها أكثر من خمس ملازم طباعية، بالمقارنة مع ملازم المجلات الأخرى، فهل يرسلون لي من «الكلمة الروسية» نقوداً مقابل الملازم المتبقية على الفور، أم ينتظرون حتى العام القادم، أي حتى النشر؟ إذا كانوا سيرسلون أبعث إليك الرواية لأجلهم حالما أستلم إشعاراً بذلك منك. وإذا كانوا لن يرسلوا فأقرر أن تنتظر «الكلمة الروسية» حتى الخريف. وفي الخريف أرسل إليهم نتاجاً مكتملاً، وأعني مشهداً من الرواية الكبيرة بعد تحويره تماماً على انفراد. أما الرواية التي ستكون جاهزة في أواخر مارس فسأرسلها إلى كاتكوف في «البشير الروسي». حساباتي واضحة: لن أتأخر على «الكلمة الروسية». المقالة تكون جاهزة في موعد صدور المجلة، حتى ولو أرسلتها في الخريف. والآن ينبغي لي أن أنقذ نفسي. كاتكوف قدم لي عرضاً عن طريق بليشييف. عندما استلمت منك 500 روبل بدلاً من الـ 1000 لم أعد أعرف ماذا أفعل. فقد وزعت كل الـ 500 روبل التي أرسلتها إليّ تقريباً على الدائنين... وبقيت بلا نقود، وبالرغم من ذلك بقيت مديناً بـ 350 روبلاً فضياً. ولذا قمت بهذه الفذلكة، حيث كتبت مع البريد الماضي إلى كاتكوف بتفصيل وإسهاب مشيراً إلى أنني أرغب في المشاركة بمجلته، وعرضت عليه روايتي المطولة التي صرفت النظر عنها الآن مؤقتاً، وأبلغته بأني سأسلمها له في أغسطس وليس قبله، وأطلب منه مقدماً، لأسباب تتعلق بظروفي الصعبة، 500 روبل فضي وأرجوه أن يرسلها فور استلام رسالتي. عندما كتبت ذلك فكرت في أن صاحب «الكلمة

الروسية» يعطي سلفة دون أن يرى المخطوطة، فلماذا لا تفعل «البشير الروسي» الشيء ذاته؟ وهكذا يمكن في منتصف مارس أن يرسلوا لي 500 روبل فضي أخرى. وأظن أنني لن أفقد شيئاً. فطوال ثمانية أعوام لم أنشر أي نتاج، ولذا قد يُقبل عليّ الجمهور بصفتي كاتباً جديداً.

رؤساء التحرير يعرفون ذلك بالتأكيد. ولهذا يمكن أن يدفعوا مقدماً. فلماذا أفقد مستحقاتي، لا سيما وأنا في وضع صعب؟ إذا أرسل كاتكوف نقوداً فيمكنني أن أبعث إليه في الحال رواية ليست مطولة أعكف على كتابتها الآن، غير الرواية المطولة التي صرفت النظر عنها، على الرغم من أني كتبت له عن هذه الرواية ولم أكن أعرف أنني سأتركها. بالنسبة لكاتكوف الأمر سواء بشرط أن يكون النتاج جيداً. وإذا أرسلت الرواية إلى كاتكوف يمكنني طبعاً أن آخذ منه 500 روبل أخرى في الحال، ذلك لأن الرواية ستكون بحجم ثماني ملازم تقريباً، وبالتالي أبقى مديناً بالقليل إذا أخذت الـ 500 روبل الأخرى. وعندما يرى كاتكوف جديتي والرواية الجيدة، أتصور أنها ستكون جيدة، سيبعث الـ 500 روبل بالتأكيد. وهذا خير على خير. وبالطبع ستستلم «الكلمة الروسية» مني عندئذٍ في مطلع سبتمبر المشهد الزائد من الرواية المطولة. وسأتعامل مع هذه المجلة بنزاهة: أقدم لها النتاج في الموعد، وإلى ذلك أحاول تحسينه على قدر المستطاع، لأن هذا المشهد يعجبني أنا نفسي من حيث الفكرة. ثم إنه سيكون مكتملاً تماماً. تلك هي كل متطلباتي. فما رأيك فيها؟ اكتبْ لي.

وثمة مسألة أخرى. كتبت في الرسالة الأولى أنك تريد استلام قصة طويلة مني في مطلع العام القادم. ثم تذكر في الرسالتين

الأخريين أن لديك طلباً عندي، ربما هو ذاته. ألومك كثيراً، لمَ لا تكتب بالتفصيل؟ ماذا تريد أن تنشر؟ مع من؟ وكيف؟[1] بخصوص القصة الطويلة كن على يقين بأنك ستستلمها. أعاهدك. فبعد أن أرجأت الرواية المطولة صرت أشعر بأن لدي من جديد جناحين. سأفرغ من تعهداتي «للبشير» ثم «للكلمة» ويبقى لدي وقت كثير. ولكن اكتبْ لي عن هذه الأمور بمزيد من التفصيل.

واعلم، يا أخي، أنني قدمت قبل أيام طلب الاستقالة لأسباب مرضية. وأنت تعرف خططي. فإذا لم يسمحوا لي بالإقامة في موسكو، بناءً على طلبي في عريضة الاستقالة، فسأكتب رسالة إلى القيصر، وهو رؤوف رحيم، وربما سيسمح لي، أنا المريض، لأنني أطلب ذلك «من أجل استشارة أطباء العاصمة». وإذا لم يسمحوا حتى في هذه الحالة، كيف يقيم تول وبالم في بطرسبورغ إذا كانت ممنوعة على الآخرين؟، فلربما وجدوا بالفعل ضرورة لمنع البعض، وليس الجميع على الأرجح، من دخول (العاصمتين)، عندذاك سأرتحل إلى أوديسا حيث المعيشة جيدة ورخيصة، ولكن ليس إلى الأبد. القيصر رؤوف رحيم، وبمر الزمن سيسمح بدخول العاصمتين. تلك هي خطتي، وبالتالي سأسافر ليس قبل الصيف، إذا تم تدبير الأمور. وأفكر أن آخذ من بليشييف حتماً 1000 روبل وسأتحاسب معه، وأنا أعرف كيف أتحاسب. فمن دون نقوده لن أتمكن من التحرك.

ولذا ظهر لدي طلب كبير ملحّ جداً إليك. أتوسل إليك من جديد وأملي في طيبة قلبك المعهودة.

أوضح بصراحة: لقد كتبت لك عن بدلة، ولكنني أشعر الآن بالخجل وتأنيب الضمير. كلا يا أخي! أنا أشغل بالك وأزعجك بلا حياء. ولذا أقول: اكتبْ بصراحة. إذا اضطررت إلى الدفع نقداً لا

ترسل شيئاً، فسأدبر حالي. وإذا استطعت كتاجر أن تشتري بدلة جاهزة بالآجل فافعل، ولكن اكتبْ لي السعر في هذه الحالة أيضاً. وهناك، على ما أعتقد، ثياب أرخص. وإلا فسيبقى ضميري يعذبني. وبشأن الدفع بالآجل فأنا أيضاً سأستطيع إرسال الثمن. في الصيف ستكون عندي نقود معتبرة.

بليشييف تزوج. وهو غالباً ما يتذكرك ويبعث إليك تحياته.

ملاحظة (أولى): لا تهتم بالمقاس عموماً. اشترِ بدلة على مقاسك. فأنا أستطيع أن أرتدي ثيابك. على أي حال أطلب أن تكون البدلة أعرض وأطول قليلاً.

ملاحظة (ثانية): إذا طلبوا دفع ولو كوبيك واحد نقداً فلا تشترِ.

أنت تكتب عن صور العائلة كلها، أنا في غاية السرور. وزوجتي تتكلم عنها ليل نهار. أَرسلْها عاجلاً، باللّه عليك. زوجتي تبلغك وإميليا تحياتها. وأنا أيضاً أقبِّل يد إميليا وأعانقك بشدة. احتراماتي لكل من تعرفه. قبّل أخي كوليا (نيكولاي) إذا كان موجوداً في بطرسبورغ.

المخلص ف. دوستويف(سكي)

قبّل أطفالك جميعاً، الواحد بعد الآخر. هل يتذكرونني؟ عندما ترسل الصور اكتبْ جنبها أسماءهم كي أتعرف على كل واحد منهم.

---

(1) لعل ميخائيل دوستويفسكي كان من ذلك الحين ينوي إصدار مجلة أدبية خاصة به.

62. إلى ألكسندر الثاني

سيميبالاتينسك، أوائل مارس 1858

حضرة صاحب الجلالة المعظم
ألكسندر نيكولايفيتش
إمبراطور عموم روسيا

من الكتيبة السيبيرية الميدانية رقم 7
الملازم ثان فيودور ميخائيلوف
ابن دوستويفسكي

أنا من نبلاء محافظة سانت بطرسبورغ، التحقت بخدمة جلالتكم الإمبراطورية في 16 يناير عام 1838 بصفة تلميذ في سرية مدرسة الهندسة العسكرية الرئيسية بإمرة معالي الجنرال مفتش وحدة الهندسة. وتقديراً لحسن السلوك والتضلع في الخدمة الميدانية تم ترفيعي إلى ملازم ثان عام 1840 (. . .) وفصلي من قائمة الفرقة الهندسية في بطرسبورغ بسبب المرض في عام 1844 بهذه الرتبة. وفي 19 ديسمبر

1849 تم خفض رتبتي إلى جندي عادي ونفيي لأداء الأشغال الشاقة في الحصون والقلاع. وبعد انتهاء مدة خدمتي كجندي في عام 1854 في هذه الكتيبة السيبيرية تمت ترقيتي إلى ملازم ثان في عام 1856 تقديراً للخدمة الممتازة. (. . .) أنا لم أشارك في الحملات ضد العدو. ولم أكلف بمهمات خاصة من طرف جلالتكم الإمبراطورية السامية، ولا من طرف الإدارة. ولم أقلد بأوسمة أو شارات الامتياز. ولم أستلم شهادات تقديرية ولا مكافآت سامية. تلقيت إجراءات الجزاء بناء على تقرير التحكيم بسبب المشاركة في النوايا الإجرامية وبسبب توزيع رسالة للأديب بيلينسكي مليئة بعبارات شديدة اللهجة ضد الكنيسة الأرثوذكسية والسلطات العليا، وكذلك نوايا توزيع مؤلفات، مع آخرين، مطبوعة منزلياً ضد الحكومة. فجرّدوني من رتبة ملازم ثان، ومن جميع حقوق الملكية مع النفي للأشغال الشاقة في الحصون والقلاع لمدة أربع سنوات. ولكن بمرسوم جلالتكم السامي الذي أحاله السيد وزير الحربية تحت رقم 2468 وتاريخ 18 أبريل 1857 إلى قائد الفليق السيبيري المنفصل حصلت وأولادي الشرعيين على مبرة إعادة الحقوق السابقة من حيث الأصل، ولكن من دون الملكية السابقة. (. . .) متزوج من أرملة سكرتير المحافظ عيسايف (السيدة) ماريا دميتريفنا. وليس لدي أطفال. الاعتراف الأرثوذكسي معي. وليس لدي ولا لوالدي وزوجتي ضيعة وراثية مكتسبة شرعاً. وأنا الآن في الـ 35 من العمر.

حالياً، وبسبب تدهور صحتي كلياً في الخدمة، أشعر بضعف عام في الجسم، مع نحول بدني، وأعاني كثيراً من ألم عصبي في الوجه بنتيجة ألم عضوي في الدماغ، ولذا لا أستطيع مواصلة خدمة جلالتكم الإمبراطورية. وأرفق طياً تقريراً طبياً تحت رقم 26 موقعاً من قبل

الطبيب يرماكوف المنسب إلى الكتيبة الميدانية السيبيرية رقم 7 والذي أجرى الفحوص عليَّ بحضور ضابط أركان الكتيبة باخيريف.

ولذا أستعطفكم بإخلاص أن تأمروا بقبول هذه العريضة وبتسريحي من الخدمة العسكرية مع ترقية في الرتبة للأسباب المرضية المذكورة في التقرير الطبي رقم 26، وذلك وفقاً للمادة 469 من الجزء الثاني من مجموعة القرارات العسكرية، ولن أطلب بعد التسريح أي راتب حكومي إضافي. (. . .).

مقدم هذه العريضة ملازم ثان الكتيبة الميدانية السيبيرية رقم 7 **فيودور ميخائيلوف ابن دوستويفسكي.**

وستكون إقامتي في العاصمة موسكو.[1]

---

(1) الرد بالإيجاب على هذه العريضة جاء بعد استيضاحات إضافية في 18 مارس 1859، حيث صدر الأمر بتسريح دوستويفسكي لأسباب صحية مع ترقية في الرتبة. وسمح له بالإقامة في مدينة تفير ومنع من دخول محافظتي بطرسبورغ وموسكو ووضع تحت الرقابة السرية.

63. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 31 مايو 1858

أسارع في الرد عليك، يا صديقي العزيز، مع البريد الأول. وقد أثار دهشتي بطء وصول رسائلي إليك، في حين أنني لم أتوانَ في الكتابة. وإذا كنتَ قلقاً عليَّ فأنا أيضاً قلق عليك. وخصوصاً في الآونة الأخيرة. ولذا تصورت أن شيئاً حصل لك أو أنك مريض. خبر فقدانك 3000 روبل آلمني كثيراً. وأنت تقول إن ما يؤلمك ليس ضياع النقود، بل حراجة الموقف والتلف. كلا، يا أخي. خسارة المال أيضاً شيء مؤسف. أولادك يكبرون ولن تحصل في القريب العاجل على الـ 3000. ألا يوجد أدنى أمل في استعادتها؟ كما يحزنني، يا صديقي، أنني كأنما عمداً أثقل عليك بطلباتي واحتياجاتي. فما العمل؟ كتبتَ تقول إنك سترسل قريباً. أشكرك يا أخي. آمل أن يكون ذلك آخر مرة أزعجك فيها. أردت أن أنتظر الحاجيات لأجيب عندئذٍ. إلا أنها يمكن أن تتأخر. تقول إنك سترسل بدلة سهرة وبنطالاً واحداً. وأظن الأفضل سترة طويلة. فهي أكثر نفعاً. وسأحاول تدبير الأمر هنا، على الرغم من حاجتي الماسة

إلى النقود. كتبتَ، يا صديقي، تطلب مني أن أرسل إليك ما هو ناجز من النتاج. لا أتذكر، وقد ضعفت ذاكرتي كثيراً، هل كتبت لك أنني جددت العلاقات مع كاتكوف في «البشير الروسي» وبعثت له رسالة اقترحت فيها أن أشارك في مجلته ووعدته بقصة طويلة هذا العام، إذا بعث لي الآن 500 روبل فضي؟ وقد استلمت منه هذه الـ 500 روبل قبل شهر أو خمسة أسابيع مع رسالة مجاملة ذكية جداً. كتب يقول إنه مسرور جداً لمشاركتي وسينفذ طلبي فوراً بشأن الـ 500 روبل، ويرجوني أن لا أضيق على نفسي وأن أعمل بلا استعجال، أي ليس بموعد معين. رائع. وأنا أعكف الآن على تأليف قصة طويلة «للبشير الروسي».[1] إلا أن المصيبة أنني لم أتفق مع كاتكوف بأن يدفع على الملزمة، مؤملاً، والحال هذه، على ما يمليه ضميره. وآمل أن أبعث إلى «الكلمة الروسية» هذا العام أيضاً قصة طويلة[2] وليس رواية. أما الرواية فقد أرجأت كتابتها حتى العودة إلى روسيا. فعلت ذلك بمقتضى الضرورة. فكرة الرواية سعيدة نسبياً، وطباع الشخوص جديدة غير مسبوقة (في الأدب) حتى الآن. ولما كان نموذج هذه الطباع شائعاً جداً في روسيا اليوم، في الحياة المعاشة، وخصوصاً الآن إذا حكمنا على ذلك من الحركة والأفكار التي يتبناها الجميع، فأنا على يقين بأنني سأشحن روايتي بانطباعات جديدة عندما أعود إلى روسيا. لا موجب للاستعجال يا صديقي العزيز. بل يجب إتقان العمل ليأتي جيداً. أنت تقول، يا عزيزي، إنني ربما مغرور وأرغب بالظهور الآن في نتاج جيد جداً، وأحتضن هذا النتاج الجيد جداً كبيوض (الدجاجة). فلنفترض أنك على حق. ولكن طالما أنني أرجأت الظهور بالرواية، وأعكف على كتابة قصتين طويلتين ستكونان كبيضتين طازجتين، إن شاء اللّه، فليس عندي الآن رغبة في

الاحتضان الطويل. من أين جئت، يا صديقي، بالنظرية القائلة إن اللوحة يجب أن ترسم رأساً، دفعة واحدة، وما إلى ذلك؟ متى اقتنعت بذلك؟ صدقني أن المجهود لازم في كل شيء. وهو مجهود كبير. صدقني أن مقطوعة بوشكين الخفيفة الرشيقة في بضعة أبيات تبدو لهذا السبب وكأنها نظمت رأساً، إلا أنها أخذت من بوشكين وقتاً طويلاً للصقل والتنقيح. تلك حقيقة لا جدال فيها. غوغول كتب «النفوس الميتة» في ثمانية أعوام.[3] كل ما كتب دفعة واحدة لم يكن ناضجاً. يقال إن مخطوطات شكسبير تخلو من التصحيحات. وهذا هو سبب وجود الفظائع والفضائح وقلة الذوق. ولو كان الرجل قد أجهد نفسه لجاءت النتاجات أجود[4]. يبدو أنك تخلط بين العمل والإلهام، أي اللحظة الأولى لرسم اللوحة أو تحرك الروح الذي يحدث دوماً على هذا النحو. أنا، مثلاً، أسجل المشهد رأساً لأنه خطر في بالي لأول مرة، وأنا مسرور له، ثم أعمل شهوراً كاملة أو سنة في معالجته، وهو يحفزني ويلهمني مراراً، وليس مرة واحدة، لأنني أحب هذا المشهد، وأضيف إليه شيئاً أو أشطب منه، كما حصل معي فعلاً. صدقني جاء النتاج بعد ذلك أفضل بكثير. المهم أن يكون هناك إلهام. فلن يتحقق شيء من دون الإلهام.

صحيح أن الأجر بات كبيراً عندكم. بيسيمسكي استلم مقابل «النفوس الـ 1000» 200 أو 250 روبلاً للملزمة. وبناءً على ذلك يمكن العيش والعمل بلا تسرع. ولكن هل تعتبر أنت رواية بيسيمسكي رائعة؟ إنها من مستوى وسط. أجل من مستوى وسط مع أنها بوزن الذهب. فهل فيها شخوص أو طباع جديدة لم تكن موجودة على الساحة؟ كل ما فيها كان موجوداً لدى كتّابنا المجددين، وخصوصاً عند غوغول. تلك مواضيع قديمة في حلة جديدة.[5] إنها توليفة رائعة

من ملصوقات نماذج الغير، مثل محاكاة (الصائغ الروسي) سازيكوف لنقوش (النحات الإيطالي) بنفينوتو سيليني. صحيح أنني لم أقرأ سوى جزءين من الرواية، فالمجلات تصلنا متأخرة. إلا أن خاتمة الجزء الثاني بعيدة عن الواقع كلياً ومشوهة بالمطلق (. . .)

يا صديقي، أنا أنتظر التسريح، وقد نفد صبري. أنا لم أطلب صراحة الإقامة في موسكو. لكنني كتبت في العريضة ما يتطلبه أسلوب الصياغة الرسمي: «وستكون إقامتي في العاصمة موسكو». وإذا لم يعترضوا على ذلك فسأسافر إلى هناك. سأسافر، ولكن بأي حال؟ لن تكون عندي نقود قبل إتمام القصة. فكيف سأعيش بعد شهرين؟ لا أدري. ذلك لأن النقود لن تأتي بعد شهرين أيضاً. وقد سددت ديناً بـ 400 روبل فضي حالما استلمت الـ 500 روبل من كاتكوف. أنا أصرف شهرياً 40 روبلاً فضياً، إلا أن النفقات الطارئة لا تزال تلاحقني. ومنذ عام ونصف تستمر النفقات غير المتوقعة بلا انقطاع. الأمل الوحيد معقود على بليشييف. فقد وعدني بـ 1000 روبل. إلا أنه نفسه يحتمل أن لا يستلم، أو يستلم بعد عامين. فماذا سيحصل لي حتى نهاية السنة، حيث سأستلم أجرة عملي. ولن أستلمها قبل ذلك التاريخ؟ لا أدري، دماغي يكاد ينفجر. ولم يعد هناك مَن أقترض منه. ولكن لا تقلق عليّ كثيراً، لا بد من تدبير الأمور على نحو ما.

بليشييف سيذهب إلى موسكو وبطرسبورغ. في مايو. استقبلْه بحفاوة وتعرّف على زوجته. استلمتُ الآن طرداً من ميلوكوف يحتوي على كتابه. جلبه أحد الضباط، لكنني لم ألتقِ الضابط. ولربما يعرج عليّ. بلّغ تحياتي إلى ميلوكوف والجميع.

كيف حال أهلنا؟ كيف حال بربارة وفيرا؟ لم أستلم منهما ولا كلمة لحد الآن. أين أخي أندريه، أين كوليا (نيكولاي)؟

وداعاً. أعانقك. تحياتي إلى إميليا، وقبّل الأطفال. زوجتي تبلغكم جميعاً تحياتها. وداعاً.

المخلص ف. دوستويفسكي

سأكتب مرة أخرى عندما أستلم الحاجيات ويتم التسريح. وسأخبرك بأوضاعي. ولكن أرجوك اكتبْ لي بنفسك، لا تتأخر، باللّه عليك!

---

(1) «قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها»

(2) «حلم العم»

(3) بدأ نيكولاي غوغول كتابة «النفوس الميتة» عام 1835 ونشر الجزء الأول منها عام 1842.

(4) بخصوص موقف دوستويفسكي من شكسبير راجع، مثلاً، كتاب يو. د. ليفين «دوستويفسكي وشكسبير» المجلد 1، ص ص 108-134 (بالروسية).

(5) نشرت «النفوس الـ 1000» في 6 أعداد من «مذكرات الوطن» عام 1858. وفكرتها مناوئة لنظام القنانة الذي ظل سائداً في ريف روسيا حتى ذلك الحين. حظيت الرواية بتقريظ واسع في باقي المجلات.

64. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 11 أبريل 1859

أخي العزيز ميشا، أكتب لك كلمتين لا غير. ليس عندي وقت. أبعث مع هذا البريد ثلاثة أرباع روايتي[1] إلى كاتكوف. فلم يتسنَّ لي أن أنهي الرواية حتى الآن. عملت طول الليل تقريباً، واستيقظت متأخراً، ولا وقت لي، فالبريد ينصرف. منذ أسبوعين استلمت 1000 روبل من كوشيليف مع رسالة إطراء. ولم أخبرك بها حتى الآن لأنني كنت طول الوقت أنتظر منك رسالة لأجيبك على كل شيء دفعة واحدة. أريحيتك تتجلى في سرورك لإعجاب الكثيرين بقصتي[2]. لكنك كتبت بتاريخ 6 مارس دون أن تذكر أن قصتي نشرت. أفلا تصدر « الكلمة الروسية» في الأول من كل شهر؟ أرجوك ابعثْ لي «الكلمة الروسية» أو على الأقل مستلاً منها يتضمن قصتي. (. . .)

أشكرك على وعدك بإرسال بياضات وصدريات. كنت آمل أنك سترسلها من ألف كوشيليف، أما الآن فسوف نتحاسب عندما أصل إلى تفير. يا صديقي، بقي عندي من هذه الألف 600 روبل فقط. بهذا المبلغ ينبغي الرحيل والعيش حتى موعد السفر. وهذا شيء

متعذر. فالمبلغ لن يكفي. كتبتُ إلى كاتكوف أن يبعث لي 200 روبل أخرى. وسأبقى أنتظرها حتى 15 يونيو. وبعد ذلك لا يبقى مجال للانتظار، حيث يحين الرحيل. كما كتبت له عن أجرة الـ 100 روبل للملزمة. فكيف سيكون رده؟ إنه زعلان مني ولم يجبني على رسالتي الأخيرة. فما أصعب العلاقات الغيابية، يا أخي!

الرواية التي أبعثها إلى كاتكوف، أرقى بكثير من «حلم العم» على ما أظن. ففيها اثنان من الشخوص الجادة، بل والجديدة غير المسبوقة. ولكن كيف أنهي الرواية؟ مللت منها، وقد عذبتني بالمعنى الحرفي للكلمة. وآمل أن تظهر في «البشير الروسي» في أغسطس أو سبتمبر.[3] أنتظر منك رسالة على جناح السرعة. وأنا واثق بأنك ستكتب لي عن كل شيء، أي عن آراء الأدباء بشأن «حلم العم». أرجوك، اكتبْ بمزيد من التفصيل. أستعطفك!

أنت لا تكتب شيئاً عن بليشييف. هل سافر إلى موسكو؟ زافيالوف كان يتردد علينا كثيراً. وهو شاب طيب القلب ليس حقوداً. أنا أحبه كثيراً. ثم أنت تكتب عن (مدينة) تفير وتقول إن من اللازم العيش فيها عامين. فما أفظع ذلك، يا صديقي. بالعكس، أنا آمل بان أطلب رأساً سماحاً بالإقامة في موسكو. وبالطبع سأقدم الطلب حالما أصل إلى تفير. فقد منعوني ليس بمشيئة القيصر، بل لأن مفتشية (وزير الحربية) كتبت بكل وضوح أنها لا تأخذ على عاتقها البت في هذه المسألة، دون أن تعرف هل سمحوا لي بالإقامة في موسكو أم لا، وتنصح بطلب السماح من جلالة الإمبراطور عن طريق القسم الثالث (للديوان الإمبراطوري). وهناك بقية أمل، ففي 8 سبتمبر سيحل سن الرشد لولي العهد (الأمير نيكولاي، نجل الإمبراطور). ففي سن رشد الإمبراطور الحالي صدر عفو عام عن السجناء السياسيين. وأنا واثق

بأن القيصر في هذا العيد سيتذكرنا نحن التعساء، ويسامحنا على كل ما تبقى. وأتصور أن من الضروري حتى ذلك الحين، أي الثامن من سبتمبر، أن أقدم طلب السماح بالإقامة في موسكو، على أن أكون في ذلك الوقت في تفير.

وداعاً، يا أخي الطيب ميشا. أعانقك بكل حرارة، أنت وأفراد عائلتك. زوجتي تبلغك تحياتها. غداً عيد الفصح. قام المسيح. حقاً قام. صحتي كالعادة.

المخلص ف. دوستويفسكي

اعتنِ بربيبي بافل.

---

(1) «قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها».

(2) «حلم العم»

(3) لم تنشر «البشير» رواية «القرية...» وانقطعت العلاقات مع كاتكوف بعد أن رفض زيادة أجرة المؤلف.

65. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 9 مايو 1859

صديقي العزيز ميشا. استلمتُ أخيراً رسالتك المؤرخة في 8 أبريل مع البريد الفائت، وقد تألمت وارتعبت كثيراً لمرضك. ولم تتبدد مخاوفي حتى الآن. فأنا أفهم تماماً أن مثل هذه النوبات يمكن أن تسفر عن أخطر العواقب. وإذا لم أستلم منك رسائل جديدة عن شفائك التام فلن يقر لي قرار كل هذه الفترة. سأغادر، إن شاء اللّه، في 15 يونيو، وليس قبل هذا التاريخ، بل ويحتمل بعده. وقد كتبت لك أن استقالتي قبلت في بطرسبورغ، بالمرسوم السامي المؤرخ في 18 مارس. ولكن (الكتاب الرسمي) وصل الآن فقط إلى هنا، ولا بد من الانتظار حتى بداية يونيو على الأقل إلى أن تنتهي كل الإجراءات الرسمية المتعلقة بالموضوع، فيتم نسريحي نهائياً. ولكنني إذا غادرت في 15 يونيو فمن المستبعد أن أستلم منك جواباً على رسالتي هذه، لا سيما وأن البريد الآن أبطأ بكثير نتيجة لفيوض الربيع. ولكن إذا كنت تحبني أجب على هذه الرسالة في الحال، واكتبْ لي عن صحتك بمزيد من التفصيل، وأَرسلْها على العنوان في سيميبالاتينسك مباشرة.

يتعين عليَّ أن أقيم في أومسك أسبوعين أو ثلاثة بخصوص استدعاء بافل من الفيلق. وسيبعثون لي رسالتك من سيميبالاتينسك، فلا تكتب إلى أومسك، بل عنون الرسالة إلى سيميبالاتينسك. خيل إليَّ تماماً، يا صديقي ميشا، أنك ستموت فجأة، ولن أراك أبداً. ولا يزال الرعب يعتصر فؤادي حتى الآن. آه، يا ليتني أستلم منك رسالة أخرى ولو بأربعة سطور!

أشكرك جزيل الشكر، يا صديقي، على إرسال القمصان والصدريات وغيرها. لكنني لم أستلمها حتى الآن. لاحظت من رسالتك أنك بعثت كل هذه الحاجيات في منتصف مارس. رسالتك المؤرخة في 9 أبريل وصلت منذ أسبوع، أما طرد الحاجيات الذي بعثته في منتصف مارس فهو متلكئ في مكان ما في الطريق. هذا شيء غير مفهوم بالنسبة لي.

كنت أخبرتك أنني استلمت النقود من كوشيليف. لكنني لم أستلم المجلة منه. ولربما سأستلمها. وقد أخبرني أنه سيرسل إليَّ الحسابات. ولعله يرسل المجلة معها.

يا صديقي ميشا، أرجوك أن تنفذ طلبي. اكتبْ لي كل ما تسمعه عن روايتي دون أن تخفي شيئاً. ماذا قالوا عنها، فيما لو قالوا. ولعلك تفهم أن ذلك في منتهى الأهمية بالنسبة لي.

كتبت إلى كوشيليف مع البريد الفائت. كان من اللازم أن أخبره باستلام النقود. وقد طلبت منه المجلة بنفسي. وبخصوص المشاركة في مجلته كتب لي في رسالته أنه ينتظر بفارغ الصبر قصتي المرتقبة، فكتبت له أنني أرغب قبل كل شيء في لقائه والتحدث معه شخصياً. وأبلغته أنني أخطط لرواية ضخمة في قرابة 25 ملزمة، وأنا شديد الرغبة في الشروع بكتابتها وحدها، إلا أن بعض الملابسات تحول

دون التفرغ لهذا العمل. وبودّي أن أتحدث معه عن هذه الملابسات بالذات. بذلك ختمت رسالتي إلى كوشيليف من دون الدخول في توضيحات. أما أنت فأوضح لك هذه الملابسات. 1) أنا بحاجة إلى سنة ونصف لكي أتفرغ للرواية وأباشر في تأليفها. 2) لكي أعكف على كتابتها سنة ونصفاً ينبغي أن أؤمن حالي مالياً، بينما أنا لا أملك شيئاً على الإطلاق. 3) أنت تكتب لي دوماً أخباراً منها، على سبيل المثال، أن غونتشاروف استلم على روايته (أوبلوموف) البشعة باعتقادي 7000 روبل وأن تورغينيف استلم من كاتكوف الذي طلبت منه 100 روبل على الملزمة لا أكثر 4000 روبل، أي 200 روبل للملزمة، مقابل روايته «عش النبلاء» التي قرأتها أخيراً، وهي فاخرة جداً. يا صديقي ! أنا أعلم علم اليقين أنني أكتب أسوأ من تورغينيف، ولكن ليس أسوأ منه بكثير. ثم إنني آمل أن أكتب لا أسوأ منه إطلاقاً. فلماذا أتقاضى أنا المحتاج 100 روبل فقط، فيما يتقاضى تورغينيف الذي يمتلك 2000 من الأقنان 400 روبل؟ بسبب العوز أنا مضطر إلى التسرع، في حين أن الكتابة من أجل النقود تفسد النتاج حتماً. ولذا أنا أنوي، أثناء اللقاء مع كوشيليف، أن أقول له صراحة أن يعطيني مهلة سنة ونصف و300 روبل على الملزمة، وفوق ذلك 3000 روبل فضي مقدماً لتغطية تكاليف المعيشة في فترة التأليف. وإذا وافق أتعهد إلى ذلك بأن أسلمه في بداية العام القادم قصة قصيرة بملزمة طباعية ونصف. لدي الكثير من حبكات القصص الطويلة، أما القصيرة فلا. لكنني آمل أن يزورني الإلهام قبل رأس السنة وأحبّر قصة قصيرة (لمجلة) كوشيليف. وقد يبدو لك أن شروطي المتهاودة انتقلت فجأة إلى شروط متعالية جداً. إلا أن ذلك كله، يا صديقي، يعود لسبب أنت لا تعرفه. ولما كان هذا السبب، بدوره، مرتبطاً ارتباطاً

وثيقاً بسؤالك لي عن «الفقراء» والذي تطالبني بإجابة عاجلة عنه فإني أنتقل هنا إلى «الفقراء» رأساً.

أنت، يا صديقي، تريد أن تبيعها إلى كوشيليف. هذا شيء مستحسن. لكنني أرجوك أن لا تفعل ذلك، لأن في ذهني فكرة أخرى. وها هي: أنا أنهي الآن روايتي المخصصة (لمجلة) كاتكوف، وقد باتت طويلة بـ 14 أو 15 ملزمة، ثلاثة أرباعها أرسلتها إليه، وسأرسل الباقي في الأيام الأولى من يونيو. اسمع، يا ميشا. هذه الرواية تعاني، طبعاً، من نواقص كبيرة جداً، لعل في مقدمها الإسهاب. إلا أنني واثق وثوقي بالبديهيات بأنها تتسم في الوقت ذاته بمزايا عظيمة، وأنها أفضل نتاج كتبته. اشتغلت فيها سنتين، مع فترة توقف في منتصف «حلم العم». البداية والوسط منقحان، والخاتمة مكتوبة باستعجال. لكنني وضعت فيها روحي وكياني لحماً ودماً. أنا لا أريد أن أقول إنني عبّرت عن نفسي فيها بالكامل. فسيكون مثل هذا القول مجرد هذر. إذ لا يزال هناك الكثير مما سأعبّر عنه. زد على ذلك أن الرواية تحتوي على القليل من العواطف، بمعنى ثورة المشاعر، كما في «عش النبلاء». إلا أن فيها شخصين نموذجيين بارزين صرفت في خلقهما وتسجيلهما خمس سنوات، وهما مرسومان بصورة لا شائبة فيها، باعتقادي. إنهما نموذجان روسيان تماماً، ولم يركز الأدب الروسي عليهما بالقدر الكافي حتى الآن. ولا أدري هل سيقدرها كوشيليف حق قدرها. أعترف بأنني يمكن أن أتعرض لليأس إذا استقبل الجمهور روايتي ببرود. فأنا أعقد عليها أفضل آمالي العريضة، والأهم عليها يقوم ترسيخ اسمي الأدبي. فتصور: الرواية ستظهر في العام الحالي، ربما في سبتمبر. وأعتقد أنه إذا تكلم عنها النقاد وأثنوا عليها، يمكنني أن أقترح على كوشيليف أن يدفع 300

روبل على الملزمة. فالذي يتعامل معه ليس ذلك الكاتب الذي ألف «حلم العم» فقط. بالطبع أنا يمكن أن أخطئ بخصوص روايتي ومزاياها، إلا أن آمالي كلها معقودة على ذلك. ثم إذا نجحت الرواية في «البشير الروسي»، على أن يكون نجاحاً كبيراً، فعند ذاك تتبادر إلى ذهني فكرة جديدة بدلاً من إصدار «الفقراء» في طبعة مستقلة. عندئذٍ يمكن بعد وصولي إلى تفير، وبمساعدتك يا عزيزي ومساعدي الدائم، أن نصدر في يناير أو فبراير العام القادم مؤلفاتي في مجلدين حسب الترتيب التالي: المجلد الأول - «الفقراء»، «حكاية الأطفال»، «شجرة الميلاد والزفاف»، المجموع قرابة 18 ملزمة طباعية. المجلد الثاني- الرواية المخصصة لكاتكوف «قرية ستيبانتشيكوفو»، و«حلم العم». المجموع 24 ملزمة. وفيما بعد يمكن إصدار «الشبيه» منقحة، أو على الأصح مكتوبة من جديد تماماً. وستمثل المجلد الثالث. سيكون ذلك فيما بعد. أما الآن فمجلدان. ولن تتجاوز كلفة طبع 2000 نسخة 1500 روبل. ويمكن بيعها بسعر 3 روبلات للنسخة. ولذا فإذا عكفتُ على كتابة الرواية الضخمة سنة ونصفاً فإن تسويق المجلدين بالتدريج يمكن أن يسد احتياجاتي وتكون لدي نقود. كما يمكن بيع الطبعة من دون إصدار منا إلى كوشيليف مقابل ثلاثة آلاف أو حتى ألفين وخمسمئة روبل. ولكن بالطبع لا يجوز الدخول في مفاوضات معه الآن. ينبغي أن ننتظر نجاح الرواية التي عند كاتكوف. كل الآمال معلقة عليها. ونجاحها يسهل جميع المفاوضات.

ملاحظة: سأبعث إلى كاتكوف إجمالاً 15 ملزمة بـ 100 روبل للملزمة الواحدة، الحاصل 1500 روبل، وقد استلمت منه 500 وطلبت منه 200 روبل أخرى لتكاليف السفر، بعد أن أرسلت له ثلاثة أرباع الرواية، المجموع إذن 700 روبل. سأصل إلى تفير وليس معي

نقود. ولكني سأستلم من كاتكوف في وقت غير بعيد 700 أو 800 روبل. وذلك مبلغ لا بأس به، يمكن أن يسد بعض الاحتياجات.

تخيفني إشاعات تقول إنه إذا أخذنا بافل نهائياً من الفيلق ينبغي أن ندفع مقابل رعايته 200 روبل في السنة، أي 400 روبل. فمن أين لي بها؟ تلك بالنسبة لي صاعقة. كل ما لدي الآن 600 روبل زائداً 200 من كاتكوف. ولكن ينبغي شراء ثياب وما إلى ذلك، ينبغي قطع طريق بـ 4000 كيلومتر في فصل الصيف حيث السفر باهظ الثمن. ينبغي تجهيز 4 أفراس، وأحياناً 5. ولذا فكل ما عندي من نقود هو للسفر فقط. فمن أين لي أن أسدد نفقات بافل الدراسية؟

وداعاً يا عزيزي وحبيبي الطيب ميشا. رافقتك السعادة وموفور الصحة. يا ليتني أقبّلك بأسرع ما يمكن. تحياتي لزوجتك وقبلاتي للأولاد. ربما أني لم أكتب الكثير في رسالتي هذه، لكنني مستعجل إلى أقصى حد. فهناك عمل ينتظرني. وداعاً يا عزيزي، تحية إلى بليشييف، لماذا لا يكتب لي؟ فهل زعل لأني طلبت منه نقوداً؟ غير معقول. زوجتي تبلغك تحياتها. بلّغ تحياتي لكل من يتذكرني. إلى اللقاء يا صديقي.

(المخلص دوستويفسكي)

66. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

تفير، 19 سبتمبر 1859

استلمتُ أمس رسالتك، يا عزيزي ميشا. لكن الوقت متأخر، ولم أستطع أن أرد عليها رأساً. رسالتك أفرحتني إلى أقصى حد. أولاً، لأنني وحيد تماماً. وثانياً، لأنها وصلت قبل ما توقعت. كنت أظن أنها ستصل يوم السبت. أنا مسرور لأنك راض من جديد لوجودك بين أهلك. ولكن متى سنلتقي؟ فرغم مكوثي في تفير أنا أواصل الترحال على أية حال. وسيجمع المصير بيننا من جديد في وقت ما.

ذهبت إلى بارانوف (محافظ تفير) ومعي رسالة معنونة إلى دولغوروكي (مدير القسم الثالث). ووعدني بأن يبذل قصارى الجهود، بمعنى إرسال رسالتي لا أكثر، وقال أن لا جدوى من تقديم طلب الآن، فالأمير دولغوروكي غير موجود حالياً في بطرسبورغ، وهو لا يستطيع أن يرفع الطلب إليه خلال رحلته. ولذا نصحني أن أؤجل المسألة إلى منتصف أكتوبر، حيث يعود الأمير إلى بطرسبورغ. وطلب مني أن آتي إليه بالرسالة عندذاك. وأعتقد أنه محق. لا سيما وأن الأمير إذا عاد إلى بطرسبورغ بعد شهر فقد يدفع القضية بسرعة، خاصة

وأن هنالك تزكية وتوصيات من أشخاص مثل إدوارد إيفانوفيتش (توتليبين). وهكذا آمل أن أكون عندكم (في بطرسبورغ) في الأول من أكتوبر. فلننتظر إذن.

قرأت بمنتهى الارتياح ما جاء في رسالتك عن فرانغيل. فرحت له كثيراً. بلغه تحياتي وقل له إني أتحرق شوقاً لرؤيته. وإذا كان يستطيع أن يأتي إلى تفير ولو ليوم واحد فسيكون ذلك في منتهى الروعة. وسأكتب له هذه الأيام. كما سأكتب إلى إدوارد إيفانوفيتش بعد فترة قصيرة.

بلّغ تحياتي إلى مايكوف وقل له إني أتذكره دوماً وإن حبي له ليس أقل من حبه لي، وإذا جاء إلينا فسيكون ذلك عملا رائعاً. ولو ليوم واحد. قل له إنني أنتظره بفارغ الصبر. وقد كتبت لأخواتي.[1]

أنت تقول إنك لم تجد نكراسوف في بيته. ولكن، يا صديقي، إذا كنت لم تجده في السادس عشر من الشهر ألن تتأخر في تسليم المخطوطة؟ سنفوت الوقت فينشرون شيئاً آخر في عدد أكتوبر. لا سيما وأن قراءة المخطوطة ضرورية، وأنت لا تكتب هل تركتها له في بيته؟ وهل سلمته الرسالة؟ لقد وعدتني أن تكتب في 17 من الشهر إذا التقيت نكراسوف. ستراه بالطبع. ولذا أنتظر اليوم رسالتك بفارغ الصبر. ملاحظة: في العلاقة مع نكراسوف لاحظ جميع التفاصيل وكل ما يقوله. وأرجوك، باللّه عليك، اكتبْ لي عن كل شيء بالتفصيل. فهذا مهم جداً بالنسبة لي.

قبّل كوليا الكذاب، وكذلك قططك.[2] تحياتي الحارة إلى إميليا. زوجتي أيضاً تبلغكم جميعاً تحياتها الخالصة. بخصوصي شخصياً ليس لدي ما أضيفه. سوى أنني أفكر في المستقبل، وكيف أعكف على الرواية، وأتشكى من لزوم كتابة رسائل كثيرة، وقد تعذبت كثيراً في

تحرير الرسالة إلى الأمير (دولغوروكي. . .). الطقس رديء في تفير. والملل فظيع. أنا أفكر فيك يا عزيزي. لقد غادرتَ وأنا أعرف أننا لم نتعرف بعدُ بعضنا على بعض كما ينبغي، ولم نعبر أو نكشف لأحدنا الآخر عن كل شيء. كلا، يا أخي، لا بد أن نعيش معاً حياة غير متسرعة، بل عادية، وعندها سنتعايش تماماً. أنت عندي الوحيد، عشر سنوات لم تفرق بيننا. لم تكتب لي عن صحتك. والأهم ماذا قال لك (الدكتور) روزينبيرغ؟ رجاءً استفد من مشورته. وداعاً يا عزيزي. أعانقك. اكتبْ باللّه عليك.

المخلص د (وستويفسكي)

ملاحظة: (. . .) أنا أخطط للرواية التي ذكرت لك مضمونها، ولكنني آسف لإرجاء الرواية المطولة. فكرت في كتابتها. لولا ضرورة النقود للصرف على المعيشة.

لا تهمل النزيف. راجع روزينبيرغ.

---

(1) رسائل دوستويفسكي لأخواته في تلك الفترة مفقودة.

(2) «الكذاب» كوليا هو شقيق دوستويفسكي نيكولاي، و«القطط» هم أولاد ميخائيل.

67. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

تفير، 1 أكتوبر 1859

عزيزي ميشا! استلمتُ رسالتك أمس بعد أن بعثت إليك رسالتي التي تضمنت لوماً لك. والحقيقة، يا صديقي، كنت منهار المعنويات تماماً، لأنني لم أستلم منك شيئاً. ولذلك أرجوك الآن أيضاً، وحتى لو لم تجد شيئاً تكتب لي عنه، اكتبْ لي ببساطة وقل: لا شيء لديك يستحق الكتابة. لا تتركني في قلق شديد يزيد اليأس والتعاسة في أوضاعي. وآمل أن لا تزعل مني بسبب رسالتي. لا تزعل، يا حبيبي، واكتبْ لي أكثر.

أعترف أن رسالتك أدهشتني. لماذا يتصرف نكراسوف هكذا؟ هل هو مغرور بنفسه؟ أم أنه لم يقرأ (رواية القرية. .) بعد؟ سمعت أن نكراسوف مولع كثيراً بلعب القمار. ثم إن بانايف في شغل شاغل عن المجلة. ولولا تشيرنيشيفسكي ودوبرولوبوف لتقوض كل شيء عندهم. تقول إن من اللازم الانتظار، وهو أكثر لياقة. ولكننا، يا صديقي، انتظرنا بما فيه الكفاية. ولذا، اذهب، رجاءً، وأنا أرجوك بقوة، اذهب بنفسك إلى نكراسوف وحاول أن تجده في البيت، وهذا

هو الأهم. تكلم معه عن المصير الذي يقررونه للرواية. المهم أن تعرف هل سيطبعونها في عددين أو ثلاثة وما هي ملاحظاتهم عليها؟ وعندما تفرغ من الكلام عن ذلك يمكنك في الأخير أن تتطرق إلى النقود. قم بذلك، لوجه المسيح. وانتزع منهم الكلمة الأخيرة. فإذا لم تذهب بنفسك قد لا يأتي إليك أبداً. خصوصاً إذا كان يلعب القمار. أعقد كل أملي عليك.

والآن، يا عزيزي، أريد أن أكتب لك عما عزمت عليه لاعتبارات ناضجة. قررت أن أكتب الرواية، المطولة طبعاً، عاما كاملاً. فلا أرغب في الاستعجال. تركيبتها جيدة تحول دون التطاول عليها، من خلال التسرع في تأليفها لموعد معين. أريد أن أكتب بحرية وطلاقة. هذه الرواية تتضمن فكرة، وهي ستشق الطريق أمامي. ولكن كتابتها تتطلب تطمين الاحتياجات المعيشية. بيعها سلفاً والعيش على ثمنها انتحار. ذلك يعني القبول بـ 100 أو 120 (روبلاً للملزمة)، بينما أستطيع أن أتعامل وأحصل ربما على 150 أو 200. أنا نفسي سأكون بمثابة القاضي وأحكم لصالحي. إذا نجحت الرواية أنا أحدد السعر. ولذا لا يجوز البيع مقدماً، ويجب التأليف في ظل تطمين الاحتياجات. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: من أين أستحصل النقود لتغطية مصاريفي لعام واحد على الأقل؟ لقد فكرت في الموضوع جدياً وقررت أن أطبع بنفسي مؤلفاتي السابقة دون أن أبيعها إلى الغير. فالبيع لن يوفر الكثير، لن يعطوني (مقابل حقوق النشر) مالاً كثيراً. اسمع، إذن: لنفترض أن التوزيع سيجري ببطء. إلا أن ذلك لا يهم بالنسبة لي. فأنا بحاجة إلى 120 أو 150 روبلاً في الشهر. إذا حصلت على هذا المبلغ (من التسويق) فإنه سيطعمني. ولعلك تسأل: من أين نأتي بالنقود لتغطية تكاليف الطبع؟ إليك ما

أفكر فيه: 1) الإصدار ليس دفعة واحدة، بل كتاباً كتاباً. العدد الإجمالي ثلاثة كتب. يضم الكتاب الأول «الفقراء» و«نيتوتشكا نيزفانوفا» و«الليالي البيضاء» و«حكاية الأطفال» و«شجرة الميلاد والزفاف» و«اللص الشريف»، بعد التعديل، و«الزوج الغيور». المجموع قرابة 23 ملزمة بطباعة متحاشكة. ويضم الكتاب الثاني «الشبيه»[1] بعد التجديد الشامل، و«حلم العم». فيما يضم الكتاب الثالث «قرية ستيبانتشيكوفو». الكتاب الأول، باعتقادي، سيباع بسرعة. ولكن ينبغي تنقيح «الفقراء»، فهي لم تتغير منذ الطبعة الثانية. وكل ما تبقى في الكتاب الأول ينبغي أن يصحح قليلاً. بعض مؤلفات الكتاب الأول، مثل «نيتوتشكا نيزفانوفا»، ربما موجودة عندك، وبعضها الآخر يجب أن تبحث عنه بسرعة وعلى الفور عند مايكوف وميلوكوف وسواهما. بلغهم تحياتي، واطلب منهم أن يسمحوا بأن نستلّ هذه القصص من (مجلاتهم). فإذا سمحوا أَرسلْها إليّ وأنا أصححها على النسخ المستلّة وأعيدها إليك من دون تأخير. وإذا تمكنا من إنجاز ذلك في نهاية اكتوبر وتكون كل القصص مصححة عندك يمكن تسليمها إلى الرقابة في الأول من ديسمبر. وعندذاك نبدأ بطبع المجلد الأول اعتباراً من مطلع ديسمبر. من أين لنا بالمال؟ هكذا: أرجوك من جديد أن تأخذ الكمية اللازمة من الورق للمجلد الأول من التاجر وسلمه باسمك كمبيالة لمدة 6 أشهر، أو حتى أقل. المطلوب 300 روبل أو يزيد قليلاً. أقسم لك يا عزيزي ميشا أنني سأسدد الكمبيالة التي ستوقعها الآن بدلاً عني. وإذا لم يحظ الكتاب بالرواج ولا يعوض حتى عن ثمن الورق فسأحصل على النقود مهما كلف الأمر وأسدد الكمبيالة في الموعد. ولن تتضرر أنت. أما المطبعة، إذا تعذر التعامل معها بكمبيالة، فإنني أقدم نصف تكلفة

الطباعة، وأقترض النصف الثاني. (. . .) وهكذا، يمكن أن تنتهي الطباعة في منتصف يناير، ويمكن عرض الكتاب للبيع. أنا واثق بأن المجلد الأول سيترك تأثيراً معيناً. ذلك، أولاً، لأنه يجمع بين أفضل النتاجات، وثانياً، إنني أذكّر القراء بشخصي، وثالثاً، اسمي بحد ذاته مثير للفضول. ورابعاً، إذا نجحت الرواية في «المعاصر» فإن هذا المجلد سينجح أيضاً. والحال ففي منتصف ديسمبر سأرسل لك، أو أجلب بنفسي، «الشبيه» مصححة. صدقني، يا أخي، إعداد هذه النسخة المصححة والمزودة بمقدمة يعادل رواية جديدة. وسيرون أخيراً ما هي «الشبيه». آمل أن أثير انتباههم بقدر كبير جداً. باختصار، أنا أتحدى الجميع. وأخيراً إذا لم أصحح «الشبيه» الآن فمتى سأصححها؟ ولماذا أضيع الفكرة الرائعة وأفقد نموذجاً عظيماً من حيث أهميته الاجتماعية وأنا أول من اكتشفه وبشَّر به؟

في ديسمبر ذاته أسلم «الشبيه» و«حلم العم» إلى الرقابة. وفي يناير نطبع، وفي نهاية فبراير يصدر المجلد الثاني. وبعده، معاً تقريباً، المجلد الثالث- «قرية ستيبانتشيكوفو». النقود إما أن أقترضها، وإما أن المجلد الأول يوفرها. ثم إن المجلدين الثاني والثالث يمكن عند الضرورة بيع حقوق نشرهما في حال نجح المجلد الأول. سأعوض عن نفقات الطبعة، وحتى ذلك الحين أعيش على نقود «المعاصر»، وبعد ذلك على عائد بيع الطبعة، على الرغم من أنه سيكون بطيئاً. لا فرق بالنسبة لي. ذلك لأن البيع البطيء يكفي لإطعامي، فيما أعكف بجد من ديسمبر نفسه على تأليف الرواية الكبيرة التي إذا حققت النجاح بعد عام يمكن أن ينسحب نجاحها على باقي نسخ «المؤلفات». ولذا تتلخص الخطوة الأولى الآن في إطلاعي حالاً على رأيك وإرسال نسخ قصص المجلد الأول فوراً، وعلى قدر المستطاع،

لتصحيحها. إذا تباطأت في الجواب، يا صديقي، اعلم أن وقتي سيضيع جزافاً. فأنا لن أفعل شيئاً ولا أستطيع أن أفعل قبل الحل النهائي، أي هل ستوافق (على المشروع) وتساعدني أم لا؟ باللّه عليك أجبني بسرعة.

مايكوف لم يزرني (في تفير).. استلمت رسالة من فرانغيل. غولوفينسكي موجود هنا، وقد عرّفني دفعة واحدة على مجتمع المدينة كله. أنا لا أنوي إقامة علاقات حميمة مع الجميع، إلا أن الأصدقاء موضوع آخر. في المدن الهامشية لن يستطيع المرء أن يعتزل. وهذا أمر يثقل عليّ من ناحية. ثمة اثنان أو ثلاثة من الناس الطيبين. تعرفت جيداً على (المحافظ) بارانوف والكونتيسة (زوجته). وقد دعتني مراراً وبإلحاح أن أحل ضيفاً على منزلهم في الأمسيات. وكان من المتعذر تجاهل هذه الدعوات. واتضح لي أنني كنت أعرفها. فقبل 12 عاماً عرّفني (الكونت) سولوغوب عليها، وهي (قريبته)، وكانت فتاة يافعة لقبها فاسيلتشيكوفا.

ماريا دميتريفنا تبعث تحياتها. وأنا أعانقك من صميم القلب، وسأكون في فرحة عارمة للتملص من تفير. ففي تفير سيعيقني البعض عن الكتابة. أجبني، يا عزيزي، باللّه عليك. وداعاً، أقبّلك بحرارة. احتراماتي للجميع. حافظ على صحتك الثمينة. وتحياتي إلى إميليا وكولا وساشا. أكتب أكثر. حبذا لو استلمت النقود من نكراسوف. فهي ضرورية لك أولاً، ولي ثانياً.

(أخوك)

---

(1) رواية «المثل» في ترجمة سامي الدروبي.

68. إلى ألكسندر الثاني

تفير، 10-18 أكتوبر 1859

حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور المعظم!

أنا المجرم السابق المذنب بحق الدولة أتجرأ على عرض طلبي المستكين أمام عرشكم العظيم. وأنا أعرف أنني لا أستحق مبرة جلالتكم السامية، وأنني آخر من يمكن أن يأمل في مرحمة جلالتكم. إلا أنني إنسان تعيس، وأنتم، يا قيصرنا، رؤوف رحيم بلا حدود. أستميح جلالتكم عذراً على رسالتي، فلا تسلطوا سيف غضبكم على تعيس ينشد رحمتكم.

كنت محكوماً بجريمة ضد الدولة عام 1849 في بطرسبورغ وخفضت رتبتي وحرمت من كل حقوق الملكية ونفيت إلى سيبيريا لأداء الأشغال الشاقة من الدرجة الثانية في الحصون لمدة أربع سنوات، مع التنسيب بعد انتهاء هذه المدة إلى الجيش بصفة جندي. وفي عام 1854، وبعد الخروج من قلعة أومسك، نسبت جندياً إلى الكتيبة السيبيرية الميدانية السابعة. وفي عام 1855 تم ترفيعي إلى ملازم ثان، وفي العام التالي، 1856، أسعدت بمبرة سامية من جناب

جلالتكم الإمبراطورية بتنسيبي إلى سلك الضباط. وفي العام 1858 وجّه جلالتكم بمنحي حق كرامة النبلاء الوراثية، وفي العام ذاته قدمت استقالتي لإصابتي بالصرع الذي لاحت نذره منذ العام الأول من الأشغال الشاقة. والآن، بعد قبول استقالتي وتسريحي، انتقلت للإقامة في مدينة تفير. مرضي يشتد أكثر فأكثر. وبعد كل نوبة صرع أفقد، على ما يبدو، الذاكرة والتصور والقوى الروحية والبدنية. والنتيجة التي يؤول إليها مرضي هي إما الهزال أو الموت أو الجنون. ولدي زوجة وربيب يجب عليَّ أن أرعاهما. وليست عندي أية أملاك، وأكسب القوت من العمل الأدبي وحده. وهو عمل عسير ومرهق في حالتي المرضية. والحال فإن الأطباء يؤملوني بالشفاء استناداً إلى أن مرضي مكتسب وليس وراثياً. إلا أنني لا أستطيع الحصول على الإسعاف الطبي الجدي الحاسم إلا في بطرسبورغ حيث يوجد أطباء متخصصون بدراسة الأمراض العصبية. يا صاحب الجلالة الإمبراطورية، على مشيئتكم يتوقف مصيري وصحتي وحياتي. فتكرموا عليَّ بسماح الانتقال إلى بطرسبورغ للاستفادة من مشورة أطباء العاصمة. تكرموا بإحيائي ومنحي فرصة خدمة عائلتي بعد تحسن صحتي، بل وربما خدمة وطني بشيء. في بطرسبورغ يقيم دائمياً اثنان من إخوتي استمر فراقي معهما عشر سنوات. وقد تخفف عنايتهما الأخوية بي من وضعي العصيب. وعلى الرغم من كل آمالي فإن المآل السيئ لمرضي أو وفاتي يمكن أن يتركا زوجتي وربيبي من دون أي عون. وسأعمل لتأمين معيشتهما ما دامت في بدني قطرة من الصحة والقوة. إلا أن الأعمار بيد اللّه. والأمنيات البشرية لا مصداقية فيها. أيها القيصر الرؤوف الرحيم. اعذروني على رجاء آخر وتكرموا بمبرة استثنائية لقبول ربيبي بافل عيسايف البالغ من العمر 12

عاماً في إحدى ثانويات بطرسبورغ على حساب الدولة. وهو من أبناء النبلاء الأقحاح، نجل سكرتير المحافظة ألكسندر عيسايف الذي توفي في سيبيريا أثناء خدمة جلالتكم بمدينة كوزنيتسك محافظة تومسك، وقد قضى نحبه لعدم توفر الخدمات الطبية في البقاع النائية التي كان يخدم فيها، وترك زوجته وابنه من دون أية ثروة. وإذا تعذر قبول بافل عيسايف في الثانوية فتكرموا يا صاحب الجلالة بتوجيه قبوله في أحد فيالق الكاديت في بطرسبورغ. وبذلك تسعدون والدته المسكينة التي تعلّم ابنها يومياً على الابتهال من أجل سعادة جلالتكم وسعادة أسرتكم المبجلة. إنكم، يا صاحب الجلالة، شمس تنير الصالحين وغير الصالحين. وقد أسعدتم الملايين من أبناء شعبكم، فتكرموا بإسعاد يتيم مسكين وأمه ومريض تعيس لا يزال طريداً حتى الآن، وهو مستعد للتضحية بحياته في الحال من أجل القيصر الذي شمل شعبه بأفضاله.

بشعور من التمجيد والوفاء الخالص بلا حدود أتجرأ على توصيف نفسي بأصدق شخص شاكر أمين من رعايا جلالتكم الإمبراطورية.

فيودور دوستويفسكي

69. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

تفير، 20 أكتوبر 1859

عزيزي الغالي ميشا. أكتب لك هذه المرة كلمتين لا أكثر. استلمتُ رسالتك المؤرخة في 17 أكتوبر، ولكني لم أستلم بعد الطرد الذي بعثته لي، بل ولم يصلني إشعار من دائرة البريد. هذه الدائرة تعمل دوماً بغير انتظام. على أية حال أنا لا أعرف متى انطلق الطرد من بطرسبورغ. فهناك يمكن أن يتأخر.

أشكرك، يا صديقي، على جهودك وأتعابك في جمع مؤلفاتي. أنا أفهم وأتلمس كم تجهد نفسك من أجلي. وسأرد الجميل في زمن ما.

هل إستلمت رسالتي الأخيرة التي طلبت منك فيها أن تذهب إلى نكراسوف وكالينوفسكي[1]؟ عموماً، يا صديقي، أستعطفك مرة أخرى أن تبلغني في كل رسالة من رسائلك أنك استلمت رسالتي الفلانية، وهلمجرا. هذا شيء مهم. أرجو أن تفهمه. ثم إني أستعطفك، يا صديقي الغالي، أن تتصرف كما كتبت لك في رسالتي الأخيرة، أي أن تذهب إلى نكراسوف وإلى كالينوفسكي. وبالطبع أترك كل شيء

لك ولتصوراتك، فقد تستجد ملابسات لا علم لي بها. ولعلك توافقني أن نصيحتي لها قيمتها، وأن الذهاب إلى هذين الرجلين أمر مستحسن.

كرايفسكي كان قد وعدك يوم الخميس بإبلاغك النتيجة بعد أيام. وقد مرت تلك الأيام، حالياً نحن في يوم الثلاثاء. ومن الواضح أنهم يماطلون.

بخصوص كوشيليف أنا موافق بالطبع، وأشكركما كليكما، أنت ومايكوف. الـ 2000 مبلغ لا بأس به. ولكن الطبعة ستكون بثلاثة أجزاء. «قرية ستيبانتشيكوفو» تشكل الجزء الثالث. ولكن في حال ما إذا نشرها كرايفسكي هذا العام. حاول، يا عزيزي، أن تصر على هذا العام.

ملاحظة: ثمة نقطة أخرى. هل تتذكر المحاججات الأدبية للعقيد روستانيف[2] بشأن الأدب والمجلات و«مذكرات الوطن» وغيرها. الشرط اللازم أن لا يشطب كرايفسكي ولا سطراً واحداً من تلك المحاججات. رأي روستانيف لا يهين ولا يؤذي كرايفسكي بأي حال. أرجوك، ركز على هذا الشرط خصيصاً. استلمت النقود التي بعثتها لي وأشكرك، وأنت عارف بمدى شكري.

عريضتي أرسلت إلى بطرسبورغ، وأنا أنتظر. ولربما سيمر وقت طويل قبل أن أراك. فهم سوف يستفسرون وينقبون. هكذا أتوقع. ربما بعد شهرين.

وداعاً، يا عزيزي الغالي. أعانقك وأقبّلك. أخوك المخلص لك

دوستـ (ويفسكي)

تحياتي لجميع أفراد عائلتك. فرانغيل لم يكتب لي. ماذا دهاه؟ بعثت رسالة من خلاله إلى توتليبين. لم أستلم الجواب وقد مر أسبوعان.

---

(1) رئيس تحرير مجلة «المشعل».

(2) بطل «قرية ستيبانتشيكوفو».



70. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

تفير، 12 نوفمبر 1859

استلمتُ أمس رسالتك المؤرخة في 9 من الشهر، يا صديقي ميشا. وأريد أن أكتب لك ولو سطرين. أنت لن تصدق مدى امتعاضي من المكوث في تفير دون أن أعرف أي شيء عن سير قضيتي في واقع الحال. حبذا لو استطعت أن أخطط، ولكنني لا أستطيع لعدم معرفتي بأي شيء مما يجري بخصوصي في بطرسبورغ. كتبتُ للجميع وطلبت من الجميع ولا جواب. أوافقك على أنني اخترت في هذه القضية الطريق الأصعب. ألوم نفسي كل يوم وأنتظر. لعل أحداً يذكّر أدلربيرغ بقضيتي. ماذا لو أنهم لم يرفعوا رسالتي إلى المقام السامي؟ حبذا لو ذهبت أنت في لحظات الفراغ، إنْ وجدت، إلى فرانغيل لتستفسر منه، هل يتولى توتليبين مفاتحة أدلربيرغ بشأني أو يطلب من دولغوروكي أن يحدث أدلربيرغ عني أو يقدم طلبي بنفسه إلى صاحب الجلالة الإمبراطور؟ يا ليت شيئاً يحصل بسرعة. القيصر رؤوف رحيم، نحن جميعاً نعرف ذلك. إلا أن الرسميات والشكليات تؤخر النتيجة. المهم أن أقيم في بطرسبورغ لأبيع مؤلفاتي. على فكرة، لدي

خطة في ذهني هي أن لا نبيعها مقابل نقود، بل نطبعها بـ 2000 نسخة عند شيبكين وسولداتينكوف في موسكو. وهما لا يدفعان نقوداً، بل يطبعان ويسترجعان رأسمالهما بعد التسويق مع فائدة مئوية معقولة. هذا، باعتقادي، أفضل لعدة أسباب يطول الحديث عنها. ولعلي أفعل هكذا لو تمكنت من الحصول على نقود فور وصولي إلى بطرسبورغ لتغطية تكاليف المعيشة، إضافة إلى ما سأستلمه من كرايفسكي. أنت تفهم أن ذلك كله يهمني كثيراً. ففيه الحياة والمستقبل. على أية حال لا تفهم كلامي هذا حرفياً. فإذا توفرت الفرصة يمكنك أن تبيع مؤلفاتي مقابل نقود وابحث عن تلك الفرصة من دون انتظار مجيئي إلى بطرسبورغ. فالوقت يمضي. حبذا لو أصدرنا المؤلفات. الوقت يمضي ومعه نفقد فرص الحصول على المال...

ولكن فليذهب المال إلى الشيطان. بودّي أن أعانقك. وهذا هو الأهم. بودّي أن أقيم قربكم، وفي محيطكم، على جناح السرعة. العيش هنا صعب عليّ. الوقت يمضي وأنا لا أستطيع أن أباشر بشيء بسبب مختلف الانفعالات الأخلاقية... قد لا تصدق، يا عزيزي ميشا، مدى تأثير الانتظار. بعد شهر، وهل ستحل المسألة بعد شهر؟ ربما ستمر ثلاثة أو أربعة شهور. أنت تكتب عن فكرة تحتاج للبداية 15 أو 20 ألفاً. ذلك يشغل بالي أنا أيضاً، يا أخي، وكأن لعنة نزلت علينا. إذا نظرت إلى الآخرين تجد الواحد منهم يبني نفسه ويجمع الرأسمال من دون مواهب ولا قابليات. بينما نكدح نحن ونكد جزافاً. أنا على يقين، مثلاً، بأن لدينا وإياك شطارة وقابليات ومعرفة بالأمور، نعم، أكثر مما عند كرايفسكي ونكراسوف. فمثلهما في الأدب كمثل الفلاحين الجهلة. في حين أنهما يغتنيان، بينما جيوبنا خالية. أنت، مثلاً، شرعت بممارسة التجارة، فما أكثر الجهود وما

أقل المردود. ماذا كسبت؟ الحمد للّه أنك دبرت معيشتك وربيت الأولاد. فيما بلغت تجارتك نقطة معينة وتوقفت. هذا شيء محزن بالنسبة لإنسان لديه قابليات. كلا، يا أخي، يجب أن نفكر، وبشكل جدي، يجب أن نجازف ونتولى أمر مؤسسة أدبية، إصدار مجلة، على سبيل المثال... بالمناسبة، سنفكر في ذلك ونتحدث عنه معاً. لا يزال في الوقت متسع. نتيجة الرواية[1] ليست كبيرة حقاً: 13- 14 ملزمة. وهذا قليل. وسأستلم أقل مما كنت أتوقع. لعنة اللّه على الفقر. أَرسلْ لي رجاءً نسخة مستقلة قبل صدور عدد المجلة. فهذا يهمني جداً، كما تعلم.(...) أرجوك أن تبعث لي رأساً (ما يتبقى من أجرة الرواية بعد الاستقطاعات) على سبيل الاحتياط. من يدري ربما سيتقرر مصيري. وعندها سأحتاج إلى تلك النقود لمغادرة هذا المكان. ولذا أرسلْها بأسرع ما يمكن. وداعاً، أعانقك، اكتبْ لي عاجلاً.

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: حالما تصدر الرواية أَطلعني، بمنتهى التفاصيل، على كل ما تسمعه عنها. وما ستكون الأقاويل إنْ وجدت.

---

(1) «قرية ستيبانتشيكوفو» نشرت في «مذكرات الوطن» عام 1859.

71. إلى ألكساندرا شوبرت

بطرسبورغ، 3 مايو 1860

الفاضلة ألكساندرا إيفانوفنا الموقرة. أنا في بطرسبورغ من ثلاثة أيام، وقد عدت إلى أعمالي. الرحلة كلها إلى موسكو تبدو لي وكأنها حلم في المنام. وقد عدت من جديد إلى رطوبة الجو والأوحال، إلى جليد (بحيرة) لادوغا، إلى ملل ما بعده ملل. ذهبت إلى ستيبان دميتريفيتش، وهو في شقته السابقة، في بناية بيكييف، واستقبلني بفرح وترحاب وسأل عنك كثيراً. أخبرته بكل ما أعرف، وبلّغته، بالمناسبة، أنك راغبة جداً في استبدال الشقة، وأنك لا تملكين نقوداً، بل تنتظرينها منه. فقال إن شقتك الحالية جيدة، وليس إيجارها باهظاً كما يبدو للوهلة الأولى، ولكن بالطبع الأفضل لك أن تنتقلي إلى شقة أخرى وأنه تحدث معك عن الانتقال، ولهذا الغرض سافر إلى موسكو ليقول لك ذلك، ويرتب إقامتك عموماً، إلا أنه استنتج أن ذلك يتطلب مبلغاً كبيراً، لاستئجار قصر، والمبلغ غير متوفر حالياً، وأنه بالطبع سيرسل لك ربما 300 روبل يوم الأربعاء، وأن ذلك قليل. وأضاف عرضاً: أن لديك نقوداً، ولكن ينبغي صرف التذكرة، وهو أمر لا

ترغبين فيه. وأذكر أنك تحدثت عن هذه التذكرة في بطرسبورغ وعن رغبة ستيبان دميتريفيتش في صرفها. وأنا لم أقل له شيئاً بهذا الشأن واقتصرتُ في حديثي على الصعوبة التي تواجهينها في تناول طعام الغداء أحياناً في الساعة الخامسة. كما حدثته عن نجاحاتك على خشبة المسرح وعن بليشييف وعن مدام إيلوفايسكايا. وهو أيضاً يرى أن التعرف على علية المجتمع ضروري حتى في تثبيت موقعك المسرحي. جلست معه قرابة ساعة. كان ذلك يوم الأحد. وفي المساء مر ستيبان دميتريفيتش على أخيه وكان في أحسن مزاج. وفي يوم الأربعاء، أي غداً، سيكتب لك. هكذا قال على أية حال. تلك هي كل تفاصيل جلستي معه.

عدت إلى هنا وأجد نفسي في وضع محموم تماماً. والسبب في ذلك روايتي. أريد أن أكتبها جيداً، وأحس أن فيها شاعرية، وأن مستقبلي الأدبي يتوقف على نجاحها. ولذا يتعين عليَّ أن أعكف على تأليفها قرابة ثلاثة أشهر. فما أعظم المكافاة حينما أنتهي. تتجسد تلك المكافأة في الهدوء النفساني والنظرة الصافية إلى المحيط والاطمئنان إلى أنني فعلت ما أردت أن أفعله وبقيت مصراً على موقفي. ولربما سأكافئ نفسي بسفرة إلى الخارج لمدة شهرين تقريباً. لكنني سأعرج على موسكو حتماً قبل ذلك. كيف ألتقيك عندئذٍ؟ آنذاك تتعايشين مع موسكو وترتبين أوضاعك تماماً. فليوفقك اللّه. ولك مني أخلص التمنيات. أنا أيضاً أريد أن أستحق صداقتك. أنت طيبة القلب للغاية، وذكية جداً، وروحك أليفة بديعة، ولا أفضل من الصداقة معك. ثم إن طباعك أخّاذة. فأنت ممثلة. وأحياناً تسخرين برقّة من كل ما هو مبتذل ملحاح وغبي يثير الضحك حتى يغدو الإنصات إليك بديعاً ممتعاً. الاعتزاز بالنفس شيء جيد، ولكنه، باعتقادي، ضروري

فقط للأهداف الرئيسية، لكي يضع المرء هدفاً لنفسه ورسالة لحياته. وكل ما عدا ذلك تافه لا أهمية له. الحياة اليسيرة هي الأهم. بشرط التعاطف مع الناس، بالإضافة إلى استحقاق تعاطفهم. وهذا وحده، حتى من دون أهداف متميزة، يشكل هدفاً كافياً في الحياة.

لكنني تماديت في التفلسف. الأخبار التي سمعتها قليلة. لم أسمع شيئاً تقريباً. بيسيمسكي مريض بالروماتيزم الشديد. مررت على أبولون مايكوف، فقال لي إن بيسيمسكي متقلب المزاج في زعل ونزوات وما إلى ذلك. ولا غرابة في ذلك، فالمرض موجع أليم. على فكرة، هل تعرفين المدعو سنيتكين. كان ينظم أشعاراً فكاهية باسم آموس شيشكين. تصوري، مرض وقضى نحبه في ستة أيام. الصندوق الأدبي قدم معونة لعائلته. أمر محزن. ولعلك لا تعرفينه. رأيت كريستوفسكي. وأنا أوده كثيراً. نظم قصيدة وتلاها علينا باعتزاز. وقلنا له جميعاً إن هذه القصيدة رديئة للغاية، ذلك لأننا اعتدنا على قول الحقيقة. فكيف كان رد فعله؟ لم يزعل مطلقاً. إنه فتى شهم لطيف. وأنا أزداد إعجاباً به حتى يطيب لي أن أزيل الكلفة وأجلس معه في الاستراحة. أحياناً تأتي الانطباعات عجيبة غريبة. يخيل إليَّ طول الوقت أن كريستوفسكي سيموت قريباً. ولا أدري ما سبب هذا الانطباع.

بودّنا أن نقوم بمشروع مرموق في الأدب، كمؤسسة فكرية. ونحن مشغولون جداً بهذا الموضوع. ولربما سنوفق. على أية حال، كل هذه المهمات نشاط وإنْ كان في خطوته الأولى[1]. أنا أفهم الخطوة الأولى، وأحبها، فهي أفضل من الطفرات.

حدثني ستيبان دميتريفيتش قليلاً عن مارتينوف وعن طرف من موقفك تجاهه. وإذا كان ذلك صحيحاً فكم كنت تحتاجين من الحذر

والحذاقة ومعرفة الناس والمشاغل؟ في مثل هذه الحال يعتكر المزاج عفوياً. وما يعجبني فيك تحديداً هو أنك تؤمنين بالحياة وبرسالتك فيها رغم المنغصات وتحبين الفن من صميم القلب ولا تشعرين بخيبة أمل فيه. فليكن اللّه في عونك. تلك هي أمنية من يتجرأ ويعتبر نفسه صديقاً لك.

وداعاً، لا تزعلي من لجاجتي في طلب الصداقة. على فكرة، طباعي متنرفزة مقيتة، في بعض الأحيان، وليس على الدوام. وهذا ما يخفف عليّ. شدّي، بالنيابة عني، على يد ابنك ميخائيل ميخائيلوفيتش. فما أروعه من فتى. أشد على يدك وأقبّلها، مع فائق التقدير والاحترام.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) المقصود إصدار مجلة «الوقت» الشهرية.

72. إلى يعقوب بولونسكي

بطرسبورغ، 31 يوليو 1861

عزيزي الغالي يعقوب بتروفيتش. أرجو المعذرة لأنني لم أكتب لك من زمان. واللّه العظيم كنت مشغولاً على الدوام. فقد سافرت إلى موسكو للتجول ولو لـ 10 أيام فقط. لكنني أهملت عملي خلالها، ولذا انكببت عليه من اليوم الأول لشهر يوليو وحتى نهايته[1]. وأنا عندما أعمل، تلك هي طبيعتي، لا أعبأ بالأمور الأخرى أو كتابة الرسائل حتى إنْ وجد قليل من أوقات الفراغ.

ولذا لم أكتب لك حتى الآن. فهل تسامحني؟

كيف حالك عموماً؟ والأهم كيف صحتك؟ ماذا تفعل؟ هل تكتب؟ أنا أقرأ جميع رسائلك، ولكنك لا تكتب فيها عن نفسك إلا القليل. بالمناسبة، متى تعود؟ وهل ستقضي كل الأوقات في النمسا؟ إيطاليا جنبك على ما يبدو، ألن تغويك فتسافر إليها؟ لقد حالفك الحظ. كم مرة حلمتُ، منذ الطفولة، بالسفر إلى إيطاليا؟ من روايات رادكليف التي قرأتها وأنا في الثامنة من العمر. مختلف الشخوص مثل ألفونس وكاترينا ولوتشيا انغرزوا في دماغي. أما الدون بيدرو والدونا

كلارا وأمثالهما فلا يزالون يجولون في ذهني حتى اليوم. ثم جاء دور شكسبير- فيرونا، روميو، جولييت. يا لها من مسميات جذابة (تدعوني): شد الرحال إلى إيطاليا، من كل بد. وبدلاً من إيطاليا وجدت نفسي (منفياً) في سيميبالاتينسك، وقبلها في منزل الأموات. هل يعقل أني لا أستطيع الآن أن أسافر إلى أوروبا حيث بقي شيء من الطاقة والحماسة والشاعرية؟ هل يعقل أني سأسافر إلى هناك بعد عشر سنوات أو يزيد لأدفئ العظام الشائخة من الروماتيزم وأسخن صلعتي الجرداء في شمس الضحى؟ هل يعقل أني سأقضي دون أن أرى شيئاً؟

ولكن ذلك لا يتوقف عليك. فلننتقل إذن إلى مواضيع أخرى. في البداية عنك. فهل تكتب شيئاً يا عزيزي الغالي؟ فصولك الثلاثة نشرناها[2] في يونيو، وتركت أصداء متباينة جداً. أولاً- الأصداء عموماً غير مكتملة، وهذا مفهوم. فالرواية عندما تنشر كاملة تترك انطباعات أقوى بكثير. تعليقات القراء، كما سمعت، مختلفة، لكن الشيء الجيد هو أن أصحاب التقريظ ينقسمون إلى فئتين على طرفي نقيض: مستحسن ومستهجن. وهذا أفضل ما في الأمر. فهو يعني عدم وجود الوسطية الذهبية لعنها اللّه. البعض معجبون جداً يثنون على النتاج كثيراً ويتذمرون كثيراً أيضاً لغياب البقية. وقد أعلن أحد الأشخاص ممّن يتحلون بالذكاء أن الرواية لا تعجبه إطلاقاً «كونها لا تحتوي على تطوير، وبالتالي فهي غير موجودة». وأجابه شقيقي أن تطور الرواية لا يزال في بدايته. فدهش الرجل لهذا الكلام، وفغر فاه استغراباً. كان يتصور أن الفصول الثلاثة هي الرواية بكاملها. ولم يكن قد لاحظ الإشارة إلى أن البقية ستنشر لاحقاً. الصديق ستراخوف حفظ فصولك الثلاثة عن ظهر قلب. وهو يحب الاستشهاد بها دائماً. ونحن أيضاً عندما نجتمع معاً في بعض الأحيان نزج أشعارك في

الحوار بمناسبة وبغير مناسبة. في المضمار الأدبي لم تظهر بعد، كما هو واضح لك، تعليقات على الرواية، ما عدا الذين لا يصبرون طويلاً دون أن يسلطوا سيف النقد والملامة. جاء الانتقاد من شلة مينايف وكوروتشكين وأمثالهما الذين يتصورون أنهم يشكلون حزباً. ن. كوروتشكين، شقيق فاسيلي، تسلم رئاسة تحرير «المصور». الرجل المناسب في المكان المناسب. إنهم ينتقدون الشعر في الرواية. ويسخر مينايف من قولك «برغوث الحياة لسعه» ويقارن بينك وبين كوسكوف الذي يكتب عن البعوض والذباب فقط. بديهي أن بذاءات هؤلاء الأدعياء وتوصيفاتهم النابية لا أهمية لها ولا معنى. في موسكو رأيت أوستروفسكي. وكان نكراسوف الذي مر بموسكو قبلي قد زاره. قال لي أوستروفسكي إن نكراسوف معجب جداً بروايتك. وقد أعلن شقيقي (في مجلة «الوقت») أن بقية الرواية ستنشر في سبتمبر. حسناً فعل أم لا؟ صحيح أن من الضروري مواصلة النشر حتماً وبسرعة، فذلك يصب في مصلحتك ومصلحتنا طبعاً. ولذا لا جدوى من التأجيل. وستترك الرواية صدى عند الجمهور. أنا أعرف كيف تتطور الأحداث عندك في الرواية. وسيتأثر الجمهور بشدة إذا قدمت له روايتك باستقلالية وحزم. أنا، مثلاً، أسأت لنفسي كثيراً عندما مططتُ «مذلون مهانون» حتى شهر يوليو وأضعفت تأثيرها. والآن أنهيتها والحمد لله. بحلول الشتاء تصدر على حدة. بعتها لأحد الناشرين بـ 1000 روبل، وما كان بالإمكان أكثر. المجلة تتواصل، والاكتتاب عليها مستمر حتى الآن، وإن كان طفيفاً. في عالم الأدب كثير من المجادلات؛ ولكن ليس حول الأدب، بل بمعنى الكتابات الصحفية الاجتماعية. تشيرنيشيفسكي بدأ سلسلة مقالات عن الصحافة المعاصرة، يردّ فيها بالأساس على خصومه. وهو يكتب بحماس كبير

يحفز الجمهور، وهذا مهم. عرض آراءه بأصالة ووضوح. وفي تلك الأصالة تكمن نواقصه، طبعاً. ولربما يكون لنا رأي بخصوص مجادلاته سنعرضه (في «الوقت») بكل حيادية. معركتنا مع «البشير الروسي» مستمرة. يمكن الكلام عن ذلك كثيراً، ولكن الأفضل أن تقرأ بنفسك. (. . .) نعيش الآن في (ضاحية) كوتلوفسكايا، حياتنا ليست مرحة وليست مملة. فالعمل كثير. أعتقد أن المجلة تكسب المزيد من تعاطف القراء. فهم يهتمون حتى اليوم بكل عدد منها.

إذا نشرت هذا العام ثلاثة فصول أخرى من روايتك فستقدمها للجمهور بشكل بارز ومكتمل. وسيعرف القراء مع من يتعاملون وسيظلون ينتظرون الكثير من الرواية. حتى المنتقدون الأكثر تهجماً يعرفون ماذا عليهم أن يقيّموا الآن، كما يعرفون أن الرواية جيدة. نحن لم نخطئ عموماً، فقد كُتب لهذه الرواية أن يكون لها تأثير وأهمية.

وداعاً، يا صديقي الغالي، أعانقك بحرارة.

المخلص ف دوستويفسكي

ملاحظة: عد إلينا بسرعة.

---

(1) كان دوستويفسكي آنذاك يعمل على خاتمة «مذلون مهانون» لمجلة «الوقت»، وكذلك الفصول الختامية للجزء الأول من «ذكريات من منزل الأموات»، بالإضافة إلى مقالات عن الأدب الروسي.

(2) من رواية شعرية بعنوان «قالوا أخيراً» نشرتها مجلة «الوقت» عام 1961.

ثالثاً:

ما قبل «الجريمة والعقاب»

(1866)



73. إلى ألكسندر أوستروفسكي

بطرسبورغ، 24 أغسطس 1861

السيد الكريم ألكسندر نيكولايفيتش!

يطيب لي أن أحيطكم بأنني استلمت منكم كتاب بالزامينوف[1] الفريد قبل ثلاثة أيام، وشرعنا بقراءته أنا وأخي. وكان هناك عدة مستمعين آخرين، ليسوا أدباء، ولكنهم من ذوي الذوق السليم. ورحنا نقهقه لحد الألم في الخاصرة. ماذا عساي أن أقول لكم عن «مسرحياتكم»؟ فأنتم تريدون مني رأياً صادقاً تماماً ومن دون مجاملات. يمكنني أن أجيب بكلمة واحدة: روعة. ذلك الركن من موسكو الذي استرعى انتباهكم مجسد بصورة نموذجية حتى خيل إليَّ أنني جالس أتحدث بنفسي مع بيلوتيلوفا. عموماً بيلوتيلوفا هذه والفتيات والخطابة والأم، وأخيراً البطل نفسه (بالزامينوف) كلهم يشعون حيوية في لوحة متكاملة لدرجة يخيل إليَّ فيها أنها لن تخبو في ذهني أبداً. الكابتن عندك فقط يبدو متعدد الوجوه. متمسك بالواقع ولا شيء آخر. ولربما أنني لم أنتبه إلى ذلك تماماً من القراءة الأولى. بديهي أنني سأقرأ مسرحيتكم الكوميدية خمس مرات أخرى. إلا أن



ألكسندر أوستروفسكي

كراسافينا ينبغي أن تحتل المرتبة الأولى بين الخطّابات في مسرحياتكم. وقد رأيتها آلاف المرات، وكنت أعرفها، ، كانت تتردد على بيتنا، عندما عشت في موسكو وأنا في العاشرة من العمر. أنا أتذكرها.

على فكرة، بعض المستمعين والمستمعات إلى مسرحيتكم استخدموا بيلوتيلوفا كاسم علم. وراحوا يشيرون إليها ويبحثون في الذاكرة عن الفتيات (شخوص المسرحية) من عائلة بيجينوف.

إنني وأخي شاكران وممتنان لكم كل الامتنان. وقد طلب مني أخي أن أحيطكم علماً بأنه سيبعث لكم النقود في آخر الأسبوع الحالي، أي بعد ثلاثة أيام من كتابة هذه الرسالة.

تقولون إنكم فكرتم بكتابة المزيد لمجلتنا. نرجوكم، لوجه المسيح، لا تتخلوا عن هذه الفكرة الطيبة. نحن لن نستعجلكم، إلا

أننا سننتظر بفارغ الصبر. المصحح لدينا جيد جداً، وهو طالب متمكن من عمله، وإذا رجوناه يبذل قصارى جهده ويبدي اهتماماً خصوصياً بما يصححه. سأكلمه بنفسي في هذا الشأن. قبل قليل قرأت رسالة بولونسكي من تبليتسه. لا يزال مريضاً، ويشعر بضجر شديد. في الخريف سيعود إلينا. روايته لم تعجب الكثيرين في بطرسبورغ. إلا أننا سمعنا إطراءً كبيراً من البعض. قلة الإعجاب من المرة الأولى أفضل. فهي مؤشر جيد في مفهومنا.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) مسرحية أوستروفسكي «زواج بالزامينوف» نشرت في «الوقت» عام 1861.

74. إلى نيكولاي ستراخوف

باريس، 26 يونيو 1862

عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش[1]. في مطلع يوليو تسافر إلى الخارج. في أمان الله وحفظه. في ذلك الحين سيكون الطقس رائعاً، وهذا وحده كافٍ، ما دام الطقس معتكراً الآن في كل مكان من أوروبا. ولكنني أشعر بالذعر عندما أتذكر أنك ستترك (أخي) ميخائيل ميخائيلوفيتش وحيداً. يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش! الوقت حالياً رديء، وقت الانتظار الممل الكئيب، على حد تعبيرك[2]. إلا أن المجلة شيء عظيم، تمثل نشاطاً لا تجوز المجازفة فيه، لأن المجلات يجب أن تبقى مهما كلف الأمر وسيلة للتعبير عن مختلف تلاوين الآراء المعاصرة. وهذا النشاط، بمعنى الفعل والكلام والكتابة، متوفر دوماً. يا إلهي، كلما أفكر فيما لا يزال يحتاج إلى عمل وكتابة أتوق إلى الرحيل من هنا، من هذا «البعيد السعيد»[3]، بالروح إن لم يكن بالبدن، إليكم في روسيا. كل فرد يجب أن يعمل الآن، والأهم أن يجد السبيل إلى العقل السليم. فقد اختلطت المفاهيم عندنا في المجتمع كثيراً. وحصل سوء فهم. أنت تقول،

يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش، إنك تريد أن تسافر أولاً إلى موسكو. حذارِ أن يلتف عليك أساطين الصحافة هناك. وقد يغريك كاتكوف في ساعة مشؤومة بنظرية مسطّرة على ميدان تجريدي لا حدود له. . . كلا، أنا أمزح. آه يا عزيزي الحبيب، ما أشد رغبتي في لقائك هنا. على أية حال أظن أن ذلك أمر ممكن ولازم تماماً. بشرط أن لا تختلط العناوين. المهم أن تتذكر تاريخ 15 يوليو، من تقويمنا، وليس قبل هذا التاريخ أنا أغادر باريس إلى كولونيا. وسأقضي يوماً في دوسلدورف، ثم أستقل الباخرة إلى أعالي الراين حتىماينتس، ومن هناك إلى أوبرلاند، أي ربما إلى بازل وهكذا. يعني أنني سأكون في بازل يوم 18 أو 19 من الشهر حسب تقويمنا، وفي 20، 21 أو 22 سأكون في جنيف. وبالتالي فإن أي رسالة منك، من أي مكان، إذا وصلت إلى باريس ليس بعد الـ 15 من يوليو سأستلمها وسأعرف أين أجدك. وحتى إذا كتبت لي، مثلاً، من برلين أو درزدن أنك ستكون في التاريخ الفلاني في المكان الفلاني، ويمكنك حساب ذلك دوماً قبل عشرة أيام، فسأبحث عنك هناك. وإذا اقتنيت دليل ريهارد ستعرف الفنادق وأسعارها في كل مدينة. ويمكنك، على سبيل المثال، أن تكتب لي وأنت في برلين بأنك ستتوقف في جنيف في التاريخ الفلاني وفي الفندق الفلاني. وسأستفسر عنك في ذلك الفندق. ويمكن أن تصل إلى جنيف ولا تنزل في ذلك الفندق إذا اعتبرته غير مريح وتأخذ فندقاً آخر فإن ذلك لا يمنعك إطلاقاً من ترك عنوانك في الفندق المتفق عليه سابقاً ليقدموه لمن يسأل عنك، أي لي. وبالمقابل تعطي لبواب الفندق إكرامية، فرنكاً واحداً. وبهذه الصورة سأجدك حتماً. الفضول يدفعني أيضاً إلى معرفة تفاصيل رحلتك. أقول لك، يا نيكولاي نيكولايفتش، إن باريس مدينة مملة

جداً. ولو لم يكن فيها الكثير من الأشياء الرائعة حقاً، لقتلنا الملل في الحقيقة والواقع. والفرنسيون، واللّه، شعب يبعث الغثيان. تحدثتَ عن وجوه وقحة متعالية ومقرفة تصول وتجول في حماماتنا المعدنية[4]. ولكني أقسم لك أن الموجود هنا لا أقل من ذلك. عندنا مجرد أنذال من (أكلة لحوم البشر) يقومون بتلك التصرفات عمداً في الغالب. أما هنا فهم واثقون تماماً بأن ذلك هو المطلوب. الفرنسي هادئ نزيه مهذب، لكنه مزيف، المال بالنسبة له كل شيء. وليس لديه أي مثال أعلى. ولن تجد عنده حتى التأملات، ناهيك عن المعتقدات. مستوى التعليم العام واطئ، في حده الأدنى. أنا لا أقصد العلماء النحارير. إلا أن عدد هؤلاء قليل. ثم هل الدرجة العلمية هي التعليم بالمعنى الذي تعودنا عليه لهذه الكلمة؟ ولعلك تضحك من أحكامي هذه ولم يمض عليَّ في باريس سوى عشرة أيام. أوافقك. ولكن، أولاً- ما رأيته في هذه الأيام العشرة يثبت صحة فكرتي لحد الآن. وثانياً- ثمة وقائع تكفي نصف ساعة لملاحظتها وفهمها، لكنها تجسد جوانب كاملة من الوعي الاجتماعي كونها ممكنة وموجودة.

هل ستعرج على باريس؟ لاحظ: لا قيمة لزيارة باريس لمدة ثلاثة أيام. وإذا خصصت لها، كسائح، أسبوعين، فستشعر بالملل. أما المجيء إلى هنا لغرض الأعمال فهو مبرر. هناك الكثير مما يستحق الرؤية والدراسة. يتعين عليَّ أن أبقى بعض الوقت في باريس، ولذا أريد أن أراها وأدرسها من دون تكاسل ودون أن أضيع الوقت، بالقدر الممكن لسائح بسيط مثلي. ولا أدري هل سأكتب شيئاً ما؟ إذا رغبت جداً ما المانع من الكتابة عن باريس؟ إلا أن المشكلة: لا وقت لدي هنا أيضاً. الرسالة الجيدة من الخارج

تتطلب، على أية حال، جهداً لثلاثة أيام. فمن أين لي هنا بهذه الأيام الثلاثة؟ لا أدري[5].

ثم، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفتش، أنت لا تصدق كيف تأخذ الوحشة والوحدة هنا بخناق الروح. ذلك إحساس ثقيل كئيب. لنفترض أن الشخص وحيد وليس هناك من يشفق عليه. إلا أنه يشعر، على أية حال، بأنه انتزع قدميه من التربة المعهودة وابتعد عن الأعمال الملحة البطيئة وعن المسائل العائلية الجارية. صحيح أن الطقس المعتكر لا يزال يشوش عليَّ في الخارج وأنني لا أزال أتواجد في شمال أوروبا ولم أر من عجائب الطبيعة سوى الراين وشواطئه. هذه أعجوبة بالفعل، يا نيكولاي نيكولايفيتش. وسأرى المزيد عندما أهبط من الألب إلى سهول إيطاليا. يا ليتنا نرى نابولي معاً، ونتجول في روما ولربما نداعب شابة من فينيسيا في الجندول. ها..؟ ما رأيك يا نيكولاي نيكولايفيتش؟[6] ولكن... «السكوت أفضل» في موقف مثل هذا، كما يقول بوبريشين[7].

وداعاً يا نيكولاي نيكولايفيتش. أنا لم أكتب لك أية تفاصيل عن انطباعاتي في الخارج، ذلك لأن الرسالة لا تتسع لكل شيء دفعة واحدة، في حين أنني لا أستطيع الكتابة على أجزاء. ثم إن انطباعاتي لحد الآن لا تستحق الذكر. فقد مضى عليّ 19 يوماً فقط في الخارج. أعانقك من صميم القلب. بلّغ تحياتي إلى العزيز الطيب تيبلين الذي صرت أحبه مؤخراً ولا أدري على أية أفضال، وكذلك إلى يفغينيا كارلوفنا العزيزة الموقرة. كيف صحتها؟ على فكرة: إذا سافرتَ إلى موسكو فإن رسالتي على الأرجح لن تصلك في بطرسبورغ. على أية حال سأكتب عليها أيضاً عنوان هيئة تحرير «الوقت».

وداعاً. والأفضل إلى اللقاء. فلا محيص من لقائنا في الخارج.

أنا لن أسامح نفسي إذا لم نلتقِ. أشد على يدك بحرارة. تحياتي إلى جميع معارفنا. كيف سلوك قطك غير المؤدب؟

وداعاً.[8]

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) محرر في مجلة «الوقت».

(2) إشارة إلى صعوبات مجلة «الوقت» بعد تعقد الموقف السياسي في روسيا.

(3) ورد هذا التعبير لأول مرة عند نيكولاي غوغول، «النفوس الميتة»، المجلد الأول، الفصل الحادي عشر.

(4) وهي حفلات ترفيهية متهتكة كانت تقام في ضواحي بطرسبورغ تحت مسمى «المياه المعدنية».

(5) انطباعات دوستويفسكي عن رحلته إلى الخارج تجسدت فيما كتبه بعد العودة بعنوان «ذكريات شتاء عن مشاعر صيف».

(6) التقى دوستويفسكي مع ستراخوف آنذاك في جنيف، ثم قاما معاً بجولة في إيطاليا، وأمضيا قرابة أسبوع في فلورنسة.

(7) في «مذكرات مجنون» لنيكولاي غوغول (1835).

(8) في الأصل بالإيطالية.

75. إلى نيكولاي نكراسوف

بطرسبورغ، 3 نوفمبر 1862

بوسعك، يا نيكولاي ألكسييفيتش الطيب الموقر، أن تحكم بنفسك على شدة ألمنا لحرماننا من أشعارك. ولكن ما العمل إذا كانت تلك مشيئتك؟ على الأقل يمكنك أن تفي بوعدك بعد استئناف صدور «المعاصر»[1] آنذاك ستفي بالوعد طبعاً. ولن يتهمك أحد. الأفضل أن تلومنا في عدد يناير القادم من «المعاصر»، وأعطنا الأشعار لعدد مجلتنا في فبراير.

ولا يسعني، بالمناسبة، إلا أن أعترف لك بأمرين أو على الأصح بشكوكي مرتين: 1) كيف لشخص شهير في الأدب مثلك، وشاعر فضلاً عن ذلك، أن يرتعش أمام رأي[2] عابر وغير وجيه ولا مؤكد بطبيعته؟ 2) لماذا تتصور أن مشاركتك في مجلتنا «الوقت» تحط من سُمعتك وتسوق الدليل على الإشاعات القائلة بأنك خنت تشيرنيشيفسكي؟ فهل مجلتنا رجعية؟ أعتقد كلا، حتى في رأي خصومنا. يمكن قول كل شيء عنها ما عدا الرجعية. أنا أنسب هذا الرأي ليس إليك. أنا أرد فقط على شكوكك في أن الجمهور سيتهمك



نيكولاي نكراسوف

بالرجعية والردة إذا نشرت قصائدك في مجلتنا. علماً بأني واثق بأن الجمهور لا يعتبرنا رجعيين.

وثمة نقطة أخرى: في العام الفائت أيضاً نشرنا قصائد لك. في حين أن مجلتنا ظلت على حالها[3]، ولم يذنبك أحد بسبب المشاركة فيها.

على أية حال سننتظر، سننتظر بفارغ الصبر الإيفاء بوعدك. والآن لا حيلة في الأمر. إلى اللقاء.

المخلص من صميم القلب
فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: أخي غير موجود في البيت، سأبلغه، وسيأسف أشد الأسف.

---

(1) مجلة نكراسوف احتجبت آنذاك لمدة ستة أشهر بعد اعتقال تشيرنيشيفسكي واستأنفت الصدور في يناير 1863.

(2) يقصد دوستويفسكي الإشاعة التي سرت في الأوساط الأدبية من أن نكراسوف «خان» مجلة «المعاصر» وغيّر اتجاهها.

(3) فيما بعد عاد نكراسوف لنشر قصائده في «الوقت».



76. إلى إيفان تورغينيف

بطرسبورغ، 17 - 19 يونيو 1863

العزيز الموقر إيفان سرغييفتش. أرجو أن تعذرني، باللّه عليك، لأنني لم أرد على رسالتك الأخيرة من بادن. وفوق ذلك أنا مذنب جداً بحقك لحد تأنيب الضمير بشدة وجدية لأنني لم أرد على رسالتيك اللتين سبقتا رسالة بادن. والحال فإن رسالتك الأخيرة وصلت في وقت عصيب للغاية، خلال منع مجلتنا[1]. كانت هنالك هموم ومشاغل وأحزان وغيرها من السيئات والمنغصات لدرجة لم أتجرأ فيها طوال شهر على التقاط ريشة الكتابة. فهل تصدق ما أقول؟ أما بخصوص الرسالتين الأقدم فإن إصابة زوجتي بالسل ومفارقتي لها، حيث تركتُ بطرسبورغ لفصل الصيف أو لوقت أطول، بعد أن قضت الربيع فيها دون أن تموت، علماً بأنني رافقتها من بطرسبورغ التي لم تعد تتحمل طقسها، ثم مرضي الخطير والطويل نسبياً بعد العودة من (موسكو) كل ذلك أعاقني هذه المرة أيضاً عن الكتابة لك حتى الآن. بمعنى أنه لو كان المطلوب مجرد الجواب تمسكاً بأصول اللياقة لوجدت وقتاً لهذا. ولكنني، على ما أتذكر، أردت أن أتكلم



إيفان تورغينيف

معك، أو على الأصح أردت أن أصف لك بالتفصيل ما كان يجري آنذاك في أدبنا. ولهذا الغرض بقيت أبحث عن الفرصة المناسبة حتى ضيعت الوقت.

إذن، مجلتنا ممنوعة، ولعلك تعرف بذلك على افتراض وجود صحافة روسية في بادن. جاء المنع مباغتاً بالنسبة لنا على أية حال. ففي شهر أبريل نشرنا مقالة بعنوان «المسألة المصيرية». وأنت تعرف اتجاه مجلتنا، وهو في الغالب روسي، بل ومناوئ للغرب. فهل يعقل أننا ندافع عن البولنديين؟ ورغم ذلك اتهمونا بمعتقدات غير وطنية وبالتعاطف مع البولنديين ومنعوا المجلة بسبب مقالة هي باعتقادنا في منتهى الوطنية. صحيح أن في المقالة بعض الحراجة وبعض التحفظات في التعبير؛ ما أعطى حجة لتأويلها بشكل خاطئ. وكانت هذه التحفظات، كما نرى الآن، خطيرة بالفعل، ونحن المذنبون في ذلك. ولكننا كنا نعقد الآمال على الاتجاه السابق لمجلتنا والمعروف

في الأوساط الأدبية، وتصورنا أن المقالة ستحظى بالفهم ولن تفهم التحفظات فيها بشكل معكوس. تلك كانت غلطتنا. فكرة المقالة، وهي بقلم ستراخوف، أن البولنديين يحتقروننا كبرابرة ويتباهون أمامنا بأنهم أرقى منا بحضارتهم الأوروبية وبأننا أوطأ منهم لدرجة لا يبقى معها أي مجال تقريباً للتصالح الأخلاقي الأمتن والأوثق بيننا وبينهم. وطالما أساء القراء فهم نص المقالة فقد أولوها على نحو يقول إننا أنفسنا نؤكد أن البولنديين أرقى منا حضارياً، وأنهم بالطبع على حق ونحن مذنبون. وأخذت بعض المجلات، ومنها مجلة «اليوم»، تدلل جدياً على أن الحضارة البولندية سطحية فقط، وهي أرستقراطية جزويتية، وبالتالي فهي ليست أرقى من حضارتنا. تصور أن تلك المجلات تثبت ذلك لنا، بينما نحن كنا نقصد الشيء ذاته في مقالتنا. والأكثر من ذلك أنها تدلل على ذلك في الوقت الذي نقول فيه نحن أن هذه الحضارة البولندية التي يمتدحونها إنما كانت ولا تزال تحمل الموت في صُلبها، في قلبها. هذا ما جاء في مقالتنا بالحرف الواحد. واللافت للنظر أن أشخاصاً كثيرين جداً غير رسميين ممن أعلنوا الحرب الشعواء علينا لم يقرأوا مقالتنا، حسب اعترافهم. ولكن فلنكتف بهذا القدر. فما فات فات، ولن نعيده إلى الحياة.

تقول إنك تنوي الإقامة في بادن - بادن طول الصيف. تصور أنني يمكن أن ألتقيك في بادن[2]. سأطلب ترخيصاً بالسفر إلى الخارج وآمل أن أسافر. أنا مريض جداً بالصرع الذي يشتد طول الوقت ويقودني إلى اليأس والقنوط. ليتك تعلم مدى الكآبة التي تنتابني أحياناً بعد نوبة الصرع، وتلازمني عدة أسابيع. أنا أسافر إلى برلين وباريس، لفترة قصيرة إن أمكن، لغرض واحد هو استشارة الأطباء المتخصصين بالصرع، مثل بروسو في باريس ورامبر في برلين. فليس

عندنا اختصاصيّون، وأنا أتلقى توصيات متباينة ومتناقضة من أطبائنا المحليين جعلتني أفقد الثقة بهم تماماً. إذا كنت سأصل إلى مكان غير بعيد عنكم فسأتعمد زيارتك لأراك.

فيما يخص طلبك بشأن النقود لم يتمكن أخي من تلبيته، يا إيفان سيرغييفيتش المحترم. أولاً لأن المجلة لم تعد موجودة، وثانياً لأنه، وأنا أعترف صادقاً، في إفلاس تام بسبب منع المجلة وأسرته تكاد تضطر إلى التسول. فلا تطالبنا بشيء.

إلى اللقاء، يا إيفان سرغييفيتش العزيز، لربما سنلتقي في القريب العاجل. لا أكتب لك الآن أكثر من ذلك. ولا أدري هل ستنشب الحرب[3]، إلا أن روسيا كلها والقوات والمجتمع، بل وحتى الشعب، في أمزجة الوطنية كما في عام 12.[4] أقول ذلك من دون مبالغة. فقد انطلقت حركة عظيمة. ومهما يكن من أمر، أوروبا لا تعرفنا جيداً. إنها حركة عارمة شاملة.

إلى اللقاء.

المخلص ف. دوستويفسكي

19 يونيو

يطيب لي جداً أنني تباطأت في إرسال الرسالة إليك ليوم واحد. بالأمس علمت برسالتك إلى فالنتين كورش[5]. يا إلهي! أي حق لنا الآن، وحتى في السابق، بما تكتبه ولم ننشره في مجلتنا؟ لا سيما وأنك كنت بالطبع تستطيع في السابق وفي فترة وجود «الوقت» أن تنشر مقالتك عن بوشكين خيثما تشاء، ذلك لأنك وعدتنا برواية، وهو أمر عزيز علينا بخاصة كناشرين للمجلة، لأن المنافسة الأشد لدى الصحفيين تدور على الدوام تقريباً، والآن خصوصاً، حول الروايات

والقصص الطويلة. كما أنك تكتب إلى فالنتين فيودوروفيتش متسائلاً: «هل يسمح لي الأخوان دوستويفسكي أن أنشر مقالاتي في مجلات أخرى؟». فبأي حق نحول دونك ودون النشر، لا سيما وأن أخي لم يلب حتى الآن طلبك بخصوص النقود؟ أريد أن أقول لك، يا إيفان سرغييفيتش الطيب، إذا كنت تستطيع، بمعنى إذا وجدت أدنى إمكانية لإرجاء طبع «الأشباح»[6] حتى الخريف فأرجئها باللّه عليك. قبل ثلاثة أيام لم أكن أفكر أن أكتب لك عن ذلك لبعض الأسباب. ولكنني الآن أقول إن لدينا بعض الأمل في كون مجلتنا قد منعت من الصدور مؤقتاً فقط. نحن لا نعرف ذلك بالتأكيد، إلا أن ثمة دوافع وجيهة للتفكير على هذا النحو. سيتضح ذلك إيجابياً في سبتمبر. وأكيد أنك، يا إيفان سرغييفيتش، تدرك أن هذا مجرد رجاء صرف إليك، فنحن لم ولا نستطيع أن نفرض حقوقاً على أي كان. لقد وعدتنا طوعاً ولم تربط نفسك معنا بأية روابط فيما يخص النقود، على سبيل المثال، أو أي شروط أخرى. فأية حقوق يمكن أن تكون لدينا؟ أنا نفسي أديب، وأعتبر أي مطالبة من جانبنا وقاحة. وبالتالي هذا مجرد رجاء أخوي لا أكثر.

والحال فإن مجلتنا واصلت الصدور حوالى عامين ونصف من دون دعم كبير من أدبائنا المشهورين. وأنت لم تعطنا شيئاً، في حين أن مجلتنا نزيهة، هذا أولاً- وثانياً- كانت تفهم الأدب ومغزاه ورسالته وحقوقه بأفضل من «المعاصر» و«البشير الروسي». وكان من شأن دعمك أن يمنح «الوقت» مزيداً من القوة. فلو كنا قد صدرنا في يناير ناشرين قصة طويلة لك لكان عدد مشتركينا 55000 بدلاً من 4500. هذا أكيد. أنا الآن أكرر هذا الكلام، وقد سبق وقلته في يناير. وليكن مفهوماً، يا إيفان سرغييفيتش، إذا عادت المجلة إلى

الصدور، ربما ابتداءً من الخريف، فكم ستكون كبيرة أهمية دعمك لها؟ وإذا انتفعت «الوقت» منك في هذا الوقت العصيب بالنسبة لها فلربما يكون الفوز وارداً تماماً. ولذا أجّلْ، إن أمكن، تسليم «الأشباح» إلى مجلة أخرى حتى الخريف. إذا كنت تستطيع بالطبع. ونحن لا نمتلك الحق مطلقاً في التضييق عليك بأي شكل من الأشكال. وحتى طلبي هذا يمكنك أن ترفضه بلا تردد إذا كان لا يروق لك قيد أنملة. الشيء الوحيد الذي أعرضه عليك هو أنك يمكن أن تشارك جوهرياً في (إنقاذ) المجلة، وذلك، باعتقادي، من أجلك أيضاً. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لإقناعك. وداعاً وإلى اللقاء.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) منعت مجلة «الوقت» لأن السلطات اعتبرتها مزعجة للحكومة.

(2) أثناء مكوثه في بادن- بادن في 4-8 سبتمبر 1863 التقى دوستويفسكي تورغينيف عدة مرات.

(3) المقصود احتمال اندلاع حرب بين روسيا وأوروبا بالارتباط بالانتفاضة البولندية عام 1863.

(4) حرب نابليون على روسيا عام 1812.

(5) صاحب جريدة «وقائع سان بطرسبورغ»

(6) نشرت «الأشباح» في العام التالي بمجلة الأخوين دوستويفسكي «العصر».

77. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

تورينو، 8 سبتمبر 1863

كتبتَ، يا عزيزي الطيب ميشا، عن الصعوبة التي لا يعرف مداها إلا اللّه في قراءة رسالتي وتلبية طلبي بشأن النقود[1]. ولكن، لو علمت، يا صديقي، بمدى ألمي من فكرة أنك ستواجه من كل بد وضعاً عصيباً بسبب رسالتي لقلتَ بنفسك إنني عوقبت بما فيه الكفاية على فشلي. عموماً أنا تعذبت في قضاء الوقت في تورينو المضجرة هذه بانتظار رسالتك، والأهم أني تعذبت من الحنين إليك وإلى الأهل جميعاً. فمنذ أن غادرتُ بطرسبورغ لم أستلم وأنا في بلاد الغربة حتى الآن أيَّ خبر من أيٍّ منكم. اللّه يعلم ماذا ظننت بك، وكم استغربت لحد جعلني أكاد أموت من القهر. ولا موجب للكلام عن آلامنا البدنية، فهي غير موجودة. ولكننا كنا نرتعد هلعاً في كل لحظة متوقعين أن يقدموا لنا فاتورة الحساب من الفندق ونحن لا نمتلك كوبيكاً واحداً. تلك فضيحة يرافقها استدعاء البوليس. هذا هو الحال هنا. من دون أي تساهل إنْ لم يكن هناك وكيل متعهد أو حاجيات (ذات ثمن)، وأنا لست وحدي[2]. لقد رأينا أمثلة على ذلك.

يا للحقارة. في جنيف رهنت ساعتي لدى رجل كريم حقاً، لم يأخذ فائدة مئوية على إقراض شخص أجنبي. لكنه أعطاني مبلغاً زهيداً. ولن أستعيد الساعة حالياً، فأنا محتاج إلى النقود، وهي رهنت خاتمها. ولدينا عقد مكتوب ينص على الاستعادة في أواخر أكتوبر، حسب التقويم المحلي. ولكن تلك حاجيات لا تستحق الذكر.

المهم، ماذا يجري لك؟ هذا هو المهم بالنسبة لي. أكرر، الشيطان وحده يعرف ما ظننته من ظنون. تصورت أنك ستخبرني شيئاً ولو قليلاً عن المجلة. لكنك تكتب باختصار كبير ولم تشر إلى المسألة ولو بكلمة. فكيف يجوز ذلك؟ أخبِرني باللّه عليك. المهم يجب أن نعمل، ونحاول. فإنْ لم يكن استئناف «الوقت» يجب التفكير في مجلة أخرى يمكن إصدارها. وإلا سنهلك. أنا أشعر أنني بحاجة إلى الكثير من المال لتغطية احتياجاتي لثلاثة أشهر على الأقل لأعكف على كتابة الرواية[3]. وإلا فلن تكون هناك رواية. ولكن من أين لي بالنقود؟ أنا ربما سأدبر حالي بشكل ما. وأنت؟ ماذا ستفعل والعائلة على كاهلك؟ باختصار، أنا أرغب في العودة عاجلاً. أنت تسأل لماذا تركتُ باريس بهذه السرعة؟ أولاً- باريس بعثت في نفسي الاشمئزاز. وثانياً- راعيت وضع المرأة التي ترافقني في الرحلة. قرأت ما كتبته عن نيكولاي باكتئاب. وأنا لا أثق (بالدكتور) بيسير. فهو محتال وليس طبيباً. إنه ليس (بمنزلة) بوتكين. تحياتي إلى نيكولاي. قم بزيارته. وابعثْ إليه أحداً من العائلة. فالأمر صعب عليه وهو المسكين المحتضر. بلّغه بأنني أقبّله وأفكر فيه كثيراً، كل يوم.

عن تفاصيل رحلتي سأحدثك وجهاً لوجه. المغامرات كثيرة. ولكن الملل قاتل رغم وجود أ. ب. (سوسلوفا) معي. حتى السعادة ثقيلة هنا، لأنني انفصلت عن جميع من كنت أحبهم حتى الآن

وعانيت مراراً من أجل حبهم. البحث عن السعادة بترك كل شيء(. . .) إنما هو الأنانية بعينها. هذه الفكرة تسمم سعادتي حالياً، إن وجدت في واقع الحال[4]. كتبتَ تقول: كيف يمكن المقامرة حتى الثمالة إذا كان معك في الرحلة الشخص الذي تحب؟ صديقي ميشا، في فيسبادن وضعت طريقة للقمار وطبقتها عملياً وربحت 10000 فرنك. وفي الصباح خالفت هذه الطريقة متحمساً فخسرت في الحال. وفي المساء عدت إلى طريقتي متقيداً بكل قواعدها فربحت بسهولة من جديد 3000 فرنك. قل لي كيف يمكن بعد ذلك ألا يشتد الولع ولا أصدق بأن السعادة ستكون بين يدي إذا تقيدت بطريقتي بحذافيرها؟ كنت بحاجة إلى المال، لأجلي ولأجلك ولأجل زوجتي ولكتابة الرواية. هنا يربح البعض عشرات الآلاف وكأنهم يمزحون. لقد سافرت لكي أخلصكم جميعاً من المحنة وأحمي نفسي منها. وإلى ذلك أضيف الإيمان بالطريقة. وفوق ذلك وصلت إلى بادن واقتربت من الطاولة وربحت 600 فرنك في ربع ساعة. وشجعني ذلك على المضي. وفجأة بدأت أخسر ولم أتمالك نفسي فخسرت كل ما أملك. وبعد أن أرسلت لك رسالة من بادن أخذت البقية الباقية من النقود وذهبت لألعب. وفي نصف ساعة ربحت، بأربع قطع من عملة نابليون الذهبية، 35 قطعة. وغمرتني سعادة غير مسبوقة، فجازفت بهذه الـ 35 قطعة، وخسرتها جميعاً. وبعد أن سددنا لصاحبة البيت بقيت لدينا 6 قطع نقدية للطريق. وفي جنيف رهنت ساعتي.

رأيت تورغينيف في بادن. زرته مرتين، وزارني هو أيضاً. ولم ير عندي (سوسلوفا)، فقد خبأتها عنه. لا يزال معتكر المزاج مع أنه تعافى في بادن. وهو يقيم مع ابنته (بولينا). حدثني عن كل آلامه وشكوكه الأخلاقية. شكوكه الفلسفية تحولت إلى واقع معاش، بما فيه

التأنق الشديد في الملبس. ولم أخفِ عنه أنني ألعب (القمار). أعطاني (مخطوطة) «الأشباح» لأقرأها، لكنني لم أقرأها بسبب انشغالي بالقمار، فأعدتها إليه. يقول إنه كتبها لمجلتنا، وإذا كتبت له من روما فسوف يرسلها لي إلى هناك. فماذا أعرف أنا عن المجلة؟

ينبغي أن أكتب مقالة. أعرف ذلك. لأن الـ 1450 فرنك التي أرسلتها لا تكفي لشيء، بمعنى أنها تكفي لأمور كثيرة ما عدا تكاليف العودة إلى الديار. ولكنني أجد صعوبة كبيرة جداً في الكتابة. كل ما كتبته في تورينو مزقته. .مللت من الكتابة حسب الطلب. لكنني لا أيأس من إرسال شيء من روما على الأقل. لأن ذلك ضروري. رحم اللّه خالي. أعتقد أن زوجته ستتحمل الكثير من المتاعب والمنغصات. ولا أمل لنا في التركة. ولكن إذا حصل شيء فسأخبرك رأساً.

باللّه عليك أخبِرني بكل شيء. أعانقك، وأشكرك وأقبّلك.

المخلص ف. دوستويفسكي

ملاحظة: لا تحدث أحداً عن أوضاعي. فهذا سر بيننا. أقصد الخسارة. إلى اللقاء، اكتبْ لي باللّه عليك. ولكن إلى نابولي هذه المرة (على عنوان البريد المركزي).

اكتبْ لي عاجلاً. أرجوك اكتبْ عن أحوالك. في روما سأجد جميع رسائلكم السابقة. ولربما أرسل مقالة قصيرة من هناك.

سأعود في الموعد. ثم إن النقود قليلة.

قبّل جميع الأطفال مع فيودور. وبلّغ تحياتي إلى ستراخوف خصيصاً، وإلى جميع من تعرفهم. وقل لستراخوف إنني أقرأ كتابات

دعاة السلافية بجد واجتهاد، وقد قرأت (عندهم) شيئاً جديداً. كيف حال أبولون غريغوريف؟ والباقين؟ اكتبْ لي عن الجميع.

ألم تسمع شيئاً عن روديفيتش وعن (ريبي) بافل؟

أكتبُ لك بأكبر قدر ممكن من الإيجاز. أسارع لمغادرة تورينو البغيضة. وأمامي كتابة الكثير: إلى ماريا دميتريفنا وبربارة دميتريفنا.

انقلْ تشكراتي إلى بربارة دميتريفنا عندما تراها. ما أروع نفسها الطيبة. أخشى أن تكتب لك ماريا دميتريفنا ما لا يعجبك. إلا أنني لا أعتقد أنها ستفعل. طبيعي أنها قد لا تحتاج إلى نقود حتى منتصف أكتوبر. ولكن من يدري؟ أنا ربما وضعتها في موقف خاطئ. كانت تريد أن تنفق مئة روبل، لكنها بقيت مترددة. وعندما أبلغتها في رسالة أنني أبعث إليها نقوداً أنفقت ذلك المبلغ. ولعلها الآن بلا نقود. وأنا أفكر في ذلك بفزع. حبذا لو أبلغني أحد عن صحتها.

---

(1) دوستويفسكي استلم النقود من أخيه.

(2) كان دوستويفسكي يتجول برفقة محبوبته أبوليناريا سوسلوفا التي اتخذها نموذجاً للشخوص النسائية في عدد من رواياته، مثل «المقامر» و«الأبله» وغيرهما.

(3) المقصود رواية كان يفكر فيها دوستويفسكي بعنوان «الاعتراف» تمهد حبكتها لروايته «مذكرات من تحت الأرض» («في قبوي» حسب ترجمة سامي الدروبي).

(4) إشارة إلى تعقد العلاقة مع سوسلوفا، وإلى القلق على صحة عيسايفا.

78. إلى نيكولاي ستراخوف

روما، 18 سبتمبر 1863

عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش المكرّم. أبلغني أخي في رسالته الأخيرة التي استلمتها في تورينو قبل 9 أيام بأنك تنوي الكتابة إليّ. أنا في روما منذ يومين ولم أجد رسالة منك. سأنتظر وصولها بفارغ الصبر. والآن أنا أكتب لك بنفسي. ليس لعرض مشاعر الرحلة ولا لطرح أفكار ما خطرت في البال خلال هذه الفترة الزمنية. كل ذلك سيتم عندما أعود بنفسي ونجد الوقت لنتحدث فيما بيننا كما كنا نفعل غالباً. كلا، إنني الآن أتوجه إليك برجاء كبير وأقول سلفاً إنني محتاج إلى موقفك الميال إليَّ مع كل المشاعر الودية، إذا سمحت بهذا التعبير، والتي يخيل إليَّ أنك تكنها لي وتعرب عنها.

والحال فإنك إذا نفذت طلبي تنقذني بكل معنى الكلمة من الكثير من الأذى والمنغصات.

القضية كالآتي:

سأسافر من روما إلى نابولي، وبعد 12 يوماً أعود من نابولي إلى

تورينو، أي أنني سأكون هناك بعد خمسة عشر يوماً تقريباً. وفي تورينو تنفد كل نقودي، حيث سأصلها خالي الوفاض.

أنا لا أعتقد بأن السماح بصدور «الوقت» سيتم في هذه اللحظة. وفي كل الأحوال لدي ما يبرر الاعتقاد بأن أخي عاجز الآن عن مساعدتي بشيء. في حين يتعذر التواجد في تورينو بلا نقود. ولذا لا بد أن أجد فيها مبلغاً في البريد. وإلا، أكرر، سأهلك. وبالإضافة إلى عدم وجود تكاليف العودة إلى الديار لدي مقتضيات أخرى للإنفاق، أي مصاريف لا يمكنني الاستغناء عنها أبداً. ولذا أرجوك، باللّه عليك، لوجه المسيح، أن تقوم من أجلي بما قمت به مرة قبيل سفري. آنذاك ذهبتَ إلى بوبوريكين في «مكتبة المطالعة». بوبوريكين نفسه دعاني تحريرياً للعمل عنده عندما احتجبت «الوقت». وبالتالي يمكن التوجه إليه. ولكنك في يوليو طلبت منه 1500 روبل، ولم يعطك. لأن يوليو وقت عصيب بالنسبة للناشرين. وأتذكر أنه تكلم عن الخريف. ونحن الآن في نهاية سبتمبر. وهو وقت الاشتراكات، والنقود متوفرة بالتالي. ثم إنني أطلب ليس 1500 روبل، بل 300، ثلاثمئة لا غير.

ملاحظة: فليعرف بوبوريكين، كما تعرف «المعاصر» و«مذكرات الوطن» أنني، طول حياتي، لم أبع مؤلفاتي، ما عدا «الفقراء» ولم أستلم النقود سلفاً. أنا أديب بروليتاري (معدم)، وإذا أراد أحد أن أؤلف له فعليه أن يؤمن احتياجاتي مقدماً. أنا نفسي أستهجن هذا الأسلوب وألعنه. إلا أن العادة جرت على ذلك، ويبدو أنها لن تتغير أبداً. أواصل إذن. ليس عندي شيء جاهز الآن. ولكنني وضعت خطة قصة قصيرة موفقة، حسب تقديراتي. معظم النص مكتوب برؤوس أقلام على قصاصات. حتى أني هممت بالكتابة، لكنها

متعذرة هنا، بسبب الحر، هذا أولاً، وثانياً طالما جئت إلى مكان مثل روما لمدة أسبوع فهل يمكن في هذا الأسبوع، وفي روما، ممارسة الكتابة؟ ثم إنني أشعر بالتعب الشديد من كثرة التمشي.

حبكة القصة كالآتي: نموذج الروسي المغترب، والمجلات أثارت في الصيف نقاشاً واسعاً حول مسألة المغتربين الروس، ينعكس في القصة، وعموماً تنعكس فيها اللحظة الراهنة لحياتنا الداخلية بمجملها، على قدر الإمكان طبعاً. أنا أتناول شخصية رجل عادي، لكنه متطور كثيراً من دون إكتمال في أي جانب من جوانب ذلك التطور، شخصاً فقد إيمانه، لكنه لا يجرؤ على عدم الإيمان، وقد انتفض على المرجعيات من ذوي الجاه والسمعة وبات يخشاهم. وهو يهدئ نفسه بكونه لا يستطيع القيام بشيء في روسيا، ولذا يسلط نقداً لاذعاً على الذين يناشدون الروس المغتربين العودة إلى روسيا. من الصعب عرض كل شيء في هذه العجالة. محياه حيوي متفتح وكأنه الآن أمامي. ولا بد من قراءة ملامحه عندما يتم توصيفها (في القصة). والمشكلة الرئيسية أن نسغه الحيوي وطاقاته وهياجه وبسالته تركزت على الروليت. إنه مقامر، ليس من المقامرين العاديين، مثلما الفارس البخيل عند بوشكين ليس من البخلاء العاديين. أنا لا أشبّه نفسي هنا ببوشكين. كل ما في الأمر أنني أقول ذلك للتوضيح. (هذا المقامر) شاعر على طريقته الخاصة. لكنه نفسه يخجل من هذه الشاعرية، لأنه يتلمس وضاعتها بعمق على الرغم من أن الحاجة إلى المخاطرة تصوره لنفسه إنساناً نبيلاً. القصة كلها عن الفترة التي قضاها، للعام الثالث، يلعب الروليت في مدن القمار.[1]

إذا كانت «منزل الأموات» قد لفتت أنظار الجمهور بتصوير المحكومين بالأشغال الشاقة الذين لم يصورهم أحد بوضوح قبل هذه

الرواية فإن هذه القصة ستجلب الانتباه حتماً بصفتها تصويراً تجسيدياً وتفصيلياً للعبة الروليت. (. . .).

ثم إنني آمل بأن أصور هذه الأمور المثيرة جداً بشعور وفهم ومن دون تعديلات كبيرة.

حجم القصة سيكون في أقل تقدير ملزمة ونصفاً، أو ربما ملزمتين، ويحتمل تماماً أن يكون الحجم أكبر.

موعد التسليم إلى المجلة 10 نوفمبر في أبعد تقدير، وربما قبل ذلك التاريخ. على أية حال لا أبعد من العاشر من الشهر، ولذا بوسع المجلة أن تنشرها في عدد نوفمبر. تلك كلمة شرف، وأنا واثق بأن أحداً لم يجد بعد ما يبرر الشك في وعودي.

الأجر 200 روبل للملزمة، أو 150 في حال الضرورة. فأنا لا أريد تخفيض الأجر أبداً. ولذا أفضل الإصرار على المئتين. فالقصة ستكون مقبولة تماماً. كانت «منزل الأموات» مثيرة، أليس كذلك؟ فيما لدينا الآن توصيف لما يشبه الجحيم أو «حمام» الأشغال الشاقة[2]. أريد وسأحاول أن أرسم لوحة (بكل معنى الكلمة).

والآن إلى النقطة التالية:

معذرة، يا عزيزي الموقر نيكولاي نيكولايفيتش، لأنني أزعجك مباشرة ومن دون لياقة. أنا أعرف أن ذلك شيء مزعج تماماً. ولكن ماذا عليَّ أن أفعل؟ فإذا وصلت إلى تورينو بعد 15 أو 17 يوماً في أبعد تقدير ولم أجد نقوداً هناك فإنني سأقع في داهية بكل معنى الكلمة. أنت لا تعرف كل ظروفي، وشرحها الآن يتطلب وقتاً طويلاً. وإلى ذلك كنت ذات مرة في منتهى الطيبة تجاهي، فأنقذني مرة أخرى.

وإليك ما هو مطلوب:

أرجوك في آخر أمل، حالما تستلم هذه الرسالة، أن تذهب إلى بوبوريكين وتقول له إنني خولتك، واعرض عليه جزءاً من رسالتي، إذا اقتضى الأمر، وقدم اقتراحاً بحيث لا يشكل بالطبع إهانة كبيرة بالنسبة لي. (. . .) وحالما تستلم النقود أرسلْها إليّ، أي سلِّمها لأخي. وهو يعرف كيف يوصلها[3].

وإذا أخفقت المحاولة مع بوبوريكين يمكن أن تراجع الجرائد، ولو «المرساة»، قبّل أبولون غريغوريف بالنيابة عني، أو أية مجلة ما عدا «البشير الروسي» طبعاً، وتحاشَ «مذكرات الوطن» إن أمكن. حاول أن تتحاشاها، باللّه عليك. فلا حاجة إلى النقود في هذه الحال. (. . .) ويمكن مراجعة نكراسوف مباشرة (. . .) لحل المشكلة. وسيكون ذلك أمراً جيداً، بل حتى أفضل من بوبوريكين. نكراسوف ربما لا يزعل مني كثيراً. وهو، على الأكثر، رجل عملي. بديهي، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش، أن هذه القضية ينبغي أن تنتهي في يومين، أو ثلاثة في أكبر تقدير. فسأهلك بالمعنى الحرفي للكلمة إن لم أجد نقوداً في تورينو. لا تكتب لي إلى نابولي. اكتبْ لي الآن إلى تورينو مباشرة. أرجوك اكتبْ على أية حال. إذا استلمت النقود سلمها إلى أخي. أنا في الحقيقة بحاجة إلى 200 روبل، وليس أقل، والمئة الباقية يبعثها أخي إلى (زوجتي) ماريا دميتريفنا. ولذا ينبغي استحصال 300 روبل. إذن فقد كتبت لك كل ما يلزم. أضع نفسي في عهدتك ومصيري بين يديك تقريباً. وقد أحدثك فيما بعد عن مدى أهمية ذلك بالتسبة لي. والآن أستعطفك من جديد ثم أعانقك من صميم القلب.

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: الغريب أنني أكتب من روما ولا كلمة عنها. فماذا أستطيع أن أكتب لك؟ يا إلهي، هل يمكن توصيف ذلك في الرسائل؟ وصلت قبل ثلاثة أيام ليلاً. صباح أمس زرت (كاتدرائية) القديس بطرس. الانطباعات شديدة، برجفة وقشعريرة في الظهر. واليوم زرت أنقاض الفوروم ثم الكوليزيه. فماذا عساي أن أقول لك...؟

بلِّغ تحياتي للجميع، وإلى غريغوريف مع الجميع. ولأخيك بخاصة. ثم إني أرجوك أن تبلغ حتماً تحياتي وتمنياتي من صميم القلب إلى بوليا بتروفنا، حالما تراها في أول لقاء. (...)

دعاة السلافية قالوا بالطبع كلمتهم الجديدة التي لا يستطيع أن يستوعبها تماماً حتى الراسخون في العلم. يلوح فيها بطر أرستقراطي مدهش لدى معالجة المسائل الاجتماعية.

---

(1) هذه الحبكة غدت فيما بعد أساساً لرواية «المقامر» التي صدرت عام 1866.

(2) تورغينيف قارن بين مشهد الحمام في «منزل الأموات» ومشاهد جحيم دانتي.

(3) مهمة ستراخوف مع بوبوريكين نجحت واستلم منه النقود.

79. إلى إيفان تورغينيف

تورينو، 6 أكتوبر 1863

العزيز المحترم إيفان سرغييفيتش. جبتُ كل الأماكن، وكنت في نابولي، وغداً أغادر تورينو إلى روسيا مباشرة. ورغم جميع حساباتي لم أتمكن من إرسال عنوان محدد إليك لكي ترسل «الأشباح» لي. فقد كنت أتوقف في كل الأماكن لفترات قصيرة، ويصادف أنني عندما أتحرك اليوم من مكان لا أعرف غداً في العادة إلى أي جهة سأتجه. كل هذه السفرات تسير حسب ظروف لا تتوقف على إرادتي، بل أنا متوقف عليها[1]. ولذا لم أتمكن من حساب كيفية تزويدك بالعنوان المناسب لإرسال «الأشباح»[2]. استلمتُ من أخي رسالة منذ أن كنت في نابولي، كتب فيها أن لديه أملاً كبيراً في السماح باستئناف صدور «الوقت»، وأن المسألة ستحل بعد أيام. ولعلها قد حلت الآن. أنا نفسي أظن، بناءً على بعض المعطيات والتعليقات، أن «الوقت» ستعود إلى الصدور. ولما كان القرار سيأتي في أكتوبر[3] فإن أخي يريد من كل بد أن يصدر عدد نوفمبر. وسنسلم ستة أعداد مجاناً للذين لم يستلموا المجلة ستة أشهر.

أكتب لك بصراحة: قصتك «الأشباح» تتسم بأهمية بالغة بالنسبة لنا في عدد نوفمبر تحديداً. وبالتالي، إذا كنت تريد أن يكون لك فضل عظيم علينا أرسِل المخطوطة إلى بطرسبورغ بأسرع ما يمكن. أنا سأكون هناك يومها. وطالما ليست لدي شقة في بطرسبورغ فعنون القصة على عنوان أخي وهو:

ركن شارع مالايا ميشانسكايا وزقاق ستولارني، دار يفرينوف، إلى ميخائيل ميخائيلوفيتش دوستويفسكي

اعملْ معروفاً واكتبْ لي ولو سطرين بهذا الخصوص. يؤسفني أشد الأسف لأنني منذ أن كنت في بطرسبورغ قررت المكوث في بادن لا من أجل ما حصل فعلاً، بل من أجل رؤياك والتحدث إليك. والحقيقة كان لدي الكثير مما أريد أن أقوله لك وأسمع رأيك فيه. إلا أن ذلك لم يحدث على أية حال. وفوق ذلك حصل «تمرد العواطف» المنحوس[4] ولو لم أكن آمل أن أنجز شيئاً أكثر ذكاءً لشعرت بخجل كبير الآن. ولكن ما العمل؟ هل يجدر بي أن أطلب المسامحة من نفسي لنفسي؟

في بطرسبورغ ينتظرني عمل مرهق. ومع أن صحتي تحسنت كثيراً، إلا أنني أعرف أنها ستتدهور بعد شهرين أو ثلاثة. ولكن لا حيلة في الأمر. أنا لا أعرف بعد كيف ستسير الأمور. والمجلة يجب بناؤها من جديد تقريباً. يجب تحديثها وجعلها ممتعة أكثر مع إيلاء الأدب في الوقت ذاته الاهتمام اللازم. وتلك مهمات لا يجمعها جامع في رأي الكثيرين من مفكري بطرسبورغ. إلا أننا ننوي التصدي بحزم لبوادر الاستهانة بالأدب. ولن نتراجع. فساندنا رجاءً، وكن معنا. إنني أقدم صحتي قرباناً للمجلة. وأتقاضى القليل من النقود. وأعرف أن المجهود الأدبي لا يكاد يغطي الكلفة. والمجلة مكبلة

بالديون. ومع ذلك أبقى في بطرسبورغ حيث يمنعني الأطباء من العيش فيها، وحيث أرى بنفسي أنه لا يجوز لي أن أعيش فيها بعد الآن. وثمة مسألة أخرى. رجاءً فلنتراسل بين فترة وأخرى. أقول لك ذلك من صميم القلب.

إلى اللقاء، أشد على يدك بحرارة.

المخلص ف. دوستويفسكي

لم أكتب لك شيئاً عن الرحلة. روما ونابولي أدهشتاني كثيراً. فأنا لأول مرة هناك. والحقيقة أن من الصعوبة البقاء وحيداً لفترة أطول. ولذا أنا شديد الرغبة في العودة إلى بطرسبورغ.

اكتبْ لي، أرجوك، كم تريد أن نرسل إليك مقابل «الأشباح»؟ سأخبر أخي بذلك. بديهي أننا سندفع أي مبلغ تطلبه.

---

(1) دوستويفسكي يقصد جولاته برفقة سوسلوفا.

(2) تورغينيف أوصل مخطوطة «الأشباح» بنفسه إلى بطرسبورغ.

(3) صدر قرار استئناف «الوقت» في يناير 1864.

(4) المقصود الولع بلعب القمار.

80. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

موسكو، 19 نوفمبر 1863

أعرف جيداً، يا أخي الكريم، أنك غارق الآن في المشاغل والهموم. وماذا عليّ أن أفعل، أنا أيضاً تراكمت عليَّ المشاغل فلا أرى لها نهاية ولا حداً. تقول إنك ستأتي إلى موسكو بعد الـ 20 من الشهر. متى تحديداً؟ بعد الـ 25 طبعاً. فإذا وصلت قبل هذا التاريخ يحتمل أن لا نلتقي. فأنا آمل أن أكون في بطرسبورغ حتى الـ 25 من الشهر. فيما يتعيَّن علينا أن نتداول في الكثير من الأمور وبأقرب وقت ممكن. المهم أن لا يخدعونا بالوعود بل يسمحوا بإصدار «الحقيقة» بأسرع ما يمكن. وأعترف لك بأنني لست متألماً جداً لعدم السماح باستئناف «الوقت». «فالحقيقة» يمكن أن تؤمّن المفعول نفسه، إن لم يكن أكثر، في ظروف معينة طبعاً. وهذا هو المهم. أما بخصوص تسمية المجلة «الحقيقة» فأعتقد أنها تسمية رائعة ومدهشة. والشرف لمن اقترحها. فهي تصيب عين الحقيقة. وتنطوي على الفكرة الأكثر صلاحاً وتتناسب مع الظروف، والأهم أن فيها بعض السذاجة والإيمان الذي يناسب روحيتنا وتوجهاتنا، ذلك لأن مجلتنا «الوقت»

كانت على الدوام ساذجة جداً، ولربما كانت، والشيطان وحده عليم، تجتذب القراء بسذاجتها وإيمانها. باختصار، التسمية رائعة. والغلاف بنفس تصميم «الوقت» ليذكّرنا بها. وفي المجلة قسم واحد(. . .) وفي السطر الأول من الإعلان عنها عبارة من قبيل «الوقت يقتضي الحقيقة». في إشارة إلى أن مجلة «الحقيقة» هي نفسها مجلة «الوقت». الشيء الوحيد الذي يقلقني هو الإعلان نفسه. يا صديقي، المطلوب هنا ليس الفن، وليس الذكاء، بل الإلهام. أهم شيء هو تفادي الروتين الملازم في مثل هذه الأحوال لجميع العقلاء والموهوبين. فهم يكتبون بذكاء لا شائبة فيه والنتيجة أقوال فاترة بائسة، شبيهة بسائر الإعلانات المعتادة. في المرتبة الأولى، بالنسبة لنا الآن، الأصالة والإثارة المرموقة غير المفتعلة. أنت تقول إنك تعكف على كتابة الإعلان. هل تعلم ما هي فكرتي بهذا الخصوص؟ ينبغي الكتابة بإيجاز ومن دون إسفاف وبنوع من الاعتزاز والثقة التامة بالنفس، من دون أية تلميحات. الإعلان نفسه عن هوية المجلة وتوجهاتها من 4 أو 5 سطور. ومخاطبة المشتركين موجزة أيضاً. ولا بد من إثارة دهشتهم بالعزة الرفيعة (للقائمين على المجلة). تسمية «الحقيقة» لم تعجب ألكسندر بافلوفيتش. إلا أنه من المتقيدين جداً بالروتين. وأنا أعتبر عدم إعجابه مؤشراً جيداً. هؤلاء السادة يجأرون في البداية معترضين زاعمين أن كل شيء سيئ، وفيما بعد يمدون ألسنتهم فجأة مهللين مادحين. هؤلاء كهان الماجريات العابرة. أما أن التسمية أعجبت ستراخوف ورازين فهذا أمر أفهمه. فهما من الذين يتحلون بالفهم وبشيء من الحدس، وهذا هو الأهم. أما الباقون، ومنهم ربما ميلوكوف، فلا بد أن يسفهوا التسمية. بالمناسبة، أنت لا تكتب شيئاً عن ميلوكوف، هذه المرة كالمرات السابقة. عفارم عليك. فما أغرب هؤلاء الناس.

تكلمت مع ألكسندر بافلوفيتش عن النقود. فقال إنه لا يعرف كيفية القيام بذلك، وإن هذا غير ممكن قبل تقسيم التركة. أنا نفسي أعتقد أن هذا غير ممكن. ساشا (ألكساندرا) ليست في الحسبان. حصل ذلك بالصدفة. ولعلك لا تعلم أن الجدة وصلت قبل أسبوع إلى بطرسبورغ وجلبت لساشا المتبقي من حصتها وهو 8 آلاف روبل. وأعتقد أنهم لم يبلغوك. أنا أرى أن الأفضل أن تؤجل سفرك إلى موسكو لأطول فترة ممكنة في أواخر نوفمبر، لعلك تصل إليها أثناء التقسيم مباشرة. ولا تتأخر في موسكو. نحن استأجرنا شقة هنا. وحالما أنتقل إليها وندبر أمورنا أتوجه إلى بطرسبورغ. المشاغل لا توفر لي ولا دقيقة للكتابة. حصلت لي هنا نوبتان من الصرع، إحداهما، النوبة الأخيرة، شديدة.

الشركة الأخرى للمجلة، أقصد «الحقيقة»، لن تتدخل في المقالة الافتتاحية. ثم إن مقالتين في تحليل روايتي تشيرنيشيفسكي («ما العمل») وبيسيمسكي («البحر الهائج») من شأنهما أن تثيرا اهتماماً كبيراً، والأهم أن التحليل سيكون مناسباً للموقف. فهناك فكرتان على طرفي نقيض، وكلتاهما تتعرضان للانتقاد. تلك هي الحقيقة. وأعتقد أنني سأكتب هذه المقالات الثلاث إذا توفرت لي فرصة العمل بهدوء.[1] أنا لم ألتق أحداً هنا، ما عدا بيسيمسكي الذي صادفته أمس في الشارع ورحب بي كثيراً. وفي مساء أمس ذاته كان العرض الأول «للمصير المرير». ولم أحضره. ولا أعرف مستقبل المسرحية. قال إن النادي الإنجليزي وحزب الاقطاعيين يجيشان الجيوش ضده. لعله يتباهى.

وداعاً، أعانقك. سنلتقي قريباً على أية حال.

المخلص د(وستويفسكي)

بلغ تحياتي للجميع. لا أحد يعرف شيئاً هنا عن تقسيم التركة، سوى أنه سيتم في نهاية نوفمبر. أما ألكسي كومانين (ابن خالنا) فقد بدأ لغبائه دعوى رسمية للطعن بوصية أبيه بحجة أنه كان فاقد الأهلية العقلية تقريباً عندما حررها. وقد أعادوا ألكسي إلى رشده والدعوى الآن بلا جدوى. على أية حال تصرف ألكسي هذا طي الكتمان الشديد هنا.. والناس تثني على منفذ الوصية قسطنطين قسطنطينوفيتش.

---

(1) لم يتسنَّ لدوستويفسكي أن يكتب المقالات المذكورة.



81. إلى إيفان تورغينيف

بطرسبورغ، 23 ديسمبر 1863

الفاضل الموقر إيفان سيرغييفيتش. قال آنينكوف لأخي إنك كأنما لا تريد نشر «الأشباح» لأن في القصة الكثير من الخيال. وقد أربكنا هذا الأمر كثيراً. بدايةً أقول بصراحة إننا، أنا وأخي، نعوّل على قصتك. فهي ستساعدنا كثيراً في العدد الأول من مجلتنا التي تبدأ من جديد لتشق طريقها ثانية. وأنا أشير إلى ذلك خصيصاً كيلا تشك في دوافع هذه الرسالة ولا تظن أنني أتكلم بدافع من المصالح الشخصية وحدها. وأضيف إلى ذلك سبباً آخر أعطيك كلمة شرف بشأن صحته: قصتك بالنسبة لنا أهم بكثير من التباهي باسمك على غلاف المجلة.

والآن أذكر كلمة عن قصتك بناءً على انطباعاتي. لماذا تظن، يا إيفان سيرغييفتش، أن قصتك «الأشباح» ليست في وقتها، إذا كنت تظن هكذا بالفعل؟ وأن القارئ لن يفهمها؟ بالعكس، البلادة وست سنوات متوالية من تقليد الأساطين قادت الإيجابيات إلى سفاسف، مما يجعل الناس يرتاحون لنتاج شاعري صرف، أو أكثر شاعرية. البعض سيستقبلون القصة بشيء من الحيرة، لكنها حيرة مريحة. ذلك

سيكون موقف جميع الذين يتفهمون من أبناء الجيلين القديم والجديد. أما الذين لا يفهمون شيئاً فهل ينبغي لنا أن نلتفت إليهم؟ قد لا تصدق كيف ينظر هؤلاء إلى الأدب. كل ما يطلبونه هو النفعية المحدودة. اكتبْ لهم النتاج الأكثر شاعرية وستراهم يزيحونه ويُقبلون على الهزيل المعلوك وعلى المشاغبات. ويعتبرون الحقيقة الشاعرية وحشية. إنهم لا يريدون سوى استنساخ الواقع. النثر عندنا فظيع (أشبه بارتجاف الكواكرز على طريق الرب). فلا يجوز الالتفات إليهم والحال هذه. إن الجزء السليم من المجتمع الذي استيقظ إنما يتعطش إلى عمل جريء من الفن. في حين أن «أشباحك» عمل جريء جداً. وسيكون قدوة رائعة، بالنسبة لنا جميعاً، فيما لو كنت أول من يقدم على هذا العمل. الشكل الإطاري «للأشباح» سيعجب الجميع، أما جانب المضمون الواقعي فسيكون منفذاً ومتنفساً لذلك الإعجاب. ما عدا إعجاب الحمقى والذين لا يرغبون في فهم شيء سوى هذيانهم الكواكري. أنا، بالمناسبة، أعرف إحدى النفعيات العدميات المستاءات من قصتك لكنها قالت: «مطالعتها استولت عليَّ دون فكاك وتركت في نفسي انطباعاً عميقاً». ومعروف أن لدينا الكثير من العدميين المتصنعين. إلا أن المهم في هذا المضمار هو فهم هذا الجانب الواقعي. وأعتقد أن في «الأشباح» كثيراً من الواقع. وهذا الواقع هو حنين الكائن الواعي المتطور الذي يعيش في زماننا. هذا الحنين الكئيب الذي تسجله القصة يملأ ثناياها. إنه «وتر يصدح في الضباب»[1]، وحسناً يفعل عندما يصدح. «الأشباح» شبيهة بالموسيقى. على فكرة، ما رأيك في الموسيقى؟ هل هي متعة أم ضرورة للشحنة الإيجابية؟ باعتقادي أنها اللغة ذاتها، ولكنها تعبر عما لم يتمكن الوعي من تذليله بعد، أعني الوعي بمجمله وليس الأحكام

العقلية. وبالتالي فهي تعود بالمنفعة الإيجابية. أصحابنا النفعيون لا يفهمون ذلك، إلا أن الذين يحبون الموسيقى من بينهم لم يتركوها، ولا يزالون يمارسونها كالسابق. شكل قصتك «الأشباح» رائع. وإذا كان هناك ما يستوجب الشك فهو بالطبع الشكل. كل القضية تتلخص فيما إذا كان يحق للخيالي أن يتواجد في الفن أم لا؟ ولكن من يرد على مثل هذه الأسئلة؟ وإذا كان في «الأشباح» ما يمكن أن يُنتقد فهو كونها ليست خيالية تماماً. ربما المزيد من الخيال ضروري، حتى يتوفر المزيد من الجرأة. الكائن الذي يظهر في قصتك يفسر على أنه مصاص الدماء. باعتقادي لا موجب لهذا التفسير. آنينكوف لم يوافقني وقدم حججاً بأن هناك تلميحات إلى فقدان الدم، أي هدر القوى الإيجابية وما إلى ذلك. وأنا لا أوافقه على ذلك إطلاقاً. يكفيني أنني فهمت الكآبة حسياً وكذلك الشكل الرائع الذي اتخذته، أعني غليان الواقع من دون أية تهدئة. ثم إن الأسلوب جيد، أسلوب تسوده نأمة الحزن الخفيف من دون غضب أو احتقان. المناظر الطبيعية كالجبل وغيره تلميح إلى الفكرة العفوية غير المحلولة بعد، أي الفكرة نفسها الموجودة في الطبيعة، ولا أحد يعرف هل تحل المسائل البشرية في وقت ما، وهي الآن تجعل القلب يحزن ويرتعب أكثر، بالرغم من عدم الرغبة في الانفصال عنها. كلا، يا سيدي، هذه الفكرة بالذات جاءت في الوقت المناسب، والنتاجات الخيالية من هذا النوع تحمل شحنة إيجابية كبيرة.

(المخلص ف. دوستويفسكي)

---

(1) من «مذكرات مجنون» لنيكولاي غوغول.

82. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

موسكو، 29 فبراير 1864

أخي العزيز ميشا. وصلتُ إلى موسكو أمس بسلام. ومع أنني لم أتعب كثيراً في الطريق إلا أنني عانيت هنا أمس من الآلام نفسها كما في بطرسبورغ في أحلك فترات المرض. ولكنني آمل أن ينتهي ذلك قريباً، وبالتالي لا موجب لمزيد من الكلام عن هذه المسألة. كيف حالكم في البيت الآن؟ طول الطريق كنت أتصور ما حدث وأتعذب كثيراً. أنا متألم جداً (لوفاة) فاريا[1]. الجميع هنا تألموا حالما سمعوا بالنبأ. ماريا دميتريفنا بكت بدموع حرى، وأرادت أن تكتب إلى إميليا لكنها عدلت عن الفكرة. وكانت تشعر بالأسى العميق وبكل صدق. فليلهمكم اللّه (الصبر والسلوان لتسير أموركم بشكلها الطبيعي). المهم هو الصحة، وثانياً - العمل. حافظ على صحتك. ولا تستعجل كثيراً. لا ترتحل إذا شعرت بأن صحتك ليست على ما يرام. أما بخصوص عدد المجلة[2] فحتى لو صدر في نهاية مارس لا مشكلة. سيكون ذلك جيداً. بالأمس تصفحت العدد الأول من «المعاصر» (لهذا العام). النقد فيه كثير، وكذلك المقالات التي تعبّر عن وجهة نظر المجلة. أما

الأدب فلم يحالفه الحظ. وقد تبادر إلى ذهني أن نفتتح في «العصر» القسم القديم الذي احتوته المجلات أيام زمان، وأعني قسم «المدونة الأدبية». وهو لا يتطلب نشر مقالات، بل يكتفي بتعداد جميع الكتب والتراجم الصادرة في الشهر الماضي، جميعها بلا استثناء. وبسبب الاعتقاد الذي ترسخ آنذاك وكأن الأدب كله يتركز في المجلات جرى إهمال ما يصدر من كتب. كان ذلك في السابق مبرراً، لكن الأمر تبدل الآن، لأن كتباً كثيرة تصدر والجمهور ينبغي أن يتابعها حسب إعلانات الجرائد لكي يعرف عناوينها، ومع معرفته بالعناوين يبقى جاهلاً بالمضامين. ولذا ينبغي أن ننشر ستة أسطر، أو عشرة في أكبر تقدير، وأحياناً سطرين، عن كل مضمون كتاب. ويمكن بالطبع كتابة صفحة أو صفحتين إذا كان الكتاب مهماً ومثيراً. ويمكن أن يعد هذا القسم من دون جهد يذكر أحد الشباب مثل بيبيكوف، وبوسعه أن لا يفعل شيئاً سوى متابعة الإصدارات. وبالتالي سيكون في مجلتنا وحدها كاتالوج كامل مع أهم التوضيحات عن الكتب الصادرة. في «المعاصر» كأنما بدأوا بنشر ما يماثل هذا القسم. كما يمكن مرة كل شهرين أن تنشر المجلة عرضاً لمحتويات المجلات الأخرى، ليس كالعرض المعتاد حيث تحلل المجلات إحداها الأخرى، بل يكون بمثابة قائمة شبيهة «بالمدونة الأدبية» لجميع المقالات المنشورة في الصحف والمجلات خلال الشهرين الماضيين، مع إشارة موجزة أمام كل مقالة إلى مزاياها. وإذا تم التقيد بالدقة والشمول تتخذ المجلة شكلاً عملياً، شكل طبعة مهتمة جدياً بالأدب. حبذا لو بدأنا مدونة الكتب والمجلات اعتباراً من 1 يناير. فما رأيك؟

وقد فكرت أيضاً في كتابة مقالة جيدة عن التنظير وخيال النظريين، أقصد منظّري «المعاصر». فلن يتخلصوا مني، وخصوصاً إذا حاولوا

أن يمسونا. وسيكون ذلك عملاً جاداً وليس مماحكات جدلية. اعتباراً من يوم غد سأواظب على كتابة مقالة عن (المؤرخ) كوستوماروف. وبعد أسبوع سأخبرك بسير العمل. أجبني باللّه عليك، أخبِرني عن أحوالك. اكتبْ لي ولو قليلاً.

تحياتي إلى إميليا، وقبلاتي للأولاد. وخصوصاً ميشا وكاتيا. وبلّغ تحياتي إلى كوليا حتماً. تسخن الجو عندنا، وذاب الثلج عن آخره. والرطوبة شديدة.

إلى اللقاء يا عزيزي.

المخلص ف. د.

احتراماتي إلى نيكولاي نيكولايفيتش والآخرين. ماريا دميتريفنا ضعيفة جداً.

---

(1) ابنة ميخائيل دوستويفسكي.

(2) المقصود العدد الأول من مجلة «العصر»، وقد صدر في 24 مارس 1864.

83. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

موسكو، 20 مارس 1864

صديقي العزيز ميشا. لم أرد على رسالتك المؤرخة في 14 من الشهر بانتظار وصول النقود. ولم أستلمها إلا يوم أمس التاسع عشر. أشكرك كثيراً على إرسالها. فقد احتجت إليها. تقول إنك سترسل بعد أسبوع المبلغ نفسه، أي 100، تكرّم وأرسلْها. هذه المئة روبل صرفت على سد الثغرات. الحاجة ماسة جداً. وتضيف إلى ذلك أنك سترسل مئة روبل أخرى بعد المئتين إذا دعت الحاجة. الحاجة قائمة يا عزيزي. قائمة وقاسية. ولذا أرجوك كل الرجاء أرسِل الوجبة، المئة روبل، الثالثة. أنا أعرف أنك نفسك كالسمكة في المقلاة. يا ليت الاشتراكات تساعدنا. أنا صامت ظاهرياً، لكنني أتحمل لا أقل منك، ليس بسبب النقود وحدها. أنا الآن والحمد للّه تعافيت تماماً على ما يبدو. لا أزال متقيداً بالحمية الصارمة والحذر الشديد، إلا أن المرض انتهى على أية حال، وهذا بحد ذاته أمر جيد. بقي أن أعصابي مضطربة للغاية. وأخشى نوبة الصرع. فمتى تأتي إن لم يكن في مثل هذه الظروف؟

ماريا دميتريفنا ضعيفة جداً. ومن المستبعد أن تعيش حتى عيد الفصح. قال لي ألكسندر بافلوفيتش صراحة إنه لا يضمن لها ولا يوماً واحداً. تقيم عندنا بربارة دميتريفنا، ولولاها لا أدري ماذا كان سيحصل لنا. فهي تساعدنا جميعاً بوجودها وسهرها على ماريا دميتريفنا. هذا كل ما أستطيع ذكره عن نفسي. أنا لم أزر أحداً بسبب مرضي. يوم أمس صادفت بليشييف في الشارع. فرح للقائي كثيراً، متصوراً أنني في بطرسبورغ. حدثني عن الموسقوفيين وعن (أمسيات إيفان) أكساكوف ولقائهم يوم أمس عنده معزين بوفاة أخته، وما إلى ذلك.

أواصل كتابة قصة طويلة[1] وأسعى لإنهائها بأسرع ما يمكن، محاولاً في الوقت ذاته أن تكون أفضل. كتابتها أصعب بكثير مما كنت أتصور. في حين أنها يجب أن تكون جيدة. أنا نفسي بحاجة إلى ذلك. وهي من حيث أجواؤها غريبة جداً، ولهجتها حادة متوحشة، ربما لن تحظى بالإعجاب، وبالتالي لا بد للشاعرية أن تخفف تلك اللهجة. وأعتقد أنني سأوفق.

أهم ما يشغل بالي، إضافة إلى هذه القصة، أن أتمكن من كتابة مقالة نقدية لعدد مارس. إلا أن كل المقالات التي في ذهني الآن والتي تناسب المجلة وتوجهاتها إنما هي مقالات طويلة. فماذا عليَّ أن أفعل؟ أفضل شيء هو المواظبة على الكتابة من دون التفات إلى ما إذا كان الوقت يتسع أم لا. هكذا أريد أن أفعل. إلا أن عدم تواجدي شخصياً معكم يقلقني كثيراً. ففي كل يوم تتبادر إلى الذهن فكرة تقتضي الكلام والتبليغ. وأنا قابع هنا وحدي. لا أستطيع لحد الآن أن أذهب إليكم، بل أنا نفسي لن أذهب بأي حال.

أنت تعرف بالطبع كتاب «مذكرات الممثل شيبكين» الذي صدر

هذا العام. إذا لم تكن قد قرأته، خذه واقرأه في الحال. فهو مثير للفضول. والقضية أنني، على أية حال، أرجوك أن لا تكلف أحداً بتحليل الكتاب. المشكلة أن مثل هذه الكتب ثمينة جداً بالنسبة لنا من أجل التحليل. كان شيبكين حتى الثلاثين من عمره تقريباً من الأقنان. في حين أنه ارتبط بالمجتمع المتحضر منذ الطفولة دون أن يفقد صفته الشعبية. ونحن نكتب عن الارتباط بالأرض، بالتربة. من هذه الناحية ينبغي أن نلتفت إلى شيبكين كمثال حي. ثانياً- الارتباط بالحضارة، أي بنا، حصل عند القن المستعبد شيبكين بتأثير قوة مباشرة حصراً هي قوة الفن المسرحي. ومن هنا يطرح السؤال نفسه عن الفن، بل وحتى عن منفعته المادية والاجتماعية. ولذا تكون المقالة المكتوبة من وجهة النظر هذه مهمة ومثيرة. انقلْ هذه الفكرة إلى ستراخوف. فهل سيتولى التحليل بالإضافة إلى «مسلسل المقالات» المعهود. على أية حال (لم يبق لدينا غيره)، فمن سيكتب؟

خبر سفر (المحرر) رازين وقع عليَّ كضربة فأس على الجبين. فما العمل؟ لا يجوز أن نعهد بالقسم إلى أي شخص كان.

رأيي أن الأفضل الاكتفاء بتعداد الأحداث وربطها برسالة سياسية ما ترسل إلى هيئة تحرير المجلة بشأن مسألة جزئية في أمور السياسة. وإذا لم تكن متضايقاً من الأشغال فلمَ لا تستحدث قسماً سياسياً لشهر مارس على الأقل؟ يمكن أن لا تتناول فيه كل شيء، بل تكتفي بمسألة جزئية تخضعها للتحليل. وأخشى أن تدفعك الضرورة فتكلف بذلك أحد السادة المتسكعين. الأفضل أن لا تفعل شيئاً من أن تكلف سيداً من هؤلاء. (. . .)

هناك شخص يدعى تشايف يعترض على آراء دعاة السلافية، لكنه يحبهم كثيراً. وهو من أكثر الناس تقيداً باللياقة والأصول. التقيته عند

أكساكوف ولاموفسكي. وهو مولع بدراسة تاريخ روسيا. شعرت بالارتياح عندما لاحظت أننا متفقان في نظرتنا إلى التاريخ الروسي. وكنت سمعت سابقاً أنه نظم دراما شعرية مستقاة من هذا التاريخ بعنوان «الأمير ألكسندر تفيرسكوي». بليشييف امتدح هذه الأشعار.

وفي العدد 11 من «اليوم» نشر إعلان عن تلاوة عامة لقصائد تشايف وإطراء عليها. وقد كلفت بليشييف أن يقترح عليه نشر كتاباته في «العصر». فهل فعلتُ حسناً؟

(المخلص دوستويفسكي)

---

(1) المقصود رواية «مذكرات من تحت الأرض» («في قبوي»).



84. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

موسكو، 26 مارس 1864

أخي العزيز. قبل ثلاثة أيام أخذت من تشيرينين «العصر» التي استلمها بسرعة، ولا أدري كيف. فقرأتها في يوم ونصف وأعدت قراءتها. وإليك انطباعاتي: كان ينبغي أن تكون حلة الطبعة أجمل، والأخطاء لا تعد ولا تحصى. والترتيب غائب تماماً، ولا مقالة واحدة مدخلية ريادية تتضمن، على الأقل، تلميحاً إلى اتجاهنا، ما عدا مقالة كوسيتسا التي هي مقالة جيدة جداً، ولكنها غير كافية للعدد الأول من المجلة الجديدة. أنا أعرف أن سبب ذلك كله هو منع (الرقابة) «لمسلسل المقالات»، ما يجعلني أكثر انفعالاً، ذلك لأن هذين العددين يرتديان لبوس مجموعة مكتملة. وثمة أيضاً خشونة يمكن السكوت عليها عندما يصدر عددان دفعة واحدة وبعجالة (. . .) والآن عن الجانب الجيد من المسألة. كل المقالات التي قرأتها تثير الاهتمام، (. . .) والغلاف مبرقش، وعناوين المقالات تجلب الانتباه. بعض المقالات معتبرة تماماً. إلا أن في «الأشباح» باعتقادي كثيراً من القاذورات، فيها شيء مقيت، مريض شائخ لا يؤمن بشيء

لعجزه، باختصار، فيها تورغينيف بقضه وقضيضه، ومعتقداته. غير أن الشاعرية تعوض عن الكثير. قرأت القصة مرة أخرى. كما أعجبتني كثيراً (مقالات عديدة منها مقالات) ستراخوف وغريغوريف وأفيركييف (وغيرها. . .) ولكن بريق كل هذه الكتابات يخبو بسبب منع «مسلسل المقالات» المعهود. رجاءً اسألْ من ستراخوف هل سيعدل مقالته للعدد القادم تماشياً مع الرقابة أم ينبغي كتابة مسلسل جديد من المقالات غير المسلسل السابق. حبذا لو أسرع في كتابة الافتتاحية. كما أنني أتشكى بخصوص مقالتي. ففيها الكثير جداً من الأخطاء المطبعية. وكان الأفضل عدم نشر الفقرة ما قبل الأخيرة، التي تتضمن الفكرة الرئيسية، من أن تنشر بهذا الشكل المتناقض. فما العمل؟ خنازير الرقابة سمحوا بالعبارات التي سخرت فيها من الجميع وتظاهرت بالكفر، ومنعوا تبريري للحاجة إلى الإيمان وإلى المسيح. ماذا؟ هل أن مسؤولي الرقابة متآمرون على الحكومة؟

لعل عدد المجلة (المزدوج) يثير حب الاستطلاع إن لم أقل التأثير في القراء. وهذا شيء جيد. عموماً العدد معتبر تماماً إذا نظرنا إلى سرعة التنفيذ. أما بخصوص التنوع فلم أكن أتوقع أن يتم بهذه الصورة. الشيء الوحيد المؤسف أن من المتعذر فهم الاتجاه الذي نتقيد به وماذا نريد أن نقول تحديداً. أرجوك، يا عزيزي ميشا، أن ترد عليَّ بأسرع ما يمكن وتحدثني تفصيلاً عما قيل عن المجلة. الجمهور هنا لم يستلمها بعد، ولذا لم أسمع أي رأي عنها.

ماريا دميتريفنا ضعيفة لدرجة جعلت ألكسندر بافلوفيتش لا يتوقع لها أن تعيش يومها. لن تعيش أكثر من أسبوعين. أحاول أن أنهي قصتي بسرعة، ولكن حكّم بنفسك هل الوقت مناسب للكتابة؟

هل تعرف شيئاً عن بافل؟ فما عدا رسالة واحدة لم يكتب شيئاً مع

أنني أمرته أن يراسلني أسبوعياً. فماذا حصل له؟ وكيف يعيش؟ رجاءً حاول أن تتحدث معه على نحو ما، أو أرسلْ له أحداً إلى الشقة ليرى ماذا يحدث هناك؟ إنه ابن عاق.

ثم إنه، يا أخي، ربما سيلومني فيما بعد لأنني لم أطلب له ترخيصاً بالمجيء إلى موسكو لتوديع والدته. إلا أن ماريا دميتريفنا لا تريد رؤيته قطعاً، وقد طردته بنفسها من موسكو آنذاك. ولم تغير رأيها حتى الآن. لا تريد أن تراه. وهي المريضة بالسل معذورة على هذا المزاج. قالت إنها ستدعوه لتباركه إذا شعرت بأنها على شفا الموت. لكنها يمكن أن تموت مساء اليوم. بينما قالت في الصباح إنها ستعيش في الصيف في المنزل الريفي وإنها بعد ثلاثة أعوام ستنتقل إلى تاغانروغ أو آستراخان. وليس بالإمكان تذكيرها بباقل. فهي وسواسية جداً وستقول: «يعني أنني ضعيفة جداً وسأموت». فما الموجب لتعذيبها في الساعات الأخيرة، ربما، من حياتها؟ ولذا لا أستطيع أن أذكّرها بابنها. أريد له أن يعرف ذلك. بلّغه إن كنتَ تستطيع، ولكن لا ترعبه كثيراً، مع أنه لن يرتعب على ما يبدو.

ولي رجاء هام آخر: حالما يأتي أجل ماريا دميتريفنا أبعث لك برقية لكي ترسل باقل إلى موسكو حالاً، في اليوم نفسه. فلا بد له أن يحضر الدفن. ثيابه كلها بألوان فاتحة، ولذا يجب أن تشتري له (ثياب الحداد. . .). أرجوك أن تفعل ذلك وأستعطفك لأنك صديقي الوحيد، فتكرَّم عليَّ بهذه الخدمة العظيمة وساعدني في وضعي العصيب حالما تستلم البرقية. وهي ربما ستصلك قريباً.

ملاحظة: عندما ستبعث باقل في الازدحام والتسرع قد يتحجج ويؤجل السفر إلى الغد. فاجعل شخصاً ما يراقبه في ذلك اليوم نفسه. باللّه عليك.

تقول إنك أرسلت النقود يوم الاثنين. لم أستلمها بعد.

أنا لست في صحة تامة. لا أقصد المرض السابق، بل مخلفاته، وأهمها ضعف البدن. أشعر بالتعب سريعاً، فما السبب يا ترى؟

وداعاً عزيزي، الرسالة ليست بهيجة. يعطيك العافية. أعانقك وجميع أفراد عائلتك.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) صدر عدد يناير وعدد فبراير 1864 من مجلة «العصر» مزدوجاً في مجلد واحد.



85. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

موسكو، 5 أبريل 1964

صديقي ميشا!

أكتب لك كلمتين.

قصتي الطويلة[1] يمكن إنجازها في هذا الشهر لو توفرت القوى والراحة والعمل بلا انقطاع. ولكن ليس في النصف الأول من الشهر. أقول ذلك على أية حال. والآن حكّم عقلك: عدد مارس يجب أن يصدر حتماً في أبريل. فليس من اللائق بالمجلة البادئة أن يصدر عددها لشهر مارس في مايو. فهل أستطيع أن أنهي القصة في الموعد المذكور. كل الدلائل تشير إلى أنني لن أستطيع. والأهم هو الانقطاع الذي لا يتوقف عليَّ ولا أتمكن من التدخل فيه.[2] ولذا أتوجه إليك يا عزيزي أن تكتب لي بأسرع ما يمكن متى تريد أن تستلم القصة في آخر موعد؟ وسأحكم بناء على جوابك هل سأنتهي أم لا؟ على أية حال خذ بنظر الاعتبار تلكؤ العمل والملابسات التي يمكن أن تحصل ولا تتوقف عليّ.

اكتبْ لي أيضاً هل لديك في القسم من القصص شيء لشهر مارس، ما عدا قصتي، وماذا تحديداً؟

في تصوري أن بالإمكان الظهور في هذا القسم من دون أسماء شهيرة.

ويمكن الإعلان عن قصتي، وأظن أن ذلك غير ضروري إطلاقاً، بأنها ستنشر في عدد أبريل. فأنا، في الحقيقة، أريد لها أن تكون جيدة وأن لا تكتب كيفما اتفق. والأهم أني ربما يمكن أن أنهيها، ولكنني لا أمتلك القوى البدنية الكافية ولا الظروف الملائمة.

ولذا قررت الآتي:

أواصل العمل بإصرار وبشكل مكثف في كتابة القصة، وليكن ما يكون، إلى أن أستلم الجواب منك. فإذا كتبت لي أن بالإمكان، وبحكم الحاجة، الاستغناء عن قصتي فإني أرجئها في الحال ويبقى لي وقت لكتابة شيء ما لهذا العدد في النقد، ليس عن كوستوماروف، فالمقالة عنه طويلة، إذا أجبتني بسرعة.

وإذا كتبت أنه ليس بالإمكان الاستغناء عن القصة فسأواصل كتابتها. على فكرة أنا نفسي سأقرر ما هو الممكن أو غير الممكن استناداً إلى الموعد الذي حددته أنت لاستلام المادة. ولن أترك القصة إلا في حال الضرورة القصوى.

أنا أدرك، يا أخي، أنني الآن عضيد سيّئ لك. وسأعوض فيما بعد. فأوضاعي الآن عصيبة لدرجة لم أر مثلها في السابق أبداً. الحياة كئيبة، والصحة لا تزال ضعيفة، وزوجتي تحتضر. وفي الليالي تتوتر أعصابي بسبب ما يجري طول النهار. الحاجة تقتضي النزهة في الهواء الطلق، ولكن لا وقت للتمشي ولا مجال بسبب الأوحال.

معطفي الدافئ المبطن بالقطن بات ثقيلاً عليّ. درجة الحرارة أمس كانت 17 مئوية في الظل. كيف أصف لك الحال؟ الأمر صعب جداً. والأهم ضعف البدن واضطراب الأعصاب.

بينما لا أمل إلا بالاعتماد على النفس. يا أخي، النقود تتبخر عندي كما في الغلاية، والنفقات هائلة. أنا لا أنفق على نفسي ولا كوبيكاً واحداً، أنتعل البسطال الشتوي ولا أنوي شراء آخر صيفي. لا يمكنني أن أعيش بلا نقود. اسندني الآن في أوضاعي الشاذة جداً، وكن على ثقة بأنني سأكسب قريباً.

قرأت (من نتاجي) في (أمسيات) التلاوة العامة. كما قرأ أوستروفسكي. وقال لي بلهجة ترحيب اختلط بالزعل إنك كنت ترسل له «الوقت» سابقاً، ولم ترسل «العصر» حالياً. ووعدته بأن أبلغك (. . .)

رأيت تشايف وسألني عن ردّك بخصوص مسرحية «ألكسندر تفيرسكوي». اكتبْ عنها رجاءً. شعرها جيد، وأنا لم أقرأ المسرحية نفسها بعد. وقد كتبت لك عن تزكيتها في (صحيفة) «اليوم».

وداعاً، أعانقك. أصابني ضعف شديد، وأشعر حتى بثقل ريشة الكتابة. الآن الساعة الثانية عشرة. وفي الليل يزداد ضعفي، فلا أعمل. وهذا شيء سيئ للغاية. في السابق كانت أفضل أعمالي تتم في الليل. وداعاً يا عزيزي.

المخلص ف. دوستويفسكي

قرأت نصف «الطباع الغامضة». باعتقادي ليس فيها شيء غير عادي. وهي طباع اعتيادية وليست غامضة إطلاقاً. وفيما يتعلق بالأفكار العصرية تلاحظ عليها الفتوة وبعض الوقاحة. فيها الكثير من

الشاعرية الصادقة، والكثير أيضاً من السطحية. والشيء الجيد أنها ليست مملة.

لربما تريدني أن أرسل إليك قصتي على وجبات. لكن المهم بالنسبة لي أن أعرف الموعد الأخير للتسليم كيلا يفسد النتاج بسبب التسرع.

رجاءً، ارفع الكلفة ولا تشفق عليّ. المهم بالنسبة لي هو أن أنتهي، ولا فرق عندي ماذا أكتب. لكنني أريد أن أنهي القصة بشكل أفضل.

---

(1) «مذكرات من تحت الأرض» («في قبوي»)
(2) نظراً لاحتضار زوجة الكاتب.



86. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

موسكو، 13 - 14 أبريل 1864

صديقي العزيز ميشا.

استلمتُ اليوم رسالتيك. إحداهما مع مبلغ 100 روبل وإضافة في سطرين. أشكرك من صميم القلب على الرسالة وعلى الإضافة، والثانية مؤرخة في 10 أبريل، وأسارع هنا للإجابة عليها. سبق أن كتبتُ لك عن قصتي الطويلة في رسالتين وأبلغتك أنها ليست جاهزة وأنني تركتك من دون القصة ومن دون المقالتين في أحرج وقت، هو فترة الأعداد الأولى من المجلة. وأنا، يا صديقي العزيز، أعرف وأتعذب كثيراً. فما العمل؟ كل تلك عوامل خارجية لا تتوقف عليّ. مستعد أن أضحي بسنة من حياتي مقابل كل عدد من المجلة، على أن لا يحصل ما يحصل الآن. أنا في حالة عصبية فظيعة، مريض أخلاقياً لأنني أسحب منك النقود كون نفقاتي لا تتقلص، بل تزداد. كل ذلك يعذبني ويؤذيني، ولا أدري بماذا سينتهي. ولكن فلنتناول العمل. ما كتبته (لك) عن القصة أكرره هنا: إنها تتمدد. ومن المحتمل تماماً أن تكون مؤثرة، وأنا أبذل قصارى جهدي، لكنني أتقدم ببطء، لأن كل

أوقاتي مشغولة بغيرها من دون إرادة مني. القصة موزعة على ثلاثة فصول كل فصل بما لا يقل عن ملزمة طباعية ونصف. الفصل الثاني مرتبك، والثالث لم أبدأه بعد. بينما الفصل الأول تحت التنقيح. ويمكن أن يأتي في ملزمة ونصف. سأفرغ من تنقيحه بعد خمسة أيام. فهل يصح أن ننشره على انفراد؟ سيكون والحال هذه مثاراً للسخرية. خاصة وأنه يفقد نسغه الحيوي من دون الفصلين الآخرين. أنت تعرف مفهوم النقلة في الموسيقى. وهو نفسه في هذا المجال. في الفصل الأول ثرثرة، على ما يبدو. وفجأة يظهر في الفصلين الأخيرين حل لها بشكل كارثة. إذا طلبت أن أرسل إليك الفصل الأول وحده فسأرسله. فاكتبْ لي من كل بد. أنا لا أزال قادراً على التضحية بهذه الصغائر، فأرسل لك الفصل. لكنك كتبت لي أنك تريد إصدار العدد مع مَقدم العيد[1]. فمتى أبعثه؟ ألن يصدر العدد بعد العيد؟ هذا يؤدي إلى إرجاء الاشتراكات. فلنتحدث عنها. أنا واثق، يا أخي، بأن خبرتك الشخصية ينبغي أن تعلمك أنت أيضاً بأن الاشتراكات تكاد تنتهي الآن، وأننا لو نشرنا في كل عدد نتاجاً لتورغينيف لما رفعنا الاشتراكات كثيراً. لديك رواية زاروبين المطولة. انشرها. فهي لا بأس بها. وخذ من ميلوكوف قصة قصيرة أو ما أشبه. اهتم بالنقد. النقد هو الأهم. اتجاه مجلتنا لا شك فيه بالنسبة للجمهور. إلا أن المقالات التي تحلل اتجاهنا خصيصاً قليلة. طبيعي أن من الضروري أن يكون عدد مارس أفضل حتى من العددين الأولين. ولكن ما العمل؟ ثم إن الأمل في اشتراكات العام الحالي غير وارد. وبالمقابل سنواصل في الأعداد القادمة، على مدار عام، العمل على تأمين اشتراكات رائعة في النهاية للعام التالي. أنا مسؤول عن كلامي هذا. اقترض المبلغ اللازم لهذا العام من أرملة خالنا. ولعلك استلمتَ ردّي

على هذا السؤال. فمن الحماقة عدم الاستفادة من هذا القرض مع وجود احتمال كبير بالنجاح. أصدِر العدد بأسرع وقت. قبل عيد الفصح، وتعال إلينا في أسبوع البصخة المقدس.

على فكرة، حاول أن تحصل من غورسكي، إن أمكن، على مقالة بعنوان جذاب. الجمهور يُقبل على قراءة مثل هذه المقالات. وقد شاهدت في موسكو كيف يقرأ الناس صغاراً وكباراً مقالة له ويناقشونها. هذا شيء واضح ومفهوم. أما مقالة تورغينيف فما يسمى بالجمهور لا يمتدحها (. . .) أعط وعداً للقراء بأن المجلة ستنشر في عددها القادم بقية قصة «مذكرات من تحت الأرض»، وأعلنْ أنني كنت مريضاً. قرأت في الصحف إعلاناً عن صدور عدد مارس من «مذكرات الوطن». هذا الإعلان أمرّ من العلقم.

(. . .)،(. . .).

وداعاً يا أخي. أعانقك. وأتمنى لك موفور الصحة والهمة والنشاط.

المخلص ف. دوستويفسكي

الثلاثاء، 14 أبريل. في الساعة الثانية بعد منتصف ليل أمس أنهيت هذه الرسالة، وبعدها تدهورت أحوال ماريا دميتريفنا لدرجة خطيرة. فطلبتُ استدعاء القسيس. ذهبت إلى ألكسندر بافلوفيتش وبعثت في طلب القسيس. بقينا ساهرين طول الليل. وفي الساعة الرابعة تم تناول القربان المقدس. وفي الثامنة صباحاً رقدتُ وأيقظوني في العاشرة. وكانت حالة ماريا دميتريفنا في تلك اللحظة أهون.

من المئة روبل التي أرسلتها لي لم يبق ولا كوبيك واحد في اليوم الثاني من العيد. تلك هي حياتي.

(. . .) إنني أمتص منك النقود في هذا الوقت العصيب، ولم أشهد في حياتي فترة أكثر مرارة وأشد ألماً من الوقت الحاضر.

أبعث إليك قصة أبوليناري على حدة. فانتبه إليها. أعتقد أنه يمكن نشرها.

---

(1) عيد الفصح (أسبوع البصخة المقدس).



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

87. إلى أندريه دوستويفسكي

بطرسبورغ، 29 يوليو 1864

أخي العزيز أندريه ميخائيلوفيتش.

أنا مسرع للكتابة إليك تلبية لطلبك رغم أنني لا أملك ذرة من الوقت. فكل أشغال أخينا (المرحوم ميخائيل في إدارة المجلة) وقعت على كاهلي. ومنذ ثلاثة أسابيع تقريباً لا أشعر حتى بوجود قدميّ. توفي المرحوم ميشا بسبب تقيح في الكبد أدى إلى تسرب عصارة المرارة إلى الدم. هذا هو المرض. وقد كان مريضاً من زمان. الأطباء يقولون من عامين تقريباً. فالمصاب بداء الكبد يمكن أن يعيش طويلاً دون أن يلتفت إليه، وخصوصاً إذا كان مشغولاً جداً. بينما كان هو على الدوام مشغولاً إلى أبعد الحدود. في العام الماضي منعوا المجلة («الوقت»). فوقع النبأ عليه آنذاك وقع الصاعقة وأربك جميع أشغاله وجعله يتوقع كارثة لا تبقي ولا تذر، فكان طوال العام الأخير قلقاً منفعلاً متوجساً. يصعب أن أشرح لك كل تلك الأمور بالتفصيل. فأوجزها بعدة كلمات: أموره ساءت من زمان نتيجة لحرب (القرم) وما تبعها من أزمة مالية وتدني الائتمان عموماً. وتراكمت (علينا)

ديون كبيرة. بدأنا نصدر مجلة أنفقنا عليها المال ولم نستغن عن الاقتراض. وبالمقابل كان لدينا من العام الثاني 4000 مشترك، وبالتالي 60000 روبل في التداول. واستمر الحال على هذا المنوال طول الوقت. وهو كذلك الآن أيضاً بالنسبة «للعصر». ومع ذلك لم نتمكن من تسديد الديون. كان مجموع الديون القديمة والجديدة، حينما احتجبت «الوقت»، 20 ألفاً. وتمكن أخونا من إنفاق عائدات الاشتراك على تسديد الديون. وبعد التسديد المنتظم ظل هناك ائتمان للتداول اللازم، وشرحه يطول، لإصدار المجلة سنوياً بنزاهة وشرف وبلا صعوبة تذكر. إلا أن كل شيء تقوض بمنع المجلة من الصدور، كما تقوض الائتمان أيضاً. وكان العام الفائت صعباً فتضررت صحة أخينا كثيراً. وفي الأخير تمكن من الحصول على ترخيص لإصدار «العصر». لكنه اضطر إلى إصدارها بخسارة. لأنه كان من اللازم تسليم العدد للمشتركين الـ 4000 بستة روبلات وليس بقيمة الاشتراك الكامل 15 روبلاً. إلا أن المرحوم تصرف بحكمة، حيث اقتنى مطبعة بقرض يشكل ثلثي قيمتها، وتمكن بذلك من توصيل المجلة جيداً حتى موعد الاشتراكات الجديدة. وبموجب حساباته لن تبقى أية ديون عالقة بعد عام ونصف. إلا أن مشيئة اللّه أرادت غير ما أراد. قبل ثلاثة أسابيع أو يزيد من وفاته توعكت صحته، بالتقيؤ واضطراب المعدة. وبعد ذلك انفجر الكبد فجأة. وللحقيقة أنه تجاهل وصايا الأطباء بالكف عن العمل وملازمة المنزل، على الرغم من أنه كان يستشيرهم ويتناول الأدوية. وكان لديه بيت صيفي في (ضاحية) بافلوفسك. وكان غالباً ما يتردد على المدينة لأشغال المجلة والمطبعة وغيرها من الأعمال. وأردت أنا أن أسافر إلى الخارج لغرض العلاج واستلمت جواز السفر وارتحلت إلى موسكو لمدة أسبوع. وعندما عدت من

موسكو أواخر يونيو أفزعني أن المرض الذي وصفه بالبسيط عندما ودعني إلى موسكو قد اشتد. وأخيراً خوّفه الدكتور بيسر الشهير هنا وقال له إن هذا المرض خطير جداً، وينبغي علاجه. واستقر المرحوم في البيت الصيفي، ولم أسافر أنا إلى الخارج، بل أخذت أتردد على بافلوفسك يومياً، فيما كان هو يهم بالسفر إلى المدينة في كل لحظة متوقعاً الشفاء. وأخيراً داهمه الضعف والنحول. وفي يوم الأحد، الخامس من يوليو، خف عليه المرض فجأة. ولم يفقد بيسر الأمل مع أنه أعلن أن التقيح في الكبد. ولم يكن أحد منا يتوقع سوء المآل. لا أحد، حتى الطبيب. وفجأة أخذ يعمل في الأمسيات فرحاً لتحسن أحواله. وفي مساء الاثنين جاؤوه بخبر منع الرقابة إحدى المقالات. فقال لي في اليوم التالي إنه يشعر بسوء الحال ولم يغمض له جفن في الليل. ما كان ينبغي له أن يمارس أية أعمال في مثل حالته الصحية. فأدنى إخفاق أو أي خبر غير سار إنما هو بمثابة السم بالنسبة له. ويمكنه أن يقلق ويحول الحبة إلى قبة ولا ينام الليل. استدعينا بيسر، فاختلى بي وأعلن أن لا أمل في الشفاء، لأن الغدة الصفراء انفجرت هذه الليلة وتسربت المرارة إلى الدم وسمّمته. وقال بيسر إن أخي يشعر بالنعاس، وسيغفو في المساء ولن يستيقظ أبداً. وهذا ما حصل. غفا، ونام بهدوء تقريباً. وفي يوم الجمعة، العاشر من الشهر، توفي في المنام. في السابعة صباحاً. كانت هناك ثلاثة اجتماعات تشاورية للأطباء، واستخدمت كل الوسائل، واستُدعي أطباء من بطرسبورغ، ولكن من دون جدوى.

لن أقول لك كم فقدت أنا برحيله. هذا الإنسان كان يحبني أكثر من أي شيء في الدنيا، أكثر حتى من زوجته وأطفاله الذين كان متيماً بهم. ولعلك تعرف أن زوجتي توفيت بالسل في موسكو في أبريل من

هذا العام. وفي عام واحد التوَت حياتي وتحطمت. فهذان الكائنان كانا لأمد طويل يشكلان كل ما في حياتي. فمن أين أجد الآن أناساً مثلهما؟ بل ولا أريد أن أبحث عن أولئك الناس. فمن المستحيل العثور عليهم. أمامي وحدة الشيخوخة الباردة والصرع الذي يلاحقني.

كل أمور عائلة أخينا مرتبكة لدرجة كبيرة. أعمال هيئة التحرير الهائلة والمعقدة أتولاها أنا. الديون كبيرة. وليس لدى العائلة كوبيك واحد، وكل أفرادها قاصرون. الجميع يبكون حزانى، وخصوصاً إميليا فيودوروفنا التي تخشى المستقبل إضافة إلى كل النوائب. بديهي أنني الآن خادمهم. أقدم رأسي وصحتي قرباناً لمثل هذا الشقيق.

عموماً الأمور كالآتي: لدى المجلة 4000 مشترك. وفي العام القادم ربما سيزداد عددهم. وبالتالي ذلك يعني وجود تداول سنوي بـ 60000. وفي غضون عامين تستطيع العائلة أن تسدد كل الديون المستحقة، إضافة إلى إمكانية العيش في بحبوحة. وأنا في الواقع أبقى رئيساً لتحرير المجلة. كما عُيِّن رئيس تحرير آخر هو أ. بوريتسكي من جهة الحكومة. وفي العام الثالث تستطيع العائلة أن تدخر عشرة آلاف سنوياً على وجه التقريب. وهو الهدف الذي كان يتوخاه شقيقنا، لأنه هدف سليم أرجأ بلوغَه غلقُ المجلة في العام الماضي. إلا أن المجلة ستصدر طوال العام الحالي بخسارة، لأنها تسلم إلى معظم المشتركين بـ 6 روبلات بدلاً من الـ 14 روبلاً وخمسين كوبيكاً، وذلك تعويضاً لهم عن الأعداد الثمانية من «الوقت» التي لم تصدر بسبب المنع. كان هذا العام صعباً على أخينا. ففي بداية السنة اقترض في موسكو 9000 روبل من زوجة خالنا لمدة عامين و6000 من ألكسندر بافلوفيتش بسندات رهنتها أنا هنا بمبلغ 5000. وأنفق تلك الأموال على شراء مطبعة له كان ينوي أن يرهنها هي أيضاً بخمسة آلاف، وقيمتها عشرة

آلاف. هكذا كان يأمل في الوصول بالعمل إلى المبتغى، أي إلى الاشتراك المرتقب الذي كان سيعود على المجلة بـ 60000 كحد أدنى. وهذا هو المطلوب. ثم إن الديون هنا تبلغ 8000. لكنه توفي. ورغم أن إميليا فيودوروفنا تسلمت الوصاية وباتت المجلة ملكاً للعائلة، إلا أن ائتمان المرحوم اختفى لدرجة كبيرة برحيله. باختصار: كان مجموع ما لدينا نقداً 5000 روبل ينتظر استلامها مقابل السندات المرهونة، وما يقارب الـ 3 آلاف ينتظر أن نستلمها هذا العام، بالإضافة إلى المطبعة التي دفعنا جزءاً من ثمنها. لدينا صعوبة فيما يخص النقود. إلا أننا، بإذن الله، سنصل بسلام. والآن أقول لك، يا أخي الكريم، إن العائلة لم تكن يوماً في مثل هذه الضائقة. وآمل أن نفلح في تحسين الأوضاع. ولو كنت تستطيع أن تقرض العائلة لتمشية أمور المجلة ولو 3000 روبل، مما وقع من نصيبك بعد وفاة خالنا ولعلك لم تنفقه، لموعد أقصاه 1 مارس بفائدة 10 بالمئة، لفعلتَ خيراً وتكرمت بالمساعدة وواسيت كثيراً المسكينة (أرملة أخيك) إميليا فيودوروفنا. التسديد في الأول من مارس لا ريب فيه. وأنا أيضاً مستعد لكفالتها. والآن القرار لك. حكّم عقلك: سيكون الأمر صعباً جداً علينا، رغم ثقتي التامة بأنني سأتحمل إصدار المجلة حتى يناير. والـ 3000 الإضافية من شأنها أن تسعفنا بالتأكيد. والرأي رأيك[1]. (. . .). إميليا فيودوروفنا تبلغك تحياتها. وهي لا تستطيع أن تكتب لأحد حتى الآن. وداعاً، فكّر فيما كتبت لك عنه. فهذا العمل من الفضائل الطيبة. ولا يطال الشك مصداقيته أبداً. احتراماتي وتحياتي الأخوية الصادقة لزوجتك. وقبلاتي لأولادك (الأربعة).

إلى اللقاء يا عزيزي.

أخوك ف. دوستويفسكي

على فكرة، أنت كنت دوماً تلومنا جميعاً لأننا لا نكتب لك شيئاً. المرحوم كان طوال العامين الأخيرين قلقاً جداً. وأنا في العام الأخير كنت جنب زوجتي ماريا المسكينة المريضة بالتدرن الرئوي. في الصيف الحالي كنت أنوي السفر إلى الخارج، إلى إيطاليا ثم إلى القسطنطينية في طريق العودة عبر أوديسا. وفكرت في زيارتك لثلاثة أيام في يكاترينسلاف رغم الدورة الطويلة في الطريق.

---

(1) أندريه لم يبرر آمال أخيه فيودور، لأن الـ 3000 المذكورة من تركة خالهما كانت مودعة لدى إحدى الشركات بسندات لم يحن وقت استرجاعها.



88. إلى إيفان تورغينيف

بطرسبورغ، 20 سبتمبر 1864

العزيز المحترم إيفان سيرغييفيتش.

قال لي يغور بيتروفيتش إن لك، أولاً، موقفاً جيداً ميالاً إلى مجلتنا، وثانياً، إنك وهو في بادن شعرتما بنوع من الحيرة لسماع اسم بوريتسكي الذي يعتبر رئيس التحرير الرسمي للمجلة. وفهمتُ من كلام كوفاليفسكي، إن لم أكن مخطئاً، أن اسم بوريتسكي غير المعروف يمكن أن يحول جزئياً دون نيّتك ربما في تزويد «العصر» بقصة طويلة أو رواية في المستقبل حينما تكتبها. وأرى من المفيد أن أوضح جوهر المسألة. بوريتسكي من معارفنا، أنا والمرحوم أخي، من خلال عائلة مايكوف منذ 17 عاماً تقريباً. وكان في وقت ما يكتب «الاستعراض الداخلي» في «مذكرات الوطن». وتولى كتابة هذا الركن في مجلة «الوقت» عام 61، ثم حل رازين محله. وقد أبلغوني بأنه لا يحق لي رسمياً أن أكون رئيساً للتحرير، وعليّ أن أبحث عن شخص آخر لهذه المهمة. بوريتسكي إنسان هادئ، وديع، مثقف بما فيه الكفاية، ومن دون شهرة أدبية. وإذا لم يكن بالإمكان تمتع الرجل بشهرة واسعة مثل

بيسيمسكي فالأنفع للمجلة أن يكون بدون شهرة على العموم. والمهم أنه مستشار مدني. وأنا قدمته بمثابة محرر، ووافقوا عليه لأنه يناسب الشروط المطلوبة تماماً. وهو يساعدني في التحرير، بل وأخذ يعد «الاستعراض الداخلي»، لكن مهمة الإصدار نتولاها نحن الموظفين السابقين وأنا في مقدمتهم. والأمور تسير، على ما أظن، بشكل لا بأس به، ولدينا المال اللازم حالياً.

لكنّ كل هذه التبدلات تؤثر كثيراً على الجمهور أيضاً. وينبغي لنا الآن، الآن تحديداً، أن نبيِّن أن العاملين الأساسيين السابقين لا يستهينون بنا، وإذا شاركت أنت في المجلة فسيفهم الجمهور أخيراً أن المجلة سائرة في طريق بلا مطبات. ولذا لا أخفي عليك مدى قيمة مشاركتك بالنسبة لنا. أرجوك، يا إيفان سيرغييفيتش، اكتبْ لي عن ذلك، هل تستطيع أن تعدنا بأول قصة طويلة أو رواية تكتبها؟[1] عدد المشتركين لدينا كبير. وستكون مجلتنا في المقدمة من حيث النزاهة ومصداقية الأدب، بلا خيانة للضمير، ومن حيث (الموقف) في القسم الانتقادي. «المعاصر» تتدنى بشكل فظيع، و«البشير الروسي» اتخذت شكل حولية دورية. أنا لا أتباهى في الحقيقة. باختصار، ستجري الأمور على ما تجري عليه، ونحن من جهتنا سنبذل جهدنا.

لقد تأخرنا بعض الشيء. وفاة أخي أوقفت إصدار المجلة شهرين. ومع أن الجميع تأخروا، إلا أننا أكثرهم. وسنلحق بالركب. نقلتُ الأشغال إلى مطبعة أخرى، ونعمل فيها بمثابرة كبيرة، وفي نيتنا أن نصدر عدد يناير 65 قبل الجميع. لحد الآن لم أتمكن شخصياً أن أكتب ولا سطراً واحداً. أعمل ليل نهار، وحصلت لي نوبتان من الصرع. كل الأعمال على كاهلي. وخصوصاً الجزء الطباعي منها.

فأنا الوحيد الآن في العائلة. ومع ذلك تم، والحمد للّه، تنظيم بعض الأمور. وأنا لا أفقد الأمل.

أكرر هنا من جديد أن مساهمتك ذات قيمة بالغة بالنسبة لنا. ولن تأسف على مؤازرتنا. بالطبع كل شخص يمدح نفسه، لكن هذا أفضل مما لو نظرتُ إلى عملي الحالي بتشاؤم. ما أشد رغبتي في توصيل مجلتنا إليك[2].

أوستروفسكي بعث لي تواً رسالة حميمة. وقد وعد بتزويدنا حتماً بمسرحيتين في غضون هذه السنة. ولي في هذا العدد مقالة عن أوستروفسكي أمدحه فيها، ولكن بأكبر ما يمكن من الحيادية. وهو لم يطلع عليها بعد. لكني لا أريد أن يكون لها تأثير عدائي عليه في العلاقة مع المجلة.

إلى اللقاء. أشد على يدك بحرارة.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) وعد تورغينيف دوستويفسكي بتلبية طلبه، لكنه لم يستطع أن يحدد موعد البدء بكتابة نتاج جديد.

(2) كان إرسال المجلة إلى تورغينيف في باريس مكلفاً.

89. إلى آنا كورفين- كروكوفسكايا

بطرسبورغ، 14 ديسمبر، 1864

الفاضلة السيدة آنا سيرغييفنا

معذرة إذا كنت أخطأت في كتابة الاسم الكريم، أرجو التكرم بالتصحيح.

أبعث إليك 181، مئة وواحداً وثمانين روبلاً، مقابل قصتك «الراهب» المنشورة في عدد سبتمبر، التاسع، من «العصر» تحت عنوان «ميخائيل». عنوان «الراهب» لم يكن ممنوعاً على أية حال، لكن الرقابة الكنسية اعترضت عليه. في البداية منعت الرقابة الكنسية هذه القصة، ولذا اضطررت للموافقة على الكثير من الشطب والتصحيحات فيما بعد. بعض تلك التصحيحات في اعتقادي الشخصي مبرر. على سبيل المثال كل مشاعر ميخائيل بخصوص الدير والرهبان عندما عاد إلى موسكو وقبيل مغادرتها مشطوبة، وأعتقد أن الشطب هنا شيء جيد، لأن التذكير بتلك المشاعر غير ضروري. فمن لا يفهمها من دون اجترار؟ وبسبب هذا التقليص غدت القصة أقصر، وأكثر كثافة وبلا قتامة أو غموض. كل شيء واضح. وأضيف إلى

ذلك أن من أعظم مواهب الكاتب قدرته على الشطب والاختصار. فمن يجيد ويستطيع أن يشطب ما كتب يذهب بعيداً. كل الكتاب العظام ألفوا بمنتهى الكثافة والاختصار. والأهم أنهم لم يكرروا ما قيل، ولم يكتبوا ما هو مفهوم أصلاً. لا مؤاخذه على هذا الاسترسال. فلربما أنا ساذج جداً لأمضي في تقديم النصائح لك. كان يتعين عليَّ أن لا أحمل محمل الجد والفهم الحرفي لرسالتك الأولى التي طلبتِ فيها النصح. أليس كذلك؟

قصتك «ميخائيل» أعجبت كثيراً جميع المقربين إلى هيئة التحرير وموظفينا الدائمين. أحدهم، وهو ستراخوف الذي يكتب «ملاحظات المدون» والذي أحترم رأيه أكثر من الآخرين، يرى فيك مهارة طبيعية وتنوعاً كبيرين. التنوع، مثلاً، في مشهد «المنام» و«معيشة الرهبان». عموماً «ميخائيل» أعجبت الكثيرين. «المنام» أعجبت البعض، وليس الجميع. أما رأيي فيها فأنت تعرفينه. يمكنك وينبغي لك أن تنظري إلى مواهبك بجدية. أنت شاعرة. وهذا وحده يكفي. وإذا إضفنا إلى ذلك الموهبة والنظرة (المميزة) فلا يجوز الاستهانة بالذات. المهم أن تتعلمي وتقرأي. اقرأي الكتب الجادة. والباقي تجلبه الحياة.

وإلى ذلك ينبغي الإيمان، فمن دونه لن يحصل شيء.

مثالك الأعلى يلوح بشكل لا بأس به، وإن كان سلبياً. ميخائيل الذي لا يستطيع بطبيعته، أي بصورة لاواعية، أن يتسامح مع ما هو أوطأ من المثال الأعلى إنما يجسد فكرة عميقة وقوية.

أنت لم تردّي على الرسالة الأخيرة، وهي ببضعة سطور لدى إرسال النقود لك أجراً لقصة «المنام». وأنا لا أعرف لحد الآن هل استلمتِها أم لا؟

ولذا تكرّمي واكتبي ولو كلمتين بأنك استلمت أجر «ميخائيل» الذي أبعثه إليك بحساب 50 روبلاً للملزمة.

المخلص خادمك ف. دوستويفسكي

أرجو المعذرة على تأخير أجر «ميخائيل» أسبوعين.



90. إلى إيفان تورغينيف

بطرسبورغ، 13 فبراير 1865

إيفان سيرغييفيتش الموقر.

أبلغني ب. آنينكوف قبل أسبوع أن أبعث إليك ثلاثمئة روبل المتبقية في ذمة أخي لقاء (روايتك) «الأشباح». أنا لا علم لي بهذا الدين مطلقاً. ولعل أخي حدثني عنه في حينه، ولكن لمّا كانت ذاكرتي ضعيفة جداً فقد نسيت طبعاً، ثم إن ذلك لم يكن يخصني مباشرة آنذاك. ويوسفني جداً أنني لم أكن أعرف بهذا الدين في الصيف عندما كانت لدي بعض النقود، وكنت سأبعثها لك في الحال من دون أي تذكير من جانبك.

وأخشى أن أكون الآن قد تأخرت كثيراً. ولكن في هذه الأيام الثمانية صدر عدد يناير، وإلى ذلك ما كانت قدماي تحملانني وأنا مريض. ولمّا كنت أنا وحدي تقريباً أتولى التنفيذ في المجلة فقد عملت ليل نهار رغم المرض. ولا أخفي عليك أيضاً أن النقود كانت شحيحة، فقد تأخرت اشتراكاتنا ولم ترتفع إلا بصدور العدد الأول (الجديد).

في الآونة الأخيرة، من 28 نوفمبر، حين صدر عدد سبتمبر (متأخراً) وحتى 12 يناير، موعد صدور العدد الأول الجديد، استطعت في 75 يوماً أن أصدر 5 أعداد في كل منها بمعدل 35 ملزمة. فهل تتصور مدى التعب الذي سببه لي ذلك؟ هذا وحده يجعلك تتفهم إلى أي شيء تحولتُ؟ أنا نفسي لا أدري؟ لقد صرت آلة من الآلات.

أما الآن فلدي شهر، وليس أسبوعان، لإصدار العدد الواحد. وآمل أن أجعل المجلة ممتعة على قدر الإمكان. الديون كثيرة: وسيكون الأمر صعباً جداً. سأتحمل عاماً، وفي العام التالي نقف بثبات على أقدامنا.

كتبت لي أنك دهشت لبسالتي في البدء بإصدار مجلة في زماننا هذا. ويمكن توصيف هذا الزمان بأنه يخلو تماماً من الآراء، وخصوصاً في الأدب، كل الآراء جائزة، والكل يعيشون جنباً إلى جنب، من دون رأي مشترك ولا إيمان واحد. ويقترف خطيئة، في اعتقادي، من لديه ما يقوله ويلوذ بالصمت ومن يتصور على الأقل أنه يعرف بماذا يؤمن ولا يتكلم. أما البسالة فلمَ لا نستبسل في الوقت الذي يتحدث فيه الجميع عما يشاؤون ويتمتع بحق المواطنة حتى أكثر الآراء همجية؟ على فكرة، ما الموجب للكتابة عن ذلك؟ تعال بنفسك وتطلع إلى أدبنا هنا، وسترى.

في الآونة الأخيرة، بالمناسبة، لوحظت عندنا عدة ظواهر أدبية رائعة.

قبل ثلاثة أيام صذر العدد الأول من «المعاصر» وفيه مسرحية أوستروفسكي «قائد العساكر أو حلم على الفولغا». لا أدري ما هذا. لم أقرأها بعد. كنت مشغولاً بالتصحيحات. البعض يقولون إنها

أفضل ما كتبه أوستروفسكي، والبعض الآخر لا يعرفون ماذا عساهم أن يقولوا بشأنها.

أبعث إليك حوالة بـ 300 روبل عبر مكتب غينزبورغ.

آنينكوف قال إنك لن تأتي إلينا قريباً. هل هذا صحيح؟

على فكرة، يدهشني لماذا تعتقد أن قصتك القصيرة «الكلب» التي لم أقرأها غير مهمة لدرجة أن نشرها يلحق بك ضرراً على صعيد الأدب؟ هذا مستغرب يا إيفان سيرغييفيتش. فهل يعقل أنك يمكن أن تضر بنفسك حتى من خلال قصة قصيرة لا أهمية لها؟ فما الضرر من صدور قصتك القصيرة قبيل ملحمة كبيرة؟ ومن لم يكتب أقاصيص؟

إلى اللقاء.

المخلص لك إلى الأبد

فيودور دوستويفسكي



91. إلى ألكسندر فرانغيل

بطرسبورغ، 31 مارس - 14 أبريل 1865

صديقي الحبيب الطيب ألكسندر يغوروفيتش. أفهم أنك بالطبع لا بد أن تدهش كثيراً بالانطلاق من مشاعرك تجاهي وتزعل من صمتي على رسالتيك الرقيقتين الطيبتين. فلا تندهش ولا تزعل. كنت أريد أن أجيبك رأساً ولم أستطع. لماذا؟ اقرأ ما سيأتي في أدناه. فهل يمكنني أن أنساك وأنت صديقي في حين لم يكن لدي أصدقاء غيرك؟ وأنت شاهد سعادتي اللامتناهية وآلامي الفظيعة؟ ألا تتذكر تلك الليلة في طرف غابات ضواحي سيميبالاتينسك عندما ودعنا (عائلة عيسايف)؟ كيف أنساك وأنت صديقي الذي بذل فيما بعد جهداً بالغاً هنا، في بطرسبورغ، لنجدتي؟ بالعكس، طوال كل هذه السنوات كنت أفكر فيك وأتذكرك. ولكن كيف كانت حياتي في تلك الفترة؟ أنا ملزم بالتوضيح، بل وبتقديم تقرير لك يفسر صمتي في الآونة الأخيرة تجاه رسالتيك. اسمع إذن: أكتبُ لك قصتي بكاملها خلال الفترة كلها. كلا، ليس بكاملها، فذلك غير ممكن، لأن الرسائل في مثل هذه الأحوال لا تستوعب أهم ما ينبغي الحديث عنه. وأنا لا أستطيع أن

أكتب على نحو آخر. ولذا الأفضل أن أحدثك، باختصار على قدر الإمكان، عن العام الأخير من حياتي.

لعلك تعلم أن أخي (ميخائيل) بدأ بإصدار مجلة قبل أربع سنوات. وقد تعاونت معه. وسارت الأمور بأروع صورة. وأثارت قصتي «منزل الأموات» فيها ضجة من الإعجاب، فإستعدت مكانتي الأدبية من خلالها. وترتبت على أخي ديون هائلة في بداية إصدار المجلة، فأخذ يسددها، وفجأة منعت السلطات المجلة في مايو 63 بسبب مقالة وطنية ساخنة للغاية أخطأوا في اعتبارها مقالة مثيرة موجهة ضد أفعال الحكومة والرأي العام آنذاك. صحيح أن كاتب المقالة، وهو أحد موظفينا، مذنب جزئياً لأنه بالغ في الأصباغ والتلاوين، ففهموه بشكل معكوس. وسرعان ما فهمت القضية كما يجب، إلا أن المجلة كانت قد مُنعت. ومن تلك اللحظة اضطربت أعمال أخي إلى أقصى حد، وفقد ائتمانه وافتضحت الديون، ولم تكن هناك إمكانية لتسديدها. ثم استحصل أخي ترخيصاً بإصدار مجلة أخرى بعنوان جديد هو «العصر». جاء الترخيص في أواخر فبراير 64، ولم يتمكن أخي من إصدار العدد الأول قبل الـ 20 من مارس. ما يعني أن المجلة تأخرت وقد انتهى موعد الاشتراكات في كل مكان، ذلك لأن الجمهور تعود على الاشتراك في جميع المجلات بالعادة القديمة خلال الأشهر الثلاثة ديسمبر ويناير وفبراير فقط. وكان من اللازم إرضاء المشتركين القدامى الذين لم يستلموا تصفية حساب بعد منع «الوقت». وتم إشعارهم بأن يحولوا ستة روبلات فقط لقاء الاشتراك في مجلة «العصر» لعام 1864. وفي ظل غياب المشتركين الجدد واستمرار المشتركين القدامى باستلام المجلة بسعر ستة روبلات (بدلاً من 14) تعيَّن على أخي أن يصدر المجلة بخسارة. وهذا ما أدى إلى

ارتباكه نهائياً والقضاء عليه. كبّل نفسه بالديون، وتدهورت صحته. ولم أكن أنا قربه في تلك الفترة. كنت في موسكو جنب زوجتي المحتضرة. أجل، يا ألكسندر يغوروفيتش، يا صديقي الغالي، أنت تكتب لي مواساة بفقيدي وملاكي ميشا، ولا تعرف مدى ما سلطه عليَّ المصير من خنق وتعذيب. الكائن الآخر الذي أحبني وأحببته بلا حدود، زوجتي توفيت في موسكو التي انتقلت إليها قبل عام من وفاتها بالتدرن الرئوي. وانتقلت أنا في الحال ولم أبتعد عن سريرها طوال شتاء 64، حتى وافتها المنية في 16 أبريل من العام الماضي. كانت في كامل وعيها، وتذكرت، مودعة، جميع الذين أرادت أن تبعث إليهم آخر تحية. كما تذكرتك أنت أيضاً. أبلغك بتحيتها يا صديقي القديم الطيب.

تذكرها بطيّب الذكريات. آه، يا صديقي. كانت تحبني بلا حدود، وأنا أيضاً كنت أحبها بلا حدود. لكننا لم نعش سعيدين. سأحدثك بكل شيء عندما نلتقي. أما الآن فأقول إننا كنا معاً تعيسين تماماً نظراً لطبعها الوسواسي الغريب والخيالي لحد أليم. ورغم ذلك لم نكف عن حب أحدنا الآخر، وكلما ازدادت تعاستنا ازداد تعلقنا بعضنا ببعض. ومهما بدا الأمر غريباً، فإنه كان على هذه الصورة. لقد كانت أنزه امرأة، وأكثر نبلاً وأريحية من جميع النساء اللواتي عرفتهن في حياتي. وعندما توفيتْ وتعذبتُ طول العام وأنا أراها تحتضر، ورغم إدراكي وشعوري الأليم بما سأدفنه معها، لم أكن أتصور بأي حال مدى الألم الذي حز في نفسي والفراغ الذي اكتنف حياتي عندما أهيل عليها التراب. وقد مر عام وهذا الشعور باق لا يتضاءل...
وبعد الدفن هرعت إلى أخي في بطرسبورغ، فهو الوحيد الذي بقي عندي، ولكنه توفي هو أيضاً بعد ثلاثة أشهر. ظل مريضاً لشهر واحد

فقط، وبشكل مخفف. ولذا جاءت الأزمة التي قادت إلى الموت مفاجئة تقريباً، في غضون ثلاثة أيام.

وها أنا أبقى وحيداً وسط شعور موحش رهيب. وانشطرت حياتي دفعة واحدة إلى شطرين. في الشطر الذي انتقلت إليه كل ما عشت من أجله، وفي الشطر الثاني غير المعروف بعد كل ما هو غريب عليَّ وجديد، ولا قلب يمكن أن يعوضني عن الفقيدين. لم يبق لي ما يستحق الحياة بالمعنى الحرفي للكلمة. كان من اللازم إيجاد إرتباطات جديدة، وابتداع حياة جديدة. وكنت أمقت حتى التفكير في ذلك. شعرت لأول مرة باستحالة الاستعاضة عنهما وبأنني أحبهما وحدهما في هذه الدنيا، وأن الحب الجديد لن يحصل، ولا حاجة لي به. واستحال كل شيء حواليّ إلى برد وخواء. وعندما استلمت قبل ثلاثة أشهر رسالتك الدافئة الطيبة المشبعة بالذكريات القديمة شعرت بحزن لا أعرف كيف أعبّر لك عنه. فاستمع إلى الباقي.

9 أبريل 65

مرت تسعة أيام على بدء كتابة هذه الرسالة لك، وفي هذه الأيام التسعة تحديداً لم تكن لدي ولا دقيقة من وقت الفراغ لأكمل الرسالة. هل تصدق، يا ألكسندر يغوروفيتش، بأنني في الشهور الثلاثة التي أعقبت استلامي رسالتيك، وخصوصاً الرسالة الثانية التي آلمني بشأنها أن أفكر في أنك ستظن بي الظنون، هل تصدق بأنني لم أتمكن أن أجد ولا دقيقة واحدة لكي أرد عليك، ولذا بقيت صامتاً حتى الآن؟ تلك هي الحقيقة سواء كنت تستطيع أن تصدقها أو لا. فلماذا كان الأمر على هذا النحو؟ ستعرف في أدناه.

أواصل ما كتبته سابقاً.

بعد وفاة أخي كانت هناك ثلاثمئة روبل لا غير. أنفقناها على الدفن. وإلى ذلك بقيت ديون تناهز 25 ألفاً، منها عشرة آلاف ديون بعيدة الأجل ما كانت تقلق العائلة، إلا أن الـ 15 ألفاً الباقية كمبيالات تتطلب التسديد. ويمكنك أن تسأل بأية أموال استطاع أخي أن يصدر ستة أعداد من المجلة للنصف المتبقي من السنة؟ وقد توفي في يونيو 64. كان لديه ائتمان استثنائي كبير. وإلى ذلك كان بوسعه أن يستدين، والقروض كانت شائعة. لكنه توفي، فتقوض ائتمان المجلة بكامله. لم يبق ولا كوبيك واحد لإصدار المجلة، وكان يجب توفير ستة أعداد كلفتها 18000 روبل في أقل تقدير، بالإضافة إلى تسديد مستحقات الدائنين وقدرها 15000، فكان مجموع المطلوب 33000 روبل لإنجاز الأعداد المتبقية من السنة وبلوغ الاشتراكات الجديدة. وبقيت عائلته من دون نقود إلى حد التسوّل. وبقيت أنا أملهم الوحيد، فتجمعوا، أرملة أخي وأولاده، حولي منتظرين مني طوق النجاة. كنت أحب أخي حباً جماً، فهل أستطيع أن أتركهم؟ وكان أمامي طريقان: 1) أوقف المجلة وأقدمها مع الأثاث وحاجيات البيت إلى الدائنين، فهي على أية حال ملك له ثمن، وأنقل العائلة إلى شقتي. ثم أعمل وأنشط في الأدب وأكتب روايات وأعيل أرملة أخي وأيتامه. 2) أستحصل نقوداً وأواصل إصدار المجلة مهما كلف الأمر. ويؤسفني جداً أنني لم أستخدم الطريق الأول. الدائنون ما كانوا ليستلموا طبعاً 20 بالمئة. لكن العائلة إذا تخلت عن التركة ليست ملزمة قانوناً بتسديد الديون. طوال هذه السنوات الخمس عملت عند أخي وفي المجلات الأخرى وكنت أتقاضى ما بين ثمانية وعشرة آلاف روبل سنوياً. وبالتالي كان بوسعي أن أعيلهم وأطعم نفسي، إذا عملت بالطبع ليل نهار طول عمري. إلا أنني فضلت الطريق الثاني، أي

مواصلة إصدار المجلة. وبالمناسبة لست أنا الوحيد الذي فضلت هذا الطريق. كل أصدقائي وموظفينا السابقين كانوا من هذا الرأي.

14 أبريل

انقطعت عن الكتابة من جديد. يا ليتك تعلم، يا ألكسندر يغوروفيتش، أية أعمال فظيعة تثقل عليَّ وتشغل أوقاتي.

أواصل ما سبق.

بالإضافة إلى ذلك كان يجب تسديد ديون شقيقي. فما كنت أريد أن يقع على ذكراه ظل من الشكوك. وكانت هناك وسيلة تتلخص في بلوغ الإشتراكات السنوية وتسديد قسم من الديون والعمل على جعل المجلة أفضل عاماً فعاماً. وبعد ثلاث أو أربع سنوات من تسديد الديون نسلم المجلة إلى أحد ما، ونؤمن بذلك احتياجات عائلة أخي. وعندها أستريح، وأبدأ من جديد بكتابة ما أريد أن أعبّر عنه من زمان. ولذا حسمت أمري. سافرت إلى موسكو، وطلبت من زوجة خالي العجوز الغنية الـ 10000 التي خصصتها لي في وصيته. وعدت إلى بطرسبورغ وأخذت أقدم الناقص من أعداد المجلة إلى المشتركين. إلا أن الأعمال كانت متدهورة جداً. فقد دعت الحاجة طلب ترخيص من الرقابة. واستطال الأمر، فلم يصدر عدد يوليو إلا في نهاية أغسطس. واشتاط المشتركون غضباً، وهم لا يعبأون بشيء. ولم تسمح الرقابة بكتابة اسمي على المجلة لا بصفة رئيس تحرير ولا بصفة ناشر. وكان ينبغي الإقدام على إجراءات نشيطة. فأخذت أطبع في ثلاث مطابع دفعة واحدة دون أن أبخل بالنقود ولا بصحتي وقواي. كنت وحدي المحرر الفعلي. أصحح البروفات وأتعامل مع المؤلفين وأراجع الرقابة وأنقح المقالات وأستحصل النقود وأسهر الليل حتى السادسة

صباحاً، ولا أنام سوى 5 ساعات في اليوم، فأحللت النظام في المجلة، ولكننا تأخرنا. فهل تصدق أن عدد سبتمبر صدر في 28 نوفمبر، وصدر عدد يناير 1865 في 13 فبراير، أي بتأخر 16 يوماً لكل عدد يضم 35 ملزمة. فكم كلفني ذلك من جهود؟ والأهم أنني في هذا العمل الشاق الأسود لم أتمكن من كتابة سطر واحد لينشر في المجلة. ولم ير الجمهور اسمي على صفحاتها. وحتى في بطرسبورغ، وليس في المدن الهامشية وحدها، لم يكن أحد يعرف أنني أحرر المجلة.

وفجأة حصلت أزمة المجلات. أخفقت الاشتراكات في جميع المجلات دفعة واحدة. «المعاصر» التي لديها 5000 مشترك وجدت نفسها أمام 2300 فقط. وفقدت جميع المجلات الأخرى معظم مشتركيها. ونحن لم يبق لدينا سوى 1300 مشترك.

كانت لأزمتنا العامة هذه في روسيا كلها أسباب عديدة. والمهم أنها أسباب واضحة رغم صعوبتها. سأتناول هذا الموضوع فيما بعد. فحكّم بنفسك كيف كان وضعنا. والأهم كيف وضعي أنا. وكيلا تعرقل ديون أخي القديمة سير الأمور حولت قرابة عشرة آلاف منها على اسمي، مؤملاً بأن نسوي الأمور فيما لو حصلت المجلة على 2500 مشترك فقط، بدلاً من الأربعة آلاف السابقة. ولكنت سأسدد ديوني على الأقل. كانت حساباتي صحيحة. لم يحصل عندنا أبداً، منذ بداية مجلتنا، ومنذ الثلاثينات، أن تقلص عدد المشتركين في سنة واحدة بأكثر من 25 بالمئة، في حين تقلص على غير المتوقع إلى النصف عند الجميع، وبنسبة 75 بالمئة عندنا. ولا أستطيع أن أنسب ذلك إلى سوء إدارة المجلة. فأنا، وليس أخي، الذي بدأتُ بإصدار «الوقت». كنت أوجهه وأحرر. باختصار، حصل لنا مثل ما يحصل

للمالك أو التاجر في حال شب حريق في منزله أو معمله، فأفلس بعد أن كان ثرياً.

في بداية الاشتراكات كان يجب تسديد الديون، ومعظمها ديون المرحوم أخي. وكنا نسدد من عائدات بدل الاشتراك مؤملين أن يبقى بعد التسديد ما يكفي لإصدار المجلة، إلا أن الاشتراكات توقفت، وبقينا بلا مال بعد إصدار عددين فقط.

في هذا الوضع وصلتني رسالتاك. سافرت إلى موسكو لاستحصال نقود، وبحثت عن شريك يساهم في المجلة بأفضل الشروط له. ولكنّ في روسيا أزمة مالية إضافة إلى أزمة المجلات. ولم نعد قادرين على مواصلة إصدار المجلة لعدم توفر المال، وعلينا أن نعلن إفلاسها مؤقتاً. وبالإضافة إلى ذلك أنا مكبل بديون الكمبيالات بمبلغ 10000 وبديون كلمة الشرف بمبلغ 5000.

ومنها ثلاثة آلاف ينبغي تسديدها مهما كلف الأمر. وإلى ذلك أحتاج إلى 2000 لأستعيد حقوقي في إصدار مؤلفاتي المرهونة وأشرع في طبعها بنفسي[1]. تجار الكتب يعرضون عليَّ 5000 آلاف روبل مقابل تلك الحقوق، لكن هذا العرض غير نافع لي. فالنفع سيكون أكبر فيما لو أصدرت مؤلفاتي بنفسي. ولكي أسدد ديوني أريد حالياً أن أصدر روايتي[2] الجديدة على شكل كراسات متعددة، كما يفعلون في إنجلترا. وبالإضافة إلى ذلك أريد أن أصدر «ذكريات من منزل الأموات» بالطريقة نفسها في طبعة فاخرة مزينة بالصور.[3] وأخيراً ستصدر في العام القادم المجموعة الكاملة لمؤلفاتي[4]. آمل أن تعطيني هذه المشاريع قرابة 15 ألفاً، ولكن ما أشد مشقة هذا العمل.

آه، يا صديقي، أنا مستعد لتحمّل الأشغال الشاقة مجدداً وللفترة نفسها بشرط أن أسدد ديوني وأتمتع بالحرية من جديد. إلا أنني سأكتب مرة أخرى روايتي باستعجال تحت تهديد العصا، أي بسبب الحاجة. وستكون مؤثرة، ولكن هل هذا هو ما يلزمني؟ العمل بسبب الحاجة، من أجل النقود، خنقني والتهمني.

ومع ذلك، وللبداية، أنا محتاج الآن إلى ثلاثة آلاف على الأقل. أطرق كل الأبواب للحصول عليها، وإلا سأهلك. وأشعر أن الصدفة وحدها يمكن أن تنقذني. لم يبق في نفسي من كل احتياطي الطاقة والقوة سوى شيء غامض مقلق، يائس قريب. لا شيء سوى القلق والمرارة والتفاهات الباردة والحالة غير الطبيعية بالنسبة لي، إضافة إلى الوحدة القاتلة، فلا أحد جنبي من السابقين والسابقات، بينما يخيل إليّ طول الوقت أنني في بداية درب الحياة. شيء مضحك، أليس كذلك؟ إنه تمسك بديمومة الحياة كما عند القطط.

تحدثت لك عن كل شيء، لكنني أرى أنني لم أعبّر عن الأمر الرئيسي، ألا وهو حياتي الروحية والعاطفية، بل ولم ألمّح إليها تلميحاً. هكذا سيكون الحال دوماً ما دمنا نتواصل من خلال الرسائل. أنا لا أجيد كتابة الرسائل، كما لا أجيد الكتابة عن نفسي باعتدال. بالمناسبة، ذلك صعب. فقد فرقت بيننا السنين، وأية سنين هي؟

وقد جاء تذكرك لي الآن في محله. أنت، كلك، بكاملك، ذكّرتني بالماضي. وأنا أحبك كما كنت في الماضي، شاباً طيباً أتخيله على هذه الصورة طول عمري. على فكرة، أنا لا أعرفك تماماً كربّ أسرة. يخيل إليّ، وأنا أتذكر الماضي، أنك الآن ينبغي أن تكون

سعيداً. ولكنني أرغب كثيراً في استشفاف التلاوين المجهولة بالنسبة لي والتي تركتها الحياة العائلية في نفسك.

أشكرك على صور عائلتك. تطلعت فيها طويلاً لأحزر ما لا أعرفه.

كنت في الخارج مرتين، في صيف 62 و63. كل مرة لثلاثة أشهر. زرت ألمانيا، كلها تقريباً، وسويسرا وفرنسا وإيطاليا، كذلك كلها تقريباً. صحتي في كلتا المرتين انتعشت بسرعة مدهشة. وعزمت على السفر كل عام لثلاثة أشهر، لا سيما وأن ذلك لا يكلف كثيراً بالمقارنة إلى الغلاء الفاحش لتكاليف المعيشة عندنا. كنت أريد السفر لتحسين صحتي وللاستجمام واكتناز البدن ليسهل عليَّ العمل في التسعة أشهر المتبقية من السنة في روسيا. إلا أن وفاة أخي في العام الماضي جعلتني أبقى هنا، في حين أن الديون الحالية والأعمال أجهزت عليَّ نهائياً. فما أشد رغبتي في السفر ولو لشهر واحد لأتنشق وأصفي ذهني وأنتعش. وكنت سأعرج عليكم حتماً. من يدري، ربما سيحصل ذلك. طبعُ «منزل الأموات» يمكن أن يتم من دوني، في حين أنني في الخارج أكتب على الدوام، لأن الوقت والاستقرار هناك أكثر مما هنا، وخصوصاً إذا مكثت في مكان واحد. وكنت سأعرج عليكم طبعاً.

سأبعث لك الصورة بالتأكيد إذا أجبتني بسرعة دون أن تزعل مني بسبب صمتي الطويل. ولكن، يا إلهي، ما سبب الزعل؟ هل أنا مذنب؟

أنا أعيش وحيداً مع ربيبي بافل. وهو طالب في السابعة عشرة. يتذكرك جيداً ويبلغك تحياته.

كنت سأحدثك كثيراً فيما لو التقينا.

وداعاً يا صديقي الطيب، أعانقك بدفء من صميم القلب. أتمنى لك السعادة. وسأجيب على رسائلك بانتظام. فاكتبْ لي سريعاً.

أخشى أن لا تصلك الرسالة وأنت في كوبنهاغن.

المخلص لك دوماً كما في السابق

فيودور دوستويفسكي

---

(1) لم يتمكن دوستويفسكي من طبع مؤلفاته بنفسه إلا في عام 1871.

(2) المقصود رواية «السكارى» التي أدرجها دوستويفسكي فيما بعد ضمن رواية «الجريمة والعقاب» (1866).

(3) هذه الأمنية لم تتحقق.

(4) بثلاثة مجلدات وقّع دوستويفسكي مع الناشر ستيلوفسكي عقداً بشأنها في 1 يوليو 1865.



92. إلى ناديجدا سوسلوفا

بطرسبورغ، 19 أبريل 1865

العزيزة المحترمة ناديجدا بروكوفيفنا

أرفق طي رسالتي هذه إليك رسالة مني إلى أبوليناريا، والأصح نسخة من رسالتي المرسلة إليها بالبريد نفسه إلى مونبيليه. وطالما أنها، كما تقولين، ربما ستأتي قريباً جداً إليكم في زوريخ فإن رسالتي إليها ستصل إلى هناك على الأكثر بعد مغادرتها مونبيليه. ولما كنت بحاجة ماسة إلى توصيل الرسالة لها فإنني أرجوك أن تسلميها هذه النسخة عندما تلتقيان. كما أرجوك أن تقرأي هذه الرسالة بنفسك. وسترين فيها توضيحاً لجميع الأسئلة التي تطرحينها عليَّ في رسالتك. مثلاً، «هل أتلذذ بآلام الآخرين ودموعهم» وما إلى ذلك. وكذلك توضيحاً بخصوص الوقاحة والقذارة.

وأضيف، من أجلك في الواقع، انك، على ما أعتقد، لست حديثة العهد بمعرفتي، وإنني في كل لحظة عصيبة كنت آتي إليكم لأريّح نفسي، وفي الآونة الأخيرة كنت آتي خصيصاً إليك وحدك عندما يختزن القلب أشد الآلام. وقد رأيتِني في أصدق لحظاتي، ولذا

يمكنك أن تحكمي هل أحب أن أقتات على آلام الآخرين، وهل أنا فظ غليظ داخلياً، وهل أنا قاسٍ؟

أبوليناريا أنانية مريضة. فيها كمٌّ هائل من الأنانيةِ وحب الذات. إنها تطالب الناس بكل شيء، بكل أفانين الكمال، ولا تغفر لهم أي نقص في احترام الغير وفي الخصال الحميدة، بينما هي تتنصل عن أبسط الالتزامات تجاه الآخرين. إنها تخدشني حتى الآن بأنني لست جديراً بحبها، وتتشكى وتلومني طول الوقت، بينما تستقبلني في باريس عام 63 بالعبارة التالية: «أنت تأخرت في الوصول بعض الشيء»، بمعنى أنها وقعت في حب شخص آخر، فيما كانت قبل أسبوعين من ذلك التاريخ تؤكد بحرارة أنها تحبني. أنا لا ألومها على حب شخص آخر، بل على السطور الأربعة التي بعثتها إليّ في الفندق مع العبارة الخشنة: «أنت تأخرت».

بوسعي أن أكتب الكثير عن روما وعن معيشتنا وإياها في تورينو ونابولي. ولكن ما الفائدة؟ ثم إنني نقلت إليك الكثير في أحاديثي معك.

أنا لا أزال أحبها حتى الآن، حباً جماً، ولكنني لم أعد أريد أن أحبها. فهي لا تستحق هذا الحب.

أنا أشفق عليها، لأنني أتوقع لها أن تبقى تعيسة طول الوقت. لن تجد الصديق ولا السعادة في أيما مكان. فمن يطالب الغير بكل شيء ويتنصل من كل الواجبات لن يجد السعادة أبداً.[1]

ولربما كانت رسالتي إليها التي تتشكى منها مكتوبة بانفعال، ولكن ليس بخشونة. إلا أنها ترى الخشونة في كوني تجرأت على الاعتراض عليها وأعلنت أنني متألم. كانت دوماً تستخف بي في زهو وكبرياء. وقد زعلت لأنني أردت أن أتشكى في الأخير وأتكلم بما يتعارض

معها. إنها لا تعترف بالتكافؤ في علاقاتنا. وليس لديها ذرة من الإنسانية في علاقتها معي. وهي تعرف أنني أحبها حتى الآن. فلماذا تعذبني؟ لا تحبيني، ولكن لا تعذبيني. وكان في هذه الرسالة كثير من المزاح. وما قيل بمزاح تعتبره جدياً ومؤسفاً، فيتحول في رأيها إلى خشونة.

ولكن يكفي الكلام عنها. أنت على الأقل لا تذنبيني. وأنا أقدرك كثيراً. أنت كائن نادر بين من صادفتهم في حياتي ولا أريد التفريط بمودتك. أنا أقدر رأيك فيّ وتذكرك لي. ولذا أكتب إليك عن ذلك بصراحة، لأنك تعرفين أنني لا أطمع بشيء منك، ولا آمل بأن أستلم شيئاً منك، وبالتالي لا يمكنك أن تعتبري كلماتي تزلفاً أو مداهنة، بل تقبليها مباشرة بوصفها خلجات قلبي الصادقة.

أنت في زوريخ، ولفترة طويلة، كما كتبت أختك. اسمعي، إذا أردت واستطعت أن تسمعي: أينما كنت حبّري لي بين الحين والآخر كلمتين عنك. أنا لا أطالب بتكليفك عناء الكتابة المتواصلة. كل ما أريده أن تتذكريني أحياناً. ويهمني دوماً إلى أقصى حد أن أسمع شيئاً عنك. أريد من جديد أن أكرر لك توصيتي الدائمة ورغبتي في أن لا تتقوقعي في شرنقة التفرد، بل سيري مع الطبيعة، مع العالم الخارجي والأشياء الخارجية ولو قليلاً. الحياة الخارجية الفاعلة تطور طبيعتنا البشرية إلى أقصى حد، وتقدم المادة (اللازمة لهذا التطور). بالمناسبة، لا تسخري مني كثيراً.

أوضاعي فظيعة. ولا أدري كيف أعالجها. سترين بعضاً منها في رسالتي إلى أبوليناريا.

عنواني يبقى كما هو عليه. إذا كتبت لي سريعاً سأرد عليك وأهيئ حتى ذلك الحين عنواناً أكثر استقراراً يمكن استخدامه طول الوقت.

وداعاً وإلى اللقاء في زمن لا أعرفه. أتمنى لك السعادة مدى الحياة. وأشد على يدك بحرارة، وأتحرق شوقاً للقائك في حين ما. لا أدري كيف سنكون حينئذٍ. إلا أنني سأتذكرك كثيراً وعلى الدوام.

المخلص ف. دوستويفسكي

ملاحظة: أنت الآن في عز الفتوة والشباب، في بداية الحياة. وتلك هي السعادة. لا تضيعي الحياة واحرصي على الروح وآمني بالحقيقة. ولكن ابحثي عنها بجد واهتمام مدى العمر، وإلا فمن السهل الانحراف الفظيع. إلا أنك بقلب كبير، ولن تنحرفي.

أما أنا فعلى مشارف النهاية. نهاية الحياة. إنني أشعر بها. كل شيء سواء. أنت عزيزة عليَّ معزة الجيل الفتيّ الجديد، إلى جانب مودتي لك كالأخت المحبوبة الأعز.

---

(1) بالفعل عاشت أبوليناريا، شقيقة ناديجدا سوسلوفا، حياة تعيسة من جميع النواحي.

93. إلى أندريه كرايفسكي

بطرسبورغ، 8 يونيو 1865

السيد الكريم أندريه ألكساندروفيتش!

بعد التمعن في حديثنا القديم، القصير جداً، رأيت من الضروري أن أعرض عليكم تحريرياً فحوى رجائي، من أجل الدقة وتفادي سوء الفهم.

لطلبي شكلان.

1). أنا أطلب 3000 روبل الآن، مقدماً، مقابل رواية أتعهد رسمياً بتسليمها إلى هيئة تحرير «مذكرات الوطن» في موعد أقصاه مطلع شهر أكتوبر من العام الحالي.

2). في حال وفاتي أو عدم تسليم مخطوطة الرواية إلى هيئة تحرير «مذكرات الوطن» في الموعد أرهن الحقوق الدائمية التامة لإصدار جميع مؤلفاتي وكذلك حقوق تسويقها ورهنها، أعني باختصار: التصرف بها كمالك كامل الحقوق[1].

ملاحظة: عنوان الرواية «السكارى»، وهي ذات ارتباط بمسألة تعاطي المسكرات المطروحة حالياً. إنها لا تقتصر على معالجة هذه

المسألة، بل تتناول أيضاً جميع تفرعاتها، مثل مشاهد العوائل وتربية الأطفال في هذا الجو وما إلى ذلك. وسيكون حجم المخطوطة لا أقل من 20 ملزمة، بل وربما أكثر. الأجر 150 روبلاً للملزمة، علماً بأنني استلمت 250 روبلاً للملزمة على «ذكريات من منزل الأموات» في مجلتي «العالم الروسي» و«الوقت».

3) إذا لم تعجب روايتي موظفي «مذكرات الوطن» أو إذا بدا لهم الثمن باهظاً فمن حقهم أن يعيدوا المخطوطة إليَّ ويحتفظوا بالرهان إلى أن أسدد الـ 3000 روبل بفائدة 10 بالمئة. موعد التسديد في هذه الحالة حتى الأول من يناير 66. يضاف إلى ذلك، بموجب العقد، حق استلام صاحب «مذكرات الوطن» بالكامل أجور جميع المقالات التي سأنشرها في أي مكان وفي أي زمان لغاية تسديد الـ 3000 روبل مع الفائدة.

4) لا يحق لي أن أسحب مخطوطتي بنفسي أو لا أسلمها إلى هيئة تحرير «مذكرات الوطن» (. . .) فيما يحق لهيئة التحرير دوماً أن تطالبني بتسليم المخطوطة أو تطالب باستعادة المبلغ وإعادة المخطوطة إليَّ من دون موافقتي.

الشكل الثاني لطلبي.

أنا أطلب 1500 روبل، وأتعهد رسمياً بأن أسلم الرواية في الموعد المذكور أعلاه. ولكن أرجو إعفائي من واجب تقديم الرهان. وتبقى الشروط الأخرى كما هي واردة في أعلاه.

واسمحوا لي أن أبدي ملاحظة أخرى.

إذا كان بالإمكان تسليمي مبلغ الـ 3000 روبل الكبير أرجوكم كل الرجاء أن تلتفتوا إلى أن البت في المسألة على هذا النحو هو المرغوب أكثر من جانبي. وهو، إلى ذلك، يرضي الطرفين. فقد

عرض عليَّ اثنان من الناشرين، هما ستيلوفسكي وفوغانوف، 2000 روبل نقداً وفي الحال، لمعرفتهم بحاجتي إلى المال، مقابل حق طبع مؤلفاتي لمرة واحدة فقط. وبالتالي فإن للمؤلفات تغطية كافية. ونظراً لأن العقد المقترح من جانبي يرضي، في بنوده الأخرى، جميع أعضاء هيئة تحرير «مذكرات الوطن» تقريباً آمل أنكم، في حال رغبتم في نشر روايتي في مجلتكم هذه، لن ترفضوا، إن أمكن، تسليمي الـ 3000 روبل. فهذا العقد من شأنه أن يحل جميع الصعوبات التي أواجهها في العام الحالي.

تقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع

فيودور دوستويفسكي

---

(1) الناشر كرايفسكي رفض عرض دوستويفسكي بحجة عدم توفر المال لديه. إلا أن السبب الحقيقي هو عدم ثقته بالكاتب.

94. إلى إيفان تورغينيف

فيسبادن، 3 أغسطس 1865

العزيز الطيب إيفان سرغييفيتش. عندما قابلتك في بطرسبورغ قبل شهر تقريباً كنت أحاول أن أبيع مؤلفات بأي ثمن لأنني كنت معرضاً للسجن بسبب ديون المجلة التي سجلتها باسمي لحماقتي. اشترى ستيلوفسكي حق نشر مؤلفاتي بثلاثة آلاف روبل، بعضها بكمبيالات. ومن هذا المبلغ سددت بعض الديون ووزعت الباقي على من أنا ملزم بتوزيعه عليهم. ثم سافرت إلى الخارج لأحسن صحتي ولو قليلاً وأكتب شيئاً ما. وقد تركت لنفسي من الـ 3000 لأجل الخارج 175 روبلاً فضياً، ولم أستطع أن آخذ أكثر.

في فيسبادن قبل ثلاث سنوات ربحت في ساعة واحدة 12000 فرنك. لكنني لا أفكر الآن في تحسين ظروفي من خلال القمار. إلا أنني أرغب فعلاً بكسب 1000 فرنك لأعيش عليها هذه الأشهر الثلاثة. أنا في فيسبادن من خمسة أيام وقد خسرت كل شيء، حتى الصفر. خسرت ساعتي، وحتى الفندق له دين عليّ.

يؤذيني ويخجلني أن أشغلك بشخصي. ولكن ليس عندي في هذه

اللحظات أحد غيرك أستطيع أن أستعين به. ثم إنك أذكى بكثير من الآخرين، وبالتالي يسهل عليَّ أخلاقياً أن أتوجه إليك. القضية أني أتوجه إليك كإنسان لإنسان طالباً منك مئة تالر[1]. ثم إنني أنتظر من روسيا، من مجلة «مكتبة المطالعة»، نقوداً زهيدة وعدوني بها قبيل سفري، وكذلك من سيد ينبغي أن يساعدني.[2] طبيعي أنني لن أعيد إليك المبلغ قبل ثلاثة أسابيع. ولربما أعيده قبل ذلك[3]. على أية حال أنا وحيد، والمزاج معتكر جداً، مع أنني كنت أظن أنه سيعتكر أكثر. والمهم أنني أشعر بالخجل لإزعاجك. ولكن ما العمل للنجاة من الغرق؟

عنواني:

Wiesbaden, Hôtel «Victoria», à M-r Théodore Dostoiewsky

ماذا لو أنك غير موجود في بادن بادن؟

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) تورغينيف بعث إلى دوستويفسكي نصف هذا المبلغ.

(2) المقصود ألكسندر هيرتسن.

(3) تقول زوجة دوستويفسكي آنّا غريغوريفنا في مذكراتها إن الكاتب نسي هذا الدين ولم يسدده إلا في عام 1876.

95. إلى أبوليناريا سوسلوفا

فيسبادن، 10 أغسطس 1865. الثلاثاء.

عزيزتي بوليا. أولاً، أنا لا أفهم كيف وصلتِ. لقد أضيفت إلى أحزاني الكئيبة أحزان مماثلة بخصوصك.

فماذا لو لم يكن لديك في كولونيا ما يكفي حتى لقطار الدرجة الثالثة؟ في هذه الحالة أنت الآن في كولونيا وحيدة لا تعرفين ماذا تفعلين. هذا فظيع. وإذا كنتِ قد وجدتِ ثمن التذكرة وكلفة الفندق والسائس وحاجيات الطريق فإنك، على أية حال، بقيت جائعة. كل هذه الأفكار تدق في دماغي فلا أعرف الاستقرار.

اليوم هو الثلاثاء، الساعة الثانية بعد الظهر ولا خبر من هيرتسن، بينما حان الوقت. في كل الأحوال سأنتظر حتى صباح بعد غد، وعندها أفقد آخر بارقة أمل. الشيء الوحيد الواضح بالنسبة لي، على أية حال، إذا لم يأت أي خبر من هيرتسن فهو غير موجود في جنيف، أي أنه ذهب إلى مكان ما. وأنا أخرج بهذا الاستنتاج لأنني في علاقة طيبة للغاية مع الرجل. ما يعني أنه لا يستطيع أن يجيبني بأي شكل، حتى إذا لم يرغب أو لم يستطع أن يبعث لي النقود. إنه مهذب جداً،

ثم إننا في علاقات ودية. وبالتالي فإذا لم يأت منه أي خبر فذلك يعني أنه غير موجود في جنيف في الحال الحاضر[1].

علماً بأن أوضاعي تدهورت إلى حد يفوق التصور. حالما ارتحلتِ، في الصباح الباكر من اليوم التالي، أبلغوني في الفندق بأنهم منعوا عليَّ طعام الغداء والشاي والقهوة. فمضيت لأستوضح من الألماني البدين، صاحب الفندق، فبادرني بأنني لا «أستحق» الغداء وأنه سيزودني بالشاي فقط. وهكذا من يوم أمس أنا لا أتغذى وأقتات على الشاي وحده. ثم إن الشاي الذي يقدمونه رديء للغاية، ومن دون غلاية. ولم يعودوا ينظفون البدلة والجزمة ولا يلبون نداءاتي. كل الخدم يعاملونني باحتقار ألماني يفوق التصور. فليس عند الألماني جريمة أبشع من عدم توفر النقود وعدم الدفع في الموعد. كل ذلك شيء تافه، لكنه في الوقت ذاته غير مريح أبداً. ولذا إذا لم يبعث هيرتسن النقود ستنتظرني إشكالات كبيرة، بمعنى أنهم يمكن أن يستولوا على حاجياتي ويطردوني أو يقوموا بما هو أسوأ من ذلك. يا للبشاعة.

إذا كنتِ قد وصلت إلى باريس ويمكنك أن تستحصلي شيئاً من أصدقائك ومعارفك إبعثي لي في أبعد تقدير 150 غولديناً، وفي أقله قدر ما تريدين[2]. لو كانت 150 غولديناً لصفيتُ حسابي مع هؤلاء الخنازير وانتقلت إلى فندق آخر بانتظار وصول النقود. لأن من المستحيل أن لا أستلمها. وفي كل الأحوال سأعطيك قبل سفرك من باريس. فمن بطرسبورغ، من مجلة «مكتبة المطالعة»، ربما سيرسلون المبلغ على عنوان أختك في زوريخ بعد عشرة أيام لا أكثر. هذا أولاً، وثانياً، حتى إذا كان هيرتسن غير موجود في جنيف أو غادرها لأمد طويل فإنهم سيرسلون له حيثما كان الرسائل التي تصل باسمه

إلى جنيف. وإذا سافر لأجل قصير فسيرد عليَّ حالما يعود، وبالتالي سأستلم في القريب العاجل على أية حال جواباً منه. باختصار، إذا كنت تستطيعين القيام بشيء من أجلي من دون عناء فافعلي. عنواني نفسه:

Wiesbaden, Hôtel «Victoria».

إلى اللقاء يا عزيزتي. لا أصدق بأنني لن أراك قبل مغادرتك. كما أنني لا أريد حتى أن أفكر في نفسي. أنا أقرأ طول الوقت جالساً، كيلا أثير شهيتي إلى الطعام بالحركة. أعانقك بحرارة.

باللّه عليك، لا تعرضي رسالتي على أحد. ولا تحدثي أحداً عنها. بشاعة!

المخلص ف. د(وستويفسكي)

حدثيني بالتفصيل عن جولتك إذا كانت فيها مشاكل. تحياتي إلى أختك. إذا بعث هيرتسن (النقود) قبل وصول رسالتك فسأطلب عندما أغادر فيسبادن، على أية حال، أن يبعثوها لي في باريس، لأنني سأسافر إليها فوراً.

---

(1) كان هيرتسن آنذاك يقوم بجولة في جبال سويسرا.

(2) يبدو أن سوسلوفا لم تتمكن من استحصال نقود لدوستويفسكي، فغادر فيسبادن بمعونة أ. فرانغيل وإ. يانيشيف.

96. إلى أبوليناريا سوسلوفا

فيسبادن، 12 أغسطس 1865. الخميس

أواصل قصفك بالرسائل، وكلها غير مدفوعة الرسوم البريدية. فهل وصلتك رسالتي التي بعثتها يوم الثلاثاء؟ وهل وصلتِ أنت إلى باريس؟ آمل طول الوقت أن أستلم منك خبراً اليوم.

أموري فظيعة لأقصى حد. لم يعد التحرك إلى الأمام ممكناً. فهناك تأتي مرحلة أخرى من الأذى والتعاسة التي لا أعرف عنها شيئاً الآن. لم أستلم من هيرتسن حتى هذه اللحظة أي جواب أو رد. اليوم يمر أسبوع كامل على رسالتي إليه. واليوم أيضاً هو الأخير الذي وعدت به صاحب الفندق منذ الاثنين الفائت بخصوص استلام النقود. ولا أعرف ماذا سيحصل. حالياً الساعة الواحدة صباحاً. يستحيل أن لا يرغب هيرتسن بالرد عليّ. هل يعقل أنه لا يريد أن يجيب؟ كلا. مستحيل. فلماذا لا يجيب؟ نحن في علاقات رائعة، وأنت شاهدة عليها[1]. اللهم إلا إذا استغابني أحد أمامه ليفرق بيننا. وحتى في هذه الحالة يستحيل، بل ويستحيل أكثر، أن لا يرد بشيء على رسالتي. ولذا لا أزال متيقناً بأن رسالتي إليه إما ضاعت، وذلك احتمال غير

وارد، وإما أنه لسوء حظي غادر جنيف. وهذا هو الاحتمال الأكثر. عندذاك يحصل ما يلي: فإما أنه غادر لوقت قصير، وبالتالي يمكنني أن آمل باستلام جواب منه في الأيام القريبة القادمة، وإما أنه سافر لوقت طويل، وبالتالي يحتمل أن يبعثوا إليه رسالتي أينما كان لأنه يطلب على الأكثر أن يبعثوا إليه الرسائل التي تصل على عنوانه. وفي هذه الحالة أيضاً يمكنني أن آمل باستلام جواب.

سأبقى طول الأسبوع، حتى يوم الأحد، أنتظر وصول الجواب. وبالطبع ذلك مجرد أمل. في حين أن وضعي حالياً لا يكفيه الأمل وحده.

كل ذالك لا يقارن بمدى اكتئابي. تعذبني العطالة، وعدم وضوح التوقع والانتظار من دون أمل كبير، وضياع الوقت، وفيسبادن اللعينة التي صرت أشعر بالغثيان منها حتى لم أعد أريد أن أرى الدنيا وما فيها. والحال أنت في باريس ولن أراك. كما يعذبني هيرتسن. فلو كان قد استلم مني الرسالة ولا يريد أن يجيب فما أعظم الإهانة وما أغرب التصرف. فهل أستحق أنا مثل هذه المعاملة؟ وبأي ذنب؟ لسوء أخلاقي؟ أعترف بأنني كنت سيّئ الخلق، ولكن ما هذه الأخلاقيات البرجوازية؟ أجب على الأقل (يا سيد هيرتسن)، أم أنني لا «أستحق» المساعدة، كما فعل معي صاحب الفندق لأني لا «أستحق» طعام الغداء؟ ولكن يستحيل أن لا يجيب. إنه، على الأرجح، غير موجود في جنيف.

طلبت منك أن تنجديني إذا كنت تستطيعين أن تستديني من أحد ما لأجلي. وأنا لا أمل لي تقريباً في ذلك. بوليا، إذا كنت تستطيعين افعلي من أجلي. ألا توافقينني أن من الصعب أن نصادف وضعاً أكثر إشكالاً وقسوة من الوضع الذي أواجهه الآن؟

ستكون هذه رسالتي الأخيرة لحين استلامي منك خبراً ما. يخيل إليَّ طول الوقت أن الرسائل إلى Hôtel «Fleurus» تتأخر أو تضيع إذا لم تكوني موجودة هناك. أنا لا أدفع بريد الرسائل لأنني لا أملك ولا كوبيكاً واحداً. لليوم الثالث أواصل عدم تناول طعام الغداء وأقتات على شاي الصباح وشاي المساء. والغريب أنني لا أشتهي الطعام جداً. المزعج أنهم يضيقون عليّ وأحياناً يبخلون عليَّ بشمعة المساء إذا ظلت بقية تافهة من شمعة الأمس. على فكرة أنا أترك الفندق يومياً في الساعة الثالثة وأعود في السادسة كيلا يكتشف أحد أنني لا أتناول طعام الغداء. وكأنني خليستاكوف بعينه[2].

صحيح أن ثمة بصيص أمل بأنني بعد أسبوع أو عشرة أيام في أبعد تقدير سأستلم شيئاً من روسيا، عن طريق زوريخ. لكنني لن أكون بخير من دون معونة حتى ذلك الحين.

على فكرة أنا لا أريد أن أصدق بأنني لن أكون في باريس ولن أراك قبل المغادرة. هذا غير ممكن. على أية حال التصورات تشتعل بسبب العطالة. في حين أن عطالتي كاملة وأكثر.

وداعاً يا عزيزتي، لن أكتب أكثر إذا لم يطرأ طارئ ولم تحدث مغامرات غير معتادة. إلى اللقاء.

المخلص دوسـ (تويفسكي)

ملاحظة: أعانقك مرة أخرى بمنتهى الحرارة. هل وصلت (شقيقتك) ناديجدا بروكوفيفنا؟ ومتى؟ تحياتي لها.

الساعة 4

الصديقة العزيزة بوليا، في هذه اللحظة بالذات استلمت رداً من هيرتسن. كان في الجبال. ولذا تأخرت رسالته. لم يبعث نقوداً.

يقول إن رسالتي وصلته وهو خالي الوفاض. لا يستطيع أن يرسل لي 400 فلورين، أما إذا كانت الـ 100 أو 150 غولدين كافية فذلك أمر آخر، وهو مستعد لإرسالها. ويرجوني أن لا أزعل وما إلى ذلك. والغريب لماذا لم يرسل الـ 150 غولدين؟ طالما يقول إنه يستطيع إرسال الـ 150 فكان ينبغي أن يرسلها ويؤكد أنه لا يستطيع أكثر. هكذا ينبغي أن يفعل. والحال فإما أنه نفسه في ضائقة مالية، وإما أنه متمسك بنقوده. والحقيقة ليس في وسعه أن يشك في أني يمكن أن لا أعيدها إليه. فرسالتي عنده. وأنا لست إنساناً ميئوساً منه. أكيد أنه في ضائقة مالية.

في اعتقادي ليس بالإمكان أن أكتب له وأطلب من جديد. فما العمل؟ يا بوليا، صديقتي، أعينيني، أنقذيني. استحصلي 150 غولدين من أحد ما، وأنا لا أحتاج إلى أكثر. بعد عشرة أيام أو ربما أقل تصل نقود من فوسكوبوينيكوف إلى زوريخ على عنوان شقيقتك. ومع أن المبلغ غير كبير، لكنه لا أقل من 150 غولدين. وسأعطيك إياها. فأنا لا أريد إحراجك. مطلقاً. تشاوري مع أختك، وأجيبيني عاجلاً، في كل الأحوال.

المخلص ف. دوستويفسكي

الآن أنا لا أعرف إطلاقاً ماذا سيحصل لي.

---

(1) التقى دوستويفسكي وسوسلوفا مع هيرتسن أثناء مكوثهما في نابولي وليفورنو في أكتوبر 1863.

(2) خليستاكوف الشخصية الرئيسية في مسرحية غوغول «المفتش العام»، وفيها مشهد مماثل..

97. إلى ألكسندر فرانغيل

فيسبادن، 24 أغسطس 1865

صديقي المحترم الطيب ألكسندر يغوروفيتش. هل استلمت رسالتي التي بعثتها إليك في كوبنهاغن قبل شهر؟ حسبت تماماً أنك في كوبنهاغن عندما أرسلت الرسالة، لأني كتبتها في أعقاب توجهي إلى الخارج. وإذا كنت قد غادرت كوبنهاغن إلى روسيا قبل 10 يوليو بتقويمنا فلعلك كنت ستبحث عني في بطرسبورغ. وطالما أننا لم نتقابل في بطرسبورغ فقد تصورت أنك لم تغادر بعد إلى روسيا. علماً بأنك كتبت لي سابقاً عن نيتك هذه. وبالتالي أظن الآن أننا لم نلتق في اللحظة التي غادرت فيها أنا إلى الخارج. ولربما بعثوا لك رسالتي من كوبنهاغن إلى روسيا. وفي هذه الحالة، ربما كتبت لي الجواب على عنوان زوريخ الذي ذكرته لك. ولكن للأسف أنا تأخرت في فيسبادن ولم أصل إلى زوريخ حتى الآن، ولذا لا أعرف شيئاً.

ثمة القس يانيشيف الذي كان في كوبنهاغن. تعرفت عليه هنا، في فيسبادن، صدفة وعلمت منه أنه يعرفك.

وقال لي، بالمناسبة، إنك تنوي السفر إلى روسيا هذا الصيف، وتعود إلى كوبنهاغن في سبتمبر. ما جعلني آمل في الكتابة إليك من جديد، ولعل رسالتي هذه المرة تصلك في كوبنهاغن.

هذه المرة أكتب عن نفسي فقط، وعن أمر واحد تحديداً. لا تخبر أحداً بما سأكتبه لك، لأني أشعر بأن ذلك يشوّه سمعتي. ولما كانت العبارات في هذه الحالة بلا فائدة وصعبة الوقع فإنني أعترف لك صراحة، مع أنني خجل من هذا الاعتراف، بأنني، لغبائي، خسرت كل شيء قبل أسبوعين، بمعنى خسرت (في القمار) كل ما معي.

كنت ألعب سابقاً، منذ أن وصلت إلى فيسبادن، ولكن الحظ كان يحالفني، بل وربحت الكثير نسبياً، ولكنني، لغبائي، جننت وخسرت كل شيء خلال ثلاثة أيام، وأنا الآن في أسوأ حالة لا يمكن للعقل أن يتصورها، ولا أستطيع مغادرة فيسبادن.

كتبت لأحد المخلصين لي، ميلوكوف، في روسيا وكلفته أن يحاول استحصال مبلغ من أحد الناشرين لأجلي بشكل سلفة لقاء كتب في المستقبل. وسيفعل ذلك حتماً، ولربما يساعدني بنفسه، إلا أن الرسائل والنقود لن تصلني منه، بحسب تقديراتي، قبل أسبوعين من اليوم. هذا إذا كانت على جناح السرعة. وأنا في حالة انتظار ولا كوبيك واحداً في الجيب. والأسوأ من ذلك أنني مدين للفندق. وهذا أمر لا يحسد عليه إنسان.

ولذا تجرأت، يا صديقي الطيب، أنْ أتوجه إليك. أنقذْني، وخلصني من المحنة. أرسلْ لي 100 تالر قرضاً لأقصر مدة. وبها أسدد ما عليَّ هنا، وأسافر إلى باريس رأساً، حيث لدي شغلة وحيث أبحث عن شخص، موجود هناك على الأرجح، ينجدني في الحال[1]. وعندها أعيد المبلغ إليك من دون تأخير.

أكتب إليك لا على التعيين، مؤملاً أنك موجود في كوبنهاغن. ولكن إذا كنت لا تزال في روسيا وسيوافونك برسالتي هناك لا أبعد من أسبوعين، أي ليس بعد 19 سبتمبر بالتقويم الأوروبي، السابع منه بتقويمنا، أرسلْ لي، إذا استطعت، هذه الـ 100 تالر في كل الأحوال إلى فيسبادن. وإذا استلمت الرسالة بعد هذا التاريخ فلا تبعث شيئاً. أنا أكتب بهذه الصورة لأنني آخذ بالاعتبار عفوياً أسوأ الاحتمالات. لعل ميلوكوف سيدبر الأمر من أجلي، ولكنه أملي الوحيد في روسيا. هذا أولاً، وثانياً- ربما لا يكون متواجداً في بطرسبورغ، لأنه قال لي عندما توادعنا إنه ينوي الاستجمام هذا الصيف في نيجني (نوفغورود). وفي هذه الحالة سأبقى أمداً طويلاً خالي الوفاض ويحتمل أن لا تتم سفرتي إلى باريس وهي مهمة جداً بالنسبة لي. فهناك أستطيع أيضاً أن أستحصل نقوداً. وإلى ذلك تكبلت بالديون هنا لأبعد الحدود. وهذا أمر صعب للغاية. ولذا، باللّه عليك، ابعث المبلغ إذا كنت تستطيع.

وأنا، عندما أتوجه إليك أتذكر الماضي وما كان في حياتنا من لحظات كثيرة جمعت بيننا، وإننا رغم الفرقة لا يمكن أن نكون غريبين بعضنا على بعض. ولذا رأيت أن أعترف لك بجرأة فيما يخص تصرفي الأهوج الأحمق. فليبقَ ذلك سراً بيننا. أما بخصوص النقود فأعتقد أنه إذا توفرت لديك في هذه اللحظة فإنك لن تترك الغريق من دون طوق النجاة[2].

إذا توفرت لي الفرصة سأعرج على كوبنهاغن حتماً.

أعانقك.

المخلص فيودور دوستويفسكي

عنواني:

Allemagne, Nassau, Wiesbaden, poste restante, à m-r
Théodore Dostoiewsky

---

(1) المقصود أبوليناريا سوسلوفا.

(2) فرانغيل أرسل المبلغ إلى دوستويفسكي، ولكن بعد تذكير آخر من الكاتب.



98. إلى ميخائيل كاتكوف

مسودة

فيسبادن، 10- 15 سبتمبر 1865

السيد الفاضل ميخائيل نيكيفوروفيتش!

هل هناك أمل بنشر قصة طويلة لي في مجلتكم «البشير الروسي»؟

أنا أعكف على كتابتها هنا، في فيسبادن، من شهرين، وأشرف حالياً على الانتهاء[1]. وستكون بحجم خمس إلى ست ملازم طباعية. المتبقي من العمل قرابة أسبوعين، وربما أكثر. على أية حال أستطيع أن أقول بالتأكيد إن بالإمكان تسليمها إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» بعد شهر لا أكثر[2]. فكرة الرواية، على قدر تصوراتي، لا يمكن أن تتعارض بأية حال مع توجهات مجلتكم، بل هي على العكس. إنها عبارة عن تقرير نفساني حول إحدى الجرائم.

الأحداث تجري في زماننا، بل في العام الحالي. طالب يفصل من الجامعة، وهو من الطبقة الفقيرة، قرر أن يتخلص من وضعه البائس رأساً بدافع من الرعونة وعلى سبيل العبث والمزاح وتبني بعض الأفكار الغريبة «المنقوصة» التي تحوم في الجو. قرر أن يقتل عجوزاً

معروفة من طبقة النبلاء تمارس الربا. العجوز مريضة غبية صماء، وجشعة للغاية تتقاضى فائدة مئوية أعلى مما يتقاضاه المرابون اليهود. وهي إلى ذلك طاعنة في السن وتعذب شقيقتها الأصغر منها متخذة منها خادمة للمنزل. «إنها لا تصلح لشيء»، «فلماذا تعيش؟»، «وهل منها نفع لأحد؟» وما إلى ذلك. هذه التساؤلات تربك الفتى وتحيد به عن الطريق. فيقرر أن يقتلها وينهب مالها ليجلب السعادة لوالدته المقيمة في الضاحية ويخلص شقيقته التي تخدم أحد الإقطاعيين من الملاحقة العاطفية التي دأب عليها هذا الإقطاعي وتهددها بالهلاك. كان يطمح في إكمال الدورة الدراسية والسفر إلى الخارج ليكون طول عمره فيما بعد إنساناً نزيهاً ثابت العزيمة لا يتوانى عن أداء «واجبه الإنساني تجاه المجتمع البشري»، وبذلك «يكفر عن الجريمة» بالطبع، إذا كان يجوز إطلاق توصيف الجريمة على التصرف بحق عجوز غبية صماء، شريرة ومريضة، لا تعرف بنفسها لأي غرض تعيش في هذه الدنيا، ولعلها ستموت ميتة عادية بعد شهر أو يزيد.

وبالرغم من أن هذا النوع من الجرائم صعب التنفيذ ولا مناص فيه من ترك آثار الجريمة (. . .) يتمكن الشاب بمحض الصدفة أن يقترف فعلته بسرعة ونجاح.

يقضي قرابة شهر بعد الكارثة النهائية، وليست عليه أية شبهة. وهنا تبدأ العملية السيكولوجية للجريمة. القاتل يواجه معضلات غير قابلة للحل. ويتعذب فؤاده تحت ثقل مشاعر مفاجئة لم يكن يتصورها. وتأخذ الحقيقة الإلهية مجراها عبر قانون الحياة الدنيا. فينتهي الفتى إلى التبليغ عن نفسه بنفسه. إنه مضطر لهذا التبليغ كي يعود إلى حظيرة البشر من جديد وإن كان عبر الهلاك في الأشغال الشاقة. ويعذبه الشعور بالانفصام والانقطاع عن البشرية الذي استولى

عليه حالما اقترف الجريمة. قانون الحقيقة والطبيعة الإنسانية يعلو، (. . .) فيقرر المجرم بنفسه تجرع الآلام ليكفّر عن ذنوبه. عموماً يصعب عليّ أن أوضح فكرتي بالكامل. وأنا أريد الأن أن أضفي على الفكرة الشكل الفني الذي سترتديه. (. . .)

وإلى ذلك في الرواية تلميح إلى الفكرة القائلة بأن العقاب الذي يفرضه الحقوقيون على الجريمة يخيف المجرم بأقل مما يظنه المشرعون.

ومن أسباب هذه الظاهرة أن المجرم نفسه يطالب بالعقاب.

رأيت ذلك حتى عند الأشخاص الأقل تطوراً، ورأيته في المصادفات الأكثر قسوة. وقد أردت أن أعبّر عن ذلك من خلال إنسان متطور من أبناء الجيل الجديد لكي تنجلي الفكرة بمنتهى الوضوح. وأقنعتني عدة حالات حدثت في الآونة الأخيرة بأن حبكتي ليست خارجة عن المألوف بحال. ذلك لأن المجرم شاب متطور، بل وذو توجهات طيبة. حدثوني في العام الماضي في موسكو حقيقةً عن طالب مفصول من الجامعة بعد حادثة طلابية عزم على تحطيم دائرة البريد وقتل الساعي. وفي صحفنا الكثير من آثار اضطراب المفاهيم المستشري الذي يشجع على اقتراف أفعال شنيعة. ومن الأمثلة التلميذ الذي قتل بنتاً بالاتفاق معها في المستودع وتم القبض عليه بعد ساعة وهو يتناول الفطور (وكأن شيئاً لم يحصل) وما إلى ذلك. باختصار، أنا على يقين بأن روح العصر تبرر حبكة روايتي جزئياً.

بديهي أنني أهملت في العرض الحالي فكرة روايتي، فكرة حبكتها. أنا أتعهد بتوفير متعة المطالعة، ولا أحكم بنفسي على الأداء الفني. فقد تعيَّن عليّ كتابة الكثير، الكثير جداً من الأشياء الغثة بسبب الاستعجال والتنفيذ حسب الطلب وما إلى ذلك. أما هذه الرواية

فأكتبها بحماس ومن دون استعجال. وسأحاول، لأجل نفسي على الأقل، أن أنهيها على النحو الأفضل بقدر المستطاع.

قبل ست سنوات تقريباً أرسلت إلى «البشير الروسي» إحدى قصصي الطويلة واستلمت مقابلها أجر التأليف مقدماً. لكن سوء تفاهم حصل. ولم تنشر القصة فاستعدت المخطوطة وأعدت النقود. ولربما كنت أنا مذنباً جزئياً، أو ربما محقاً جزئياً. والأصح كنت هذا وذاك معاً. والآن أنا أميل إلى اتهام نفسي بالتغنج والغطرسة. وقد نسيت تفاصيل هذه القضية، فهل يحق لي أن آمل بأنك، أنت أيضاً، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش الموقر، لن ترغب في تذكرها الآن؟[3]

على مدار السنوات الأخيرة كنت أتقاضى ما يتراوح بين 250 روبلاً على الملزمة، لقاء رواية «ذكريات من منزل الأموات» التي نشرت بدايتها جريدة «العالم الروسي» السابقة، وبين 125 روبلاً التي اقترحت عليَّ مؤخراً من قبل أحد الناشرين. وأنا موافق تماماً على الأجر الذي تحدده أنت حسب رأيك بعد قراءة المخطوطة.[4] وسمعت أن الكثيرين من الأدباء الذين يتعاملون معك يفعلون هكذا. لكنني، على أية حال، أرغب في أجر لا يقل في حده الأدنى عن الـ 125 روبلاً التي عرضت عليَّ حتى الآن.

إلا أنني، وأكرر، أعول عليك في كل شيء، وأنا على يقين راسخ بأن ذلك سيكون أنفع لي.

لا مؤاخذة أن أنتقل إلى أمور تخصني تحديداً. ظروفي الراهنة ليست جيدة إطلاقاً. سافرت في بداية يوليو إلى الخارج للعلاج، وكنت مريضاً جداً، وبلا نقود تقريباً. كنت آمل أن أنهي رواية[5] في القريب العاجل، لكنني انهمكت في كتابة رواية أخرى هي موضوع حديثي معك. ولست آسفاً على ذلك، إلا أنني مضطر الآن أن أطلب

منك ثلاثمئة روبل، في حال رغبتَ في نشر روايتي طبعاً. أرجوك، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش المحترم، أن لا تعتبر هذه الـ 300 روبل من الشروط التي يمكن أن أتقدم بها في مقابل قصتي. كلا، أبداً. إنه مجرد رجاء إليك لمساعدتي في هذه اللحظة الحرجة بالنسبة لي. وأكرر أنه، بالطبع، رجاء وارد فقط في حالة قبولك لعملي[6].

على أية حال، أرجوك كل الرجاء أن لا تتركني لأمد طويل من دون أخبار من هيئة تحرير المجلة. فالوقت ثمين بالنسبة لي في الضيق الذي أنا فيه. وعلى الرغم من أنني آمل أن أعود إلى روسيا بعد شهر، إلا أنني أتصور بالإمكان إرسال المخطوطة بشكلها النهائي إليك بعد ثلاثة أسابيع.

---

(1) المقصود «الجريمة والعقاب» قبل إدراج «السكارى» ضمنها.

(2) بدأت «البشير الروسي» بنشر «الجريمة والعقاب» اعتباراً من يناير 1966.

(3) المقصود الخلاف الذي حصل آنذاك حول رواية «قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها».

(4) المعروف أن دوستويفسكي استلم 150 روبلاً للملزمة لقاء «الجريمة والعقاب» وكذلك «الأبله» و«الشياطين».

(5) لعل المقصود رواية «السكارى».

(6) كاتكوف حوّل المبلغ إلى الكاتب.

99. إلى ألكسندر فرانغيل

بطرسبورغ، 8 نوفمبر 1865

الصديق الطيب المحترم ألكسندر يغوروفيتش. هل يعقل أن أربعة أسابيع مرت؟[1] حسبت الأيام وهي كذلك بالفعل. وماذا فعلت أنا؟ لا شيء. والغريب أنني أرى من رسالتك وكأنك لم تستلم قصاصة الورق من متن الباخرة من كرونشتادت. هل هذا صحيح؟ اكتبْ لي. أنا مدين لك بجنيه آخر. تلك لم تكن رسالة، وإنما بضع كلمات كتبتها على ظهر فاتورة حساب الباخرة. كان يعوزني جنيه واحد، بينما أنفقت على مصرف الجيب 5 شلنات لا غير، على البيرة، لأن ماء الشرب كان مقززاً. وكانت في الفاتورة فقرات غير متوقعة ولا يمكن تفاديها. ولذا كتبت لك على ظهر الفاتورة بضعة أسطر طلبت فيها منك أن تسدد الجنيه في كوبنهاغن، لأنني لم أعد أملك ولا كوبيكاً واحداً. هل يعقل أنهم لم يأتوا (ليأخذوا الجنيه)؟ الرحلة كانت هادئة، لكننا وصلنا في اليوم السادس.

حالما وصلت تعرضت لنوبة صرع، في أول ليلة. وكانت شديدة للغاية. ثم تحسنت حالي، وبعد خمسة أيام فاجأتني نوبة أشد.

وأخيراً نوبة أخرى قبل ثلاثة أيام، وهي ضعيفة، لكن النوبات الثلاث حطمت أعصابي.

ومع ذلك أعكف على التأليف محني الظهر.

كاتكوف أرسل 300 روبل إلى كوبنهاغن، وجدتها في البيت، بعثها يانيشيف من هناك. إلا أن كل الأمور وقعت على كاهلي. عائلة المرحوم أخي في اضطراب تام. كانوا ينتظرونني كالمخلّص. أعطيتهم كل ما لدي. وإلى ذلك استدنت قبل أيام 100 روبل. فماذا عليّ أن أفعل؟ لا أدري. استشرت بولونسكي وحده. وكرر عليَّ أن لا أستعجل بشأن المجلة المرتقبة. ونصحني بأن أؤلف رواية وأكتب أشياء أخرى لأرفع اسمي، وعند ذاك يمكن البدء بإصدار المجلة. يعني بعد عام. وبخصوص اليوميات[2] اكتفى بأن هز رأسه. لكنني لم أجرب بعد. أريد طول الوقت أن أجرب. كما سأطلب من الوزير مساعدة لعائلة أخي[3].

في ذهني طبعة دورية وليس مجلة. وهي نافعة ومجزية. يمكن إصدارها في العام القادم. وحتى ذلك الحين ينبغي إنهاء الرواية[4]. أعمل بكل طاقاتي، رغم تحذير الأطباء بسبب نوبات الصرع.

حالياً لا أستطيع أن أرسل لك شيئاً. فاصبر عليّ يا صديقي الطيب. سأستلم مقابل الرواية ما لا يقل عن 2500 روبل. وعندها أعطيك. هذا أكيد. فقد استلمت المقدم. المهم أن أنهي.

المعطف والبطانية سأرسلهما. ربما غداً سأرسلهما إلى لوبيك.

ماذا عليَّ أن أفعل تجاه يانيشيف؟ يا إلهي، عليّ أن أسدد الدين له حتماً في 12 ديسمبر. حينئذٍ ربما أرسل لك أيضاً. ولكن من أين لي بالمال؟ سأذهب إلى الوزير. ليس من اللائق أن أطلب سلفة أخرى من كاتكوف. غير معقول. فليست لي علاقات حميمة معه.

أعبّر عن إخلاصي التام واحترامي العميق لعقيلتك. والأهم، أتمنى لها موفور الصحة. أهنئك بميلاد الصبية، وأقبّل جميع الأطفال، وخاصة الفطينة[5].

إلى اللقاء يا عزيزي وصديقي القديم. أشد على يدك بحرارة.

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: كنت طول الوقت أريد أن أكتب لك، وطول الوقت أنتظر شيئاً إيجابياً.

ربيبي بافل في صحة جيدة، وهو يواسيني. وأخي[6] المريض يحتمل أن يموت قريباً، ربما هذا العام. سأكتب لك تفصيلاً عن جميع الأخبار والمخططات. فلا تنسني أنت أيضاً.

عندنا الثلج تساقط، والطريق بالزحافات. و(نهر) نيفا تجمد. ومن المستبعد أن تمخر البواخر البحر. سأرسل المطلوب بواسطة أخرى.

استلمت الحقيبة من فرانكفورت، والكلفة 62 روبلاً.

---

(1) على استضافة أسرة فرانغيل للكاتب في كوبنهاغن طوال أسبوع.

(2) في تلك الفترة كان دوستويفسكي يفكر في إصدار «يوميات الكاتب». ولم ينفذ المشروع إلا في عام 1873.

(3) يبدو أن دوستويفسكي لم يكتب لوزير الثقافة. وكانت عائلة أخيه المتوفى تتلقى معونة من الصندوق الأدبي فقط.

(4) «الجريمة والعقاب»

(5) ابنة فرانغيل الذكية التي رعاها دوستويفسكي طوال مكوثه عندهم..

(6) نيكولاي دوستويفسكي، شقيق الكاتب، توفي ليس هذا العام ولا بعده، وإنما في 1883.

جداريات «دوستويفسكي»

في محاولة غير مسبوقة في الإصدارات العربية تنشر دار سؤال بين دفتي الكتاب بانوراما مكتملة للجداريات المستوحاة من مؤلفات الكاتب، 16 جدارية نفيسة تزين بهو محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو.

فيودور دوستويفسكي

الرَّسَائِلُ I

يضم الكتاب بمجلديه وطبعته الفاخرة التي تنشر بدعم معهد الترجمة في روسيا الاتحادية أكثر من 250 رسالة تتناول جميع مراحل حياة الكاتب، أولها أرسلها إلى أمه وهو في الثانية عشرة من العمر وآخرها أملاها على زوجته وهو على سرير الموت. وتعتبر هذه الطبعة أول وأوسع كشف بالعربية عن حياة دوستويفسكي الشخصية.

يقول المترجم عن هذا المشروع الأدبي الفائق الأهمية: دوستويفسكي أعلن مراراً أنه لا يجيد ولا يحب كتابة الرسائل. وربما لذلك تحديداً جاءت رسائله بصيغة غير مألوفة تماماً. وأنا لا أخشى توصيفها «بالروايات المصغرة». ففي الرسالة الواحدة، سواء كانت بعشر صفحات أو ببضعة سطور، كل مقومات المنمنمة الروائية من توطئة وحبكة وحدث وإثارة وما إلى ذلك.

ولعلي أقول أيضاً إن رسائل المجلدين تمثل أعظم رواية وثائقية في تاريخ الأدب العالمي تضم 250 فصلاً وبطلها الرئيسي فيودور دوستويفسكي نفسه، وأبطالها الثانويون أخوه ميخائيل وزوجته الأولى ماريا عيسايفا وزوجته الثانية آنّا غريغوريفنا والعشرات من الشخصيات الاجتماعية ورموز الأدب الروسي في عصره الذهبي.

فيودور دوستويفسكي الرسائل I
ISBN: 978-614-8020-36-0





www.darsoual.com
dar_soual@outlook.com
@darsoual2014
Dar Soual